

تصوير ابو عبدالرحمن الكردي

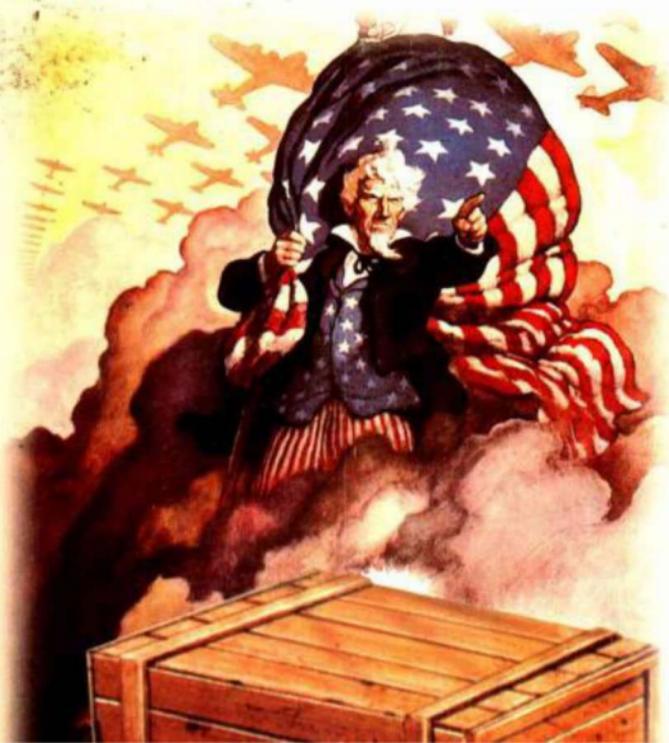
جون همبردي

الفجر الكاذب

أوهام الرأسمالية العالمية

ترجمة: أحمد فؤاد بليغ

مكتبة الشروق



124

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

**الفجر الكاذب
أوهام الرأسمالية العالمية**

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م



مكتبة الشروق
القاهرة - كوالومبور - جاكرتا

المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومي للترجمة



المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومي للترجمة

مكتبة الشروق
القاهرة - كوالا لومبور - جاكارتا

الفجر الكاذب أوهام الرأسمالية العالمية

جون جراي

ترجمة: أحمد فؤاد بلبع

هذه ترجمة لكتاب :

THE FALSE DAWN

The Delusions of Global Capitalism

By : John Gray

First published in Great Britain by :

Granta Books, 1998

Second edition by Granta Books, 1999 (with a new postscript)

■ مقدمات ■

جون جرای پروفیسور السياسة فى جامعة أكسفورد، مؤيد سابق لليمين الجديد، تنشر كل من جريدة الجارديان والتايمز البريطانيتين مقالاته بانتظام .

يحذر جرای فى كتابه من أوهام رأسمالية العولمة والسوق الحرة - أى النظام الأجلوساكسونى - التى ترفع علمها الولايات المتحدة وحواريوها فى بريطانيا وفى أنحاء العالم، وأنه - إن ترك هذا النظام يأخذ مدها ويحكم سيطرته - سيقلب حروباً وصراعات وفقراً، وسيلحق بالعالم كوارث مثيلة لتلك التى أنزلها به النظام الشيوعى .

يطرح جرای حقائق وأفكاراً تستوجب إعادة النظر والتقييم لما أصبح الكثير منا - بفضل الإعلام - يعتبره بديهيات ومسلمات .

* أ تدعم السوق الحرة الديمقراطية أم تهدمها؟

* كيف أمكن / ويمكن تطبيق السوق الحرة، ونتائج ذلك على الاقتصاد والمجتمع؟

* هل عنى انهيار الاتحاد السوفييتى انتصار النظام الأمريكى كالبديل الوحيد للبشرية؟ أم عنى أن ذلك النظام قابل لانهيار مماثل - مالم تلحقه الاصلاحات - خاصة أن كلا من الشيوعية ورأسمالية الغرب نتاج المشروع التئورى الغربى، خرجا من نفس الرحم ورضعا من نفس الثدي؟

* فى عالم متعدد الأعراق والثقافات، تختلف فيه مصادر الثروة والتراكيب الاقتصادية والاجتماعية - وما إلى ذلك - إلى أى مدى يمكن أن ينجح نظام واحد؟

* هل للرأسمالية شكل واحد(*)؟ وهل هي اختراع غربي؟

جال البروفيسور جراى - باحثًا ومحللاً - فى العالم ، من اليابان والصين إلى الولايات المتحدة ، مروراً بنىوزيلندا وروسيا وأوروبا والمكسيك ، ورجع لنشأة رأسمالية أوروبا وشعارات دعه بعمل السوق الحرة النظام العالمى ثم جمع ذلك فى كتابه «الفجر الكاذب» .

صدر الكتاب باللغة الإنجليزية عن دار نشر Granta فى لندن عام ١٩٩٨ ، ونفذت الطبعة الأولى فى شهر قليلة ، فأضاف إليها المؤلف باباً أخيراً ، وصدرت الطبعة الثانية فى عام ١٩٩٩ ، وتباع النسخة الإنجليزية من الكتاب بـ ١٧ر٩٩٩ إسترليني ، أى ما يزيد على مائة جنيه مصرى .

عادل المعلم

(*) وضع فى ذلك المفكر الفرنسى ميشيل البيير كتاب «الرأسمالية ضد الرأسمالية» ، يناقش فيه ثلاث رأسماليات رئيسية فى : اليابان - وسط أوروبا - أمريكا وبريطانيا . تُرجم الكتاب إلى عدة لغات ، وبيعت منه مئات الآلاف من النسخ ، بأسعار تصل إلى ثمانين جنيهًا للنسخة الواحدة . ونشرت مكتبة الشروق ترجمة عربية له .

الفصل الأول

من التحول الكبير إلى السوق الحرة العالمية

إن انهيار السوق العالمية سيكون حدثًا مؤلماً يسفر عن نتائج يتعذر تصورها ،
ومع ذلك أجد أن تصور هذا الانهيار أبسر من تصور استمرار النظام الراهن .

جورج سوروس (١) (٥)

إن منشأ الكارثة يكمن في المسمى البوتوي الليبرالية الاقتصادية لإقامة نظام
سوقي قادر على تنظيم نفسه بفضه .

كارل پولاني (٢)

كانت إنجلترا في منتصف القرن التاسع عشر محكًا لتجارب بعيدة الأثر في الهندسة
الاجتماعية كان مقصدها تحرير الحياة الاقتصادية من التحكم الاجتماعي والسياسي . وقد فعلت
ذلك عن طريق تشييد مؤسسة جديدة ، هي السوق الحرة ، وتفكيك الأسواق ذات الجذور
الاجتماعية العميقة التي عرفتها إنجلترا القرون عديدة . وقد خلقت السوق الحرة نمطًا جديدًا
من الاقتصاد تتغير فيه جميع أسعار السلع ، ومن بينها أسعار الأيدي العاملة ، دون مراعاة

(١) جورج سوروس ، Soros on Soros ، نيويورك ، جون ويلي ، ١٩٩٥ ، الصفحة ١٩٤ .

(٥) جورج سوروس : مجرى المولد أمريكي الجنسية . يُعدّ أكبر مضارب في العالم ، ومع ذلك يحلو له
أن يقدم نفسه كمفكر في شؤون المال والاقتصاد : اكتسب شهرته من مضارباته الواسعة على الجنيه
الاسترليني في عام ١٩٩٢ التي حقق فيها أرباحاً هائلة ، ثم ازدادت شهرته بعد مضارباته المحمومة
على العملات الآسيوية في بداية عام ١٩٩٧ التي أدت إلى تعميق الأزمة المالية في بلدان جنوب شرق
آسيا . له كتابات متفرقة منها أيضا The Alchemy of Finance (ومعناه بلغتنا العامية «كيفية تحويل
التراب إلى ذهب») ، ولهذا الكتاب عنوان فرعي هو «قراءة في عقل السوق» ، وآخر كتبه وأهمها
The Crisis of Global Capitalism (أزمة الرأسمالية العالمية) - المترجم .

(٢) كارل پولاني ، The Great Transformation : The Political and Economic Origins of our

Time ، بوسطن : بيكون برس ، ١٩٤٤ ، الصفحة ١٤ .

لآثار هذا التغيير على المجتمع . ففي الماضي كانت الحياة الاقتصادية تحكمها الحاجة إلى المحافظة على التماسك الاجتماعي ، وكانت تدار في الأسواق الاجتماعية أى الأسواق التي كانت راسخة في المجتمع وتخضع لأنواع كثيرة من الضوابط والقيود . وكان هدف التجارب التي أجريت في منتصف العصر الفيكتوري^(*) في إنجلترا هو تدمير هذه الأسواق الاجتماعية ، والاستعاضة عنها بأسواق متحررة من الضوابط تعمل بصورة مستقلة عن الاحتياجات الاجتماعية . وقد أطلق على هذا التمزيق في حياة إنجلترا الاقتصادية الذي أحدثه خلق السوق الحرة ، اسم «التحوّل الكبير» .^(٣)

ويُعدّ إنجاز تحوّل مبادئ الهدف الغالب الحالى للمنظمات عبر الوطنية ، مثل منظمة التجارة العالمية^(**) ، وصندوق النقد الدولي ، ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية . وهذه المنظمات ، بتقديدها هذا المشروع الثوري ، إنما تسيّر على هدى آخر نظم «التنوير»^(***) الكبرى ، وهو الولايات المتحدة . إن مفكرى التنوير ، مثل توماس جيفرسون ، وتوم بين ، وجون ستوارت مل ، وكارل ماركس ، لم تساورهم أبنا أي شكوك في أن مستقبل كل أمة في العالم هو أن تقبل صورة ما من صور المؤسسات والقيم الغربية . فهم يرون أن تنوع الثقافات ليس من الأوضاع الدائمة للحياة البشرية ، وإنما هو مرحلة على الطريق إلى حضارة عالية . وكان هؤلاء المفكرون جميعا يدافعون عن خلق حضارة

(*) نسبة إلى الملكة فيكتوريا التي حكمت إنجلترا لأطول فترة في تاريخها . وقد شهد عصرها ذروة الازدهار الاقتصادي والتوسع الاستعماري . وبدل اصطلاح العصر الفيكتوري على ما كان لشخصيتها القوية من آثار على غالبية مناحى الحياة في إنجلترا - المترجم .

(٣) المرجع نفسه .

(**) World Trade Organisation : كانت جولة أوروغواي آخر جولات «الجات» ، وقد انتهت بإقرار «اتفاقية الجات» التي كان من أهم بنودها إنشاء «منظمة التجارة العالمية» لتولى المهام التالية : الإشراف على تنفيذ الاتفاقات المنظمة للعلاقات التجارية بين الدول الأعضاء ؛ تنظيم المفاوضات التي ستجرى مستقبلا فيما بينها ؛ الفصل في النزاعات التي تنشأ حول تنفيذ الاتفاقات التجارية الدولية ؛ مراقبة السياسات التجارية للدول الأعضاء بما يضمن تمشيها مع القواعد المتفق عليها ؛ التعاون مع صندوق النقد الدولي والبنك الدولي لتأمين الاتساق في عملية صنع السياسات الاقتصادية على الصعيد الدولي - المترجم .

(***) التنوير : يستخدم هذا المصطلح عادة كتعبير عن الفكر العقلاني البعيد عن السلفية . ولكن المؤلف يستخدمه هنا للتعبير عن حركة تاريخية تخطاها الزمن بعدة قرون في أوروبا ، وكان من أعلامها فولتير وروسو في فرنسا ، وكانط في ألمانيا ، وأدم سميث وهيوم في إنجلترا - المترجم .

علمية واحدة يحل فيها مجتمع عالمي جديد مؤسس على العقل محل أعراف الماضي وثقافته المتنوعة . (٤)

إن الولايات المتحدة هي اليوم آخر الدول العظمى التي تقيم سياساتها على أساس فرضية التنوير هذه . واستنادا إلى «توافق واشنطن»^(*) ، فإن «الرأسمالية الديمقراطية» سرعان ما ستقبل على نطاق العالم ، كما أن السوق الحرة العالمية ستصبح واقعا . ولن تعود هناك حاجة إلى الثقافات والأنظمة الاقتصادية المتعددة التي اتسع لها العالم دائما ، إذ ستندمج هذه الثقافات والأنظمة في سوق حرة عالمية واحدة .

وقد سعت المنظمات عبر الوطنية التي تلقى تشجيعا من هذه الفلسفة إلى فرض الأسواق الحرة على الحياة الاقتصادية للمجتمعات على نطاق العالم ، ونفذت برامج لسياسات

(٤) سبق أن ناقشت «مشروع التنوير» في كتابي «Enlightenment's Wake : Politics and Culture at the Close of Modern Age ، لندن ونيويورك : روتلج ، ١٩٩٥

(*) Washington Consensus : مجموعة السياسات والتوصيات والمبادئ التوجيهية التي تم التوصل إليها بين صندوق النقد الدولي والبنك الدولي وحكومة الولايات المتحدة ، ومقر هذه الأطراف الثلاثة العاصمة الأمريكية واشنطن . وقد أولى المؤلف أهمية لهذا التوافق من حيث آثاره على مسار التنمية الاقتصادية وتطور الحياة السياسية في مختلف أرجاء العالم ، وتناوله بالضمير والتقييم في مواضع متفرقة من الكتاب . ولذا فلا مفر من إلقاء بعض الضوء على «توافق واشنطن» ، وعلى ما أصبح يطلق عليه الآن «ما بعد توافق واشنطن» . «Post - Washington Consensus» .

كان من أهم توجيهات هذا التوافق مبدأ حكومة الحد الأدنى وأقل تدخل ممكن من جانب الدولة (انظر الحاشية لأناه ، الصفحة ٤٠) ؛ التنشيط الاقتصادي بفرض السيطرة على التضخم (التضخم المنخفض) ؛ عدم الحرص الزائد على خفض البطالة ، وتجنب العمالة الكاملة ؛ إحلال الواردات ؛ عدم وجود معدلات شديدة الارتفاع للادخار ، مثل تلك الموجودة في اليابان ، تيسير الخصخصة ؛ دعم حرية الأسواق ، إلخ . وفي فترة ما بعد التوافق ، ومع الدروس المستفادة من أزمة دول جنوب شرق آسيا ، أعادت أطرافه النظر فيما حققته توجيهاته من إيجابيات وما شابها من سلبيات ، مثل رد الاعتبار للدور الدولة (انظر الملحق ص ٣٣١ وما بعدها) ؛ والتساهل في نسبة التضخم المسموح بها ؛ ووضع ضوابط على حركة رؤوس الأموال ؛ وتيسير نقل التكنولوجيا ؛ إلخ وبينما كان التوافق يؤيد استخدام مجموعة صغيرة من الأدوات من أجل هدف ضيق نسبي (هو النمو الاقتصادي) ، أصبحت هناك دعوة إلى استخدام مجموعة أوسع من الأدوات والأهداف ، مثل رفع المستويات المعيشية عن طريق مكافحة الفقر وتحسين الخدمات الصحية والتعليمية ، وليس مجرد زيادة الناتج القومي الإجمالي ؛ تحقيق التنمية المستدامة عن طريق صيانة الموارد الطبيعية والحفاظ على البيئة ؛ ضمان تنمية عادلة وديمقراطية يكون فيها باستطاعة فئات أوسع من المجتمع ، وليس فقط من هم عند قمته ، التمتع بشمارها والمشاركة بوسائل مختلفة في صنع القرارات - المترجم .

مقصدها النهائي هو إدماج اقتصادات العالم المتنوعة في سوق حرة عالمية واحدة ، وذلك يوتويا لا يمكن أن تتحقق أبدا . وقد أدى اتباعها إلى إحداث تفكك اجتماعي واضطراب اقتصادي وسياسي على نطاق واسع .

وفي الولايات المتحدة أسهمت الأسواق الحرة في انهيار اجتماعي على نطاق لم يعرف في أي بلد متقدم آخر . فالأسر الأمريكية أضعف منها في أي بلد . وفي الوقت نفسه يجري دعم النظام الاجتماعي بسياسة قوامها فتح أبواب السجون على مصراعها . وليس هناك بلد صناعي آخر ، دك من روسيا ما بعد الشيوعية ، يستخدم السجن كوسيلة للضبط الاجتماعي على النطاق الموجود في الولايات المتحدة . فالأسواق الحرة ، وخراب الأسر والمجتمعات المحلية ، واستخدام العقوبات الجنائية كمالآخبر ضد الانهيار الاجتماعي ، تتقاطع بعضها في إثر بعض .

كما أن الأسواق أضعفت أيضا ، أو دمرت ، مؤسسات أخرى يتوقف عليها التماسك الاجتماعي ، وولدت فترة رخاء اقتصادي طويل الأمد لم يحقق منها معظم الأمريكيين فائدة تذكر . فالقوارق الاجتماعية في الولايات المتحدة تشبه القوارق في بلدان أمريكا اللاتينية بأكثر مما تشبه مثيلاتها في أي بلد أوروبي . ومع ذلك فإن هذه النتائج المباشرة للسوق الحرة لم تقلل ما تحظى به من دعم وتأييد ، وهي ما زالت البقرة المقدمة^(*) للسياسات الأمريكية ، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من زعم أمريكا بأنها نموذج لحضارة عالمية . وهكذا أصبح مشروع «التوير» متشابكا بصورة فاجعة مع السوق الحرة .

ذلك أن سوقا عالمية واحدة هي مشروع التوير لحضارة عالمية فيما يرجح أن يكون شكلها النهائي . وهي ليست الصورة الوحيدة لذلك المشروع الذي تمت تجربته خلال هذا القرن الذي حفل بيوتويا كاذبة . فقد كان الاتحاد السوفييتي تجسيدا «ليوتويا توير» منافسة ، يوتويا حضارة عالمية حل فيها التخطيط المركزي محل الأسواق . وكانت التكاليف البشرية لتلك اليوتويا تفوق الحصر . إذ فقدت الملايين من أرواح البشر من خلال إرهاب شمولى ، وفساد يعم كل مكان ، وتدهور ييش ينذر بالكوارث . إن ثمن المعاناة البشرية الذى اقتضاه المشروع السوفييتي كان ثمنا يتعدى قياسه - ومع ذلك أخفق في إنجاز التحديث الذى وعد به روسيا . فعند نهاية العصر السوفييتي كانت روسيا من بعض الأوجه أبعد عن التحديث مما كانت فى المرحلة الأخيرة من العصر القيصرى .

The Sacred Cow (*) : تبجيل البقرة عند الهندوس ، وهي شئ يعلو ، دون سبب معقول ، على التقدير والمساءلة - المترجم .

إن يوتوبيا السوق الحرة لم تقتض من التكلفة البشرية قدر ما اقتضته الشيوعية . ومع ذلك فإنها قد تصبح بمضى الوقت نظيراً فيما تجلبه من معاناة . وهى بالفعل أسفرت عن تحول أكثر من مائة مليون فلاح إلى «عمال تراحيل» فى الصين ، واستبعاد عشرات الملايين فى المجتمعات المتقدمة من العمل والمشاركة فى المجتمع ، وانتشار حالة تقرب من الفوضى ، وتسلب الجبرية المنظمة فى أجزاء من عالم ما بعد الشيوعية ، ومزيد من التدمير للبيئة .

وبرغم أن وجود سوق حرة ، عالية لا يمكن أن يتوافق مع أى نوع من الاقتصاد ، فإن ما يجمع بين هاتين الفكرتين أكثر أساسية مما بينهما من خلافات . فهما فى إعجابهما الشديد بالعقل والكفاءة ، وجهلهما بالتاريخ ، واحتقارهما لعادات الحياة التى ترى أنها مصدر للبؤس أو الفناء ، إنما تجسدان نفس المعجزة العقلانية والإمبريالية الثقافية اللتين تميزت بهما الأعراف المحورية لتفكير «التوير» طوال تاريخه .

إن السوق الحرة العالمية تفترض مسبقاً أن تحديث الاقتصاد يعنى الشئ نفسه فى كل مكان . وهى تفسر عولة الاقتصاد - أى انتشار المنتجات الصناعية فى اقتصادات السوق المترابطة فى كل أرجاء العالم - على أنها التوفيق الساحق لنمط فريد من الرأسمالية الغربية : هو السوق الحرة الأمريكية .

أما التاريخ الحقيقى لعصرنا فأقرب إلى النقيض . إذ إن التحديث الاقتصادى لا يستنسخ نظام السوق الحرة الأمريكية على نطاق العالم ، بل إنه يعمل ضد هذا النظام . فهو يُعزِّخ أنماطاً محلية للرأسمالية لا تدين بشئ لأى نموذج غربى . فاقتصادات السوق الحرة فى شرقى آسيا تختلف بعضها عن بعض اختلافاً عميقاً ، واقتصادا الصين واليابان يمثلان صورتين مختلفتين للرأسمالية . وبالمثل تختلف الرأسمالية الروسية اختلافاً أساسياً عن الرأسمالية فى الصين . وكل ما يجمع بين هذه الأنواع المختلفة من الرأسمالية هو أنها لا تتجه نحو أى نموذج غربى .

كما أن ظهور اقتصاد عالمى حقاً لا يعنى امتداد القيم والمؤسسات الغربية إلى باقى البشر ، وإنما يعنى نهاية حقبة السيادة الغربية على العالم . فالاقتصادات المتميزة الحديثة فى إنجلترا وأوروبا وأمريكا الشمالية ليست نماذجاً للأنماط الجديدة من الرأسمالية التى خلقتها الأسواق العالمية . ولن يكون باستطاعة غالبية البلدان التى تحاول تكيف اقتصاداتها وفق نموذج الأسواق الحرة الأنجلوسكسونية تحقيق حدائة قادرة على الاستمرار .

إن اليوتوبيا الحالية لسوق عالمية واحدة تفترض إمكانية إعادة تكييف الحياة الاقتصادية لكل أمة في صورة السوق الحرة الأمريكية . ومع ذلك فإنه في الولايات المتحدة أدت السوق الحرة إلى انفجار الحضارة الرأسمالية الليبرالية القائمة على مبدأ «التيو ديل»^(*) الذي وضعه الرئيس روزفلت ، والذي استند إليه رخاء هذه الحضارة في فترة ما بعد الحرب . ولكن الولايات المتحدة ليست إلا الحالة المحددة لصدق عام . فحيثما يجري في المجتمعات الحديثة الترويج للأسواق الحرة المتحررة من الضوابط ، فإن هذه الأسواق تولد أنواعا جديدة من الرأسمالية .

فهي قد أفرخت في الصين نوعا جديدا من الرأسمالية يمارسه صينيو الشتات في كل أرجاء المعمورة . وفي روسيا لم يسفر انهيار المؤسسات السوفيتية عن قيام أسواق حرة ، بل عن قيام نوع جديد من الرأسمالية في مرحلة ما بعد الشيوعية .

وبالمثل فإن نمو الاقتصاد العالمي لا يشجع الانتشار العالمي للديمقراطية الليبرالية الغربية . ففي روسيا أحدث هذا النمو نمطاً هجيناً من الحكومة الديمقراطية محوره سلطة رئاسية قوية . وفي سنغافورة وماليزيا تحقق التحديث والنمو الاقتصادي دون أن تؤدي سياسة حكومتهما الرافضة للسلطة العالمية للديمقراطية الليبرالية إلى فقدان التماسك الاجتماعي . ويقدر من الحظ يمكن أن تقوم في الصين حكومة مماثلة عندما تصبح في مرحلة ما بعد الشيوعية تماما .

إن الاقتصاد العالمي لا يصنع نظاماً مفرداً عالمياً هو نظام «الرأسمالية الديمقراطية» ، وإنما هو يعمل على تكاثر أنماط جديدة من الأنظمة ، إذ إنه يفرخ أنواعا جديدة من الرأسمالية . كما أن الاقتصاد العالمي الذي يجري بناؤه في الوقت الحالي لن يكون ضماناً لمستقبل السوق الحرة ، ولكنه سيدفع زناد المنافسة بين اقتصادات الأسواق الاجتماعية المتبقية والأسواق الحرة التي يتعين فيها على الأسواق الاجتماعية إما أن تصلح نفسها بعمق أو أن تدمر . ومع ذلك فمن المفارقات أن اقتصادات الأسواق الحرة لن تكون هي الفائز في هذه المباراة ، لأنها بدورها تتحول نتيجة للمنافسة العالمية ويتغير طابعها .

(*) **New Deal** : البرنامج التشريعي والإداري الذي وضعه الرئيس الأمريكي فرانكلين ديلاانو روزفلت في عام ١٩٣٣ ، في أعقاب الكساد الكبير ، وذلك لتشجيع الانتعاش الاقتصادي والإصلاح الاجتماعي وتوفير الوظائف . وكان من أهم ملامح هذا البرنامج إصدار قانون التأمينات الاجتماعية . كما كان البرنامج يمثل مبادئ الجناح التقدمي في الحزب الديمقراطي بالولايات المتحدة - المترجم .

وقد أخفقت حكومات الأسواق الحرة فى العقدین الأخيرین من هذا القرن فى تحقيق أى من أهدافها . فمستويات الضرائب والإنفاق الحكومى فى بريطانيا ، بعد ثمانية عشر عاما من وجود مارجریت تاتشر فى السلطة ، كانت عالية ، بل وأعلى مما كانت عليه عندما خرجت حكومة العمال من السلطة فى عام ١٩٧٩ .

وتصوغ حكومات الأسواق الحرة سياساتها على أساس عصر «دعه يعمل»^(*) - أى فترة منتصف القرن التاسع عشر التى كانت الحكومة فيها تزعم أنها لا تتدخل فى الحياة الاقتصادية . والحقيقة أن ملهب «دعه يعمل» - أى اقتصاد تحرر فيه الأسواق من الضوابط ، ويصبح خارج إمكانية السيطرة السياسية أو الاجتماعية .. لا يمكن أن يبتدع من جديد ، بل إنه حتى فى عتفوانه كان اسما على غير مسمى . فقد خلقه قهر الدولة ، وكان يعتمد عند كل نقطة فى مجرياته على سلطة الحكومة . ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى لم تعد الأسواق توجد فى صورتها الأكثر تطرفا ، لأنها لم تكن تفى بالحاجات البشرية ، ومن بينها الحاجة إلى الحرية الشخصية .

ومع ذلك ، ودون تقليل حجم الدولة أو إعادة الاعتبار للمؤسسات الاجتماعية التى كانت تدعم السوق الحرة فى عتفوان العصر الفيكتورى ، فإن سياسات السوق الحرة شجعت التفاوتات الجديدة فى الدخل والثروة ، وفرص الحصول على عمل ، ونوعية الحياة ، وهى التفاوتات التى تفوق مثيلاتها فى عالم منتصف القرن الماضى الأشد فقرا بكثير .

فى إنجلترا القرن التاسع عشر أدى الدمار الذى ألحقته السوق الحرة بالمؤسسات الاجتماعية الأخرى وبرفاهة البشر إلى استثارة حركات سياسية مضادة غيرتها تغييرا جذريا . كما أن سلسلة من التشريعات ، التى حثت عليها الجوانب العملية المختلفة

(*) **Laissez-faire** : المذهب الذى يقضى بأن يكون تدخل الدولة فى الصناعة والتجارة فى أضيق نطاق . وقد دافع آدم سميث عن هذه السياسة باعتبارها بديلا للتضيق التى كان التجارىون فى أيامه ينادون بها . وهذا التعبير استخدمه فى البداية الفيزيوقراطيون الذين كانوا يرون أن الزراعة هى المصدر الوحيد للثروة ، وبالتالي كانوا يرفضون أى تدخل من جانب الدولة فى شؤون الصناعة . وقد لقى هذا البدأ تأييدا كبيرا من جانب الاقتصاديين الكلاسيكيين من أمثال آدم سميث ودافيد ريكاردو وچون ستوارت مل وغيرهم . وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف يميز بين السوق الحرة التى قامت فى إنجلترا فى القرن التاسع عشر والسوق الحرة العالمية التى تبذل الجهود حاليا لإقامتها تحت قيادة الولايات المتحدة ، كما يميز بين السوق الحرة والاقتصاد الحر واتباع قاعدة «دعه يعمل» - المترجم .

للسوق الحرة ، أعادت تنظيمها بحيث خفت أثرها على المؤسسات الاجتماعية الأخرى وعلى الحاجات البشرية . وقد أوضحت سياسة «دعه يعمل» في منتصف العصر الفيكتوري أنه لا يمكن أن يكون هناك توافق طويل الأمد بين الاستقرار الاجتماعي والسوق الحرة .

وقد كان لدى إنجلترا اقتصاد سوق قبل وبعد التجربة القصيرة في سياسة «دعه يعمل» في منتصف العصر الفيكتوري . وفي كل حالة كان يجري تنظيم الأسواق بحيث تكون مجرباتها أقل إضراراً بالاستقرار الاجتماعي . ولم تكن السوق الحرة هي المؤسسة الاجتماعية السائدة إلا خلال فترة تطبيق مبدأ «دعه يعمل» في إنجلترا منتصف القرن التاسع عشر ، وفي بعض أجزاء العالم في العقدين الأخيرين من هذا القرن .

إن الاقتصادات السوقية الموجهة في عصر ما بعد الحرب لم تظهر من خلال سلسلة من الإصلاحات الحدية ، وإنما حدثت نتيجة لصدمات اجتماعية وسياسية وعسكرية كبرى . وفي بريطانيا كانت التسوية الكيترية وتسوية بفريدج^(*) ممكنتين بسبب حتميات حرب من أجل البقاء القومي اقلعت الهياكل الاجتماعية التي كانت قائمة قبل الحرب من جذورها .

وفي إنجلترا القرن التاسع عشر جنحت السوق الحرة على صخرة حاجات البشر الدائمة إلى الأمن الاقتصادي . وفي القرن العشرين أصيب النظام الاقتصادي الليبرالي الدولي بضعف شديد في حروب الثلاثينيات ونظمها الدكتاتورية^(**) . وكان ذلك الزلزال هو الشرط المسبق للرخاء والاستقرار السياسي في فترة ما بعد الحرب . وفي الثلاثينات تأكد أن السوق الحرة مؤسسة يكمن فيها عدم الاستقرار . وهي إذ بنيت بواسطة تخطيط شرير وبارع ، فقد تفككت أجزاؤها في ارتباك وفوضى . ومن غير المرجح أن يكون تاريخ السوق الحرة العالمية في أيامنا هذه مختلفاً كثيراً .

(*) تقرير بفريدج : أو «تقرير التأمين الاجتماعي والخدمات المعاونة» ، تقدم به وليم بفريدج في عام ١٩٤٢ ، ويقوم على مفهوم أن من واجب الدولة - بالتعاون مع الفرد - دعم دخل العائلات التي تضرب أحوالها المعيشية ، وتوفير خدمات صحية شاملة ، وإعانات بطالة أكثر سخاء ، ومعاشات للارامل ، وزيادة خدمات الأومة ، إلخ - المترجم .

(**) لعل من أبرز حروب الثلاثينيات عدوان النظام الفاشي في إيطاليا على الحبشة واحتلال أراضيها في عام ١٩٣٥ ؛ واحتلال النظام النازي في ألمانيا للنمسا وإقليم السوديت في تشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٣٨ ؛ والحرب الأهلية في إسبانيا التي اشتركت فيها على جانبيها ، اليسار واليمين ، قوى سياسية من أرجاء العالم كافة ، والتي انتهت بوصول الدكتاتور فرانكو إلى السلطة في عام ١٩٣٩ ؛ وقيام نظام أظهر تعاطفاً صريحاً مع دولتي المحور خلال الحرب العالمية الثانية - المترجم .

وليست هناك أي احتمالات لأن تعود بريطانيا إلى الإدارة الاقتصادية الكينزية، أو لأن تعيد الولايات المتحدة الحياة إلى «نيو ديل» روزفلتي، أو لأن يستأنف أي بلد في القارة الأوروبية (ربما فيما عدا الترويج والدائرك) مستويات الدعم الاجتماعي المرتبطة بالاشتراكية الديمقراطية والديمقراطية المسيحية .

وستكون السوق الاجتماعية القارية التي فرّخت الرخاء الألماني في فترة ما بعد الحرب من بين أهم الضحايا للأسواق الحرة العالمية . وهي ستواجه هذا المصير جنبا إلى جنب مع الرأسمالية الليبرالية الأمريكية التي ضمنت الرخاء لجيل كامل في الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية .

وقد يكون باستطاعة بعض الحكومات الوطنية الاستفادة مما مازالت تحتفظ به من حرية المناورة في رسم سياسات توفق بدرجة ما بين حتميات السوق العالمية ومتطلبات التماسك الاجتماعي، ولكن الهامش الضيق لما مازال متاحا من إصلاح أمام بعض الدول ذات السيادة لن يسمح لأي منها بالعودة إلى الماضي .

إن المنظمات عبر الوطنية التي تشرف على الاقتصاد العالمي اليوم لا تعدو أن تكون وسائط لأرثوذكسية ما بعد الكينزية . وهي تزعم ، على مستوى الدول ذات السيادة ، أن توجيه الاقتصادات الوطنية عن طريق التحكم في الطلب لا هو مجد وعملي ولا هو مرغوب فيه . وكل ما تتطلبه الأسواق الحرة كي تنسق النشاط الاقتصادي هو إطار يوفر الاستقرار النقدي والمالي . كما أن السياسات الكينزية لعصر ما بعد الحرب تُرفض باعتبارها ضارة أو غير لازمة . وعلى المستوى العالمي ، فإن الأسواق الحرة ، حسب ما تقوله هذه المنظمات عبر الوطنية ، قادرة بالمثل على أن تحقق الاستقرار بنفسها ، كما أنها ليست بحاجة إلى سيطرة شاملة كي تحول دون حدوث اضطرابات اقتصادية واجتماعية .

والعولمة الاقتصادية أي الانتشار العالمي للإنتاج الصناعي والتكنولوجيات الجديدة، والذي تشجعه قدرة رأس المال على التنقل دون قيود والحرية المطلقة للتجارة - تشكل تهديدا حقيقيا لاستقرار السوق العالمية الواحدة التي تضطلع المنظمات عبر الوطنية بنشئها تحت القيادة الأمريكية .

والمفارقة المحورية لعصرنا يمكن صياغتها على النحو التالي : إن العولمة الاقتصادية لا تعزز النظام الحالي لسياسة «دعه يعمل» على النطاق العالمي ، وإنما هي تعمل على تقويضه . وليس في السوق العالمية الراهنة ما يمكن أن يحميها من الضغوط الاجتماعية الناشئة عن

التنمية الاقتصادية البعيدة عن التكافؤ داخل مجتمعات العالم المتنوعة وفيما بين تلك المجتمعات . ذلك أن الصناعات والمستويات المعيشية التي تتعش وتضاهل بسرعة ، والتحويلات المفاجئة في الإنتاج ورأس المال ، وكازينو المضاربة على العملة كلها ظروف قدحت زناد الحركات السياسية المضادة التي تتحدى نفس القواعد الإجرائية للسوق الحرة العالمية .

وتفتقر السوق الحرة العالمية الحالية إلى الموازنات والضوابط السياسية التي سمحت باضمحلال سابقتها في منتصف العصر الفيكتوري في إنجلترا . ومن المستطاع جعل هذه السوق أكثر قبولا من الناحية الإنسانية بالنسبة لمواطني الدول التي تتبع سياسات تجديدية وواسعة الحيلة ، ولكن أمثال هذه الإصلاحات الهامشية لن تقلل كثيرا من عدم استقرارها . ذلك أن النظام الحالي لسياسة «دعه يعمل» سيكون أقصر عمرا مما يسمى «الحقبة الجميلة»^(*) التي امتدت من عام ١٨٧٠ إلى عام ١٩١٤ ، وانتهت في خنادق الحرب العظيم .

هندسة السوق الحرة في أوائل العصر الفيكتوري في إنجلترا

إن السوق الحرة التي وجدت في بريطانيا في منتصف القرن التاسع عشر لم توجد مصادفة ، كما أنها ، على نقيض التاريخ الأسطوري الذي يروج له «اليمين الجديد» ، لم تنشأ عن تطور طويل غير مخطط ، وإنما كانت صناعة يدوية للسلطة وفن الحكم . ففي اليابان وروسيا وألمانيا ، وفي الولايات المتحدة طيلة سنوات مذهب الحماية الأمريكي ، كان تدخل الدولة عاملا رئيسيا في التنمية الاقتصادية .

ومبدأ «دعه يعمل» ليس شرطا ضروريا للتصنيع الناجح ، أو للنمو الاقتصادي القادر على الاستمرار . فقد كانت المؤسسات السياسية التي صاحبت النمو الاقتصادي الوطيد والتصنيع السريع على نطاق معظم العالم هي مؤسسات دولة رأسمالية تنموية . وتُعَدُّ الحالة الإنجليزية التي تتطابق مع كل من مبدأ «دعه يعمل» والتجارة الحرة والتصنيع ، حالة فذة وفريدة .

والحقيقة أنه في إنجلترا القرن التاسع عشر كان تدخل الدولة على نطاق شديد الطموح

(*) Belle - époque : عصر الأناقة والبهجة والمسرات الذي تميزت به الحياة الباريسية الحديثة في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى - المترجم .

شرطاً أساسياً لا غنى عنه لسياسة «دعه يعمل» . فقد كان الشرط المسبق للسوق الحرة البريطانية في القرن التاسع عشر هو استخدام سلطة الدولة لتحويل الأراضي المشاع إلى ملكية خاصة . وتمت هندسة ذلك من خلال «التسييج»^(*) الذي حدث ابتداءً من الحرب الأهلية^(**) حتى العصر الفيكتوري الباكر . ونتيجة لعمليات التخصيص هذه فإن ميزان الملكية في الاقتصاد السوقي الزراعي في إنجلترا مال بعيداً عن القرويين والمزارعين الملاك في اتجاه كبار ملاك الأرض في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي . أما المنظرون من أمثال هايك ، الذين وضعوا نظريات عظيمة مفادها أن اقتصادات السوق إنما تنشأ عن طريق تطور بطيء تقوم الدولة فيه بدور محدود ، فلم يكونوا فقط يعممون على نطاق واسع من حالة مفردة ، وإنما كانوا يسيئون عرض تلك الحالة .

وكما يوجز بارتجتون مور تاريخ حركة «التسييج» ، « . . . إن البرلمان هو الذي تحكم في نهاية الأمر في عملية التسييج . ومن الناحية الشكلية كانت الإجراءات التي تتبع لتمكين مالك كبير من تسييج قطعة أرض بموجب مرسوم برلماني إجراءات عامة وديمقراطية . أما في الواقع فإن كبار الملاك العقارين هم الذين كانوا يتحكمون في الإجراءات من البداية للنهاية» . ويعلق مور على ذلك قائلاً : «إن الفسحة الزمنية التي كانت هذه التغييرات تحدث فيها بأقصى سرعة وإحكام ليست واضحة تماماً . غير أن الأرجح كثيراً أن حركات التسييج بلغت أقصى سرعتها خلال الحروب النابليونية ، ثم توقفت بعد عام ١٨٣٢ ، بعد أن كانت قد غيرت الريف الإنجليزي بدرجة تفوق كل تقدير»^(٥) .

(*) Enclosures : إشارة إلى تسييج الأراضي التي كانت مشاعاً من قبل ، وكان هدف التسييج هو تنظيم الضياع عن طريق التخلص من القرويين والحائزين . وقد صدرت بذلك قوانين التسييج Enclosures Acts ، الذي صدر أولها في عام ١٦٤٥ ، وبعد صدور ثانيها في عام ١٧٦٥ تتابع صدور قوانين أخرى المترجم .

(**) Civil War (ويقال أيضاً Great Rebellion) . أصبحت وراثة العرش في إنجلترا ماثراً للاهتمام والنضال في عهد إدوارد السادس والملكة ماري الأولى ، وانتهى هذا النضال بنشوب حرب أهلية في عام ١٦٤٢ بين الملك شارل الأول والبرلمان ، وانتهت هذه الحرب في عام ١٦٥٢ بانتصار البرلمان الذي حاكم الملك وأعدمه - المترجم .

(٥) بارتجتون مور ، Social Origins of Dictatorship and Democracy : Lord and Peasant In the Making of the Modern World ، هارمونديوث ، بنجوين بوكس ، ١٩٩١ ، الصفحات ٢١ و ٢٢ .

ومن المغالاة القول ، مثلما يفعل بارنجتون مور ، إن التسييج قد حوّل إنجلترا من مجتمع فلاحى إلى اقتصاد سوقى . فاقْتِصاد السوق كان أسبق من حركة التسييج بعدة قرون . ومع ذلك فإن «الأراضى المسيجة» ساعدت على تكوين الاقتصاد الزراعى الرأسمالى للضياع الكبيرة الذى عرف فى القرن التاسع عشر . أما السوق الحرة فى منتصف العصر الفيكتورى فقد صنعها قهر الدولة الذى مورس على امتداد أجيال كثيرة ؛ والذى كانت حقوق الملكية فيه تتشأ وتلغى عن طريق البرلمان .

ولقد كانت الدولة البريطانية التى تمت فيها هندسة السوق الحرة على هذا النحو على خلاف الدول التى تُشيد فيها السوق الحرة حالياً مدولة فى مرحلة ما قبل الديمقراطية . فعدد من لهم حق التصويت كان صغيراً ، والأغلبية الساحقة من السكان كانت مستبعدة من المشاركة السياسية . ولو كانت المؤسسات الديمقراطية قائمة لكان من المشكوك فيه أن تقوم السوق الحرة أصلاً . ومن الحقائق الثابتة تاريخياً أن السوق الحرة قد أخذت فى الاضمحلال مع دخول الجموع الغفيرة من السكان مجال الحياة السياسية . وكما كان منظر «اليمين الجليد» ذو البصيرة الأوضح يعتقدون دائماً ، فإن السوق غير المقيدة لا تتوافق مع الحكم الديمقراطى .

وتُعدّ تجربة السوق الحرة فى أواخر القرن العشرين محاولة لأن تُقرّص بالقانون ، من خلال مؤسسات ديمقراطية ، قيود قاسية على نطاق ومضمون الرقابة الديمقراطية على الحياة الاقتصادية . كما أن الشروط المسبقة للسوق الحرة فى مرحلة ما قبل الديمقراطية فى منتصف العصر الفيكتورى تكشف لنا الكثير عن احتمالات ما تحظى به من الشرعية السياسية اليوم .

وليس بين التدابير التى خلقت السوق الحرة ما هو أكثر أهمية من «إلغاء قوانين الغلال»^(*) ، الذى وطّد أركان التجارة الحرة الزراعية . «فقانون الغلال» لعام ١٨١٥ ، الذى كان امتداداً لتشريعات الحماية الجمركية التى ترجع فى أشكال مختلفة إلى القرن السابع عشر ، ألغى فى عام ١٨٤٦ ، فى انتصار مثير للمدافعين عن التجارة الحرة .

(*) Corn Laws Repeal : بيع ملك الأرض فى امتداد قرون الغلال لعام ١٨١٥ الذى أخضع الغلال (وبخاصة القمح) المستوردة للرسوم الجمركية ، مما ترتب عليه ارتفاع أسعارها وزيادة تكاليف المعيشة وارتفاع الأجور وعرقة الصناعة . وكان هذا القانون مظهراً للخلاف بين أنصار حرية التجارة وأنصار الحماية الجمركية . وانتهت هذه القوانين بالإلغاء فى عام ١٨٤٦ - المترجم .

وكان «إلغاء قوانين الغلال» بمثابة هزيمة لمصالح أصحاب الأرض وانتصار للتفكير الذى يقوم عليه مبدأ «دعه يعمل» . كما أن الافتراض القائل بأن الاقتصاد السوقى يجب أن يكون خاضعا لرقابة وإشراف سياسيين بهدف تأمين التماسك الاجتماعى كان حتى ذلك الحين أحد جوانب الفطرة السياسية السليمة وبالتأكيد بين المحافظين . فالتجارة الحرة لم تكن أكثر من نظرية راديكالية ، ولكن الأمر انعكس بعد ذلك ، فالتجارة الحرة أصبحت تعنى الدعوة المشتركة للتطبقات السياسية لجميع الأحزاب ، كما أن مذهب الحماية أصبح هرطقة جامحة ، إلى أن حلت كوارث ثلاثينات (*) هذا القرن .

ولم يكن «تعديل قانون الفقراء» أقل أهمية بكثير فى تكوين السوق الحرة . ذلك أن «قانون الفقراء» (***) لعام ١٨٣٤ كان جزءا حاسما من التشريع . فقد حدد مستوى المعاش التقاعدى بأقل من أدنى أجر تحدده السوق . ووَصَّم متلقى الإعانة بربطها بأحط الشروط وأشدها قسوة ، وأضعف مؤسسة الأسرة ، وأقر نظام «دعه يعمل» الذى كان الأفراد فيه يتحملون وحدهم المسؤولية عن رفاهتهم الخاصة ، بدلا من اقتسام تلك المسؤولية مع مجتمعاتهم .

ويحيط إيريك هوسون بخلفية إصلاحات المعونة الاجتماعية فى ثلاثينات القرن الماضى ، وبطابعها وآثارها ، عندما يقول :

«إن الرؤية التقليدية ، التى ما زالت تعيش بطريقة مشوهة فى كل طبقات المجتمع الريفى ، وفى العلاقات الداخلية لمجموعات الطبقة العاملة ، كان مفادها أن للإنسان الحق فى أن يكسب عيشه ، وإذا لم يكن فى استطاعته أن يفعل ذلك فمن حقه أن يبقى على قيد الحياة عن طريق الجماعة . أما رؤية اقتصادى الطبقة الوسطى الليبراليين ، فكان مفادها أن الناس ينبغي أن يقبلوا الوظائف التى توفرها لهم السوق ، حيثما تكون وبأى أجر توفرها ، ويمكن للرجل العاقل أن يحتاط للحوادث والمرض والشيخوخة عن طريق الادخار والتأمين ، سواء أكان فرديا أم بصورة جماعية اختيارية . ومن المسلم به أن من يتبقى من المعوزين لا يمكن تركهم يتضورون جوعا ، وإنما ينبغي فى الوقت نفسه ألا يعطوا ما هو

(*) الإشارة هنا إلى «الكساد الكبير» الذى حلّ بالاقتصاد العالمى فى بداية الثلاثينات - المترجم .

(**) Poor Law : تم بوجوب هذا القانون تنظيم الأبرشيات فى المحامدات لتولى تقديم الإعانات للفقراء . وكانت هذه الإعانات تمول من ضريبة فقراء (Poor rate) تستوفى من ضريبة أو رسم ، ولم تكن الإعانات الخارجية تعطى إلا للمرضى وضعاف الأجسام ، أما المعوقون فلم يكن باستطاعتهم الحصول على الإعانة إلا عن طريق الدخول فى دور العمل أو الإصلاحات - المترجم .

أكثر من الحد الأدنى المطلق - شريطة أن يكون هذا الحد أقل من أدنى أجر يقدم في السوق، وفي ظل ظروف لا تشجع على الرضا بهذه المعونة . وكان قانون الغلال يرمي إلى مساعدة التعساء بقدر ما كان يرمى إلى أن يصمّ بالعار من يقرّون بفشلهم في المجتمع . . . ولم تكن هناك قوانين أشد قسوة من قانون الفقراء لعام ١٨٣٤ ، الذي جعل كل إعانة «أقل جدارة» من أدنى أجر في الخارج ، وقصرها على دور العمل^(٥) الأشبه بالسجون التي يفصل فيها قسرا بين الزوج والزوجة والأبناء بغية معاقبة الفقراء على إملاتهم^(٦) .

وهذا النظام ظل مطبقا على عشرة في المائة على الأقل من الإنجليز في فترة منتصف العصر الفيكتوري ، وظل ساريا حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى .

وقد كان الدافع المحوري لتعديل قانون الفقراء هو نقل المسؤولية عن الحماية من سوء الحظ وانعدام الأمن من المجتمعات المحلية إلى الأفراد ، وإجبار الناس على قبول العمل بأي أجر تحدده السوق . وجدّد المبدأ نفسه كثيرا من إصلاحات المعونة الاجتماعية التي كانت الأساس لإعادة هندسة السوق الحرة في أواخر القرن العشرين .

وفي عصر «اليمين الجديد» ، كما كانت الحال في إنجلترا في المرحلة المبكرة من منتصف العصر الفيكتوري ، كانت النتائج غير المقصودة للمؤسسات المبكرة للرعاية الاجتماعية على درجة من الخطورة جعلت إصلاحات المعونة الاجتماعية محتومة من الناحية السياسية بل ومرغوبا فيها . ذلك أن نظام القرن التاسع عشر لتكملة الأجور من الضرائب المحلية خلق نظاما واسعا للإعانة الخارجية للفقراء لم يكن بالقطع قادرا على الاستمرار بلا نهاية . وبحلول ثمانينيات القرن العشرين لم تعد مؤسسات دولة الرعاية الاجتماعية التي بشرّ بها بقريدج تتطابق مع الأطر الحديثة للأسرة والحياة العملية . وكانت هذه المؤسسات تندر بإضفاء طابع مؤسسي على الفقر بدلا من القضاء عليه . ووجد راسمو سياسات «اليمين الجديد» في هذه الأخطار فرصة لإعادة تشكيل تدابير المعونة الاجتماعية بحيث تلائم متطلبات الأسواق المتحررة من الضوابط .

(٥) Work - house : (ويقال أيضا Poor house) الإصلاحية ، وهي دار لعاقبة المنزحين بجرائم صغيرة ، أو من صغار السن ، ويطلق التعبير أيضا على دور العمل الذي يسمح بدخولها للمتولين والموقوفين .
الترجم .

(٦) أ. ج. هوبسون ، Industry and Empire ، هارموندسويرث : پنجوين ، ١٩٩٠ ، الصفحتان ٨٨ و٨٩ .

وكذلك فإن التشريعات التي استهدفت إزاحة العقبات أمام تحديد الأجور عن طريق السوق لم تكن أقل أهمية من تعديل قانون الفقراء في منتصف القرن التاسع عشر . وقد أقر دافيد ريكاردو الرؤية الأرثوذكسية للاقتصاديين الكلاسيكيين عندما قال : «إن الأجور ينبغي أن تترك للمنافسة الحرة والعادلة في السوق ، ولا ينبغي أبداً أن تتحكم فيها السلطة التشريعية»^(٧) .

وكان على ضوء مثل هذه المطالب لدعاة مذهب «دعه يعمل» أن ألغى قانون التلمذة الصناعية (الذي صدر بعد «الطاعون الأسود»^(*)) الذي اجتاح أوروبا في القرن الرابع عشر) ، وأنهت جميع الضوابط الأخرى على الأجور في الفترة التي امتدت حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر . بل إن «قوانين العمل»^(**) التي صدرت في الأعوام ١٨٣٣ و ١٨٤٤ و ١٨٤٧ تلافى أى صدام مباشر مع مقتضيات مبادئ «دعه يعمل» . «إن المبدأ القائل بأنه لا ينبغي أن يكون هناك أى تدخل في التعاقد بين السيد والتابع كان يحترم إلى درجة أنه لم يحدث أى تدخل تشريعي مباشر في العلاقة بين أصحاب العمل والذكور البالغين وكان ما زال ممكناً لنصف قرن آخر القول ، وإن يكن بقبول متناقص ، بأن مبدأ عدم التدخل ظل قائماً»^(٨) .

وكانت إزالة الحماية الزراعية ، وإقرار التجارة الحرة ، وتعديل قوانين الفقراء بقصد إرغام الفقراء على قبول العمل ، وإزالة أية ضوابط متبقية على الأجور ، هي الخطوات الثلاث الحاسمة في بناء السوق الحرة في بريطانيا في منتصف القرن التاسع عشر . وقد خلقت هذه التدابير من الاقتصاد السوقى في ثلاثينيات القرن التاسع عشر السوق الحرة المتحررة من الضوابط التي عرفت في منتصف العصر الفيكتوري ، وهى السوق التي تعد النموذج لجميع السياسات الليبرالية الجديدة التي ظهرت فيما بعد .

(٧) د. ريكاردو ، Principles of Political Economy and Taxation ، لندن ، إيريمان ، الصفحة ١ .

(*) Black death .

(**) Factory Acts : وردت هكذا في المتن ، ولكنها وردت أيضاً في الموسوعة البريطانية Labour Acts ، وقد آتت ترجمتها في هذه الصيغة . صدرت لتحسين أحوال العمال في المصانع . بدأ صدورها في عام ١٨٠٢ ، ثم تنابت في الأعوام ١٨١٩ و ١٨٤٢ و ١٨٤٤ و ١٨٤٩ ، وأخيراً في عامي ١٨٧٨ و ١٨٩١ . تنص غالبيتها على تحديد ساعات العمل ، وحظر تشغيل الأطفال الأقل من سن معينة ، وحظر تشغيل النساء والأطفال في الأعمال الليلية وفي المناجم بالترجم .

(٨) أ. ج. نيلور ، Laissez - faire and State Intervention in Nineteenth Century Britain ، لندن ، مكميلان ، إيكونوميك هيبستوري سوسايتي مونوجراف ، ١٩٧٢ ، الصفحة ١ .

كما أن السياسات الرامية إلى إصلاح مؤسسات الرعاية الاجتماعية بهدف إكراه الفقراء على قبول أى عمل متاح لهم ، والتخلص من مجالس الأاجور وغيرها من الضوابط على الدخول ، وافتتاح الاقتصاد الوطنى على التجارة الحرة العالمية المتحررة من الضوابط ، كانت هى السياسات الأساسية لليبرالية الجديدة على نطاق العالم فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين . وفى كل حالة كانت نواة السوق الحرة التى تم بناؤها سوق عمل متحررة من الضوابط . ففى بريطانيا والولايات المتحدة ونيوزيلندا ، وكذلك فى بلدان مثل المكسيك ، التى كانت المؤسسات المالية عبر الوطنية قد فرضت عليها تقيفا هيكليا ، وهو تكييف كانت نتيجته شيئا يقرب من سوق محلية يتم فيها الانحجار فى الأيدى العاملة بحرية بوصفها سلعة شأنها تماما شأن أى سلعة أخرى .

ومن نواح كثيرة كانت إقامة السوق الحرة فى إنجلترا القرن التاسع عشر مسألة لها خصوصية تاريخية . فقد وكّدت هذه السوق وتمتعت بشيء من النجاح لبعض الوقت فى ظروف تاريخية مواتية بصورة استثنائية . أما فى بقية أوروبا فلم تحدث محاولة لإقامة سوق حرة على النمط الإنجليزي . ولم يكن باستطاعة المشروع الإنجليزي فى القرن التاسع عشر ، شأن مكافئته الحديث ، أن يتقدم بالقدر الذى تحقق لو لم يكن قد سائر تدفق التغييرات الاقتصادية والتكنولوجية الكبرى .

ذلك أن فن الحكم الذى شيّد السوق الحرة فى إنجلترا قد أفاد من آثار تنمية دامت قرونا . وفى مجرى هذه الحركة التاريخية أصبحت قوى السوق عاملا مهيما فى الحياة الاجتماعية . فقد كان يوجد دائما تبادل سوقى ، وفى إنجلترا وجد اقتصاد سوقى لعدة مئات من السنين ، ولكن كان عند هذا المنعطف من التاريخ أن جاءت إلى الوجود السوق الحرة حقًا ، ومن ثم خلق مجتمع سوقى .

يقول كارل پولانى إنه «فى نهاية الأمر . . . يُعدّ التحكم فى النظام الاقتصادى عن طريق السوق ذا أثر طاع بالنسبة لمجمل تنظيم المجتمع ، وهو يعنى شيئًا ليس أقل شأنًا من تسيير المجتمع باعتباره ملحقا للسوق . وبدلا من أن يتجسد الاقتصاد فى علاقات اجتماعية ، فإن العلاقات الاجتماعية تتجسد فى النظام الاقتصادى»^(٩) . وهنا يميز پولانى بين المجتمعات التى لا يمكن فيها فصل الأنشطة الاقتصادية ، بما فى ذلك جميع الظواهر التى نصنّفها معا تحت طائفة التبادل السوقى ، عن المجالات الأخرى للنشاط

(٩) المرجع نفسه ، الصفحة ٥٧ .

الاجتماعى ، والمجتمعات التى تشكل فيها الأسواق علما منفصلا ومتميزا ومستقلا عن كل العوالم الأخرى .

وفى المجتمعات التقليدية قبل الحديثة كان للأسعار فى أغلب الأحوال وضع الأعراف ، فسلع كثيرة لا يمكن أن تشتري أو تباع ، والتبادل يرتبط بالمكان والقرابة ، و«السوق» لم تكن قد نشأت بعد كمؤسسة اجتماعية وحضارية متميزة . وفى مجتمعات كهذه لا يوجد ما يعرف «بالسوق» .

وعلى نقبض ذلك فى المجتمعات السوقية ، حيث النشاط الاقتصادى لا يكون فقط متميزا عن بقية الحياة الاجتماعية ، ولكنه يشكل أوضاع المجتمع برمته ، وفى بعض الأحيان يهيمن عليه . وفى بلدان عدة فى شمال غرب أوروبا ، فى الفترة الحديثة البكرة ، تطورت الأسواق وحررت نفسها بدرجة متفاوتة من بقايا الضوابط الاجتماعية لحياة العصور الوسطى . ومع ذلك لم توجد المؤسسة الاجتماعية للسوق الحرة فى أى بلد آخر خلاف إنجلترا . ذلك أن بلدان أوروبا القارية كانت اقتصادات سوقية ، ولكن ليست مجتمعات سوقية ، وقد ظلت كذلك حتى يومنا هذا .

ويلاحظ بولانى أنه حيشما نشأت مجتمعات سوقية لم تكن هذه المجتمعات نتيجة مصادفة أو تطور ، وإنما كانت من خلال براعة التدخل السياسى التكرور والمتظم :

إن الخطوة التى تجعل من الأسواق المنعزلة اقتصادا سوqيا ، وتجعل من الأسواق المنظمة سوqا ذاتية التنظيم ، هى خطوة جوهرية حقا وقد تصور القرن التاسع عشر . . . بسذاجة أن مثل هذا التطور هو النتيجة الطبيعية لانتشار الأسواق . ولم يكن هناك إدراك لأن تكيف الأسواق بحيث تصبح نسقا ذاتى التنظيم ليس نتيجة لأى اتجاه متأصل للأسواق وإنما حدث بتأثير المنهات المصطنعة للمغاية التى قدمت لمساعدة البنيان الاجتماعى على مواجهة وضع أوجدته الآلة ، وهى ظاهرة مصطنعة أيضا . (١٠)

وهنا ينبغى لنا تعديل هذا التفسير الماركسى الذى قدمه بولانى . ونحن فى حاجة إلى أن نأخذ فى اعتبارنا تماما الطابع الاستثنائى للأحوال الاجتماعية فى إنجلترا فى أوائل القرن التاسع عشر . فإنجلترا ، على خلاف أى بلد آخر فى أوروبا القارية ، كانت تمتلك منذ فترة طويلة ثقافة قانونية للملكية العقارية ذات طابع فردى للمغاية . من ذلك أن الأرض كان يتم الاتجار فيها كسلعة منذ وقت طويل ، والأيدى العاملة كانت قابلة للتنقل منذ وقت طويل أيضا . وكان جمود الحياة القروية الشائع فى كثير من البلدان الأوروبية القارية نادرا أو

(١٠) المرجع نفسه ، الصفحة ٥٧ .

غير معروف ، وكانت الحياة الأسرية أقرب إلى الأسرة النواة الحديثة منها إلى الأسرة الممتدة المألوفة فيما قبل العصر الحديث . كما أن إنجلترا لم تكن مجتمعا فلاحيا مثل الحال الذي كانت عليه البلدان الأوروبية الأخرى .

وفي هذا الصدد قد يكون ألان ماكفارلن على صواب في اعتقاده «بعدم صحة إحدى النظريات الجوهرية للأنتروبولوجيا الاقتصادية ، وهي القائلة بأننا نشهد في إنجلترا ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر «التحول العظيم» من مجتمع فلاحى لا سوقى يكون الاقتصاد فيه راسخا في العلاقات الاجتماعية ، إلى نظام رأسمالى سوقى حديث انفصل فيه الاقتصاد عن المجتمع» . ويواصل ماكفارلن كلامه قائلا : «إن وجهة النظر هذه تعبر عنها أعمال كارل بولانى بوضوح شديد . . . عندما أسس آدم سميث علم الاقتصاد الكلاسيكى على فرضية «الإنسان الاقتصادى»^(١٠) العقلانى ، معتقدا أنه يصف نمطا عالميا واضحا منذ وقت طويل ، كانت الحقيقة قد فاتته . واستنادا إلى بولانى فإن مثل هذا الإنسان لم يظهر إلا منذ وقت قريب ، متجردا من احتياجاته الدينية والسياسية والاجتماعية . . . (ولكن) سميث هو الذى كان على حق ، وبولانى هو الذى كان على خطأ ، على الأقل بالنسبة لإنجلترا . «فالإنسان الاقتصادى» والمجتمع السوقى قد ظهرا فى إنجلترا قبل مجيء آدم سميث بعدة قرون . ومع ذلك فإن ماكفارلن يخلص إلى أن «فكرة بولانى العميقة بأن سميث كان يكتب فى بيئة اجتماعية خاصة ، تعد فكرة صائبة إذا أدركنا أن إنجلترا كانت فى نواح كثيرة مختلفة منذ وقت طويل عن كل ما نعرفه تقريبا من حضارات زراعية أخرى»^(١١) .

لقد كانت السوق الحرة ، وما زالت ، خصوصية أنجلو سكسونية ، إذ شُيّدت فى سياق لم يوجد فى أى مجتمع أوروبى آخر : وهى لم توجد بشكلها الكامل إلا قرابة جيل واحد فقط . وكان يمكن ألا تنشأ على الإطلاق لو أن الملكية والحياة الاقتصادية لم يكن لهما طابع فردى شامل فى إنجلترا القرن التاسع عشر . لقد كانت تجربة فى الهندسة الاجتماعية تم خوضها فى ظروف مواتية على نحو استثنائى .

(*) **Homo economicus** : (Economic man) تعبير كثيرا ما استخدمه نقاد الاقتصاد السياسى بمعنى ساخر ، وكان موجها بصفة خاصة ضد الاقتصاديين الإنجليز الذين أسسوا المدرسة الكلاسيكية ، من أمثال دافيد ريكاردو وناسوسنيور . ويأخذ النقاد على هؤلاء أنهم أقاموا علم الاقتصاد على تصور «إنسان مجرد» ، مخلوق يتحرك وحيدا بدوافع اقتصادية دون غيرها - المترجم .

(١١) ألان ماكفارلن ، **The Origins of English Individualism** ، أكسفورد : بازيل بلاكويل ، ١٩٧٨ ، الصفحة ١٩٩ .

إن إعادة النظر في تفسير هولاندى «التحول العظيم» ، لكى تؤخذ هذه الاعتبارات فى الحسبان ، لا يقلل من إمكانية تطبيقه على ظروفنا الحالية ، وإنما هى تزيد ارتباطه بالموضوع . كما أنها تزيد من توضيح الخطأ فى محاولة إضفاء الطابع العالمى على مؤسسة ظهرت لمدة وجيزة فقط فى تاريخ نوع واحد من الرأسمالية ظهر ذات مرة فى القرن التاسع عشر ، فى حالة النموذج الإنجليزى ، ومرة أخرى فى ثمانينيات هذا القرن ، فى بريطانيا والولايات المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا ، نتيجة للسياسات الليبرالية الجديدة .

وإذا تناولنا الموضوع من منظور تاريخى أطول ، فلن يكون من المستغرب أن نجد أن هذه البلدان الأنجلو سكسونية هى الوحيدة التى وجدت فيها السوق الحرة حتى لفترة قصيرة . وذلك ، كما يذكر ماكفارلن ، «لأن المناطق الوحيدة التى لم توجد بها أبدا جماعات فلاحية على الإطلاق هى تلك التى استعمرتها إنجلترا : أستراليا ونيوزيلندا وكندا وأمريكا الشمالية»^(١٢) . فهذه البلدان الأنجلو سكسونية هى مجتمعات كان فيها اقتصاد وثقافة الفردية الزراعية سابقا على مرحلة ما قبل التصنيع . فقد احتضنت ثقافة اقتصادية أمكن فيها إقامة السوق الحرة لفترة قصيرة ، ولكنها مع ذلك كانت تستلزم ظروفًا قانونية واجتماعية وثقافية استثنائية ، جنبا إلى جنب مع استخدام سلطة دولة قوية استخدامها خاليا من الرحمة . وحتى فى هذه البيئات المواتية ، ثبت أن السوق الحرة كانت باهظة التكلفة من الناحية البشرية ، وشديدة التمزيق لحياة المجتمع ، بحيث يستحيل أن يتحقق لها الاستقرار . وكان اختفاء السوق الحرة التى عرفت فى القرن التاسع عشر ، وليس ظهورها ، هو الذى حدث نتيجة لتطور تاريخى بطيء . وفى ذلك التطور كان هناك دور حاسم للتصرفات غير المخططة للمؤسسات السياسية الديمقراطية .

وليس من الممكن استنساخ السوق الحرة التى وجدت فى إنجلترا فى الفترة من العقد الخامس إلى العقد الثامن من القرن التاسع عشر . ومن الزاوية الاقتصادية البحتة كانت الإنتاجية المتصاعدة والثروة القومية فى فترة منتصف العصر الفيكتورى فترة رخاء ، ولكنه كان رخاء يتعذر من الناحية السياسية تحمل أعباءه الاجتماعية .^(١٣)

فمع توسع الحقوق الانتخابية الديمقراطية اتسع أيضا تدخل الدولة فى الاقتصاد .

(١٢) المرجع نفسه ، الصفحة ٢٠٢ .

(١٣) من أجل الاطلاع على تقييم متوازن للشواهد على المكاسب الاقتصادية والأعباء الاجتماعية لاقتصاد منتصف العصر الفيكتورى ، انظر ، د . أ . تشرش - *The Great Victorian Boom 1850* . دراسات فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، ١٩٧٥ .

ومن سبعينيات القرن الماضي إلى الحرب العالمية الأولى تم تنفيذ قدر وافر من الإصلاحات التي قيدت حريات السوق من أجل الحفاظ على التماسك الاجتماعي (وفي بعض الحالات من أجل الكفاءة الاقتصادية). وفي عام ١٨٧٠ أصدر «قانون التعليم»^(١٤) ، وهو قانون ذو طابع تدخلية خالص .^(١٤) ولم تكن هذه الإصلاحات تمثل التنفيذ لأي مخطط شامل ، ولكنها عند ختام القرن كانت قد وضعت نهاية للفترة القصيرة التي سادت فيها قاعدة «دعه يعمل» في إنجلترا . ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى كانت أسس دولة الرفاهة^(١٥) قد أرسيت في بريطانيا .

وظلت التجارة الحرة قائمة إلى أن حلت على بريطانيا آثار الكساد الكبير ، ولكنها استمرت كعقيدة جامدة بعد أن استنفدت جدواها كأيديولوجية بوقت طويل . ولم يتم التخلي عنها إلا عندما أصبح من غير المحتمل ل فقدان ميزة بريطانيا التنافسية في التجارة الدولية . وكما قال كوريللي بارنت : «لقد كان مقدم حالة طارئة شديدة أخرى ، هي الانهيار العملي ، هو الذي قضى في النهاية على قلمية المذهب الاقتصادي الليبرالي في بريطانيا . وتم التخلي عن التجارة الحرة نفسها في عام ١٩٣١ . وكان ذلك بعد قرابة مائة عام منذ أن مهدت الطريق لاعتماد بريطانيا على أسواق وإمدادات ما وراء البحار من أجل وجودها نفسه . . .»^(١٥) . وكانت بريطانيا قد انتهجت سياسة التجارة الحرة في منتصف القرن التاسع عشر لأسباب عدة ، من بينها الليزرة التنافسية التي كانت بريطانيا لا تزال تملكها في أسواق العالم بوصفها البلد الصناعي الأول . وكانت قوة أفكار مبدأ «دعه يعمل» في بريطانيا تعكس تلك الميزة .

(١٤) Education Law : صدر هذا القانون في عام ١٨٧٠ ، وترتب عليه انتشار التعليم الابتدائي وازدياد عدد المدارس المسائية . وفي عام ١٩٠٢ صدر قانون آخر بشأن التعليم يُعدّ تطويراً له ، وألغى هذا القانون الأخير الجالس المدرسية في مجال التعليم الابتدائي ، وأوجد سلطة واحدة لكل شكل من أشكال التعليم الأدنى من التعليم الجامعي ، ووضعت المدارس التطوعية والمدارس الابتدائية العادية على قدم المساواة المترجم .

(١٥) يمكن الحصول على وصف لقانون التعليم لعام ١٨٧٠ من آرثر ج. تايلور ، *Laissez - faire and State Intervention in Nineteenth Century* ، لندن ، مكميلان ، إيكونوميك هيتوري سوسايتي مونوجراف ، ١٩٧٢ ، الصفحة ٥٧ .

(١٦) Welfare State : نظام يقوم على مسئولية الدولة عن الفرد ورفاهة المواطنين ، وعلى الضمان الاجتماعي ضد البطالة والمرض والشيخوخة ، إلخ . وقد أطلق هذا الوصف على إنجلترا والدول الإسكندنافية . وقد بدأ تطبيق هذا النظام في إنجلترا في عام ١٩١١ المترجم .

(١٧) كوريللي بارنت ، *The Collapse of the British Power* ، سنرود ، جلوز : دار نشر آلان ساتون ، ١٩٨٤ ، الصفحة ٤٩٣ .

وقد حل محل تفكير قاعدة «دعه يعمل» المفكرون «الليبراليون الجدد» ، من أمثال هوبهاوس وهوسون وبوزانكيت وجرين وكيتز ، الذين كانوا على استعداد لتسخير سلطات الدولة لتخفيف آثار قوى السوق ، وإغاثة الفقراء ، وتعزيز الرعاية الاجتماعية . وفى العقد الأول من هذا القرن وجد الليبراليون فى لويد جورج أول وأعظم مهندس سياسى لهم .

وأعقب النمو البطيء لتشريعات الرعاية الاجتماعية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر تقدم سريع نحو دولة الرفاهة . وطُرح جانباً كلٌ من الفلسفة والسياسات التى كانت أساساً لقيام السوق الحرة . وتفاعل انعدام الأمن الاقتصادى مع مقتضيات المنافسة الحزبية فى الديمقراطية الوليدة . وكانت النتيجة هى استئصال التأثير السياسى لقاعدة «دعه يعمل» .

ومع ذلك فإن الوهم الليبرالى الكلاسيكى الذى تنطوى عليه السوق الحرة بوصفها نسفاً ذاتى التنظيم كان ما زال يتهدى فى سنوات ما بين الحربين . وكان هذا الوهم هو الدافع إلى التخفيضات الانكماشية فى الإنفاق ، وهى التخفيضات التى عمقت «الانهيار الكبير» . بل إن نمو الحركات الفاشية الذى كان يتغذى على التمزقات الاقتصادية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى لم يكن كافياً لزعزعة الثقة فى الأسواق التى تصحح نفسها بنفسها . وتطلب الأمر وقوع كارثة الحرب العالمية الثانية لهز المعتقدات الاقتصادية بمنف وقبول الآراء الكينزية .

غير أن الاقتصادات الموجهة فى فترة ما بعد الحرب لم تنشأ من تحول فكري عن قاعدة «دعه يعمل» ، وإنما كانت نتيجة للفرع من الانهيارات الاقتصادية والنظم الدكتاتورية التى أدت إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية ، ولرفض الحازم من جانب النازيين فى بريطانيا للعودة إلى النظام الاجتماعى الذى كان سائداً فى سنوات ما بين الحربين .

إن فكرة وجود نظام اقتصادى دولى قادر على أن يحقق لنفسه الاستقرار انهارت عندما قامت النظم الدكتاتورية الشمولية ، وحدثت الهجرات الجبرية ، وبعد الغارات الجوية الكثيفة التى قامت بها دول الحلفاء ، والرعب الذى لا يقاس نتيجة لعمليات الإبادة النازية . ففى بريطانيا قتلت هذه الفكرة تجربة اقتصاد حرب كان أكثر كفاءة من نظيره فى ألمانيا النازية ، ولم يعرف البطالة ، وكانت المستويات الغذائية والصحية فيه أعلى بالنسبة للغالبية مما كانت عليه فى وقت السلم .

وحققت قاعدة «دعه يعمل» خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن الحالى عودة إلى

الحياة السياسية منظوية على مفارقة تاريخية وسريعة الزوال . فالإنتاجية المتدهورة والتزاعات الاجتماعية والصناعية التي تسببت فيها السياسة الإدماجية البريطانية (*) كانت هي العوامل التي حفزت على تدخل صندوق النقد الدولي في إدارة الاقتصاد البريطاني في عام ١٩٧٦ . وكان ذلك التدخل بداية التحلل السريع لتوافق الآراء حول الاقتصاد الكينزي في بريطانيا في فترة ما بعد الحرب ، وهو التحلل الذي بلغ ذروته مع صعود مارجريت تاتشر إلى السلطة في عام ١٩٧٩ .

وقد أمسكت حكومة تاتشر بروح العصر ، واستجابت لبعض احتياجات بريطانيا . وأكمل المحافظون في سنواتهم المبكرة ما لم يستطع العمال القيام به ، وهو تفكيك النظام الإدماجي البريطاني الذي كان شرطاً مسبقاً للتحديث الاقتصادي ؛ ولكن هذه الاستجابة الضرورية لمعضلة قومية خاصة تحولت إلى أيديولوجية عالمية . وأصبحت تاتشر أيقونة السوق الحرة العالمية ، وتمت محاكاة سياساتها على نطاق العالم .

والأرجح أن يكون مصير نظام التعامل النقدي والتحرر من الضوابط الذي أقيم في بلدان كثيرة في ثمانينيات القرن الحالي ماثلاً لمصير السوق الحرة الإنجليزية في القرن التاسع عشر . ولكن تأثير الأعباء الاجتماعية للسوق الحرة سيكون أشد قسوة الآن مما كان عليه حينئذ . ذلك أن تأثير الحكومات الوطنية على اقتصاداتها أضعف الآن كثيراً . وإذا أريد للأسواق الاجتماعية أن تواصل البقاء ، أو أن يعاد بناؤها ، فتكون هناك حاجة إلى تجسيدها في مؤسسات جديدة وأكثر مرونة .

وتشكل الفوارق الاقتصادية الكبيرة التي تزداد اتساعاً خطراً يهدد الاستقرار السياسي للسوق الحرة على كل من المستوى الوطني والعالمي . وليس من اليسير أن نرى كيف يستطيع الانسجام بين الدول الكبرى الذي يقوده الأمريكيون ، والذي تعتمد عليه السوق العالمية الراهنة ، الصمود أمام نكسة طويلة الأمد في الاقتصاد العالمي . إذ إن سياسات إدارة الأزمة التي تفادت حدوث كارثة في الماضي القريب لن تكون ملائمة الآن .

إن انهيار النظام الاقتصادي العالمي الحالي يمكن أن ينشأ عن السياسات الراهنة . فأولئك الذين يتصورون أن الأخطاء الكبيرة في السياسة لا تتكرر في التاريخ لم يستوعبوا درسها الأساسي - وهو أن ما يتعلمه المرء لا يستقر في ذهنه طويلاً . فنحن في الوقت الحاضر في خضم تجربة في الهندسة الاجتماعية البيوتوية يمكن أن نعرف نتائجها مقدماً .

(*) British Corporatism : نظام سياسي قام في بريطانيا على إدماج المؤسسات السياسية والاقتصادية والنقابية في بنية الدولة بحيث تكون تحت رعايتها ورقابتها وإشرافها - الترجمة .

الفجر الكاذب للسوق الحرة العالمية

إن سياسات «دعه يعمل» التي أسفرت عن حدوث «التحول الكبير» في إنجلترا القرن التاسع عشر كان أساسها النظرية القائلة إن حريات السوق هي أمر طبيعي ، وإن القيود السياسية على الأسواق إنما هي قيود مصطنعة . والصحيح هو أن الأسواق الحرة من صنع سلطة الدولة ، وأنها تواصل البقاء فقط مادام باستطاعة الدولة الحيلولة دون أن تجرد احتياجات البشر إلى الأمن والتحكم في المخاطر الاقتصادية تعبيراً سياسياً عنها .

وفي حالة عدم وجود دولة قوية مكرسة لبرنامج اقتصادي ليبرالي ، فإن الأسواق ستكون حتماً مثقلة بحشد ضخم من القيود واللوائح . وهذه الأخيرة ستنشأ تلقائياً ، استجابة لمشكلات اجتماعية محددة ، وليس كعناصر في أي مخطط ضخم . فالبرلمانيون الذين أصدروا «قوانين العمل» في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر لم يكونوا يعيدون بناء المجتمع والاقتصاد وفقاً لخطة معينة ، وإنما كانوا يستجيبون للمشكلات التي تثيرها الحياة العملية - المخاطر ، الفساد ، انعدام الكفاءة - عندما أصبحوا مدركين لها . وكان زوال قاعدة «دعه يعمل» هو النتيجة غير المتعمدة لمجموعة كبيرة من تلك الاستجابات غير المنسقة .

إن الأسواق المثقلة والمعاقبة هي النمط المعتاد القائم في كل مجتمع ، على حين أن الأسواق الحرة هي نتاج للبراعة والتخطيط والقهر السياسي . وقاعدة «دعه يعمل» يجب أن تكون مخططة مركزياً ، أما الأسواق الخاضعة للضوابط فتظهر كنتيجة طبيعية . إن السوق الحرة ليست كما تصور مفكرو «اليمين الجديد» أو زعموا ، ثمرة تطور اجتماعي ، وإنما هي ناتج نهائي لهندسة اجتماعية وإرادة سياسية لا تثنين . وهي لم تكن مجدبة وعملية في إنجلترا القرن التاسع عشر إلا لأن المؤسسات الديمقراطية الفاعلة كانت مفقودة ، وخلال الفترة التي لم تكن موجودة فيها .

وثمة تداعيات عميقة لهذه الحقائق بالنسبة لمشروع بناء سوق حرة عالمية في عصر الحكم الديمقراطي ، ومنها أن تكون قواعد اللعبة بمنأى عن المناقشات الديمقراطية والإصلاح السياسي . فالديمقراطية والسوق الحرة على طرفي نقيض ، وليستا حليفين .

والمقابل الطبيعي لاقتصاد السوق الحرة هو سياسة انعدام الأمن . وإذا كانت الرأسمالية تعنى «السوق الحرة» ، فعندئذ لا تكون هناك وجهة نظر أكثر خداعا من الاعتقاد بأن المستقبل رهين «بالرأسمالية الديمقراطية» . وفى المجزى المعتاد للحياة السياسية الديمقراطية تكون السوق الحرة دائما قصيرة الأجل . ذلك أن أعباءها الاجتماعية كبيرة بدرجة لا يمكن معها أن تظل طويلا مكتسبة صفة الشرعية فى أي ديمقراطية . وهذه الحقيقة يشهد عليها تاريخ السوق الحرة فى بريطانيا ، ويذكرها المفكرون الليبراليون الجدد الأبعد نظرا الذين يخططون لجعل السوق الحرة مؤسسة عالمية .

وهؤلاء الذين يسعون إلى التخطيط لقيام سوق حرة على نطاق عالمي كانوا يصرون دائما على أن الإطار القانوني الذي يعرفها ويحصنها يجب أن يكون مبنأى عن متناول أي سلطة تشريعية ديمقراطية . فالدول ذات السيادة يمكنها أن توقع على الانضمام إلى «منظمة التجارة العالمية» ، ولكن تلك المنظمة ، وليست السلطة التشريعية فى أي دولة ذات سيادة ، هى التى تحدد ما يُعد تجارة حرة وما هو قيد عليها . ولذلك يجب رفع مستوى قواعد اللعب فى السوق بحيث يتجاوز إمكانية إعادة النظر فيها من خلال خيار ديمقراطي .

ودور منظمة عبر وطنية ، مثل «منظمة التجارة العالمية» ، هو إدخال الأسواق الحرة فى الحياة الاقتصادية لكل مجتمع . وهى تفعل ذلك بمحاولة الإيجاب على التقيد بالقواعد التى تطلق سراح الأسواق الحرة من الأسواق المعاقة أو المثقلة الموجودة فى كل مجتمع . وليس فى استطاعة المنظمات عبر الوطنية المضى فى هذا الطريق إلا بقدر ما تكون محصنة ضد ضغوط الحياة السياسية الديمقراطية .

ووصف بولانسى للتشريعات التى تطلبها خلق اقتصاد سوقى فى القرن التاسع عشر ينطبق بنفس القوة على مشروع السوق الحرة العالمية اليوم ، على النحو الذى عرض به من خلال «منظمة التجارة العالمية» والهيئات المماثلة . يقول بولانسى فى وصفه هذا :

«ينبغى عدم السماح لشيء بأن يعوق تكوين الأسواق ، كما ينبغى ألا يسمح للدخول بأن تتكون إلا من خلال المبيعات . وبالمثل لا ينبغى أن يكون هناك أى تدخل فى تكييف الأسعار مع تغير ظروف السوق - سواء أكانت أسعار بضائع أم

أسعار أيد عاملة أو أرض أو نقود . ومن ثم لا ينبغي فقط أن تكون هناك أسواق لكل عنصر من عناصر الصناعة ، ولكن أيضا عدم تشجيع أى سياسة أو تدبير من شأنه التأثير فى عمل هذه الأسواق . كذلك ينبغي عدم تثبيت أو تنظيم السعر أو العرض أو الطلب ؛ وإنما ينبغي فقط أن توضع فى مكانها الصحيح مثل تلك التدابير والسياسات التى تساعد على ضمان التنظيم اللاتى للسوق عن طريق خلق ظروف تجعل من السوق القوة التنظيمية الوحيدة فى المجال الاقتصادى^(١٦) .

ومن المؤكد أن ذلك خيال جامع يتعذر تحقيقه : وقد أحدث اتباع الهيئات عبر الوطنية له تمزقا اقتصاديا ، وفوضى اجتماعية ، واضطرابا سياسيا ، فى بلدان متفاوت فيما بينها تفاوتنا شديدا على نطاق العالم .

وفى الظروف التى تمت فيها تجربة إعادة ابتداء السوق الحرة فى أواخر القرن الحالى تطلب الأمر هندسة اجتماعية طموحة على نطاق واسع . وليست لدى أى برنامج إصلاحى اليوم فرصة للنجاح ما لم يكن قد أخذ فى الاعتبار عند وضعه أن كثيرا من التغييرات التى أحدثتها سياسات «اليمين الجديد» أو عجلت بها أو عززتها إنما هى تغييرات لا يمكن الرجوع عنها . وبالمثل فإن أى رد فعل سياسى ضد نتائج سياسات السوق الحرة لن يكون فعالا إلا إذا كان محيطا بالتحويلات التكنولوجية والاقتصادية التى أمكن لتلك السياسات تسخيرها .

وقد أحدثت إعادة ابتداء السوق تمزقات عميقة فى البلدان التى جُريت فيها ، كما أن التسويات الاجتماعية والسياسية التى دمرتها -تسوية بفريديج فى بريطانيا ، وسياسة روزفلت المتمثلة فى «النيوديل» فى الولايات المتحدة- لا يمكن الآن إحيائها من جديد . وبالمثل فإن اقتصادات السوق الاجتماعية فى أوروبا القارية لا يمكن تجديدها باعتبارها صورا أخرى معترفا بها للاشتراكية الديمقراطية أو الديمقراطية المسيحية التى ظهرت فى فترة ما بعد الحرب . أما أولئك الذين يتصورون أنه يمكن أن تكون هناك عودة إلى «السياسات العادية» للإدارة الاقتصادية لفترة ما بعد الحرب ، فإنهم يخدعون أنفسهم كما يخدعون غيرهم .

وحتى مع ذلك فإن السوق الحرة لم تنجح فى تأسيس القوة المهيمنة التى كانت

(١٦) كارل بولانى ، المرجع السابق ، الصفحة ٦٩ .

متوخاة منها . ففي جميع الدول الديمقراطية ما زالت الهيمنة السياسية للسوق الحرة غير مكتملة وغير مستقرة ، وسرعان ما تتلاشى . وهي لا تستطيع أن تظل قائمة خلال فترات التراجع الاقتصادي الطويل الأمد . ففي بريطانيا أدت النتائج غير المقصودة للسياسات الليبرالية الجديدة نفسها إلى إضعاف قبضة «اليمين الجديد» على السلطة السياسية . وسرعان ما تبعثر الائتلاف الهش بين المصالح الانتخابية والاقتصادية الذي أنشأه «اليمين الجديد» دعما لسياساته .

فقد تلاشى من ناحية نتيجة لتأثير سياسات اليمين الجديد ، ومن ناحية أخرى نتيجة للقوى غير المقيدة في الاقتصاد العالمي ككل . وقدمت سياسات «اليمين الجديد» لمن يدلون بأصواتهم لصالح تلك السياسات فرصة لحراك اجتماعي إلى أعلى . وبمضى الوقت فككت الهياكل الاجتماعية التي تشكلت فيها تلك التطلعات . وفضلا عن ذلك فرضت أعباء ثقيلة ومخاطر شديدة على بعض المتطلعين إلى الملكية العقارية . فأولئك الذين قيدتهم العدالة السلبية^(*) في مساكنهم يتعذر ، أن يتوقع منهم أن يفيضوا حماسا لنظام التحلل من الضوابط الذي أوقعهم فيما يعانون من مصاعب . إن انعدام الأمن الاقتصادي الذي زادت سياسات «اليمين الجديد» من حدته كان محتوما له أن يضعف الائتلافات الأولية التي ساندت هذه السياسات وأفادت منها . كما أن جانباً من انتصار حزب العمال الكاسح في انتخابات مايو عام ١٩٩٧ كان مرجعه هذه الآثار الذاتية التدمير المترتبة على سياسات «اليمين الجديد» التي يتهجها حزب المحافظين .

ومع ذلك فإن اختلالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية الراهنة ليس مرجعها الأسواق الحرة وحدها ، وإنما هي في آخر المطاف تنشأ عن انتشار التكنولوجيا . فالابتكارات التكنولوجية التي تتحقق في البلدان الغربية المتقدمة سرعان ما تنسخ في كل مكان . وحتى من غير سياسات السوق الحرة ، لم يكن باستطاعة

(*) Negative equity : وضع يصبح فيه المسكن الذي يشتري بالضمان أقل قيمة من المبلغ الذي اقترض لشراؤه (بسبب انخفاض أسعار المساكن) . والإشارة هنا إلى الإجراء الذي اتخذته مارجريت تاتشر فيما يتعلق بالمساكن المملوكة للمجالس المحلية (المساكن الشعبية) ، والتي كانت موزعة لشاغليها ، وهو الإجراء الذي كان يقضى بتخليها لهؤلاء الشاغلين . وقد اشتراها هؤلاء بأسعار شديدة الارتفاع ، ثم لم تلبث قيم العقارات أن انهارت بشدة - المترجم .

الاقتصادات الموجهة في فترة ما بعد الحرب أن تواصل البقاء - إذ إن التقدم التكنولوجي كان سيجعلها غير قادرة على الاستمرار .

وتؤدي التكنولوجيات الجديدة إلى تعلم تنفيذ سياسات العمالة الكاملة من النمط التقليدي . ومن شأن تكنولوجيات المعلومات أن تدفع بالتقسيم الاجتماعي للعمل إلى التغيير بسرعة . فمهن كثيرة تختفي ، وجميع الوظائف تصبح أقل أمناً . وتقسيم العمل في المجتمع هو الآن أقل ثباتاً مما كان عليه منذ الثورة الصناعية . وما تفعله الأسواق العالمية هو نقل عدم الاستقرار هذا إلى كل اقتصاد في العالم ، وهي إذ تفعل ذلك تضفي طابع العالمية على سياسة جديدة لانعدام الأمن الاقتصادي .

إن السوق الحرة لا تستطيع أن تدوم في عصر يعمل فيه الاقتصاد العالمي على زعزعة الأمن الاقتصادي لغالبية الناس . ومن المحتمل أن نتج عن إطلاق العنان لمبدأ «دعه يعمل» الحركات المضادة التي ترفض قيوده . وأمثال تلك الحركات - سواء أكانت شعبية ، أم معادية للأجانب ، أم دينية متطرفة ، أم شيوعية جديدة - تستطيع أن تحقق القليل من أهدافها ، ولكنها تستطيع مع ذلك أن تهز الكيانات الهشة التي تدعم مبدأ «دعه يعمل» على النطاق العالمي . فهل ينبغي أن نقبل عدم إمكانية تنظيم الحياة الاقتصادية للعالم باعتبارها سوقاً حرة عالمية ، وتعذر أن يحقق تنظيم عالمي أشكالاً أفضل للتنظيم والإدارة ؟ وهل قدرنا التاريخ أن نشهد فوضى في أواخر العصر الحديث ؟

وهناك حاجة إلى إجراء إصلاح للاقتصاد العالمي يقبل التنوع في الثقافات والأنظمة وفي اقتصادات السوق باعتبار هذا التنوع واقعا دائما . ذلك أن السوق الحرة العالمية إنما تنتمي إلى عالم تبدو فيه الهيمنة الغربية أمراً مؤكداً . وهي شأنها شأن جميع صور يوتوبيا التنوير الأخرى لحضارة عالمية تفرض مسبقاً سيادة الغرب . كما أنها لا تنسجم مع عالم متعدد الأقطاب لا توجد فيه أي سلطة يمكنها أن تأمل في ممارسة الهيمنة التي كانت بريطانيا والولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى تتمتع بها في الماضي ؛ ولا تلبى احتياجات عصر لم تعد فيه المؤسسات والقيم الغربية مقبولة عالمياً ؛ ولا تسمح لثقافات العالم المتعددة بتحقيق التحديتات التي تكيف مع تاريخها وظروفها واحتياجاتها المتميزة .

إن السوق الحرة العالمية تدفع الدول ذات السيادة إلى الوقوف بعضها ضد بعض فى الصراعات الجيوپولوتيكية من أجل موارد طبيعية آخذة فى التضاؤل . كما أن تأثير فلسفة «دعه يعمل» التى تُدخل الدولة فى الاقتصاد يتجلى فى إرغام الدول على الدخول فى منافسات من أجل السيطرة على موارد لا تتحمل أى مؤسسة المسئولية عن حفظها .

كذلك من الواضح أنه ليس هناك اقتصاد عالمى منظم بوصفه سوقا حرة عالمية يلبى الاحتياجات البشرية العالمية إلى الأمن . ذلك أن مبرر وجود الحكومات فى كل مكان هو قدرتها على حماية مواطنيها من انعدام الأمن . كما أن نظام «دعه يعمل» على النطاق العالمى الذى يحول دون اضطلاع الحكومات بهذا الدور فى حماية المواطنين إنما يخلق المزيد من عدم الاستقرار السياسى والاقتصادى .

وفى الاقتصادات المتقدمة التى تدار باقتدار وكفاءة ليس من المتعذر إيجاد طرق يمكن بها تخفيف المخاطر التى تفرضها الأسواق العالمية على المواطنين . أما فى البلدان الفقيرة فإن مبدأ «دعه يعمل» على النطاق العالمى يفرز أنظمة دينية متطرفة ، ويعمل بوصفه حفازا على تحلل الدولة الحديثة . وعلى المستوى العالمى ، وفى هنا الصلء على مستوى الدولة القومية ، فإن السوق الحرة لا تعزز الاستقرار أو الديمقراطية ، ذلك أن الرأسمالية الديمقراطية العالمية حالة يتعلم تحقيقها بقدر ما يتعلم تحقيق الشيوعية العالمية .

الفصل الثالث

هندسة الأسواق الحرة

إن الذى فتح الطريق إلى السوق الحرة وأبقاه مفتوحا هو التصاعد الهائل فى سياسة التدخل المتواصلة والمخططة والحكومة مركزيا .

كارل پولانى^(١)

شهد صباح يوم ٢٠ من ديسمبر عام ١٩٩٤ إجهاض واحدة من أشد تجارب السوق الحرة طموحا فى العالم . فلم تكد تمضى ثلاثة أسابيع على تولى إرنستو زيديتو مهام منصبه رئيسا للمكسيك حتى أعلن تخفيض عملة بلده ، وترتب على هذا الإجراء أن تعرض المستثمرون الأمريكيون الذين كانوا قد وضعوا مدخراتهم فى صناديق تديرها مؤسسات ، مثل فيديلتى وسكودر وجولدمان ساكس وسالومون برازرز^(٢) ، لخسارة تزيد على ٣٠ مليار دولار . وفى سوق الأوراق المالية المكسيكية قدرت خسارة الشركات المكسيكية بحوالى ٧٠ بليون دولار من قيمتها فى هذه السوق . وبالإضافة إلى ذلك فقد ما بين ربع مليون ومليون مكسيكى وظائفهم بحلول نهاية عام ١٩٩٥ ، وشهدت المكسيك هروب رهوس الأموال على نطاق غير مسبوق ، وطفرة فى معدل التخضم السنوى حتى تجاوز ٥٠ فى المائة ، وارتفاعا فى تكلفة الرهون العقارية والقروض يتجاوز كثيرا معدل التضخم ، كما شهدت نتيجة لذلك موجة إخفاق عارمة فى دوائر الأعمال والبنوك ، إلى جانب شبح الإنفلاس الذى ألقى بظله على بعض حكومات الولايات .^(٣)

إن ما انهيار فى ذلك اليوم كان أكثر من مجرد عملة : كان نموذجا من التنمية

(١) كارل پولانى ، The Great Transformation : The Political and Economic Origins of our

Time ، بوسطن : بيكون برس ، ١٩٤٤ ، الصفحة ١٤٠ .

(٢) Fidelity, Scudder, Goldman Sachs and Salomon Brothers

(٣) انظر ، رودريك أى كامب ، Politics in Mexico ، أكسفورد ونيويورك : إدارة النشر بجامعة

أكسفورد ، ١٩٩٦ ، الصفحتين ٢١٩ و ٢٢٠ .

الاقتصادية . فقد كانت التجربة المكسيكية ، قبل تخفيض العملة ، مثالا يجب أن تحتذىه البلدان النامية في العالم أجمع . وإذ لقيت المنظمات الوطنية تشجيعا من «توافق واشنطن» - الاعتقاد الجامد بأن حكومة الحد الأدنى (*) والأسواق الحرة هما أمران يمكن تحقيقهما بل ومرغوبا فيهما - فقد حاولت أن تغرس في المكسيك صورة أخرى من السوق الحرة الأمريكية . وبذلت محاولتان لتجربة مشروع مماثل ، إحداهما في بريطانيا في أيام مارجريت تاتشر ، والأخرى في نيوزيلندا في ظل حكومة حزب العمال . ويرغم وجود اختلافات كبرى بين هذين البلدين ، فالنتائج كانت متماثلة في كل منهما . وقد حققت التجربتان في أفضل الأحوال نجاحات جزئية ، ولكنهما أحدثتا تغييرا لا يحى في المجتمعين .

إن إقامة سوق واحدة في العالم أجمع هي في المقام الأول مشروع سياسي لأواخر القرن العشرين . ويحسن أن نذكر أنفسنا بذلك ، وأن نضع فارقا مهما . وهذا المشروع السياسي أشد عرضة بكثير للزوال من عولة الحياة الاقتصادية والثقافية التي بدأت في أوروبا في مستهل الحقبة الحديثة بدءا من القرن الخامس عشر وما بعده ، والمهيأة للتقدم طوال قرون مقلبة . فالعولة ،

(*) **Minimum (or minimal) government** : من أساسيات توافق واشنطن . والفكرة المتضمنة هنا هي أن ترفع الحكومة يدها عن معظم الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية ، وأن يقتصر دورها على الأمور الرئيسية ، مثل الأمن الداخلى والخارجى والعلاقات الخارجية إلخ ، ويقضى ذلك أن يتخلص حجم الحكومة بحيث يصبح أصغر ما يمكن . وقد يكون ذلك هو جوهر مفهوم التخصصية الذى يروج له البعض في مصر الآن ، ومفاده أن تقوم الحكومة بتخصصية جميع أوجه النشاط الاقتصادى ، بل والمرافق الأكثر جوهرية ، مثل قناة السويس والسكك الحديدية ومحطة كهرباء السد العالى والتعليم والنقل ، وربما أيضا مياه الرى ، وهلم جرا . وإذا ما حدث ذلك فلن تكون هناك حاجة إلى جهاز حكومى ضخم ، بل تكفى حكومة في أصغر حجم ممكن .

ولكن البنك الدولى أعاد أخيرا النظر في هذا الرأى . ففي التمهيد الذى قدم به رئيس البنك ، جيمس ولفتسون ، لتقرير البنك المعنون : «تقرير عن التنمية في العالم ، ١٩٩٧ ، الدولة في عالم متغير ، يقول ولفتسون «إن هذا الرأى المتطرف يتعارض مع شواهد قصص النجاح في التنمية العالمية ، سواء كان ذلك في التطور خلال القرن التاسع عشر . . . أو معجزات النمو في شرقي آسيا في فترة ما بعد الحرب . فهذه النماذج لم تأخذ بنهج الدولة التى تقوم بأقل دور ممكن ، بل أثبتت أن التنمية تحتاج إلى دولة فعالة ، تقوم بدور الحافز والميسر للتطور ، وتشجع أنشطة الأفراد ودوائر الأعمال وتكملها . ولاشك في أن التنمية التى تسيطر عليها الدولة قد فشلت ، ولكن فشلت أيضا التنمية التى تتم بغير تدخل الدولة . وهى رسالة تصل إلينا بوضوح تام من خلال معاناة سكان الدول التى أتهارت مثل ليبيريا والصومال . وقد أثبت التاريخ أن الحكومة الجيدة ليست من قبيل الترف ، فهى ضرورة حيوية . فمن غير دولة فعالة يتعلم تحقيق التنمية المستدامة ، سواء في جانبها الاقتصادى أو الاجتماعى» - المترجم .

بالنسبة للبشرية فى ختام الحقبة الحديثة ، هى قَدَر تاريخى ، وأليتها الأساسية هى توليد تكنولوجيات جديدة بسرعة ويلا هواده فى كل أنحاء العالم . وهذا التحديث لحياة العالم الاقتصادية الذى تدفعه التكنولوجيا سوف يمضى بغض النظر عن المصير الذى تنول إليه سوق حرة ذات نطاق عالمى . ذلك أن تنامى الترابط الاقتصادى لا يتوقف على المعتقدات التى يؤمن بها صندوق النقد الدولى . ولا يمكن أن يوقفه أو يرجشه سوى كارثة إيكولوجية .

ومع ذلك فإن النتائج المترتبة على هذا الانتشار لوسائل الإنتاج والاتصال الحديثة فى كل أرجاء العالم ، هى من الناحية العملية عكس تلك التى يتوقعها عن ثقة «توافق واشنطن» . فهو يعنى نسخ السوق الحرة الأمريكية ، وليس تكرار صورتها الكونية . والأمر الأكثر ترجيحاً أن يسبب فوضى دولية جديدة ، بدلا من أن يسترد أوجه التناسق التى يزعم أنها كانت موجودة فى نظام القرن التاسع عشر ؛ كما أنه يسمح بظهور أنماط جديدة من الرأسمالية تختلف غالبيتها اختلافاً حاداً عن السوق الحرة . ولن تكون الاقتصادات الأكثر نجاحاً فى القرن القادم هى تلك التى حاولت أن تطعم جذع ثقافتها المحلية بأسواق حرة على النمط الأمريكى ، بل الاقتصادات التى يتم تحديثها بأساليب أهلية .

ومن بين التجارب الحديثة فى إقامة السوق الحرة فى ظروف أواخر القرن العشرين ، تُعدّ التجارب فى بريطانيا ونيوزيلندا والمكسيك تجارب جديرة باهتمام خاص . فكل تجربة منها تضرب مثالا - فى سياق ثقافة سياسية وطنية خاصة - لسخريات ومفارقات السوق الحرة فى العالم الحديث فى مرحلته المتأخرة .

وفى كل تجربة من تلك التجارب ، كان الدافع إلى خوضها فى البداية هو أن الهياكل الاقتصادية الفشوية أصبحت غير قابلة للاستمرار ، وفى الوقت نفسه أصبحت الأيديولوجية الليبرالية الجديدة فى حد ذاتها قوية التأثير . كما أنه فى كل حالة أصبحت العملة الاقتصادية هى العامل الحفاز الذى أشعل فتيل التجربة الليبرالية الجديدة ؛ ولكن سياسة انعدام الأمن التى غذّتها اقتصاد عالمى آخذ فى الاتساع ، بعثرت ائتلاف المصالح الذى كان قائماً فى البداية ، والذى دفع القائمين بالتجربة إلى مقاليد السلطة ، وأضعف أو حطّم الأداة السياسية التى كانت تنفذها .

ونتيجة لذلك استخدمت السوق الحرة قوة الدولة لتحقيق غاياتها ، لكنها أضعفت

مؤسسات الدولة في مجالات حيوية . وفي كل حالة فقدت سياسات السوق الحرة مشروعيتها السياسية ، وبذلك في الوقت نفسه الاقتصاد والمجتمع بطرق لا يستطيع الخيار الديمقراطي النكوص عنها .

التجربة التاشرية

إن المحاولة التي قامت بها تاتشر لإحياء السوق الحرة في أواخر القرن العشرين هي محاولة منوّرة ليس فقط بالنسبة لاستراتيجياتها ونجاحاتها ، ولكن بالنسبة لطريقة سقوطها وأسباب هذا السقوط . فمن ناحية كانت السياسة التاشرية محاولة لأن تفرض على الاقتصاد البريطاني تحديثا كان في ميسس الحاجة إليه ؛ ومن ناحية أخرى حاولت هذه السياسة إعادة تشكيل المؤسسات البريطانية على غرار ماض لا سبيل إلى استرداده . وهذان الوجهان للسياسة التاشرية مرتبطان ارتباطا وثيقا لا ينفصم .

لقد عبأت تاتشر وراءها ائتلافا انتخابيا ساند سياساتها الرئسية المتمثلة في تقليص قوة نقابات العمال ، وإلغاء ملكية المجالس البلدية للمساكن الشعبية ، وخفض الضرائب المباشرة - الأمر الذي مكنتها من كسب ثلاثة انتخابات متتالية . كما أدى هدمها للسياسات التي توافقت عليها بريطانيا بعد الحرب إلى بدء سلسلة من التحولات البعيدة المدى في حزب العمال أفضت إلى عودته إلى السلطة في إثر انتصار ساحق في مايو ١٩٩٧ .

والتاشرية لم تبدأ كمشروع سياسي يُعدّ الأيديولوجية محورا له . ذلك أن الحكومة العمالية برئاسة جيمس كالاها ن كانت قد شرعت في تفكيك نظام التشكيلات الفئوية عندما أعلنت ، استجابة للأوامر التي فرضها عليها صندوق النقد الدولي في خريف عام ١٩٧٦ ، أن مرحلة العمالة الكاملة من خلال سياسات كينزية لإدارة شؤون الاقتصاد لم تعد أمراً ممكناً . لكن لم يكن بوسعها أن تفعل ما هو أكثر من تدشين ذلك الخروج على ما استقرت عليه أوضاع بريطانيا بعد الحرب ، إذ أنها لم تكن قادرة على إصلاح نظام العلاقات الصناعية في بريطانيا .

لقد بدأت التاشرية كاستجابة محلية لمشكلة بريطانية . ولم يكن في خطة عملها شيء أكثر أهمية من إصلاح نقابات العمال . فقد فهمت مارجريت تاتشر أن نظام التشكيلات الفئوية البريطاني - أي التنسيق الثلاثي في شؤون السياسة الاقتصادية بين الحكومة وأصحاب الأعمال ونقابات العمال - قد أصبح مرعيا للصدام

والشقاق فى ميدان الصناعة حول توزيع الدخل القومى ، بدلا من أن يكون أداة لخلق الثروة أو ضماناً للتماسك الاجتماعى . وظلت التاتشيرية طوال الجزء الأكبر من الثمانينيات مظهرا خادعا لهذه الرؤية .

ولم تكن تاتشر فى سنوات حكمها الأولى تسير على هدى أى مذهب مترابط ، بل ربما كانت فكرة التاتشيرية نفسها كأيدولوجية من اختراع اليسار . فقد كانت حفنة من الماركسيين النابيين ، لاسيما مارتن جاك ، رئيس تحرير المجلة الطليعية «الماركسية اليوم» ، من أوائل من أدركوا أن حكومة تاتشر كانت بمثابة قطيعة لا رجعة فيها مع الاشتراكية الديمقراطية البريطانية لفترة ما بعد الحرب .

ومع ذلك فعندما أطيح بتاتشر كانت قد غلبت على تفكير حكومتها أيدولوجية «يمينية جديدة» ساذجة ، تجلّت فى سياسات مصيرية مثل ضريبة الرؤوس . (*) وكانت قد أطبقت على تاتشر ومستشاريها موجة من الحماسة والسيطرة . وفى داخل تلك الحلقة كانت تاتشر تقف خلف ساتر حجب عنها هلع الجمهور ودوائر الأعمال من أن سياساتها - ليس فقط بشأن ضريبة الرؤوس ، بل بشأن موضوع أجلّ خطرا هو علاقات بريطانيا بالاتحاد الأوروبى - إنما تحركها أيدولوجية ، وليس ضرورات عملية .

ولم تلتطف حكومة جون ميچور التى أعقبت حكومة تاتشر فى عام ١٩٩٠ من غلواء سياساتها ؛ كل ما هنالك أن تلك السياسات طبقت بميكانيكية أكثر . فقسمت شبكة السكك الحديدية إلى شركات مخصصة (***) ، وتلك خطوة لم يرض عنها أحد ؛ عدا قلة تعيش على ريع معدات السكك الحديدية ؛ ولم يترتب عليها إلا تفاقم المتاعب

(*) Poll Tax : تسمية ساخرة أطلقها الناس على ضريبة جديدة ، اسمها الضريبة للحلية (Community charge) ، فرضتها مارجريت تاتشر ، وكانت هناك ضريبة قديمة (رسوم محلية Domestic rates) ، شبيهة بـضريبة «العواید» المعروفة فى مصر ، وكانت قيمتها تتحدد حسب قيمة المسكن ، على حين أن الضريبة الجديدة كانت رسما للصالح البلديات على كل شاغل لعقار ، سواء أكان هلا العقار شقة متواضعة أم قصرًا منيفاً . وجاء الفارق كبيرا بين الضريبة النسيية على العقار حسب قيمته المقدرة فى عام ١٩٧٤ ، والرسم الموحد المفروض على الشاغل أيا كانت قيمة مسكنه ابتداء من عام ١٩٩٠ ، فشيها عامة الناس «بضريبة الرؤوس» التى ألهمت ثورة الفلاحين فى عام ١٣٨١ ، وأطلقوا عليها اسم «ضريبة الرؤوس» لأنها سوّت فى الفتن بين الضنى والفقير ، ونظّموا مظاهرات حاشدة صاحبة ، وقدموا فى الفترة ما بين مارس عام ١٩٩٠ وديسمبر عام ١٩٩١ حوالى ١١ مليون عريضة تظلم ، بوتاع واحدة من كل ثلاثة ممن تستحق عليهم هذه الضريبة . ورفضت تاتشر التراجع ، واضطرت إلى الامتقالة - للترجم .

(**) Four Score privatized companies

الانتخابية التي واجهتها حكومة ميجور الأخيرة . ومن ثم فإن مشروع إعادة هندسة السوق الحرة لم يتكس عندما أطيح بتاتشر من السلطة ؛ وإنما أعطى فقط منمرجا نانيا طويلا ، وهكذا أخضعت بريطانيا قرابة عقدين لسياسات السوق الحرة .

وماذا عن محكّات الخزي الذي حاق «باليمين الجديد» ؟ إن حجم الدولة البريطانية لم ينكمش . فقد وضعت يدها على قدر من الموارد الاقتصادية للبلد لا يقل عما كان بيدها في السبعينيات - أى أكثر كثيرا مما كان بيد الحكومة العمالية فى عام ١٩٤٥ . كما كانت مستويات الضريبة لمعظم الأسر أعلى فى نهاية الحقبة التاتشرية مما كانت عليه فى بدايتها . وفى بعض المجالات ، مثل تقليص قوة نقابات العمال ، حققت السياسة التاتشرية أهدافها ؛ وساعدتها فى ذلك التغييرات التى طرأت على الاقتصاد نفسه ، ولكن نتيجتها الإجمالية كانت تهيئة الظروف التى أفضت إلى هزيمتها السياسية .

وقد أحدثت السياسات التاتشرية تآكلاً فى الثقافة الرفيعة التى اعتمدت عليها سيطرة حزب المحافظين المتواصلة لأكثر من قرن على الحياة السياسية البريطانية . ذلك أن مجموعة من السياسات وضعت فى بوتقة واحدة سلسلة كاملة من الصناعات والمجاورات السكنية والمهن لم يكن باستطاعتها تجديد الائتلاف الانتخابى الذى جعل نجاحها ممكنا من الناحية السياسية فى المقام الأول .

إن التحولات التى فرضتها السياسات التاتشرية على المؤسسات البريطانية كانت تهدد دائما بإبتلاع أداتها السياسية ، حزب المحافظين . ذلك أن الأحزاب السياسية التى تفرض تغييرات ثورية على كل جانب تقريبا من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، لا تستطيع الإفلات مما يترتب على هذه التغييرات من نتائج بالنسبة لها .

لقد كان حزب المحافظين فى حالة انحدار منذ الخمسينيات . وزادت سرعة عملية الانحدار هذه بصورة مأسوية فى فترة سيطرته التامة بلا منازع على مقاليد الحكم فى الثمانينيات ، وذلك مع وفاة الأعضاء القدامى وعدم حلول أعضاء جدد محلهم . وإنه لأمر بالغ الدلالة ، بعد انقضاء سنوات المجد التى عاشتها السيطرة التاتشرية ، أن متوسط عمر أعضاء حزب المحافظين عندما منى بهزيمته الفاجعة فى مايو ١٩٩٧ ، كان حوالى منتصف الستينيات .

وبرغم موقف تاتشر المتصلب فى معاداة الإصلاح الدستورى ، فإنه لم يكن هناك مناص من أن تتعرض مؤسسات الدولة البريطانية لتغييرات عميقة جاءت كآثار جانبية غير

متعمدة للسياسات التاتشيرية . وكان على رأس هذه التغيرات مركزة كاملة للسلطة فى ايدى الحكومة الوطنية . وكما لاحظ أ . ف . دايسى فيما يتعلق بالتجربة الأولى فى مجال «دعه يعمل» فى القرن التاسع عشر ، فإن «المؤمنين المخلصين بمبدأ «دعه يعمل» تبينوا أنه من أجل بلوغ غاياتهم ، كان تحمين الجهاز الحكومى وتقريبه من الضرورات المطلقة» (٣) .

ولم يكن ذلك ضللاً تنفرد به بريطانيا ، وإنما كان تعبيراً محلياً عن مفارقة كونية . ففى المجرى العادى للأمر تصبح الأسواق جزءاً لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية ، وتكون مقيدة فى أداؤها بمؤسسات وسيطة ، وتعوقها الأعراف الاجتماعية والتفاهات الضمنية . ومن بين هذه المؤسسات الوسيطة ظلت نقابات العمال والجمعيات المهنية الخائل الرئيسى بين الأفراد وقوى السوق . كما أن بناء سوق حرة يتطلب إضعاف هذه المؤسسات الاجتماعية أو تدميرها ، إذ يجب هزيمتها بوصفها ممثلة لمصالح متجين معينين تقف فى طريق المستهلك الكونى . وليس باستطاعة دولة مركزية قوية شن حرب على مثل هذه المؤسسات الوسيطة الجبارة .

ولم تكن مركزة الدولة البريطانية خلال الحقبة التاتشيرية خطأ من أخطاء السياسة يمكن تجنبه ، وإنما كانت جزءاً لا يتجزأ من عملية هندسة السوق الحرة .

وسرعان ما شوّه الدستور البريطانى الذى ورثته تاتشر فى عام ١٩٧٩ تشويهاً ضاعت معه معالمه . واختلطت أو ضعفت الحواجز بين مؤسسات الدولة والحكومة فى بريطانيا وحزب المحافظين ، وهى الحواجز التى كانت مجسدة فى التفاهات الضمنية والأعراف غير المكتوبة فى دستور ما قبل تاتشر . وبعد أن كانت الحيدة السياسية للموظفين العموميين (الخدمة المدنية) أمراً مسلماً به ، أخذت الشكوك تال منها . لقد استعمر «محاسب» حزب المحافظين من الرجال والنساء مؤسسات دولة الكواجمو (٤) ، وأصبحت الهيئات الوسيطة التى كانت ذات يوم مؤسسات مستقلة ذاتياً ، ملكية طائفة منغلقة من بطانة حزب المحافظين . أما علاقة الثقة بين الحكام والمحكومين ، التى كانت شرطاً لا غنى عنه

(٣) أ . ف . دايسى ، Lectures on the Relationship between Law and Public Opinion in Eng-land during the Nineteenth Century

، لندن ، ١٩٠٥ ، الصفحة ٣٠٦ .

(٤) Quango : هيئة شبه رسمية تدعمها الحكومة مالياً ، وتمين مشولها وتستمع بها عوضاً عن جهاز الدولة الرسمى . والكلمة مكونة من الحروف الخمسة الأولى لخمس كلمات معناها «هيئة غير حكومية شبه مستقلة» (Quasi - autonomous non - governmental organization) . وربما كان المقابل هو «الحكومة الموازية» - للترجم .

للشريعة فى ظل دستور غير مكتوب ، فقد تحولت إلى مجرد ذكرى من الماضى . وكانت النتيجة هى دستوراً فاقداً لتوازنه من الأساس لا يستطيع الصمود أمام هزيمة انتخابية تحيق بحزب المحافظين .

وقد أحدثت السياسات التاشرية تغييرات مهمة كثيرة فى المجتمع البريطانى والمؤسسات البريطانية ، بعضها لا يمكن الرجوع عنه . ومن هذه الأخيرة عمليات الخصخصة العديدة التى قد لا يتضح أن لها الأهمية الأعمق أو الأكثر دواما . بل إن أول عملية خصخصة لم يكن المحافظون هم الذين نفقوها ، وإنما نفذها حزب العمال ، عندما أعلن دنيس هيلى بيع جانب من حصة الدولة فى ملكية شركة البترول البريطانية^(*) . والواقع أن سياسة الخصخصة لم تكن ماثلة إلا بقدر ضئيل فى بداية العهد التاشرى ، فلم تظهر على الإطلاق فى البيان الانتخابى لعام ١٩٧٩ ، وبرزت لأول مرة كسمة مميزة للإدارة فى ظل حكومة المحافظين فى عام ١٩٨٢ ، عندما أدى الافتقار إلى الأموال اللازمة لتحديث صناعة الاتصالات السلكية واللاسلكية فى بريطانيا إلى إجبار الحكومة على التخليك فيما كان يُعدّ آنذاك خطوة ثورية - ألا وهو خصخصة مرفق عام رئيسى .

ولم يكن ما دفع إلى تلك الخصخصة الرشيمية^(**) مذهب ما ، وإنما دفع إليها منطق الأحداث . ذلك أنه أمام صناعة تحتاج بصفة عاجلة إلى تغذيتها براءه وس أموال يتعذر الحصول عليها من الأموال العامة الخاضعة لرقابة الخزانة ، لم يكن هناك خيار سوى الحصول عليها من أسواق رأس المال . ولكى يتحقق ذلك كان لابد من خصخصة تلك الصناعة . ومن سخرية الأقدار التى زخرت بها تلك الحقبة أن خصخصة الشركة البريطانية للاتصالات السلكية واللاسلكية^(***) حققت درجة من النجاح استطاعت معها تمويل عملية التحديث التكنولوجى من مواردها الخاصة .

وقد ظهرت الخصخصة لأول مرة فى بيان انتخابى لحزب المحافظين فى عام ١٩٨٣ . وقائمة أصول الدولة التى تمت خصصتها خلال السنوات التالية من السياسة الليبرالية الجديدة قائمة طويلة ودسمة . وفى عام ١٩٧٩ كانت المؤسسات الحكومية تملك معظم أو كل هيئات الفحم والصلب والغاز والكهرباء والمياه والسكك الحديدية وخطوط الطيران والاتصالات السلكية واللاسلكية والطاقة النووية وبناء السفن ، كما كانت لها

. British Petroleum (*)

. Seminal (**): أى عملية الخصخصة التى تطوى على بذور عمليات الخصخصة المقبلة - للترجم .

. British Telecom (***)

حصر مهمة فى هيئات النفط والبنوك والنقل البحرى ورفض الطرق . وبحلول عام ١٩٩٧ كان كل هذا فى أيدي القطاع الخاص ، فضلا عن أن ما يفوق المليون من المهاجرين السابقين لمساكن البلديات (المساكن الشعبية) أصبحوا يمتلكون بيوتهم .

وجنبا إلى جنب مع هذه التخصصة لممتلكات الدولة ، كان هناك تأمين شامل لمؤسسات الحكم المحلى والمؤسسات الوسيطة . فأعيد تنظيم الخدمات الصحية الوطنية والمدارس والمعاهد الفنية السابقة والجامعات والسجون وإدارة القضاء ، والهيئات المنظمة لقوات الشرطة ، إذ أخرجت من رقابة السائغات المحلية المنتخبة ديمقراطيا ، ووضعت تحت رقابة إدارات موازية (كوانج) غير متخبة وهيئات قريبة من الحكومة المركزية يفترض أن تكون عرضة للمساءلة أمامها إن حوسبت أصلا . وبحلول عام ١٩٩٥ كانت هذه الإدارات الموازية تستخدم مزيدا من الموظفين وتنفق أموالا تزيد على ما كانت تنفقه هيئات الحكم المحلى . وأخيرا تم تطعيم كل المرافق العامة بآليات السوق ، مثل المناقصات التنافسية الإلزامية ، وربط المرتب بالأداء والربح ، وما شابه .

وتمركزت مؤسسات الحكم المختلفة ، التي ظلت السلطة فى بريطانيا فترات طويلة موزعة من خلالها ، تمركزا لم يشهده التاريخ من قبل فى زمن السلم . وفُرضت عليها جميعا آليات السوق أو صور زائفة من الأسواق .

وكان «تأمين بريطانيا»^(٤) الذى قامت به تاتشر يمشى جنباً إلى جنب مع التفسيرات التى فرضت على سوق العمل . كما أن تقليص قوة نقابات العمال ، والاقتراب من سوق للعمل ذات طابع فردى أكثر ، كان من بين الأهداف القليلة الشديدة الوضوح لحكومة تاتشر الأولى . وفى تألف مع الالتزام بثبات الأسعار - طبقا للمذهب النقدي - الذى يتحقق بأية تكلفة اجتماعية أو اقتصادية ، حدد هذان الهدفان بصفة نهائية مصير استقرار ما بعد الحرب فى بريطانيا .

إن التوافق فى الرأى بين كيتز وبيريديج لم يقتصر على العمالة الكاملة بوصفها الشرط المسبق الذى لا غنى عنه لقيام دولة رفاهية مستدامة ، بل فرض أيضا على الحكومة التزاماً صارماً بالعمل على تحقيقه . وفى ظل حكومة تاتشر لم يكن التخلي الصريح عن مسؤوليتها

(٤) انظر ، سيمون جينكتر ، *Accountable to None: The Tory Nationalization of Britain* ، لندن : هاميش هاملتون ، ١٩٩٥ .

إزاء العمالة الكاملة مجرد تحول فى العقيدة الاقتصادية من كينز إلى فريدمان^(*)، بل إنه أحدث تحولاً أساسياً فى فهم وظائف الدولة . وفى هذا التحول لم يكن المستند الفكرى هو كتاب هايك *دمتور الحرية* (**) ، أو أى انتحال من منظرى الليبرالية الجديدة ، وإنما كتاب جون هوسكنز *سبل التقدم* (***) ، الذى يعد مرشداً إلى التعامل مع قوة نقابات العمال، وخلق سوق حرة للأيدى العاملة (لم يسبق نشر هذا الكتاب) .^(٥)

وطبقاً للفهم التاشرى للدور الدولة، تكون مهمة الدولة هى تقديم إطار من القواعد واللوائح التى فى ظلها تصحح السوق الحرة - بما فيها سوق العمل ذات الدور الحاسم - ذاتية التنظيم . ومن هذه الرؤية يتعين تغيير وإضعاف دور نقابات العمال كمؤسسات وسيطة بين العمال والسوق . فأعيد تشكيل قانون التوظيف . وكان النموذج المعاصر الذى سارت هذه التغييرات على هديه جملة وتفصيلاً هو سوق العمل الأمريكية بمستويات حراكها العالية ، ومرونتها الشديدة فى تخفيض الأجور، وقدرتها على تخفيض التكاليف بالنسبة لأصحاب العمل .

وكان من بين ما ترتب على هذه السياسات حدوث زيادة كبيرة ومفاجئة فى العمل الجزئى (لبعض الوقت) والعمل التعاقدى . ولم تعد المؤسسة البورجوازية للتدرج الوظيفى أو المهنة الثابتة خياراً عملياً لعدد متزايد من العمال . وأخذ عمال كثيرون من ذوى المهارة المحدودة يتكسبون أقل من الحد الأدنى الضرورى لإعالة أسرة . وعادت أمراض الفقر - مثل الدرن الرئوى وكساح الأطفال وغيرها .^(٦) وأشير على أفراد الطبقات الوسطى السابقة بأن يصبحوا «متعاملين فى الأوراق المالية» (****) ، غير ملتحقين بأي

(*) ميلتون فريدمان : (١٩١٢ - ؟) ، عالم اقتصاد أمريكى ، له دراسات مهمة فى المسائل النقدية . حصل على جائزة نوبل فى عام ١٩٧٦ - المترجم .

(**) وردت إشارة فى الفصل الأول ، وسترد إشارة أخرى فى الفصل الثامن ، إلى كتاب فريدريك فون هايك *Constitution of Liberty* - المترجم .

(***) *Stepping Stones* .

(٥) فيما يتعلق بكتاب *Stepping Stones* ، انظر ، دراسة هوجو بونج الممتازة عن مارجرى تاتشر ، *One of Us* ، لندن : بان بوكس ، ١٩٩٣ ، الصفحات ١١٥ إلى ١١٨ .

(٦) مسح وطنى أجرته «رابطة الزائرين الصحيين» تحت عنوان ، *"Dickensian diseases return to haunt today's Britain"* ، نشرته جريدة *إنديبنلنت* ، عدد ٢٥ من نوفمبر عام ١٩٩٦ .

(****) التعبير الوارد فى المتن هو *"Portofolio person"* . ويرد فى المراجع تعبير *"Portofolio man-agement"* بمعنى شراء الأسهم ويعمها بفرض تحقيق ربح لشخص ما - للمترجم .

شركة أو مؤسسة بعينها . وخلص مسح أجرى في عام ١٩٩٦ إلى أن «التدرج الوظيفي التقليدي قد انتهى ، ويات مجرد ذكرى» . (٧)

وفي الوقت نفسه ، قُلِّصت استحقاقات مزايا الرعاية الاجتماعية بالنسبة للجميع ، وأصبح الغرض من إعانة البطالة (مثل «إعانة الباحثين عن عمل»^(٨)) التي تقررت في عام ١٩٩٦ هو بالتحديد إجبار المستفيدين منها على قبول العمل بفئات الأجر التي يحددها السوق . وقد لا يكون خيالا أن نسمع هنا صدى للإصلاحات التي أتت بها «قانون الفقراء» الصادر في ثلاثينات القرن التاسع عشر . ففي كلتا الحالتين كانت النتيجة هي فقدان الموظفين لقدرة كبير من قوة المساومة الاقتصادية .

إن تناقص السوق الحرة الأبعد غورا هو أنها تعمل على إضعاف المؤسسات الاجتماعية التقليدية التي كانت تركز عليها في الماضي - والأسرة خير مثال لذلك . فقد ازدادت هشاشة الأسرة التقليدية وتدنى شأنها طوال الحقبة التاشرية . وهبطت نسبة المتزوجات ، اللاتي تتراوح أعمارهن بين الثامنة عشرة والخامسة والأربعين ، من ٧٤ في المائة في عام ١٩٧٩ إلى ٦١ في المائة ، على حين ارتفعت نسبة المعاشية على طريقة الأزواج من ١١ في المائة إلى ٢٢ في المائة خلال الفترة نفسها . كما زاد عدد حالات الولادة خارج الزواج إلى أكثر من الضعف خلال الثمانينيات ، وزادت نسبة الأسر وحيدة الوالد^(٩) من ١٢ في المائة في عام ١٩٧٩ إلى ٢١ في المائة في عام ١٩٩٢ ، وكانت أكبر زيادة مفردة توجد في عدد الأمهات العزباوات اللاتي لم يسبق لهن الزواج .

وبحلول عام ١٩٩١ كانت هناك حالة طلاق لكل زوجتين في بريطانيا . وهذا أعلى معدل للطلاق في أي بلد من بلدان الاتحاد الأوروبي ، ولا يوجد له مثيل إلا في الولايات المتحدة .^(٨) فهل من قبيل الصدفة أنه ليس هناك بلد من بلدان الاتحاد الأوروبي ، عدا بريطانيا ، فرض على سوق العمل فيه تحررا من الضوابط المنظمة لها لتصبح وفق النمط

(٧) Transition and Transformation : Employee Satisfaction in the 1990s ، لندن : بحوث للمح الدولي ، ١٩٩٦ .

(٨) Job Seekers Allowance

(٩) تستخدم كلمة الوالد هنا بمعنى الأب أو الأم . والمقصود هنا هو الأسرة التي يوجد بها الأب فقط من غير الأم ، أو التي توجد بها الأم فقط من غير الأب ، أي الأسرة التي يعولها أحد الوالدين منفردا . [وعبارة الأسرة وحيدة الوالد الواردة في المتن ترجمة لعبارة One-parent family] - المترجم .

(٨) قد توجد دراسة لهذه الشواهد في روث ليستر ، «The Family and Women» ، في العمل الجماعي الذي أعده د. كالتاغ . سيلدون ، «The Major Effect» ، لندن : مكيلان ، ١٩٩٤ .

الأمريكى ؟ إن تلك المدن البريطانية التي حققت فيها السياسات التاشيرية الخاصة بتحرير سوق العمل من الضوابط أعظم نجاح في تخفيض معدلات البطالة ، كانت هي المدن التي عرفت في مقابل ذلك أعلى معدلات الطلاق وتصدع الأسر . (٩)

بل إن الأمر الأشد وقعاً كان نمو طبقة دنيا* . فالنسبة المثوية للأسر البريطانية التي لا تتقاضى معاشاً تقاعدياً وكل أفرادها بلا عمل - أي لا يوجد بين أفرادها من يعمل في الاقتصاد الإنتاجي - زادت من ٦٥ في المائة في عام ١٩٧٥ إلى ١٦٤ في المائة في عام ١٩٨٥ ، وإلى ١٩١ في المائة في عام ١٩٩٤ . (١٠) وتواصلت هذه الزيادة ، بل ربما تسارعت ، في ظل حكومة جون ميجور . وفيما بين عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٧ حدثت زيادة مقدارها ١٥ في المائة في عدد الوالدين الوحيدين** (العاطلين عن العمل) . (١١)

ولنقلها صراحة : إنه توجد في بريطانيا اليوم أسرة واحدة تقريباً من كل خمس أسر (مع استبعاد أصحاب المعاشات التقاعدية) لا يعمل أي فرد من أفرادها . وهذا يمثل حجماً من الإقصاء الاجتماعي غير معروف في أي بلد أوروبي آخر ، لكنه مألوف في الولايات المتحدة منذ مدة طويلة . وقد حدث هذا النمو المأسوي لطبقة دنيا كتيبة مباشرة للإصلاحات الليبرالية الجديدة في ميدان الرعاية الاجتماعية ، لا سيما من حيث أثرها على الإسكان . وكثيراً ما يمتدح التخلص من المساكن المملوكة للمجالس البلدية (المساكن الشعبية) بيعها لشاغليها باعتبار ذلك قصة نجاح تاشيرية . ومن المؤكد أنها كانت ذات دلالة انتخابية بوصفها مصدر تأييد للتاشيرية في الثمانينات ، برغم أنها على الأرجح قد أضرت بحزب المحافظين في التسعينيات . أما من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، فإن القضاء على الجزء الأكبر من المساكن المملوكة للمجالس البلدية كان من العوامل الرئيسية التي ساعدت على ظهور ثقافة التبعية الليبرالية الجديدة . وقد أفادت التقديرات بأن الإنفاق على إعانات

(٩) للمحصل على بيّنة فيما يتعلق بتأكيد الصلات بين حراك سوق العمل وتصدع الأسر ، انظر ، مايو دانكونا ، *The Ties That Bind* ، لندن : مؤسسة السوق الاجتماعية ، ١٩٩٦ .

(١٠) *Underclass* ، وهناك الطبقة العليا *Upper class* ، والطبقة الوسطى *Middle class* - المترجم .

(١٠) مسح أجراه هول جريج وجوناثان وادزويرث في مدرسة لندن لعلم الاقتصاد ، نشر في جريدة أوزبورنر ، عدد ١٠ يناير ١٩٩٧ ، الصفحة ١٠ .

(١١) جمع «الوالد الوحيد» ، أي أحد الوالدين (الأب أو الأم) منفرداً . وعبارة «الوالدين الوحيدين» ترجمة لعبارة «*lone parents*» - المترجم .

(١١) للمصدر : مكتبة مجلس العموم ، قام بتجميعها بيتر هاين ، عضو البرلمان ، ووردت في جريدة *تلينتلنت* ، عدد ٢٢ من ديسمبر عام ١٩٩٦ .

الإسكان خلال عامي ١٩٦٧ و ١٩٦٨ كان أكثر من ١١ مليار جنيه إسترليني ، وهو ما يعادل ١,٥ في المائة من الناتج المحلي الإجمالي لبريطانيا ، ويزيد على عشرة أمثال التكلفة الكلية لإعانات الإسكان في عامي ١٩٧٩ و ١٩٨٠. (١٢) وقد استعصى عن الإنفاق العام على الإسكان الاجتماعي بأموال تفوقه عدة مرات ، وتمثل في تخفيض إيجارات المساكن وتقديم إعانات لسداد الرهون العقارية . وهكذا أصبح ثمن خصخصة مساكن للمجالس البلدية في بريطانيا يتطلب زيادة هائلة في الاعتماد على الإعانات .

والأمر الأكثر دلالة في هذه التطورات هو الفارق بين التجربة البريطانية وتجربة بلدان أوروبية أخرى لم تخضع لفترة طويلة لسياسة عامة ليبرالية جديدة ، والتماثلات الصارخة بينها وبين الاتجاهات السائدة في الولايات المتحدة . بل إن هناك ترابطا ملحوظا حتى في السياسة العقارية . فمعدل الإيداع في السجون البريطانية أعلى بكثير منه في أى بلد من بلدان الاتحاد الأوروبي (وإن كان لا يزال أدنى كثيرا من مثيله في الولايات المتحدة) ، وهو يرتفع بسرعة . ففيما بين عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٥ زاد عدد نزلاء السجون في بريطانيا بما يقرب من الثلث (ليصل إلى أكثر من ٥٠ ألف نزيل) .

أما عن الأرقام الخاصة بمعدلات الجريمة فإن الحصول عليها أكثر مشقة ، كما يعرف عنها أنها خادعة في تفسيرها . ومع ذلك لا سبيل إلى الخطأ في الحكم على الاتجاهات الشاملة . ففي عام ١٩٧٠ كان عدد الجرائم الخطيرة التي لدى الشرطة في إنجلترا وويلز علم بها ١,٦ مليون جريمة ، وفي عام ١٩٨١ كان عددها ٢,٨ مليون جريمة . (١٣) وفي نهاية عام ١٩٩٠ كان عدد الجرائم المسجلة ٤,٣ مليون جريمة . وبالنسبة لعام ١٩٩٢ كان الرقم المقابل ٥,٦ مليون جريمة . وفضلا عن ذلك فإن تقرير عام ١٩٩٢ عن الجريمة في بريطانيا كان يوحى بأن الرقم الحقيقي أقرب إلى ثلاثة أمثال الرقم الرسمي . (١٤)

وفي الوقت نفسه كانت هناك زيادة مطردة فيما تنفقه الدولة على إنفاذ القانون في بريطانيا . ففيما بين الفترتين ٨-١٩٧٩ و ٢-١٩٨٣ زاد الإنفاق على قوات الشرطة بما يقرب من الربع بالأسعار الحقيقية ؛ وزاد عدد أفراد الشرطة حوالي عشرة آلاف فرد تقريبا ،

(١٢) جريدة فاينانشيال تيمس ، المقالة الانتاحية ، عدد ٢٧ من أغسطس عام ١٩٩٦ .

(١٣) لنظر ، إسكيد ، س. كوك ، *Post - War Britain : A Political History* ، هارمونديوث : بنجوين ، ١٩٩٠ ، الصفحة ٣٥٤ .

(١٤) ت. موريس ، "Crime and Penal Policy" ، في العمل الجماعي الذي أعده كافلتاغ وسيلدن ، *The Major Effect* ، للرجوع السابق ، الصفحة ٣١٣ .

ليصل إلى أكثر من ١٢٠ ألفاً في وزارة مارجريت تاتشر الأولى .^(١٥) (لم تكن تلك الزيادات في رواتب رجال الشرطة وأعدادهم سمة انفردت بها إدارات جون ميجور .) وعلى وجه الإجمال فإن الجرائم من كل نوع ، وغالبية أشكال إنفاق الدولة على إنفاذ القوانين ، كانت تتجه إلى التصاعد طوال حكم تاتشر - وساد اتجاه مماثل في التجربة النيوزيلندية وفي أمريكا في عهد رونالد ريغان .

ويقدم تقييم سوسيولوجي حديث موجزاً وافياً لعواقب التآثرية على الجريمة والنظام الاجتماعي :

«فيما يتعلق بالجريمة بوجه عام ، توحي الدلائل بأن أفضل طريقة لفهم أسباب ارتكاب الأنواع الغالبة من الجرائم ، وتزايد الخروج على القانون في العقد الأخير ، هو ربطها بالتغيرات الطويلة الأمد التي كانت تحدث في المجتمع البريطاني طوال عشرين سنة تقريباً والوهن التزايد في الروابط الاجتماعية التقليدية للأسرة والمجتمع المحلي ، والتحول النهائي للوظيفة التقليدية للمدارس الابتدائية والثانوية التابعة للدولة ، من الضبط الاجتماعي الموجه تربوياً ، إلى ضبط اجتماعي موجه نحو التنافس في اكتساب المعارف والمهارات على نحو يؤدي إلى انقسام للمجتمع على نفسه . . . لقد ذهب طي النسيان دور المدرسة الداخلية في المعهد الفيكتوري ، التي ظلت نموذجاً للتعليم الابتدائي بعد فترة غير قصيرة من مقدم القرن الحالي . . . وكان الاختفاء الفعلي لمجموعة من العاملين المساعدين في مجال الضبط الاجتماعي ، من حراس مواقف السيارات إلى سائقي الحافلات ومراقبي الحضور في المدارس ، هو الذي ترك رجال الشرطة معرضين بشدة للأخطار وغير مزودين بما يكفي للتعامل مع مشكلة الجريمة . . إن اللجوء المتزايد إلى الإيداع في السجون كحل لمشكلات اجتماعية هو بالمثل عديم الأثر لكنه باهظ التكلفة . . فالجرائم من النوع الذي أصاب بريطانيا وجزءاً كبيراً من العالم في العصر ما بعد الصناعي إنما هي تعبير عن ضيق أعمق أثراً» .^(١٦)

إن الربط بين الأسواق الحرة وسياسات «القانون والنظام» لم يكن أبداً ربطاً بغير قصد : فكما ضعفت المؤسسات الاجتماعية الوسيطة والضوابط الاجتماعية غير الرسمية لحياة للمجتمع المحلي بفعل التغيير الاقتصادي الذي يدفعه السوق ، تعززت الوظائف

(١٥) إسكيد وكوك ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٥٤ .

(١٦) ت. موريس ، في العمل الجماعي الذي أعده كاناقاغ وسيلدون ، The Major Effect ، المرجع السابق ، الصفحات ٣١٤ إلى ٣١٦ .

التأديبية للدولة . ويبلغ هذا التطور نهايته عندما تصبح جزاءات القانون الجنائي هي السند الأساسي المتبقي للنظام الاجتماعي . ونقطة البداية هذه قد لا تكون جد بعيدة في الولايات المتحدة .

وما جعل التاشيرية تقوّض ذاتها كمشروع سياسي هو النتائج الاجتماعية غير المقصودة التي تمخضت عنها . فالسياسة الاقتصادية التي تعجل باختفاء صناعات ومجاورات سكنية ، تحمل الناخبين على الارتياح في ولاء القائمين عليها . ويصدق ذلك بوجه خاص على بريطانيا حيث الانتماءات الانتخابية والثقافة الرفيعة كانت دائما ذات ارتباط وثيق وعميق . وقد أدت السياسات التاشيرية ، في تعجيلها بتلاشي الثقافة الرفيعة القديمة ، إلى إضعاف السند القديم العهد لحزب المحافظين . ففي أول الأمر كان ذلك يعمل لصالح تانتشر من الوجهة السياسية ، بتحول ناخبين قدامى لحزب العمال إلى التصويت إلى جانب المحافظين ، ولكنه في المدى الأطول مثلما أضعف التأييد للمحافظين في صفوف الطبقات الوسطى جعل استمرار حكم المحافظين أمرا مستحيلا .

كذلك شجعت السياسات التاشيرية ثمنا صارخا في التفاوت الاقتصادي . فطبقا «لتقرير راونترى عن الدخل والثروة» ، وهو تقرير له حججته ، زاد التفاوت في بريطانيا فيما بين عامي ١٩٧٧ و١٩٩٠ بسرعة أكبر مما زاد في كل البلدان المماثلة ، عدا بلد واحد . وبعد عام ١٩٧٩ لم تعد للمجموعات الأدنى دخلا تستفيد من النمو الاقتصادي . ومنذ عام ١٩٧٧ زادت نسبة السكان الذين يقل دخلهم عن نصف متوسط الدخل إلى أكثر من ثلاثة أمثال ما كانت عليه . (١٧) وفي الفترة ٤ - ١٩٨٥ كانت حصة خمس السكان الأكثر ثراء من الدخل بعد اقتطاع الضريبة - ٤٣ في المائة - أكبر مما كانت عليه في أي وقت بعد الحرب . (١٨)

وبرغم نشوء درجات تفاوت في كثير من بلدان العالم الأول ، فإن ظهور التفاوتات الاقتصادية وحجمها في بريطانيا يفوقان كثيرا ما يحدث في سائر تلك البلدان . ولم يكن ثمو التفاوت أسرع إلا في نيوزيلندا .

وفي الانتخابات العامة التي أجريت في مايو ١٩٩٧ جاءت حصة المحافظين من

(١٧) Joseph Rountree Foundation Inquiry into Income and Wealth ، المجلد الأول ، بورك :

فبراير ١٩٩٥ ، مؤسسة جوزيف راونترى ، الصفحة ١٥ .

(١٨) Joseph Rountree Report ، المرجع نفسه ، للمجلد الثاني ، الصفحة ٢٣ .

التصويت الشعبي أدنى مما كانت عليه فى أى وقت منذ «قانون الإصلاح الكبير»^(*) لعام ١٨٣٢ . لقد حطمت الثورة التاتشرية حزب المحافظين . واندحار المحافظين له أسباب عديدة بعضها أخطاء سياسية كان يمكن تجنبها ، وبعضها الآخر مصادفات تاريخية ما كان لها أن تحدث . وتعتبر ضريبة الرسوم مثالا لخطأ كان يمكن تجنبه . كما أن الخطاب التاتشرى الطنان حول الاتحاد الأوروبى الذى أصم الأذان فى الفترة التى سبقت سقوطها مباشرة ، كان من الممكن ألا يبنى بتغيير أساسى فى سياستها ، ولكنه أفرغ المؤيدين للاتحاد الأوروبى فى حزبها وفى دوائر الأعمال . أما أزمة جنون البقر^(**) التى أرقت حكومة جون ميجور المحترسة فإنها ترتبت على سياسات مضللة ، وإن جاء حدوثها مصادفة .

وكما يحدث دائما فى الحياة السياسية ، كان للحظ فى بعض الأحيان دور حاسم . ذلك أن تاتشر كانت قريبة جدا من الفشل فى أزمة «وستلاند»^(***) التى كان يمكن عندها أن تنتهى تجربة السوق الحرة فى بريطانيا .^(١٩) كما كان يمكن لهزيمة عسكرية كبيرة فى حرب جزر فوكلاند مع الأرجنتين أن تحدث أصداء تشل حركتها . وأسوة بكل السياسيين اعتمدت مارجريت تاتشر على رصيدها من الحظ . وفعلت ذلك حتى عام ١٩٩٠ ، عندما أطاح بها انقلاب دبره حزب المحافظين ضدها .

وجاء انتصار جون ميجور المفاجئ فى الانتخابات العامة لعام ١٩٩٢ ، فمنح التاتشرية فرصة جديدة للعيش . ففى ذلك الوقت كان الناخبون قد انتهوا إلى القبول بفكرة أن السير الجيد للاقتصاد لا يعزى إلى براعة الحكومة فى إدارته ، ولكنه نتيجة عارضة لحالة الأسواق العالمية . وقد سعت الحكومات البريطانية ، حتى الثمانينات ، إلى

(*) Great Reform Acts : صدرت فى إنجلترا فى عهدى للملك وليم الرابع وللملكة فيكتوريا ، ابنة أخته التى خلفته ، مجموعة قوانين لتعديل التمثيل النيابى ، ووضع قواعد جديدة لانتخاب أعضاء مجلس العموم .
«قانون الإصلاح الكبير» هو قانون الإصلاح الذى أصدره الملك وليم الرابع فى عام ١٨٣٢ - المترجم .
(**) BSE .

(***) وستلاند هى المنطقة التى توجد بها مصانع الطائرات الهليكوبتر (المروحيات) التابعة لوزارة الدفاع البريطانية . وفى إحدى نوبات الخصخصة ، قررت حكومة تاتشر بيع هذه المصانع للقطاع الخاص ، فقدمت بضع شركات أوروبية لشراؤها . وقد أثار هذا القرار هاجسا شديدا فى أوساط الرأى العام فى بريطانيا ، وذلك بسبب ما لمصانع كهذه من اعتبار قومى وأهمية إستراتيجية . فتراجعت حكومة تاتشر عن قرارها . وترتب على هذه الأزمة استقالة وزير الدفاع فى حكومتها ميشيل هازلتاين - المترجم .

(١٩) انظر ، هوجو يونج ، المرجع السابق ، الصفحات من ٤٣٥ إلى ٤٥٨ .

ترافق الدورة الاقتصادية مع الدورة الانتخابية . وحاولت أن تدير الاقتصاد بما يحقق مصلحتها عن طريق سياسات «التوقف والإقدام» . وكان من أهداف «اليمن الجديد» الرئيسية ، جعل الناخبين يفصلون ما بين الحكومات والتقلبات الاقتصادية ، وبذلك تشكلت عقلية الرأى العام بحيث غدا باستطاعة الحكومات أن تحمل الأسواق العالمية المسئولية عما يصيب الاقتصاد .

وقد أظهرت نتائج انتخابات عام ١٩٩٢ أن «اليمن الجديد» قد نجح فى استراتيجيته الرامية إلى فك الارتباط بين الأداء الاقتصادى وفهم الناخبين لكفاءة الحكومة . ولكن هذا النصر كان قصير الأمد ومتناقضا فى نتائجه . فعندما طردت بريطانيا فى عام ١٩٩٣ من «آلية أسعار الصرف الأوروبية» (*) استقرت من جديد فى إدراك الناخبين الصلة بين كفاءة الحكومة وأداء الاقتصاد .

وكانت هذه العودة إلى الربط بين الأمرين كارثة بالنسبة للمحافظين . ومع ذلك ظل الانقسام الذى أوجده سياسة «اليمن الجديد» فى الثمانينيات بين الأداء الاقتصادى وكفاءة الحكومة قابعا فى أذهان الناخبين . ولم يجن المحافظون فائدة تذكر من الانتعاش الاقتصادى فى منتصف التسعينيات .

إن الرأى العام البريطانى يُعدّ اقتصاد السوق أمراً مسلماً به . ولئن كان فى يوم ما يتعاطف مع المشروعات الاشتراكية للتخطيط الاقتصادى ، فإن الأمر لم يعد كذلك اليوم . وهذا الرأى العام يناوئ أيضا سيطرة الأسواق على حياة المجتمع سيطرة متحررة من الضوابط ؛ ويود أن يرى بعض الخدمات الجوهرية- الرعاية الطبية الأساسية ، التعليم ، الحماية من الجريمة - متاحة للجميع كعلامة على المواطنة . ويقاوم المضى فى تحويل خدمات عامة ، مثل رعاية كبار السن ، إلى سلعة فى السوق . كما أنه لا يقبل حراك العمل على الطريقة الأمريكية . ذلك أن ٦٠ فى المائة من البريطانيين البالغين يعيشون فى أماكن لا تبعد أكثر من خمسة أميال من مسقط رأسهم - وتلك نسبة أعلى مما كانت عليه فى القرن التاسع عشر .

لقد أخفقت التاشيرية إخفاقا ذريعا فى تغيير هذه المواقف البريطانية . ذلك أن قيم

(*) (Enchange rate mechanism) ERM) : أسلوب لتثبيت أسعار الصرف داخل النظام النقدى الأوروبى ، بحيث تتحرك صعودا وهبوطا داخل حدود معينة لا يترتب عليها تغيير فى الأسعار الدولية لجميع العملات داخل النظام - المترجم .

المعونة المتبادلة والعدل العميقة الجذور، تقف سدّاً يعوق الاستعادة الكاملة للسوق الحرة في بريطانيا. كما أنه مع تحديث المجتمع الذي روّجت له سياسات تاتشر، أخذت المشروعات العامة للسوق الحرة تتضاءل في نظر عامة الناس. فالمعتقدات والممارسات التي كانت الأسواق الحرة تستطيع العمل في ظلها في منتصف الحقبة الفيكتورية كانت ضعيفة أو مفترقة في عام ١٩٧٩، بل كانت أكثر ضعفاً عندما فقد المحافظون السلطة في عام ١٩٩٧. وعملت السوق الحرة على تثبيت ما تبقى منها. ففي بريطانيا، كما في غيرها، أثار التصدعات الاجتماعية التي أحدثتها السوق الحرة امتعاضاً سياسياً قوياً أحبط جزئياً طموحاتها السياسية.

إن إعادة هيكلة الاقتصاد التي نفذتها السياسة التاشرية في بريطانيا هي في خطوطها الأعم يستحيل أن ترجع عنها أي حكومة لاحقة. إنها لم تغلب على انحدار بريطانيا الاقتصادي الطويل الأمد. وهي فيما عدا قطاع أو قطاعين على الأكثر، مثل الاتصالات السلكية واللاسلكية والصناعات الترويحية، لم تولد «ثقافة المغامرة» التي تحدث منظورها وكتبوا عنها. ومع ذلك، وبالحديد بسبب الضعف المستمر للاقتصاد البريطاني - اعتماده على الاستثمارات الأجنبية والأسواق العالمية لرأس المال - فإنه ليس بوسع أي حكومة الآن الوقوف في وجه سياسات التخصخصة، أو العمل بحسم من خلال النظام الضريبي على معالجة الزيادة في أوجه التفاوت الاقتصادي.

ولقد فرض التاريخ على الحكومة العمالية التي انتخبت في مايو ١٩٩٧ مهمة تعزيز القيم الاشتراكية الديمقراطية في وقت اختفت فيه المؤسسات والسياسات التاريخية للاشتراكية الديمقراطية. (٢٠) وعلى حكومة توني بلير، بوصفها أول حكومة في أوروبا في حقبة ما بعد الاشتراكية الديمقراطية (*)، أن تسعى إلى التوفيق بين اقتصاد سوق تحللت ضوابطها والترابط الاجتماعي. وينبغي لها أن تفعل ذلك في بيئة طبعها سياسات السوق الحرة، ومسيرة العوالة الاقتصادية إلى الأمام بلا رجعة، ببصمة لا تحصى خلال الفترة التاشرية الطويلة الأمد.

(٢٠) حول انصرام الاشتراكية الديمقراطية، انظر، المصنف الذي أعدته تحت عنوان *After Social Democracy: Questions in a Democracy*، لندن: ديموس، ١٩٩٥؛ والذي أعيد نشره في كتابي، *Late Modern Political Thought*، كامبردج: بوليتي برس، ١٩٩٦، الفصل الثاني.

(*) كيف يمكن أن يقال إن أوروبا الآن في حقبة ما بعد الاشتراكية الديمقراطية، على حين تقوم في بلدان أوروبية كثيرة حكومات اشتراكية ديمقراطية (بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، وإيطاليا، وغيرها) ١٩ - المترجم.

إبطال مخططات سياسة المحافظين

عززت السياسات الاقتصادية التاشرية ، وعجلت تنامي غالبية القوى الاجتماعية والاقتصادية التي أفضت بعد ذلك إلى انحلال الأسر والمجتمعات المحلية التقليدية ، كما دفعت المجتمع البريطاني إلى سير اضطرارى صوب مرحلة متأخرة من الحداثة .

ونادرا ما يفهم دور التاشرية كمشروع تحديثى . فالطابع السلقى للأيديولوجية الليبرالية للسوق يمكن أن يكون خادعا . وقد أدت إعادة هندسة السوق الحرة أخيرا فى بريطانيا الحديثة إلى تحلل آخر بقايا النظام الاجتماعى الذى أمدّها بأسباب البقاء فى القرن التاسع عشر ؛ فقد أزيحت من الطريق إلى حد كبير ، لا الأسرة التقليدية فقط ، وإنما الثقافة الرفيعة المتمثلة فى مراعاة الغير واحترام الذات ، والتي لم يكن لحرية السوق غنى عنها .

إن نظرى التاشرية ذوى الصخب العالى ، وأنباعهم من أصحاب العقول المستغلقة ، لم يدركوا أو يفهموا أبدا أحد آثار السياسات التاشرية ، وهو إخضاع الثقافة البريطانية الرفيعة التى شوّهت ، لتحديث أعمق أثرا مما دأب حزب العمال ذات يوم على محاولته .

وعن طريق فرض تحديث جبرى على كثير من جوانب الحياة فى بريطانيا ، تمكنت التاشرية من جعل مشروعات منافسيها السياسيين بالية عفا عليها الزمن . فههّمت جناح "One Nation Toryism" (*) فى حزب المحافظين ، والاشتراكيين الديمقراطيين الذين انفصلوا عن حزب العمال فى أوائل الثمانينيات . ولم يكن لدى أى من الطرفين رؤية واضحة لحجم التغيرات التى كانت جارية فى بريطانيا . لقد كان كلاهما يعتمد ، وإن يكن بطرق مختلفة ، على ثقافة رفيعة كانت التاشرية تعمل على تفويضها . وكان دحر هذه المشروعات السياسية المتنافسة أحد النجاحات البارزة التى حققها «اليمين الجديد» فى بريطانيا . ولكن التاشرية ، بإبعادها هذه الاتجاهات السياسية من قلب الساحة السياسية فى بريطانيا ، خلقت بعض الظروف التى عجلت بنهايتها .

وكان من السخریات الكثيرة للتاشرية لعلاقتها بالدولة القومية . ذلك أن السياسات الاقتصادية الليبرالية الجديدة جردت الدولة القومية من الجانِب الأعظم من قدرتها على

(*) جناح فى داخل حزب المحافظين أكثر يمينية ورجعية من الحزب نفسه ، وقد أعطى لنفسه هذا الاسم الذى لا توجد له ترجمة عربية - المترجم .

التأثير في الحياة الاقتصادية للبلد ، على حين كان الخطاب التاتشري العلني الرنان بليس هذه المؤسسات - بعد تجربتها من فعاليتها - ستارا باليا من السلطة . فادعى أن الدولة القومية ذات أهمية فائقة ، وأن الثقافة القومية جوهرية للحفاظ على النظام الاجتماعي . ومع ذلك فإن السياسات الاقتصادية الليبرالية الجديدة كانت تكيل الشاء على انفتاح الاقتصاد البريطاني على الأسواق العالمية ، كما لم يحدث من قبل .

إن الخطاب المتأدى بعولة اقتصادية لا ترحم ، كان مقترنا بتأكيد أن الثقافة القومية المشتركة هي المرجع الوحيد ، وأنها مفيدة فائدة لا غنى عنها . وأدان الليبراليون الجدد بحزب المحافظين علاقة بريطانيا بالاتحاد الأوروبي بوصفها قيذا على سيادتها القومية . وقالوا إنه لا يمكن أن يراود أي حكومة قومية أمل إيداء مقاومة عنيفة للأسواق العالمية . وجاء تمجيد الدولة القومية ذات السيادة في نفس اللحظة التاريخية التي أعلن فيها من أقاموها أنها لا لزوم لها من الناحية الاقتصادية .

وفي وسائل الإعلام شجعت السياسات التاتشرية في إيجابية تفتيت الثقافة القومية المشتركة عن طريق العولة . فالمؤسسات القومية حقًا ، مثل هيئة الإذاعة البريطانية ، كانت تُهاجم بلا رحمة ، على حين بدأ بنشاط التدويل التجاري لوسائل الإعلام . وأنكر على الدولة القومية أي دور محوري حتى في تجديد الثقافة القومية .

كما أن المؤسسات الاجتماعية الوسيطة التي اعتمدت عليها السوق الحرة في إنجلترا في منتصف الحقبة الفيكتورية أصبحت عراقيل تحول دون إعادة بنائها في أواخر القرن العشرين . ويات ينظر إلى الاتحادات المهنية والسلطات المحلية والجمعيات التعاونية والأسر المستقرة على أنها عوائق في وجه الفردية والحراك اللذين تتطلبهما الأسواق المتحررة من الضوابط ، إذ إنها تحدّ من سلطة الأسواق على الناس . وفي سياق حدائث في مرحلة متأخرة لا مناص من أن تزدى إعادة هندسة السوق الحرة إلى إضعاف المؤسسات الوسيطة أو تدميرها ، وكان هذا بالفعل هو مصيرها في بريطانيا .

ومن الغريب أنه ما زال يوجد إلى الآن من يَعتون اقتران الأسواق الحرة بالاضطراب الاجتماعي من الأمور الشاذة . فحتى لو أمكن جعل السوق الحرة نفسها مستقرة ، فمآلها المحتوم أن تكون عامل تدمير للمؤسسات الأخرى التي يتم بوساطتها الحفاظ على التماسك الاجتماعي . ولا يمكن لأي مجتمع أن يختار السوق الحرة ثم يطعم في تجنب نتائجها .

إن إعادة هندسة السوق الحرة هي بالكاد مشروع سياسى ؛ وتأثيرها هو منع استمرار الأوضاع الثقافية والمؤسسية على ما هي عليه ، وليس تجديدها . كما أن مشروع «اليمين» فى الظروف الراهنة لا يمكن أن يكون الحفاظ على الأعراف الثقافية . إنه يدعى الرغبة فى التقدم- لكنه التقدم من غير أهداف ثابتة . ذلك أن تعريف التقدم لدى مفكرى «اليمين الجديد» ، ذوى الرؤية الأوضح والصراحة الأكثر ، هو أنه «حركة من أجل الحركة» .^(٢١)

ويجب على أى محافظ حقيقى أن ينظر إلى هذا كوصفة من أجل تغيير بلا غاية أو هدف- بعبارة أخرى كتعبير عن العدمية . وعندما يستخدم مصطلح «التقدم» فى أغراض أكثر تحديدا ، هي بلا شك الأغراض التى تهتم الليبراليين الجدد ، فإنه يدل على التغيير الاجتماعى الذى لا يتوقف ، والذى تفرضه على الناس احتميات الأسواق الحرة . ومن هذه الضرورات تنشأ التناقضات التى لا سبيل إلى حلها ، والتى تؤدى إلى إخفاق المشروع .

إن الثورة الدائمة التى تسببها السوق الحرة تنكر أن يكون للماضى أى ثقل أو وزن . وهى تلتفى السوابق وتتزعخ حيوط الذاكرة وتبعثر المعارف للحلية . كما أنها بتفضيلها الخيار الشخصى على أى منفعة عامة ، وإنما تنجبه إلى جعل العلاقات بين الناس مؤقتة وقابلة للانقراض . وفى ثقافة يكون الخيار فيها هو القيمة الوحيدة التى لا نزاع حولها ، ويعتقد فيها أن الحاجات غير قابلة للإشباع ، ما الفرق بين مبادرة بالتطبيق والتجار فى سيارة مستعملة ؟ إن منطق السوق الحرة هذا ، المتمثل فى أن كل العلاقات تصبح سلعا استهلاكية ، ينكره منظروها بحق ، لكنه ظاهر بجلاء فى الحياة اليومية للمجتمعات التى تكون السوق الحرة سائدة فيها .

يقول فرنسيس فوكوياما^(*) بلا مبالاة : «إذا كانت الديمقراطية والرأسمالية تعملان على خير وجه عندما تشطهما الأعراف الثقافية المستمدة من مصادر غير ليبرالية ، عندئذ ينبغى أن يكون واضحا أن الحدائث والعرف يمكن أن يتعايشا فى توازن ثابت لفترات زمنية ممتدة»^(٢٢) . ولا يمكن بطبيعة الحال ، كما اعترف كارل

(٢١) ف. أ. هايك ، *The Constitution of Liberty* ، شيكاغو : هنرى ريجنرى ، ١٩٦٠ .

(*) فرنسيس فوكوياما : كان نائبا لمدير مجموعة تخطيط السياسة بوزارة الخارجية الأمريكية ، ويعمل حاليا مستشارا لمؤسسة راندكوروبوراش فى واشنطن . من أشهر كتبه *The End of History and the Last Man* ، وتوجد ترجمة عربية لهذا الكتاب قام بها حسين أحمد أمين تحت عنوان نهاية التاريخ وخاتم البشر ، وصدرت عن مركز الأهرام للترجمة والنشر- المترجم .

(٢٢) فرنسيس فوكوياما ، نيويورك ولندن : ذى فرى برس ، الصفحة ٣٥١ .

يقول فرنسيس فوكوياما^(*) بلا مبالاة : «إذا كانت الديمقراطية والرأسمالية تعملان على خير وجه عندما تشطهما الأعراف الثقافية المستمدة من مصادر غير ليبرالية ، عندئذ ينبغي أن يكون واضحا أن الحدائة والعرف يمكن أن يتعايشا في توازن ثابت لفترات زمنية ممتدة»^(**) . ولا يمكن بطبيعة الحال ، كما اعترف كارل ماركس وماكس فيبر^(***) ، التوفيق بهذا اليسر بين الحدائة والعرف . وفي المراحل المتأخرة من الأزمنة الحديشة تعمل العولة ضد الأعراف التى ترثها من المراحل المبكرة للعصر الحديش . وعندما تلقى دولة أتت متأخرة إلى الحدائة بتقلها خلف السوق العالمية ، فإنها تعمل على بعثرة تلك الأعراف الموروثة فى الرياح . وليس بإمكان أى قدر من الهندسة الاجتماعية ذات الطابع المحافظ أن تجمع معا خيوط العنكبوت التى عصفت بها التكنولوجيا الجديدة والأسواق المتحررة من الضوابط .

وربما كان متوقعا من الحكومات التى يسيطر عليها مستولون بجاهرون بسياساتهم المحافظة السافرة أن تعمل فى وقتنا هذا بوصفها صانعة سلم من أجل فرض التحديث على المجتمعات التى يحكمونها . وليس أقل توقعا أن يعجز المنظرون المحافظون الجدد عن فهم المعضلة التى وقعت فى شركها المجتمعات التى تسيطر عليها السوق الحرة .

إن الإقرار بأن الرأسمالية الفردية تهدم الأعراف الثقافية بنجاح أكثر من أى حكومة ، هو إشادة بقوى السوق ، وإيداء رأى فى حدود تدخل الدولة . ومن الغريب أن يؤكد المفكرون اليمينيون على عجز الدول فى مجال الحياة الاقتصادية ، ثم يعلقون هم أنفسهم آمالا عريضة عليها بوصفها أدوات فاعلة فى تصريف شئون المجتمع . بل إن الأكثر تضاربا فى تفكير «اليمين الجديد» ، الذى يتصور ، مثلما تفعل الماركسية الدارجة ، أن التغييرات

(*) فرنسيس فوكوياما : كان نائباً لمدير مجموعة تخطيط السياسة بوزارة الخارجية الأمريكية ، ويعمل حالياً مستشاراً لمؤسسة راندكورويوشن فى واشنطن . من أشهر كتبه *The End of History and the Last Man* ، وتوجد ترجمة عربية لهذا الكتاب قام بها حسين أحمد أمين تحت عنوان *نهاية التاريخ وحمام البشر* ، وصدرت عن مركز الأهرام للترجمة والنشر - المترجم .

(**) فرنسيس فوكوياما ، نيويورك ولندن : ذى فرى برس ، الصفحة ٣٥١ .

(***) ماكس فيبر : (١٨٦٤ - ١٩٢٠) ، من علماء الاجتماع الألمان . أبدى اهتماما كبيرا بموضوع تطوير منهج للبحث فى علم الاجتماع . وفى رأيه أن علم الاجتماع ، على خلاف العلوم الطبيعية ، ليس محدودا بمجرد قوانين للسلك ، وإنما عليه أيضا أن يحدد ما يسند الناس إلى تصرفاتهم من معان . كان فى البداية من المعجبين بيسمارك ، وبأسلوب التسلط على الحكم ، ولكنه ناصر بعد ذلك الحكومة المستولة على النسق الأمريكى - المترجم .

الاقتصادية هي التي تحدد السلوك ، هو أنه بغض الطرف بهذا القطع عما يحدثه تحرير الأسواق من آثار على الزواج والأسرة ومعدلات الجريمة .

إن معضلة «اليمين» اليوم هي أن النهج الثقافي المحافظ ليس من بين الخيارات المتاحة له ، ومصيره إلى أن يتأرجح بين تعزيز السوق الحرة بأي تكلفة ثقافية ، والتظاهر بالانتماء إلى النخبة الثقافية دونما مطمع في كسب . وليس بوسعها أن يكون أكثر مقدرة من السوق الحرة على الثبات في توازن مستقر . فهو يتأرجح ، بصورة غير يقينية وإن يكن بغير توقف ، بين التشاؤم غير المعقول بشأن الماضي التاريخي القريب ، والتفاؤل الجامح بشأن المستقبل القريب .

واليمين يحلوه اليوم أن يتصور أنه صوت الماضي . والحقيقة هي أن راديكاليته الجوفاء ، وحينه إلى الماضي ، الكاشف عن بدهوره ، إنما يربطانه بجلاء ونهايتيا بتشوش الحاضر .^(٢٣)

إن يوتوية اليمين الرجعية مغامرة باهظة التكلفة وتنطوي على المخاطرة . فالسلم والاستقرار هما آخر ما يتوقع وجوده في مجتمعات تسمح لنفسها بالخضوع لحكمه . كما أن السياسات الرامية إلى دعم الأشكال التقليدية للحياة الأسرية ، وقمع أسوأ أعراض الإجرام ، لن تسعف كثيرا في بعث روح جديدة في المؤسسات والمجتمعات المحلية التي خربتها السوق الحرة . فقضاء اليمين وقدره في المرحلة المتأخرة من الحقبة الحديثة هما تدمير ما يتبقى من الماضي في محاولة يائسة لإعادة الحياة إليه .

وقليلة هي رؤى المستقبل التي لم يكن ما أحدثته من تضليل في يوم من الأيام بأقل مما أحدثته نظرة هيربرت ماركيز أو ميشيل فوكو عن بلوغ السيطرة الرأسمالية على المجتمع حد الكمال ، وهي نظرة ما زالت رائجة حتى اليوم . وقد يكون باستطاعة المرحلة المتأخرة من الرأسمالية الحديثة الرزج بالناس في سجون عالية التقنية ، ورصد حركاتهم بكاميرات الفيديو في أماكن عملهم وفي الشوارع الرئيسية ؛ ولكنها لا توصلهم قفصا حديديا

(٢٣) من أجل الوقوف على محاولة مبكرة لتسع ما تنطوي عليه سياسة المحافظين في بريطانيا المتناشرة من تدمير ذاتي ، انظر ، الدراسة التي أعدتها تحت عنوان *The Undoing of Conservatism* ، والتي قامت بنشرها مؤسسة السوق الاجتماعية ، ١٩٩٤ ، والتي أعيد نشرها كفصل سابع في كتابي *Enlighten-ment's Wake : Politics and Culture at the Close of the Modern Age* ، لندن : روتلج ، ١٩٩٥ ، وأعيد نشرها مرة أخرى مع ملحق جديد في كتاب جون جري وديفيد ويلتز ، *Is Conservatism Dead ?* ، لندن : بروفايل بوكس ، ١٩٩٧ .

من البيروقراطية ، أو تسجنهم إلى الأبد خلال موضع قدم فى تقسيم العمل . إنها تركهم حياة مقطعة الأوصال وخيارات متزايدة لا معنى لها .

إن بلاء اليوتوبيا الذى نواجهه ليس كابوسا من السيطرة الشمولية . والسيكوباتية الأمريكية ، بمزاجتها بين الظواهر السريعة الزوال وانعكاس متأصل من العدمية ، تعد صورة تقريبية للأوضاع الحديثة المتأخرة أكثر صدقا من الصورة التى رسمها كافكا فى روايته «القلعة» .^(٥)

إن الأسواق الحرة هى أكثر العوامل قوة فى تحلل الأعراف فى عالم اليوم . إنها تكافى ما هو جديد وتبخس قيمة الماضى ، وتجعل المستقبل عودة لا نهائية إلى الحاضر . والمجتمع الذى تحدته مجتمعه مبنى على التناقض وپروليتارى الطابع .

وكثيرا ما يُنعى على الأسواق الحرة نهجها التمتعج والقصير الأجل إزاء الاستثمار فى الصناعة .^(٢٤) ولكن الأسواق الحرة شديدة التهور فى تعجلها بذلك صرح الفضائل التى كانت ذات يوم معتمدة عليها . فهذه الفضائل - الادخار ، العزة القومية ، دماثة الخلق ، «قيم الأسرة» - غدت الآن قطعاً متحفية لا تدر ربحاً . إنها قطع صغيرة من تحف الزينة تنفض عنها الصحافة اليمينية النبار من وقت لآخر ، ولكن ليست لها قيمة تذكر فى اقتصاد مبنى على أشياء سريعة الزوال .

إن أكثر رموز السوق الحرة فى أواخر القرن العشرين حفلاً من البقاء لن يكون مارجريت تاتشر ، ويحتمل جدا أن يكون مادونا .

تجربة نيوزيلندا : تحول ثانٍ كبير فى صورة مصفرة

إن التجربة الليبرالية الجديدة فى نيوزيلندا هى محاولة لبناء السوق الحرة كمؤسسة اجتماعية أكثر طموحا من أى محاولة نفذت فى أى مكان خلال هذا القرن . وهى مثال

(٥) فرانتز كافكا : (١٨٨٣ - ١٩٢٤) ، روائى وكتاب المانى ، كتب بالألمانية . وتميزت كتاباته بتصوير الإنسان نهبا للقلق ، يطفى عليه شعور بالخبطية والعزلة ، كما يعرض فيها عالما واقعيا ، ولكنه أشبه بالأحلام . له مؤلفات كثيرة من بينها : «القلعة» (١٩٢٦) ، «أمريكا» (١٩٢٧) ؛ «التاسخ» (١٩١٦) ؛ «طبيب القرية» (١٩١٩) - المترجم .

(٢٤) انظر الكتاب الممتاز للثبير للجدل الذى ألفه ول هاتون ، The State We're In ، لندن : جوناثان كيب ، ١٩٩٥ ، وذلك من أجل الاطلاع على نقد قوى للتمعج وقصر الأجل .

أكثر وضوحاً من التجربة التاتشيرية في بريطانيا لتكاليف السوق الحرة و حدود ابتكارها من جديد . وقد كان من بين الآثار الكثيرة غير المألوفة للسياسة الليبرالية الجديدة في نيوزيلندا، خلق طبقة دنيا في بلد لم يسبق وجود مثل هذه الطبقة فيه .

إن تجربة نيوزيلندا هي مشروع السوق الحرة في ظروف المختبرات . ذلك أن الأيديولوجية الليبرالية الجديدة المتصلية، قد شجعت على وضع برنامج للإصلاح الجزري لم يدع أي مؤسسة اجتماعية كبرى على حالها . وقد بدأ الإصلاحات حزب الاشتراكية الديمقراطية قبل تحوله إلى حزب مزدوج التوجه ، وظل لفترة ما دون منافس سياسي جاد . وثمة عرف دستوري ، على نسق البرلمان الإنجليزي ، بمجلس واحد يتمتع بسلطة وبحرية عمل لا تقيدهما أي كوابح دستورية ، سمح بإجراء أعمق تحول قامت به دولة تدخلية حتى الآن لم نشهد له مثيلاً .

وهكذا فإن دولة من أكثر النظم الاشتراكية الديمقراطية شمولاً وسعة إدراك أصبحت دولة ليبرالية جديدة . ولازم ذلك مسخ بعيد الغور في المجتمع النيوزيلندي . إن نتائج التجربة النيوزيلندية ومخاطرها حافلة بالدروس ، ولا نقول مشثومة .

والجربة التي أعيدت فيها هندسة السوق الحرة في نيوزيلندا، تشبه في وجوه كثيرة برامج التكيف الهيكلي المفروضة على حكومات البلدان النامية كشرط لمنحها قروضاً من المؤسسات الدولية عبر الوطنية . ولكن نيوزيلندا لم تكن من بلدان العالم الثالث - وإنما كانت دولة اشتراكية ديمقراطية متقدمة . كما أن ممارسات تدخل الدولة في الاقتصاد لحماية التماسك الاجتماعي كانت أعمق رسوخاً في نيوزيلندا منها في أي بلد غربي آخر ، باستثناء السويد الاشتراكية الديمقراطية .

وربما كان إجراء تغيير أساسي في السياسة في أوائل الثمانينيات أمراً لا مفر منه . ولم يكن مجافياً للعقل أن تتخوف نيوزيلندا من احتمال فقدان وضعها ضمن اقتصادات العالم الأول . وأسوة بالتاتشيرية في بريطانيا ، لم يكن الدافع في بادئ الأمر إلى خوض التجربة دافعاً مذهيباً ، بل كان دافعاً برامجياً . ذلك أن التجربة لم تثبت في صفوف طبقة رجال السياسة النيوزيلنديين ، بل نشأت فكرتها في صفوف موظفي الدولة . كما جاءت من إدراك وزارة الخزانة أن وضع نيوزيلندا كبلد من بلدان العالم الأول ليس من السير الدفاع عنه من الناحية الاقتصادية . وهذا بدوره كان نتاجاً ثانوياً للعمولة الاقتصادية الجارية الآن ، لاسيما ظهور اقتصادات تم تحديتها وحقت نجاحاً فائقاً في بلدان كانت حينذاك تنتمي إلى بلدان العالم الثالث ، مثل سنغافورة .

ولم يكن البرنامج الليبرالي الجديد لإعادة الهيكلة هو الاستجابة الوحيدة ، أو الأكثر وعدا ، للتدهور النسبي المتسارع في نيوزيلندا . ومع ذلك ، فأسوة بما حدث في بلدان أخرى ، بدأ فكر «اليمين الجديد» فعّالاً في إيجاد حلول راديكالية لمشكلات اقتصادية ما كان يمكن تركها مدة أطول دون علاج .

ونتيجة لهذا ، اقتلع من جذوره ما اضطلعت به حكومات حزب العمال في الفترة من عام ١٩٨٤ حتى عام ١٩٩٠ ، وواصله بعد ذلك الحزب الوطني ، وغدا تراثاً لنيوزيلندا ، ألا وهو إقامة حكومة اشتراكية ديمقراطية ، واقتصاد كينزي موجه ومتناسك اجتماعياً . وفي الوقت الحاضر تقترب نيوزيلندا ، أكثر من أي بلد غربي ، من النموذج الليبرالي الجديد الخالص لحكومة هزيلة واقتصاد سوق حرة .

ذلك أنه فور وصول حزب العمال إلى السلطة في يولييه عام ١٩٨٤ ، أو بعد ذلك بقليل ، ألغيت الرقابة على الصرف الأجنبي ، وتم تعويم العملة ، كما تم التخلص من الضوابط المفروضة على الأسعار والأجور وأسعار الفائدة والإيجارات والائتمان . وأزيلت الإعانات التي كانت تدفع لدعم الصادرات ، وألغيت تراخيص الاستيراد ، وخُفّضت الرسوم الجمركية بمعدلات كبيرة . وتمت خصخصة غالبية المشروعات والأصول المملوكة للدولة . وفي قطعة حاسمة مع ميراث نيوزيلندا الكينزي الطويل الأمد ، تم التخلي عن العمالة الكاملة باعتبارها من أهداف السياسة العامة ، وتبنى هدف المتأدين بالمذهب التقدي ، وهو استقرار الأسعار . وتلك كانت تدابير للتحرر من الضوابط و «إحالة الدولة إلى الاستيلاء» ، تدابير توافقت عن قرب مع التدابير التي تبنتها سائر حكومات «اليمين الجديد» ، لاسيما حكومة السيدة تاتشر في بريطانيا .

كما اتخذ في نيوزيلندا إجراء فريد من نوعه ، هو إلغاء تمويل المزارع ، وسحب كل أنواع المعونات والحماية المقدمة من الدولة ، في الفترة من عام ١٩٨٤ حتى عام ١٩٨٧ . ولم يكن أقل غرابة تحرير سوق العمل من الضوابط ، وهو إجراء تجاوز كثيرا القيود التي فرضت على سلطة نقابات العمال في بريطانيا التاشريية . وبحلول عام ١٩٩١ كان نظام المساومة الجماعية على الصعيد القومي قد استعاض عنه تماما بعقود العمل الفردية في كل من القطاعين العام والخاص . وهو ما كان نتيجة وجود سوق عمل أكثر انصياعاً لقوى السوق ، وأشد فردية بكل معنى الكلمة ، وذلك من أي سوق عمل أخرى . وأنشئ بنك مركزي مستقل مقصده الوحيد تحقيق استقرار الأسعار .

وتخلت الدولة في نيوزيلندا عن مسئوليتها عن المستويات الإجمالية للعمالة في الاقتصاد . والحقيقة أن هدف المعنين بالسوق الحرة في نيوزيلندا كان أن يتزعموا من أيدي الدولة الدوافع التي تمكنها من اتباع هذه أو تلك من سياسات الاقتصاد الكلي ، وذلك هدف تحقق إلى حد كبير .

وبالمثل فإن فرض نموذج ليبرالي جديد على الخدمات العامة ، جاء أبعد أثرا بكثير مما حدث في أي بلد آخر (ربما باستثناء شيلي) . فحوّلت المستشفيات العامة إلى مشروعات تجارية ، وأرغمت على منافسة الجهات التابعة للقطاع الخاص التي تقدم خدمات الرعاية الطبية . وأقيم هيكل جديد للتعليم ، وعهد بمسئولية تقديم الخدمات التعليمية إلى مجالس المدارس المحلية . وفرضت المدارس رسوما مقابل خدماتها ، وطلب منها تكملة ميزانياتها عن طريق القيام بأنشطة تجارية . وخفضت الإعانات الاجتماعية من جميع الأنواع تخفيضا صارما . وتم تصنيف السكان إلى فئات اقتصادية تحدد مستويات ما تحصل عليها كل فئة منها في صورة خدمات من الدولة . فأصبحت كل الخدمات التي تقدمها الدولة سلعة في السوق . وتم تقليص كل الوظائف التي تضطلع بها الدولة في ميدان الرعاية الاجتماعية . وفي الوقت نفسه ، كما تلاحظ كلسي بلهجة جافة ، «استمرت الزيادة في الإنفاق على الشرطة والمحاكم والسجون»^(٢٥) .

وتوجز كلسي جوهر تجربة نيوزيلندا بقولها : إن «نتيجة عقد من التكيف الهيكلي الجلري كانت مجتمعا عميق الانقسام»^(٢٦) . وتقول في تعليق أهم : «في أقل من عقد تحولت نيوزيلندا من معقل لتدخل الدولة لتحقيق الرفاهة إلى جنة ليبرالية جديدة . لقد انتقلت السلطة الاقتصادية والسياسية الحقيقية إلى خارج عالم الدولة المركزية . وفي مجرى هذه العملية التي يمكن تسميتها «تخصخصة الدولة» أختزل المواطنون إلى مستهلكين في ساحة سوق الاقتصاد بدلا من ساحة سوق السياسة»^(٢٧) . وثمة أدلة كثيرة تؤيد هذه التقييمات . ويلهب أحد التقديرات إلى أن ١٧,٨ في المائة من سكان نيوزيلندا أصبحوا تحت خط الفقر في عام ١٩٩١ .^(٢٨)

(٢٥) جين كلسي ، Economic Fundamentalism ، لندن وليست هاتن ، كينجستون : بلوثوبرس ، ١٩٩٥ ، الصفحة ٥ . وأنا أدين كثيرا للدراسة التي لا غنى عنها التي أجرتها كلسي لتجربة نيوزيلندا .

(٢٦) المرجع نفسه ، الصفحة ٢٧١ .

(٢٧) المرجع نفسه ، الصفحة ٢٩٧ .

(٢٨) المرجع نفسه ، الصفحة ٢٧٥ .

وفي تزامن حاسم، حدثت الزيادة في أعداد العاطلين عقب التخلي عن الكيترية وتبنى أهداف المذهب التقدي في إدارة الاقتصاد الكلى، جنباً إلى جنب مع اتخاذ مستحقات الرعاية الاجتماعية هدفاً، وإجراء عملية انتقاء وتخفيضات كبيرة فيها. وبينما كانت نهاية سياسة العمالة الكاملة تضطر الناس بدرجة متزايدة إلى الاعتماد على الرعاية الاجتماعية، فإن دولة الرفاهة أحييت هي نفسها إلى الاستيلاء. وكانت النتيجة أن ظهرت في نيوزيلندا شريحة اجتماعية لم يكن لها وجود قط عندما كان كاهل البلد مثقلاً بدولة الرعاية الشاملة - شريحة دنيا مهمشة اقتصادياً ومستبعدة اجتماعياً قوامها المعتمدون على الرعاية الاجتماعية.

ويرى كل من يألف النظريات واللغة الخطابية الطنانة المعروفة عن اليمين الأمريكي، والتي كانت الإلهام الغالب للثلاثين للثلاثين اللبراليين الجدد في نيوزيلندا، أن النمو غير المسبوق في ذلك البلد لطبقاً دنيا إنما هو مدعاة لكثير من السخرية. ذلك أن رسالة «اليمين الجديد» الأمريكي كانت دائماً أن الفقر والطبقة الدنيا هما نتاجان للأثار المشبته للحوافز الناجمة عن الرعاية الاجتماعية، ولم تكونا نتاجين للسوق الحرة. ومن ثم تكون المخاطر المعنوية لدولة الرفاهة مخاطر عامة تنجم عن قوانين لا تتغير تحكم سيكولوجية الإنسان - شأن ميزات السوق الحرة وفضائلها. (٢٩)

ومن المؤكد أن هذا الادعاء قد أخفق دائماً في تفسير خيرة تلك المناطق الشاذة من العالم خارج حدود الولايات المتحدة. فهو لم يكن ينسجم أبداً مع تجربة بلدان أوروبا القارية، حيث تعايشت طويلاً مستويات من الإعانات الاجتماعية أكثر شمولاً وسخاء من نظيراتها في الولايات المتحدة مع عدم وجود أى شيء شبيهه بطبقة دنيا من الطراز الأمريكي. وهو لا يكاد يمس من الناحية الفعلية أى جانب من خبرة البلدان الأنجلو سكسونية الأخرى. فأين هي الطبقات الدنيا المارقة من القانون في النمسا أو النرويج، حيث الإعانات الاجتماعية سخية؟ وأين الطبقة الدنيا في كندا؟ وأين كانت الطبقة الدنيا في نيوزيلندا القديمة في الفترة التي سبقت الإصلاح؟ إن أسئلة كهذه لا تُسأل أبداً - ناهيك عن أنها لا جواب عنها - في عالم «اليمين الجديد» المتمركز حول أمريكا.

وفي نيوزيلندا حققت نظريات «اليمين الجديد» الأمريكي ماثرة نادرة وغريبة - وهي

(٢٩) للاطلاع على مثال لهذه اللغة الخطابية الطنانة، انظر تشارلس موراي، - *Losing Ground: America's* *can Social Policy, 1950 - 1980*، نيويورك: بيزك بوكس، ١٩٨٤.

مأثرة تدحض نفسها بنفسها عند تطبيقها العملى . ذلك أن إلغاء كل الخدمات الاجتماعية العامة تقريبا ، وتقسيم فئات الدخل إلى شرائح بغرض توجيه الإعانات الاجتماعية ، قد أسفرا ، على نقيض ادعاءات «اليمين الجديد» الوائقة ، عن نصب فخ ليبرالى جديد من الفقر .

إن الطبقة الدنيا الموجودة فى أواخر التسعينيات ليست نتاج المخاطر المعنوية للرفاهة العالمية . فالمركد أنها راقدة فى حضانة ثقافة التبعية ، ولكن هذه الثقافة جاءت جزئيا وليدة الإصلاحات الاجتماعية الليبرالية الجديدة وأسواق العمل التى تحررت من الضوابط . إن النمو المفاجئ لطبقة دنيا فى نيوزيلندا ، كما فى المملكة المتحدة ، هو مثال كلاسيكى لصنع الفقر على يد الدولة الليبرالية الجديدة .

وفضلا عن نمو الطبقة الدنيا ، شهدت نيوزيلندا نمواً مذهلاً فى التفاوت الاقتصادى من كل صنف . ذلك أن التشريع ، بفرضه نظام العقود الفردية على سوق العمل ، أضعف كثيرا ما كان لدى المستخدمين من قوة المساومة إزاء أصحاب العمل . وفى الوقت نفسه أجريت تخفيضات فى المستويات الحدية لضريبة الدخل ، أثرت بصفة خاصة فى من هم عند القمة . وكانت النتيجة أن زادت الفوارق فى الدخل فى نيوزيلندا على ما هى عليه فى أى بلد غربى آخر .^(٣٠)

إن تحول السلطة فى نيوزيلندا ، من مؤسسات الدولة المركزية إلى مؤسسات السوق ، لم يحدث من تلقاء ذاته ؛ وإنما حدث ، مثلما كانت الحال فى إنجلترا فى منتصف الحقبة الفيكتورية ، نتيجة لممارسة سلطة الدولة بصورة متظمة وشاملة ويعيدة الأثر . كما استخدم نمط مختلف من الاستبدادية البرلمانية البريطانية لإعادة تشكيل اقتصاد نيوزيلندا وحياتها الاجتماعية . تقول كلسى : إن «سلطة حكومية مركزية قوية قامت ، فى غضون عقد من الزمان ، بإجراء تغيير ثورى فى اقتصاد نيوزيلندا وحياتها شعبها ، وذلك فى تجاهل تام للعملية الديمقراطية والممارسات السياسية التعددية ، وبمساندة نخبة من القطاع الخاص»^(٣١) .

وشملت مراحل هذه الثورة تسرب منظرين ليبرالين جدد إلى داخل حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى ، وقبول السياسة العامة الليبرالية الجديدة بعد عام ١٩٩٠ كتوافق

(٣٠) حول هذه النقطة ، انظر ، جريدة فى إيكونومست ، عدد ٥ من نوفمبر عام ١٩٩٤ ، الصفحة ١٩ .

(٣١) كلسى ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٤٨ .

بين جناحيه يرسم حدود ما هو ممكن سياسيا ، وإعفاء البنك المركزي النيوزيلندي من المساءلة الديمقراطية ، والزامه بمهمة لا مرونة فيها هي تثبيت مستويات الأسعار بغض النظر عن الظروف الاقتصادية الأوسع نطاقا ، وتحصين السياسة الاقتصادية المحلية الليبرالية الجديدة ضد أي إمكانية لأن تواجه بمعارضة سياسية ، وذلك بربطها بخضوع نيوزيلندا لشروط «الجات» ومنظمة التجارة العالمية .

وكان الأمر الأكثر حسما قبل غيره ، هو أن إعادة هيكلة الاقتصاد النيوزيلندي ، بفتح أسواقه أمام تدفقات رهوس الأموال دوغما تدخل من الدولة ، قد أعطت رأس المال العابر للوطنية سلطة اعتراض فعالة على السياسة العامة . فكلما لاح أن السياسات العامة يمكن أن تؤثر على القدرة التنافسية والأرباح والاستقرار الاقتصادي ، كان من الممكن إبطالها بالتهديد بهروب رهوس الأموال . وبذلك لم يعد ممكنا من الناحية السياسية الرجوع عن الإصلاحات الليبرالية الجديدة . ولم يقف الأمر عند حد تعطيل الأهداف الاشتراكية الديمقراطية التي اختطتها السياسة العامة في فترات سابقة في نيوزيلندا ، أو التخلي أو الرجوع عنها ، بل إنها استبعدت كبناقل محتملة في الممارسة الديمقراطية . وكان هدف هذه الثورة هو عزل السياسة الليبرالية الجديدة عزلا لا رجعة فيه عن الخوض للمساءلة الديمقراطية في الحياة السياسية .

إن الأسلوب الليبرالي الجديد لإدارة دفة الحكم الذي اتبع في نيوزيلندا لا يمكن أن يكون فعالا في دولة تكون فيها السلطات موزعة على نطاق واسع . فمن الصعب مثلا تصور حدوث هذا التحول في ألمانيا حيث تخضع السياسة العامة لفيود شديدة بسبب السلطات التي تتمتع بها الحكومات الإقليمية . ومن هذه الناحية تكون تجربة نيوزيلندا قريبة الشبه جدا من «التحول العظيم» الذي حدث في إنجلترا في القرن التاسع عشر ، كما تثبت سياسة تاتشر في عقدي الثمانينات والتسعينات .

إن تغييرات كثيرة من تلك التي حدثت في الحياة الاجتماعية الاقتصادية في أثناء الحقبة الليبرالية الجديدة ، هي تغييرات لا يمكن الرجوع فيها - وذلك هو ما كان يرمى إليه من وضعوا تصاميمها ونفذوها . ومن الناحية الاقتصادية البحتة حققت التجربة الليبرالية الجديدة كثيرا من مقاصدها . فقد فرضت إعادة هيكلة للاقتصاد - وهو ما كانت الضرورة تقتضيه على أي حال - برغم أنه كان يمكن تحقيق هذا دون تكبد بعض من التكاليف التي تطلبتها السياسات الليبرالية الجديدة .

وقد كانت التكلفة الأساسية لتجربة نيوزيلندا هي فقدان التماسك الاجتماعي . وكان من التوابع السياسية لذلك انصهار أدى إلى نبذ النظام الانتخابي وتفتتت كل الأحزاب الرئيسية . وفي الانتخابات العامة لعام ١٩٩٦ احتفظ «الحزب الوطني المحافظ»^(*) بالسلطة مقابل الدخول في ائتلاف غير مستقر مع «الحزب القومي»^(**) المعادي للهجرة الوافدة والذي يرأسه ونستون بيترز .

وفي هذا السياق السياسي الجديد، من المحتوم أن توجد في نيوزيلندا قوى تتحدى الشرعية الديمقراطية لمشروع قيام سوق حرة فيها . ومع ذلك من المشكوك فيه كثيرا أن يتم إسقاط الإصلاحات الليبرالية الجديدة التي نفذت في الثمانينات والتسعينات - ذلك أن اعتماد نيوزيلندا على الأسواق العالمية لرأس المال يستبعد حدوث ذلك . كما أن غلو السياسات الليبرالية الجديدة في نيوزيلندا يعنى أن حكومة راغبة في الاستجابة للسخط الشعبي سيكون لديها - في المستقبل القريب على الأقل - هامش من الحرية تحرك فيه .

ومن الممكن أن تصبح آثار أصولية السوق في نيوزيلندا أكثر اعتدالا في السنوات القليلة التالية . كما أن جميع الأحزاب السياسية النيوزيلندية تقريبا ستتخلى بصورة علنية عن العبارات المنمقة الليبرالية الجديدة . وسيعلمن الساسة عن استنكارهم لتجاهل الأصوليين الاقتصاديين للاستقرار الاجتماعي . وسيصبح نقد تجاوزات التجربة الليبرالية الجديدة في نيوزيلندا جزءاً لا يتجزأ من توافق سياسي جديد .

ومع ذلك ستظل الهياكل الأساسية قائمة . ولن يكون هناك رجوع عن سياسات «اليمين الجديد» في نيوزيلندا . وسوف يعم الحنين إلى نيوزيلندا القديمة، ولكنه سيكون حينها عدم الفعالية وفاقنا للمقدرة السياسية . فلقد تغير البلد، وتغير العالم الذي عليه أن يعيش فيه ، إلى درجة لن يكون معها الرجوع إلى ما كانت عليه نيوزيلندا قبل الإصلاح مجدياً أو جديراً بمحاولة جادة .

إصلاح السوق كبديل للتنمية الاقتصادية في المكسيك

في غضون أسابيع من الانهيار^(***) الذي حاق بالمكسيك ، وحققت فيه عملتها ،

. Conservative National Party (*)

. Nationalist Party (**)

. The Débâcle (***)

وتهددها خطر الإفلاس بسبب العجز عن سداد ديونها الخارجية ، جمع الرئيس كليتون أربعين مليار دولار على سبيل الضمان لحكومة المكسيك . وشمل هذا المبلغ عشرين مليار دولار كضمانات لقروض أمريكية - وتلك حزمة معونة مالية تجاوزت أى مثل لها فكرت الولايات المتحدة فى أى يوم فى أن تقدمه لبلدان عالم ما بعد الشيوعية التى تمر بمرحلة انتقالية . فضلا عن ذلك ، ألحت الولايات المتحدة على أن يقدم صندوق النقد الدولى قرضا للمكسيك مقداره ثمانية عشر مليار دولار - وتلك بدورها أكبر عملية إنقاذ قام بها الصندوق من قبل فى أى مكان من العالم . وفى يناير عام ١٩٩٧ أعرب الرئيس كليتون عن ترحيبه بعملية الضمان بوصفها نجاحا غير مسبوق . وفى ١٥ من يناير عام ١٩٩٧ قامت المكسيك بسداد الشريحة المتبقية من قرض الطوارئ الذى حصلت عليه فى فبراير عام ١٩٩٥ . وفى الوقت نفسه أعلن وزير مالية المكسيك ، السيد جيامو أورتييز ، أن المكسيك تتفاوض مع صندوق النقد الدولى على برنامج إقراض جديد مدته ثلاث سنوات. (٣٢)

وكانت هناك أسباب أربعة للتعهد الضخم غير المعهود فى سرعته الذى جمع الرئيس كليتون أطرافه فى يناير عام ١٩٩٥ . ففى المقام الأول كان هذا التعهد يُعدّ ضروريا للحيلولة دون أن يتجاوز «التأثير المسكر» (***) لانهايات أسواق الأوراق المالية حدود أمريكا اللاتينية ليصل إلى أوروبا الشرقية وجنوب شرقى آسيا . كما كان ينظر إلى المساعدة المقدمة إلى المكسيك بحسبانها أمرا حيويا لتزج قتيل خطر جدى محقق بالمؤسسات المالية فى العالم . ثانيا ، ربما أجهض الضمان حدوث مزيد من الخسائر للأمريكيين الذين استثمرت مدخرات معاشاتهم التقاعدية فى المكسيك ، وبذلك أمكن الإقلال من الخسائر التى لحقت بمنشآت أمريكية ، مثل «سولومون براذرز» . ثالثا ، رضى أن عملية الإنقاذ لا مناص منها إذا أريد الحيلولة دون تردى حالة عدم الاستقرار السياسى فى المكسيك . ولما كان الرئيس كليتون قد راهن بمستقبله السياسى على نجاح «نافتا» (***) ،

(٣٢) "Mexico replays loan early" ، فى جريدة فاينانشيال تيمس ، عدد ١٦ من يناير عام ١٩٩٧ ، الصفحة ٦ .

(**) Tequila Effect (تكيلا مشروب مسكر يصنع فى المكسيك) - المترجم .
 (***) NAFTA (اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة (North American Free Trade Agreement) . وتشمل هذه الاتفاقية الولايات المتحدة وكندا والمكسيك) - المترجم .

أى «اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة» الموقعة بين الولايات المتحدة والمكسيك فى عام ١٩٩٢ ، فإن وقوع انتفاضة سياسية فى المكسيك كان من شأنه أن يشكل تهديدا خطيرا لتوقعات نجاحه فى انتخابات الرئاسة لعام ١٩٩٦ . ذلك أن للمكسيك أهمية إستراتيجية هائلة بالنسبة للولايات المتحدة .

وتقول وزارة التجارة الأمريكية إن المكسيك قد أصبحت بعد عام واحد من التصديق على «نافشا» من أكبر الدول فى التبادل مع الولايات المتحدة ، فى مكان ما بين كندا واليابان . فقد كانت المكسيك تشتري بضائع أمريكية تعادل مشتريات روسيا والصين وغالبية بلدان أوروبا معا .

إن للمكسيك تخوما تنتشر بها معابر مفتوحة على الولايات المتحدة طولها ألفا ميل . وهى أكبر مصدر منفرد للهجرة غير القانونية إلى الولايات المتحدة ، ولو اردات هذه الأخيرة من العقاقير غير المشروعة (المخدرات) . وكان صانعو السياسة الأمريكيون يخشون أن يفجر الانهيار الاقتصادى فى المكسيك زيادة فى هذه الهجرة تكون لها أصداء سياسية خطيرة يتعذر على الولايات المتحدة التحكم فيها . وفى غضون خمس عشرة أو عشرين سنة سوف تتجاوز أعداد المكسيكيين الذين يعيشون فى الولايات المتحدة أعداد الزوج الأمريكيين ، ويصبحون أكبر أقلية فى الولايات المتحدة . وهم حتى فى الأوضاع الراهنة قوة سياسية لها وزنها .

وقد ظل الشمال ينظر إلى المكسيك على أنها بلد من بلدان أمريكا اللاتينية يتمتع باستقرار سياسى فريد لم يسبق فيه حدوث أى شىء من قبل^٥ . بل إن تمرد شعوب المايا^(٥) من أهالى مقاطعة شيباس ، الذى بدأ فى اليوم الأول من عام ١٩٩٤ ، طرح علامة استفهام حول تلك الأسطورة عن استكانة المكسيكيين . وربما يشكل انهيار اقتصادى سريع فى المكسيك عاملا يحفز على تفجر ثورات أخرى ، ومن الممكن أن يحرك عودة إلى أزمة مديونية أمريكا اللاتينية التى حدثت فى عام ١٩٨٢ ، ربما على نطاق أوسع وأقل قابلية للسيطرة . ورثى أن انهيارا سياسيا شاملا فى المكسيك سوف تكون له بالنسبة للولايات المتحدة آثار ليست فى حسابها .

(٥) للايا : مجموعات من الشعوب الهندية تقطن يوكاتان وهندوراس وشمالى جواتيمالا وولاية تاباسكو فى المكسيك ، كانت لديهم حضارة بالغة الرقى عندما غزاهم الأوروبيون فى القرن السادس عشر - المترجم .

وربما كان السبب الرابع أكبر وزنا من أى من الأسباب الأخرى . لقد كانت المكسيك منصة عرض للإصلاح الليبرالى الجديد للسوق ، إذ كانت أول موقع ينفذ فيه المشروع الأمريكى لهنتمة السوق الحرة . وكان لديها منذ أوائل الثمانينات نخبة سياسية ممتلئة للمنظمات المالية عبر الوطنية التى اتخذت فيها المذاهب الأمريكية للسوق الحرة طابعا مؤسسيا . وتحمت رعاية صندوق النقد الدولى ، شرعت حكومة الرئيس ميجيل دى لامدريد (١٩٨٢-١٩٨٨) فى تنفيذ برنامج تقشفى ليبرالى جديد قوامه خفض الإنفاق الحكومى ، وضوابط للأجور والأسعار ، والخصخصة . (٣٣)

وكان انضمام المكسيك إلى «الجات» فى عام ١٩٨٥ إشارة إلى أن جناح التحديث فى «الحزب الثورى للمؤسسى» (٣٥) ، الذى حكم المكسيك لأكثر من ستة عقود ، قد تغلب على «ديناصوراته» . لقد قبل دعاة التحديث فى المكسيك الفكرة القائلة بأن السياسات الاقتصادية القائمة على شبه اكتفاء ذاتى ، التى كانت متبعة فى الماضى ، سوف تتزايد تكلفتها فى المناخ الاقتصادى العالمى الذى تشوابه . وحظيت حكومة كارلوس ساليناس دى جورنارى (١٩٨٨-١٩٩٤) بترحيب الرأى العام الأمريكى بكل قطاعاته ، بوصفها نموذجا للتحديث الناجح . كما أن مجلة نيوزويك الأمريكية ، فى بابها العنون بحق «الحكمة التقليدية» ، قد صورت المكسيك فى نهاية عام ١٩٩٣ بأن «نافتا» قد حولتها إلى «ولاية من ولايات حزام الشمس» (٣٥) للولايات المتحدة» . (٣٤)

وقد كانت دوائر الأعمال والنخب السياسية فى الولايات المتحدة على ثقة بأن المكسيك قد تحدّثت . ولم يدر بخلدём أن التحديث الاقتصادى للمكسيك يمكن أن يعنى أى شىء إلا استيعابها داخل ثقافة دوائر الأعمال الأمريكية . ورأوا فى أزمة تخفيض قيمة العملة فى الفترة ١٩٩٤-١٩٩٥ انتكاسة مؤقتة فى تزواج بلدين فى ظل نظام سوق حرة أمريكية . وغدت المكسيك تجربة ليبرالية جديدة لا يمكن السماح لها بأن تفشل .

(٣٣) آى كاسپ ، المرجع السابق ، الصفحة ٢١٥ ؛ ن . لاسيخ ، Mexico : The Remaking of an Economy ، واشنطن : مؤسسة بروكنجز ، ١٩٩٢ ، الفصل الثانى .

(٣٤) Institutional Revolutionary Party (PRI) .

(٣٥) Sunbelt : ويقصد به الولايات الجنوبية والجنوبية الغربية من الولايات المتحدة ، مقارنة بحزام الصقيع (Frostbelt) الذى يقصد به الولايات الشمالية والشمالية الشرقية من الولايات المتحدة المترجم .

(٣٤) جورج كاستانيدا ، The Mexican Shock : Its Meaning for the U. S. ، نيويورك : ذى نيويرس ، ١٩٩٥ ، الصفحة ٣٤ .

وعندما طرحت حكومة الرئيس ساليناس جانباً أجيالاً من التوجه القومي ومن السياسات الحماية في المكسيك من أجل إبرام اتفاق بشأن التجارة الحرة مع الولايات المتحدة ، فإن ذلك لم يكن مجرد تسليم بواقع أن سياسة المكسيك القائمة على شبه اكتفاء ذاتي قد أصبحت سياسة غير قابلة للاستمرار . وهي عندما ربطت مصيرها السياسي بالمرآنة على أن النموذج الليبرالي الجديد للتنمية الاقتصادية صالح للتطبيق في المكسيك ، كانت تقامر أيضاً بالاستقرار السياسي في المكسيك . ولقد أصبحت مقبولة كواقع سياسي تلك الفكرة السخيفة في جوهرها والتي مفادها على حد قول واحد من ألمع المفكرين السياسيين في المكسيك أن بلداً «مختلفاً جذرياً وبشراة عن الولايات المتحدة»^(٣٥) يمكن تحديثه في أقل من عقد وفقاً لنموذج أمريكي .

وطبقاً لإحدى الروايات^(٣٦) فإن الفروع المكسيكية الحديثة النشأة لمتجر الفيديو الأمريكي (Blockbusters) بدأت تعرض للبيع أفلاماً سينمائية أمريكية إلى جانب الأفلام المكسيكية . وأصبحت أفلام أمريكا اللاتينية وأفلام أوروبا هي الأفلام الوحيدة التي تصف كأفلام أجنبية . وكان ذلك بمثابة اعتناق واضح للاعتقاد الأمريكي بأن المكسيك والولايات المتحدة قد انصهرتا في وحدة بالنسبة لجميع المقاصد العملية والثقافية .

إن المخاطر السياسية للإصلاح الاقتصادي الليبرالي الجديد لا يستطيع أن يدركها أولئك الذين يتصورون أن مؤسسات السوق الحرة تؤدي عملها في حالة من التوازن الطبيعي . وبينما لم يكن أحد يلمح هذه المخاطر في الولايات المتحدة ، فإنها كانت مفهومة منذ فترة طويلة في المكسيك . وقد أدركها بجلاء المهندس الرئيسي للسوق الحرة في المكسيك ، الرئيس كارلوس ساليناس .

ففي حديث صحفي نشر في أوائل عام ١٩٩١ ، استرعى ساليناس الانتباه إلى الربط الخطاطى بين إعادة الهيكلة الاقتصادية (الليبريستيرويكيا) والمصارحة السياسية (الجلانوسست) في البرنامج الإصلاحى للرئيس السوفيتى السابق جورباتشوف ، مُلمحاً إلى احتمال أن يكون هذا الربط هو المسئول عن الانهيار السوفيتى : «إن الحريات من الصف الذى تسمونه الجلانوسست موجودة في المكسيك منذ عشرات السنين . . . وعندما

(٣٥) المرجع نفسه ، الصفحة ٣٣ .

(٣٦) أندرس لوينهايمر ، *Bordering on Chaos: Guerrillas, Stockbrokers, Politicians and Mexico Road to Prosperity* ، نيويورك ولندن : ليل براون ، ١٩٩٦ ، الصفحتان ٢٩٣ و٢٩٤ .

تشرعون فى تطبيق إصلاح اقتصادى عنيف ، يجب أن تتأكدوا أنكم تبون حوله توافقاً سياسياً . وإذا كنتم تطبقون فى الوقت نفسه إصلاحاً سياسياً قاسياً ، فقد ينتهى بكم الأمر إلى أن لا إصلاح على الإطلاق . ونحن نريد إصلاحاً ، ولا نريد بلداً ممزقاً^(٣٧) . وربما تفسر هذه الملاحظات السبب فى أن ساليانس ظل حتى أواخر عام ١٩٨٩ يعارض ميثاق التجارة الحرة الذى أعلن فى فبراير عام ١٩٩٠ أنه يسعى إلى إبرامه مع الولايات المتحدة^(٣٨) . ومن الواضح أن ساليانس كان يفهم جيداً المخاطر السياسية التى ينطوى عليها إصلاح السوق فى المكسيك . لكن ناصحيه المقربين الأمريكين لم يفهموا . لقد كانت مخاطر لم يسبق لها وجود فى الفلسفة الاقتصادية التى قامت عليها السياسات الأمريكية تجاه المكسيك .

ومع ذلك فإن مخاوف ساليانس كانت على أساس سليم . وكما حدث فى البلدان الأخرى التى بذلت فيها محاولة لهندسة سوق حرة ، فقد أصبح النظام السياسى الذى تبنى التجربة ضحية من ضحاياها . ففى انتخابات يولييه عام ١٩٩٧ لم يفقد «الحزب الثورى المؤسسى» سيطرته على عاصمة البلد فحسب لصالح كواوتموك كاديناس من «حزب الثورة الديمقراطية»^(*) اليسارى ، بل خسر أيضاً الأغلبية التى كانت له فى المجلس الأدنى للكونجرس .^(**) وعلى نطاق المكسيك شن «حزب الثورة الديمقراطية» حملة متحد جبارة «الحزب العمل الوطنى»^(***) المحافظ للحصول على وضع حزب المعارضة الرئيسى . وظل «الحزب الثورى المؤسسى» ميطراً على مجلس الشيوخ ، كما ظل أكبر حزب بمفرده ، ولكنه خسر من المقاعد قدر ما خسر طوال الأعوام الثمانية والستين التى استمر خلالها فى الحكم . لقد تأكل نظام «الحزب الثورى المؤسسى» بفعل السياسات التى اتسمت بانعدام الأمن الاقتصادى ، والتى سكبت عليها الوقود سياساته المتعلقة بالسوق الحرة .

(٣٧) كارلوس ساليانس ، "A New Hope for the Hemisphere" ، فى مجلة نيوسبيكتف كولتورلى ، شتاء عام ١٩٩١ ، الصفحة ١٢٨ .

(٣٨) كاستانيدا ، المرجع السابق ، الصفحة ١٨٤ .

(*) (PRD) Party of the Democratic Revolution .

(**) النظام النيابى فى المكسيك هو على غرار مثيله فى الولايات المتحدة ، وهو فى البلدين يعرف بالكونجرس . وبينما يتكون الكونجرس فى الولايات المتحدة من مجلسى النواب والشيوخ ، فإنه يتكون فى المكسيك من المجلس الأدنى (مجلس النواب) ومجلس الشيوخ المترجم .

(***) (PAN) National Action Party .

وأدت هندسة السوق في المكسيك إلى تفاقم التباينات الاقتصادية والاجتماعية فيما كان لفترة طويلة واحدا من أشد مجتمعات العالم التي عرفت بعدم المساواة . ففي عام ١٩٩٢ حصل أغنى ١٠ في المائة من المكسيكيين على ٣٨ في المائة من الدخل القومي ، على حين لم يحصل النصف الأفقر إلا على ١٨ في المائة منه . ويوزع ثلثا جميع الدخل على ٣٠ في المائة من السكان . وهذا وضع سيئ إذا قورن حتى بالوضع في الولايات المتحدة بعد عهد ريجان ، حيث كان أغنى ٢٠ في المائة من السكان يحصلون على قرابة ٥٥ في المائة من الدخل القومي . وحصلت شريحة في قاع المجتمع يبلغ حجمها ٣٠ في المائة من سكان المكسيك على ٨ في المائة فقط من الدخل القومي . وفي عام ١٩٩٣ كان الحد الأدنى للأجر أقل من نصف ما كان عليه في عام ١٩٧٥ . (٣٩) وتصف دراسات استقصائية كثيرة المكسيك ضمن ثلاثة أو أربعة من البلدان التي يوجد بها أعلى تركيز من أكثر أغنياء العالم ثراء . وأفادت بعض التقديرات أن مجموع ثروات اثني عشر مكسيكيا يبلغ نحو ١٠ في المائة من الناتج الإجمالي السنوي للمكسيك . (٤٠)

وما هو أبلغ دلالة من ثروة أغنى الأغنياء ، صغر حجم الطبقة الوسطى في المكسيك -وحقيقة أن السياسات الليبرالية الجديدة قد جعلتها حتى أصغر حجما خلال الأعوام الخمسة عشر المنصرمة . ففيما بين عامي ١٩٤٠ و ١٩٨٠ سمح النمو الاقتصادي المطرد في المكسيك بتوسع تدريجي في حجم الطبقة الوسطى ، وقد كتب المفكر السياسي المكسيكي جورجي كاستانيدا يقول :

هناك بطبيعة الحال طبقة وسطى في المكسيك . . . لكنها أقلية يتراوح حجمها بين ربع السكان وثلثهم . أما معظم السكان ، وهم فقراء يسكنون المدن وذوو بشرة قاتمة اللون ، وكثيرا ما يكونون مستبعدين من ملامح الحياة العصرية للمروفة في الولايات المتحدة والبلدان الصناعية الأخرى (التعليم العام ، الرعاية الصحية للملازمة ، شغل الوظائف العامة ، الجلوس كمحلفين ، وهلم جرا) ، فإنهم يمتزجون بعضهم ببعض . إنهم يعيشون ويعملون وينامون ويتعبدون بعيدا عن المجموعة الصغيرة ذات الثراء الفاحش والطبقة الوسطى الكبيرة ، وإن تكن مازالت محصورة وقد أتاحت العقود التي أعقبت الثورة المكسيكية ربما حتى الخمسينيات قلدا من الحراك الاجتماعي إلى أعلى ،

(٣٩) فرناندو بيريز كورتيا ، "Modernización y mercado del trabajo" ، في مجلة Este País ، عدد فبراير عام ١٩٩٥ ، الصفحة ٢٧ . وقد ورد هذا المسح في أي كامب ، المرجع السابق ، الصفحة ٢٢٠ .
(٤٠) نشرت واحدة من تلك الدراسات الاستقصائية في مجلة فوربس ، عدد شتاء عام ١٩٩٤ .

وبعض الامتراج ، وبالتأكيد مقدم نخبة جديدة من رجال الأعمال وطبقة وسطى صاعدة . وبحلول الثمانينيات كانت المكسيك قد عادت إلى سابق عهدها وطنا لثلاث أم : الأقلية المولدة (*) ، أى النخب والشريحة العليا من الطبقة الوسطى ، وهم يعيشون هيئة متميزة وفى بحبوحة ؛ الأغلبية الخلاسية (**) ، وهى فقيرة وضخمة العدد ؛ الأقلية المعوزة تماما ، وهى تتألف من كان يطلق عليهم زمن الاستعمار «جمهورية الهنود» ، أى الأهالى من سكان تشيياپاس وأواخاكا وميتشواكان وجريرو وشيهواوا وسونوره ، واللذين يعرفون جميعا اليوم باسم المكسيك العميقة (***) . (٤١)

هذا وقد اتجه إصلاح السوق فى المكسيك منذ أوائل الثمانينيات وما بعدها صوب تفاقم التفاوتات الاقتصادية ، كما عكس اتجاه النمو الذى نعمت به الطبقة الوسطى فى الأعوام الأربعين السابقة . وقد تسارعت هذه العملية مع قيام «نافتا» ، وقويت حركتها عند تطبيق برنامج التقشف فى أعقاب أزمة تخفيض قيمة العملة فى عام ١٩٩٤ . وقد علّق أى كامب على ذلك قائلا : «ثمة قضية اجتماعية ذات تفرعات هائلة ، ألا وهى قدرة اقتصاد بلد ما ونموذجه الاقتصادى على توليد حراك اجتماعى إلى أعلى ، وعلى زيادة حجم الطبقة الوسطى . ويمكن خطر كبير فى برنامج التقشف الذى طبقه الرئيس زيديرو يمثل فى أن . . . مكسيكيين كثيرين قد يفقدون وضعهم كأعضاء فى الطبقة الوسطى ، بل إن الأكثر احتمالا هو ألا يكون فى استطاعتهم الانتقال من الطبقة العاملة إلى الطبقة الوسطى» (٤٢) .

ولم تكن الآثار المقروضة للاستقرار الاجتماعى والناجمة عن السياسات الليبرالية الجديدة فى المكسيك مقتصرة على انكماش الطبقة الوسطى . إذ إن هذه السياسات زادت كثيرا من سوء أحوال أفقر فئات المجتمع . ففى عام ١٩٨٤ ، قبل أن يدخل المشروع الليبرالى الجديد حيز التنفيذ الفعلى ، كان النصف الأفقر من السكان يحصل على ٢٠,٧ فى المائة من الدخل القومى ، وبحلول عام ١٩٩٢ انخفضت هذه الحصة إلى ١٨,٤ فى

(*) Criollo : ويقال أيضا الأقلية المهجنة . كما يشار إلى أفرادها فى بعض المراجع بالبيض المترجم .

(**) Mestizo : ونسب بالعربية أحيانا كما تكتب باللاتينية «المستيزو» . والمستيزو شخص مختلط ، لاسيما شخص من أبوين أحدهما أوروبى والآخر أمريكى هندى المترجم .

(***) el Mexico profundo

(٤١) كاستانيدا ، المرجع السابق ، الصفحات ٣٥ و٣٦ و٣٨ .

(٤٢) أى كامب ، المرجع السابق ، الصفحتان ٢١٢ و٢١٣ .

المائة .^(٤٣) ولا شك في أن حصة الفئات الأشد فقرا في الدخل القومي المكسيكي للفترة ١٩٦٥-١٩٩٦ ، الذي كان ثابتا أو أخذ في التدهور ، قد واصلت الانخفاض ، وإن كانت الأرقام غير متوافرة .

وقد كان من نتائج الانفتاح التجارى الذى روّجت له «نافتا» أنه بحلول منتصف التسعينيات كان حوالى ٤٠ فى المائة من مشتريات الجمهور من مواد البقالة قد تركز فى متاجر «سوبر ماركت» من الطراز الأمريكى . وترتب على وصول المتاجر الأمريكية للبيع بالتجزئة ، مثل Wal - mart ، K - mart ، توقف المتاجر المكسيكية الصغيرة بالألاف عن العمل .^(٤٤) وكان من أثر سياسات التحرر الاقتصادى ، مثل خصخصة الترتيبات التقليدية لحيازة الأرض ، وإبطال سياسات دعم أسعار المنتجات الزراعية ، جعل العمال الزراعيين والمجتمعات المحلية الريفية أكثر عرضة للتأثر بتقلبات السوق ، مثل انهيار سعر البن .

بل إن برنامج التقشف الذى فرض بعد إجهاض المشروع الليبرالى الجديد فى تخفيض قيمة العملة لعام ١٩٩٤ ، قد زاد الحالة سوءاً بالنسبة لفقراء الريف والمدينة على السواء . ففى عام ١٩٩٥ انكمش الاقتصاد المكسيكى بنسبة ٧ فى المائة . وفقدت ملايين الوظائف فى بلد يتسبب نمو سكانه ، كما تسبب بنيتهم العمرية ، فى دخول نحو مليون عامل جديد سوق العمل كل سنة . واستادا إلى الوكالة الأمريكية لتقدير الجدارة الائتمانية Standard and Poor's ، فقد بلغت الخسائر الناجمة عن الأزمة المصرفية التى أعقبت تخفيض قيمة العملة ، ١٢ فى المائة من الناتج المحلى الإجمالى فى عام ١٩٩٦ ، أى أكثر من ضعف المبلغ العائد من خصخصة النظام المصرفى فى الفترة ١٩٩١-١٩٩٢ . وطبقا لتقديرات غير رسمية فإن البطالة الظاهرة أو المستترة ربما طالت ربع قوة العمل .^(٤٥)

ترجع منافاة الإصلاح الليبرالى الجديد فى المكسيك للعقل ، فى جانب منها ، إلى أن نحو نصف السكان يشكلون طبقة دنيا مستبعدة . وقد نشأت الزيادات فى الثروات من أن إصلاحات السوق لم تسقط رذاذاً حتى على الطبقات الوسطى ، ومن باب أولى على الجحيم الذى يحياه الفقراء . وكفى نظريات «تساقت رذاذ» الرخاء أنها ليست موضع

(٤٣) كاستيلا ، المرجع السابق ، الصفحة ١١٥ .

(٤٤) أندريس أوبنهايمر ، المرجع السابق ، الصفحة ٢٩٣ .

(٤٥) المصدر : جريدة فاينانشيال تيمس ، عدد ٢٨ من أكتوبر عام ١٩٩٦ .

ترحيب كاف في البلدان المتقدمة، مثل الولايات المتحدة وبريطانيا . أما في المكسيك فإنها محض خيالات بورجيزية(*) .

وقد كان لتمرد الهنود والفلاحين الذي بدأ في تشيهاپاس في أول يناير عام ١٩٩٤ بهجمات شنت في صورة حرب عصابات على مدينة سان كريستوبال دي لاس كازاس ، أسباب محلية كثيرة . وكانت المطالب الأساسية ذات طابع إصلاحى وليس ثوريا ، وتعلق بصرف الظلم في مجال حيازة الأرض التي يعاينها الأهالي المتمون إلى شعوب المايا المختلفة . وكان تمرد يوم رأس السنة الذي قام به «جيش زاباتستا للتححر الوطني»(**) - سمي كذلك تمجيذا لذكرى الثائر المكسيكي إميليانو زاباتا(***). هو في الوقت نفسه عملا من أعمال المقاومة ضد الهيمنة الليبرالية الجديدة في المكسيك .

ومع ذلك فإن «جيش زاباتستا للتححر الوطني» كان يفتقر إلى أى برنامج متكامل منطقيا للمكسيك ككل . وكان زعيمهم القائد المساعد ذو الشخصية الغامضة ماركوس (الذي اتضح فيما بعد أنه أستاذ جامعي يدعى روفائيل سباستيان جليلين) يعتقد مزيجا من الأفكار المادية وأفكار ما بعد الحداثة . وعلى الرغم من ذلك، فإن الحركة أثبتت قدرتها على إيقاع الفوضى في سلطة الدولة ، وإن كانت قد أخفقت في إزاحتها .

وفي هنا لا يختلف الزاباتستا عن حركات العصابات التي قامت في بلدان أخرى من أمريكا اللاتينية على امتداد الأعوام العشرين الماضية . ففي ٢٩ من ديسمبر عام ١٩٩٦ ، وقع مقاتلو جيش «الوحدة الجواتيمالية الوطنية الثورية» معاهدة سلم مع حكومة الرئيس ألفارو أروزو . وبهذا أنهوا حربا استمرت منذ نوفمبر عام ١٩٦٠ ، وحصدت ما بين مائة وخمسين ألفا وربع المليون من الأرواح، وأرغمت نحو مليون نسمة على النزوح من أراضيهم . ولكن نهاية أطول حرب عصابات شاملة في أمريكا اللاتينية لم تكن تعنى أن المظالم التي كانت سببا في اشتعالها قد أزيلت ، وإنما كانت تعنى أن سياسة الأرض المحروقة التي انتهجها الدكتاتور الجواتيمالي الجنرال إفرين ريوس مونت في أوائل الثمانينيات قد أفلحت . وقل من المراقبين من يعتقد أن اتفاقات السلم سوف يعقبها عمل

(*) ربما نسبة إلى الشاعر الأرجنتيني بورجيز (١٩٠٠ -) ، وهو أيضا كاتب قصة قصيرة وناقد - المترجم .

(**) Zapatista Army for National Liberation (EZLN) .

(***) إميليانو زاباتا : (١٨٧٩ - ١٩١٩) ، زعيم ثوري مكسيكي ، حرض على العصيان في عام ١٩١٠ بهدف الإصلاح الزراعي . اغتيل في كمين نصب له بالمترجم .

فعال لمواجهة التمييز ضد الأغلبية المايا من سكان جواتيمالا . ومن غير المحتمل أن يختلف كثيرا مصير حركة الزاباتستا التي يتزعمها القائد المساعد ماركوس .

وفي تزامن مع ركود اقتصادى أصاب مستويات المعيشة كاد أن يكون مستمرا منذ عام ١٩٨٢ ، أدت محاولة إقامة سوق حرة فى المكسيك إلى تفتيت صفوف الأقليات التي حكمت البلد على امتداد ستين عاما دون أن تقيم مؤسسات ديمقراطية تعمل بشكل سليم . ذلك أن الانتصارات التي أحرزتها المعارضة فى يولييه عام ١٩٩٧ هى علامات على ضعف «الحزب الثورى المؤسسى» وليست بعد دليلا على قوة الديمقراطية . وما هو أكثر من ذلك أن الفساد الذى تغلغل فى مؤسسات الدولة فى أثناء الفترة الليبرالية الجديدة قد خلق عقبات فى سير الديمقراطية فى المكسيك .

وكانت سلسلة اغتياالات الشخصيات العامة التى وقعت فى ظل رئاسة كارلوس ساليناس علامة على انهيار الاتفاقات الضمنية التى حكمت الحياة السياسية المكسيكية فى الماضى . ولا يمكن معرفة ما إذا كانت هذه الاغتياالات اغتياالات الكاردينال الكاثوليكي بوسادس فى مطار جوادالاخارا فى مايو عام ١٩٩٣ ؛ واغتياال لويس دونالدو كولوسيو ، مرشح «الحزب الثورى المؤسسى» للرئاسة الذى اختاره ساليناس ، فى تيخوانا ، فى مارس عام ١٩٩٤ ؛ واغتياال خوسيه فرانسكو رويز ماسيو ، صهر الرئيس ساليناس والأمين العام «للحزب الثورى المؤسسى» والذى أعد ليكون زعيما جديدا للأغلبية فى الكونغرس ، عندما تولى إرنستو زيديتيو السلطة فى سبتمبر عام ١٩٩٤ - من فعل «ديناصورات» «الحزب الثورى المؤسسى» الذين كانوا يعارضون الخطوات المترددة صوب الليبرالية السياسية ، أو من فعل كارتلات المخدرات انتقاما لرجوع ساليناس عن ميثاق سرى لعدم الاعتداء وقعه معهم . (٤٦)

وفى فبراير عام ١٩٩٥ أودع راءول ساليناس ، شقيق الرئيس السابق ، السجن بتهمة الاشتراك فى اغتياال خوسيه فرانسكو رويز ماسيو (*) ؛ وفى نوفمبر عام ١٩٩٥ ألقت الشرطة السويسرية القبض على زوجة راءول ساليناس أثناء محاولتها سحب ما يزيد على ٨٠ مليون دولار من حساب كان زوجها قد فتحه باسم مستعار . وأشعل هذان الإجراءان شكوك كثيرين من المكسيكيين فى أن الرئيس وشقيقه قد تلاعبا فى عطاءات الخصخصة

(٤٦) حول هذه النقطة ، انظر ، أندريس أوبنهايمر ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٠٧ وما بعدها .

(*) بعد محاكمة طويلة لراءول ساليناس بدأت فى عام ١٩٥٥ ، أسدل عليها الستار فى يناير عام ١٩٩٩ بالحكم عليه بالسجن سبعين عاما - المترجم .

لصالحهما . وفى فبراير عام ١٩٩٧ نشرت مجلة بروميسو الأسبوعية الوقورة ، التى تصدر فى مكسيكو سيتى ، وثائق تزعم وجود ارتباطات بين راءول ساليناس والنائب العام المناوب للمكسيك ماريو رويز ماسيو ، شقيق خوسيه فرانسيسكو رويز ماسيو الذى اغتيل ، وكارتلات المخدرات المكسيكية . وقد نفى محامو الرئيس السابق بشدة الوثائق التى نشرتها مجلة بروميسو (٤٧) . ومن المشكوك فيه أن تظهر الحقيقة الكاملة فى يوم من الأيام .

ومن الممكن أيضا وجود خطر أن تصبح المكسيك «ديمقراطية مخدرات» : ففى فبراير عام ١٩٩٧ ألقى القبض على رئيس شرطة مكافحة المخدرات فى الحكومة المكسيكية ؛ وثمة ادعاء بأن شخصيات مكسيكية بارزة أخرى متورطة فى الاتجار بالمخدرات ، ومن بينهم حاكم ولاية سونوره بشمال غرب المكسيك . كما أن هناك خطرا حقيقيا تماما من اقتداء الحياة السياسية المكسيكية بنظيرتها فى كولومبيا . (٤٨)

إن السياسات الاقتصادية الليبرالية الجديدة التى نفذت كجزء من برنامج لتحديث نظام حكم «الحزب الثورى المؤسس» أدت بدلا من ذلك إلى تدميره . وهذا هو الخطر السياسى الذى اعترف بوجوده الرئيس السابق كارلوس ساليناس دى جورنارى ، عندما شبّه الإصلاح الليبرالى الجديد فى المكسيك ببيروسترويكاجورباتشوف فى الاتحاد السوفيتى .

ويبدو أن السياسة الأمريكية القائمة على تشجيع الإصلاح الاقتصادى الليبرالى الجديد فى المكسيك كانت مبنية على الاعتقاد الجازم بأنها وجدت فى كارلوس ساليناس نصيرا صلبا للأسواق الحرة . ومن الصعب معرفة ماذا كان سندا لهذا الاعتقاد . فكيف يمكن أن يتصور كائن من كان أن كارلوس ساليناس قد أصبح - فى ثقافة سياسية يُعدّ الغش فيها فضيلة - ليبراليا جديدا وكُد من جديد ، وراهبا ماليا يعتنق مذهب مدرسة شيكاغو ؟ ومع ذلك ظلّ ساليناس ، وهو فى منصبه وبعد تركه بقليل ، يحظى بتأييد راسخ من قبل الولايات المتحدة كرئيس محتمل لمنظمة التجارة العالمية .

(٤٧) انظر ، "Mexican drug lords aided by brother of former President" ، فى جريدة فى تيمس ، عدد ١٨ من فبراير عام ١٩٩٧ ، الصفحة ١٥ .

(٤٨) فيما يتعلق بالقبض على رئيس شرطة مكافحة المخدرات فى المكسيك ، انظر ، جريدة فاينانشيال تيمس ، "Top Mexican official held over drug link" ، الصفحة ٤ . وفيما يتعلق بالادعاءات ضد حاكم ولاية سونوره ، انظر ، جريدة جلورديان ، "Governor aids Mexican drug trade" ، عدد ٢٤ من فبراير عام ١٩٩٧ ، الصفحة ١٠ . وفيما يتعلق بالادعاء بأن «سلطة كارتلات المخدرات فى المكسيك أكبر بكثير من السلطات المكسيكية بنفى الخدر فى التسليم به» ، انظر ، لى كرافورد ، "Drugs scandal hits US ، Mexico trust" ، فى جريدة فاينانشيال تيمس ، عدد ٢٨ من فبراير عام ١٩٩٧ .

لقد عمى بصر صناع السياسة الأمريكيين عن انغلاق الثقافة السياسية التي تصوروا أن بإمكانهم تغييرها . ولابد أنهم اعتقدوا ، برغم كل المظاهر ، أنهم يتعاملون مع ثقافة لا تختلف جذريا عن ثقافتهم ، ولم يفهموا ما قاله الكاتب المكسيكى الكبير أوكثايفاز من أن «المكسيك هندية الجوهر . إنها ليست أوروبية» (٤٩) .

وكان يمكن لپاز أن يضيف أنه إذا كان للثقافة المكسيكية والمجتمع المكسيكى طابع أوروبى ، فيمكن توقع ألا تقل مقاومتها للقيم الأمريكية عن مقاومة سائر البلدان الأوروبية لهما . ولو أن صانعى السياسة الأمريكيين لاحظوا هذه الحقائق ، لكانوا قد فسروها بأنها دليل على تخلف المكسيك الزمن . وقد كان «توافق واشنطن» على ثقة بأن المكسيك ، مع بقية دول العالم ، «تصبح شبيهة لنا» عما قريب .

إن آثار إصلاح السوق فى المكسيك كانت آثارا سيئة حتى من وجهة نظر أمريكية ، إذ يجب أن نفترض أن مصلحة أمريكا الأولى فى المكسيك هى الحفاظ على استقرارها السياسى . ومع ذلك فإن السياسة الليبرالية الجديدة عملت على تحويل المكسيك من دولة أمريكية لائتية ذات استقرار راسخ إلى دولة تواجه مستقبلا غامضا للغاية . ومن هذه الزاوية فإن الفلسفة الاقتصادية التى تسير السياسة الأمريكية على هديها فى الوقت الحاضر قد أساءت إلى المصالح الإستراتيجية للولايات المتحدة .

وقد فهم مديرو الاستثمار (*) الذين كانت لهم استثماراتهم فى المكسيك قبل تخفيض قيمة العملة أن أرباحهم الفاحشة نجمت عن المخاطرة الكبيرة التى خاضوها . (كانت إحدى نتائج الضمان نقل تكلفة تلك المخاطرة إلى عاتق الاقتصاد المكسيكى .) ولم يفهموا أن جانباً كبيراً من تلك المخاطرة كان مصدره الحماقات الكامنة فى برنامج تحديث هدفه إعادة هندسة الحياة الاقتصادية المكسيكية فى صورة مختلفة عن السوق الحرة الأمريكية .

ومن الصعب معرفة المسار الذى سوف تنخرط فيه الدولة المكسيكية فى أعقاب الليبرالية الجديدة . ذلك أن العودة إلى القومية الاقتصادية التى سادت فى الماضى أمر غير محتمل . وربما كان واضحاً فى المكسيك ، أكثر من أى بلد آخر ، أن سياسات السوق الحرة قد فشلت فشلاً ذريعاً ، ولكنها لم تترك للمجتمع الذى خربته سوى خيارات إيجابية قليلة .

(٤٩) أوكثايفاز "The Border of Time" ، فى المجلة الفصلية ، نيويورك بوسيكلف كوارتلى ، عدد شتاء عام ١٩٩١ ، الصفحة ٣٦ .

(*) Fund Manager : الشخص الذى يستثمر أموالاً لصالح موكله - المترجم .

نتائج هندسة السوق الحرة

إن أوجه الشبه الكثيرة بين الأثار التي خلفتها سياسات السوق الحرة في ثلاثة بلدان شديدة التباين ، هي المكسيك ونيوزيلندا والمملكة المتحدة ، ليست أوجه شبه عفوية على الإطلاق . فقد كانت السوق الحرة في كل منها بمثابة رذيلة اعتصرت الطبقات الوسطى ، وحققت ثروات ضخمة لأقلية صغيرة ، وزادت حجم الطبقات الدنيا المستبعدة ، وألحقت أضرارا خطيرة بالأدوات السياسية التي تم تنفيذها من خلالها ، واستخدمت سلطات الدولة بلا وازع ، وأفسدت مؤسسات الدولة وأفقدتها إلى حد ما مشروعيتها . كما شتت أو حطمت الائتلاف الذي كفل لها الدعم السياسي في بادئ الأمر ، وفتت المجتمعات . وخلفت في أعقابها الشروط التي يتعين على أحزاب المعارضة أن تعمل وفقا لها .

غير أن أثارها على الأداء الاقتصادي اختلفت في البلدان المختلفة ففي حالة بريطانيا أصبح اقتصادها أكثر قدرة على المنافسة نتيجة لإعادة الهيكلة العميقة التي أحدثتها السوق الحرة . لكن هذا التحسن لم يغير اتجاه التدهور الاقتصادي الذي بدأ منذ ما يقرب من قرن ، كما كانت تكلفته عالية من حيث إقصاء بعض الفئات الاجتماعية . وبالمثل في نيوزيلندا أنجزت السياسات الليبرالية الجديدة إعادة هيكلة الاقتصاد ، ولكن على حساب إلحاق أضرار فادحة بالتلاحم الاجتماعي . أما في المكسيك فقد أزلت أضرارا اجتماعية وسياسية واسعة النطاق دون نفع يذكر على الإطلاق للاقتصاد في مجموعه .

وفي كل من البلدان الثلاثة : إما أن الأحزاب السياسية التي طبقت السياسات الليبرالية الجديدة خرجت من الحكم وإما أنها تصدعت . ففي نيوزيلندا أدى السخط الشعبي على تأييد الحزبين لسياسات السوق الحرة إلى انهيار النظام الانتخابي وتمزق كل من الحزبين الرئيسيين . وفي المكسيك أخذ «الحزب الثوري المؤسسي» يفقد سيطرته على السلطة . أما في بريطانيا فإن إدخال إصلاحات دستورية كبرى يعد جزءاً رئيسياً من برنامج حزب العمال .

وفي الوقت نفسه أدت السيطرة الليبرالية الجديدة على مقاليد السياسة إلى إزاحة المشروعات السياسية المنافسة من حلبة المنافسة الجادة . ذلك أن One - Nation Toryism والاشتراكية الديمقراطية في بريطانيا ، والقومية الاقتصادية والسياسة الحماائية في المكسيك ، وكل ألوان الاقتصاد الكينزي الموجه في نيوزيلندا هذه كلها مشروعات سياسية تنتمي إلى الماضي بلا عودة . فقد حولت السوق الحرة كلاً من هذه الاقتصادات ونظم الحكم تحولاً لا سبيل إلى

الرجوع عنه ، وساعدتها على ذلك التغييرات الواسعة النطاق فى التكنولوجيا وفى اقتصادات العالم ، التى تصورت لبرهة قصيرة أنها سخرتها لأهدافها الخاصة .

لقد تمكن «اليمين الجديد» من الاحتفاظ بالسلطة بالتعامل مع قدر ضئيل من التغييرات الاقتصادية والتكنولوجية التى تحدث فى العالم أجمع . وكان فى استطاعة مؤيدى السوق الحرة ، فى أوج ازدهارها ، تعبئة قوى العولمة الاقتصادية لإحكام قبضتهم على السياسة فى بلدان كثيرة . ومع دخول العولمة مرحلتها التالية ، فإن السوق الحرة سوف تتحطم بكل تأكيد .

الفصل الثالث

ما لاتعنيه العولمة

إن الرأسمالية ، بينما هي منقرة اقتصاديا ، بل وتزداد استقرارا ، فإنها بجمالها العقل البشرى مصدر المعرفة ، تخلق عقلية وأسلوب حياة لا يتوافقان مع أحوالها الأساسية أو دوافعها ومؤسستها الاجتماعية .

«جوزيف شوميتز ، عدم استقرار الرأسمالية» .^(١)

تعبير «العولمة» يمكن أن يعنى أشياء كثيرة . فهو من ناحية يعنى الانتشار العالمى للتكنولوجيات الحديثة فى الإنتاج الصناعى والاتصالات من كل الأنواع عبر الحدود - فى التجارة ، ورسوم الأموال ، والإنتاج ، والمعلومات . وهذه الزيادة فى الحركة عبر الحدود هى فى حد ذاتها نتيجة لانتشار التكنولوجيات الجديدة إلى مجتمعات ما زالت حتى اليوم فى مرحلة ما قبل الحداثة . والقول بأننا نعيش فى عصر العولمة ، إنما يعنى القول بأن كل مجتمع تقريبا هو الآن مجتمع صناعى أو يسير فى طريق التصنيع .

والعولمة تعنى أيضا أن كل الاقتصادات تقريبا متشابكة مع الاقتصادات الأخرى على نطاق العالم . وهناك بضعة بلدان ، مثل كوريا الشمالية ، تسعى إلى عزل اقتصاداتها عن بقية العالم ؛ ونجحت فى الاحتفاظ بالاستقلال عن الأسواق العالمية ، وإن يكن بشئ من التكلفة الاقتصادية والبشرية فى آن واحد . إن العولمة عملية تاريخية . و«هى لا تقتضى أن تكون الحياة الاقتصادية متكاملة بنفس الدرجة وبكثافة . وكما أفادت دراسة إبداعية

(١) جوزيف شوميتز ، "The Instability of Capitalism" ، مجلة إيكونوميك جورنال ، المجلد ٣٨ ، عدد سبتمبر عام ١٩٢٨ ، الصفحة ٣٦٨ .

للموضوع ، فإن العولمة ليست حالة مفردة ، أو عملية خطية ، أو نقطة نهاية أخيرة للتغيير الاجتماعي^(٢) .

كذلك ليست العولمة حالة أخيرة تسير نحوها كل الاقتصادات . ذلك أن الحالة العامة للتكامل المتكافئ في نشاط عالمي النطاق هي على وجه التحديد ما لا تعنيه العولمة . على التقيض فإن الترابط المتزايد للنشاط الاقتصادي على نطاق العالم يؤكد التطور غير المتكافئ بين البلدان المختلفة . كما أنه يبالغ في اعتماد الدول النامية في «الأطراف» ، مثل المكسيك ، على الاستثمار القادم من الاقتصادات الأقرب إلى «المركز» مثل الولايات المتحدة . وبرغم أنه من نتائج الاقتصاد الأكثر عولمة إسقاط أو إضعاف بعض الفروق في العلاقات الاقتصادية بين الدول - بين البلدان الغربية والصين على سبيل المثال - فإنه في الوقت نفسه يعزز بعض الفروق في العلاقات القائمة ويخلق فروقا جديدة .

كذلك فإن الزعم بأننا نمر بمرحلة تقدم سريع في سير عولمة الحياة الاقتصادية ، لا يعنى بالضرورة أن كل جانب من جوانب النشاط الاقتصادي في أي مجتمع يصبح أشد حساسية للنشاط الاقتصادي على نطاق العالم . ومع ذلك فإن العولمة تفضي قديما ، وسيكون صحيحا دائما أن بعض أبعاد الحياة الاقتصادية لمجتمع ما لا تتأثر بالأسواق العالمية ، برغم أن هذه الأبعاد يمكن أن تتبدل بمضي الوقت .

إن ظهور أسعار سوق عالمية لبعض السلع ليس إلا بداية للعولمة . وتوجد اليوم مجتمعات قليلة لا يكون جانب كبير من حياتها متشابكا مع الأنشطة الاقتصادية في أسواق بعيدة من العالم . ومع ذلك فإنه طوال القرن التاسع عشر ، وبالنسبة لجزء كبير من القرن العشرين ، لم تمس الأسواق العالمية غالبية المجتمعات . وقد اختفت الآن غالبية تلك المجتمعات التقليدية ، أو أنها جذبت بقوة لا تقاوم في شبك علاقات السوق العالمية .

ففي الصين ، وحتى العقود القليلة الماضية ، كان عشرات الملايين من السكان يعيشون في جماعات قروية لا تربطها بالعالم سوى علاقات طفيفة ومتقطعة . فهذه الجماعات ، إذ عايشة التحويل القسري إلى الجماعية ، كما عايشة أحداث الثورة

(٢) ديفيد هيلد ، ديفيد جولابلات ، أنطوني ماكجرو ، جونانان برأتون ، «The Globalization of Economy Activity» ، في مجلة نيويوركيكال إيكونومي ، للمجلد ٢ ، العدد ٢ ، يولية عام ١٩٩٧ ، الصفحات ٢٥٧ إلى ٢٧٧ . انظر أيضا لنفس المؤلفين ، «Global Flows, Global Transformations : Theories and Evidence» ، كمبريدج : پوليتي برس ، ١٩٩٧ . وإنى مدين كثيرا لديفيد هيلد لأنه وضع الورقة التي مهدت الطريق والتي أشرت إليها أعلاه ، تحت تصرفي قبل نشرها .

الثقافية ، فإنها تتفكك الآن ، وذلك لأن الإتحام القسرى للأسواق يرغم الفلاحين الفقراء على التماس الرزق في المدن أو في مناطق نائية من الصين . كما أن إصلاحات السوق في الهند تُعدّ تحدياً لأعراف الزواج وقواعد التمييز بين الطوائف التي عاشت أربعين عاما بعد نهاية الحكم البريطاني . وفي الوقت نفسه تثير هذه التغييرات حركات الهندوس الراديكالية التي تعارض الاعتقاد القائل بأن التحديث في الهند لا بد أن يعنى مزيدا من التغريب . وفي الاتحاد السوفييتي السابق ينجح التحول إلى السوق ، حيث أخفقت الشيوعية ، في أن يفرض على الحياة الاجتماعية نوعا من الحدائة - حتى إذا كانت مجرد حدائة الفقر والتفتت الثقافي . أما المجتمعات الاشتراكية والتقليدية التي كانت في الماضي تغف خارج السوق العالمية فإنه لم يعد في وسعها أن تظل كذلك .

ومع ذلك فإنه بمعنى آخر تُعدّ العولمة اختزالاً للتغيرات الثقافية التي تجيء عندما تصبح المجتمعات مرتبطة بالأسواق العالمية ومعتمدة عليها بدرجات متفاوتة . كما أن مقدم التكنولوجيا الحديثة للمعلومات والاتصالات كان يعنى أن تأثر أشكال الحياة الثقافية بعضها ببعض أصبح أكثر عمقا من ذي قبل .

ولم تعد الأسماء التجارية لكثير من السلع الاستهلاكية خاصة ببلد محدد ، وإنما أصبحت علامات عالمية . فالشركات تنتج سلعا متماثلة تماما لتوزيعها على نطاق العالم . والثقافات الشعبية في كل المجتمعات تقريبا مغمورة في رصيد مشترك من الصور . وبلدان الاتحاد الأوروبي تنقسم الصور التي تستوعبها من أفلام هوليوود أكثر مما يتقاسم أى بلد منها أى جانب من ثقافة أى بلد أوروبى آخر . وينطبق الشيء نفسه على شرقى آسيا .

وخلف ما للعولمة من هذه «المعاني» كلها ، توجد فكرة أساسية واحدة يمكن أن تسمى «طمس الخصائص المحلية» : اقتلاع الأنشطة والعلاقات من أصولها وثقافاتها المحلية . كما تعنى دفع أنشطة كانت محلية حتى وقت قريب إلى شبكات العلاقات البعيدة أو العالمية النطاق . ويوجز أنطونى جيدنز ذلك قائلا: إن «العولمة يمكن تعريفها بأنها تكثيف العلاقات الاجتماعية العالمية التي تربط ما بين الوقائع البعيدة بواسطة أحداث تقع على بعد أميال كثيرة ، والعكس بالعكس»^(٣) .

وهكذا تتضاءل باستمرار سيطرة الظروف المحلية والقومية على الأسعار المحلية -

(٣) أنطونى جيدنز ، The Consequences of Modernity ، كمبردج : پوليتى پرس ، ١٩٩٠ ، الصفحة

للسلع الاستهلاكية ، والأصول المالية ، مثل الأسهم والسندات ، بل وللأيدي العاملة - التي تتقلب مع تقلب أسعار السوق العالمية . فالشركات المتعددة الجنسية تقوم بتجزئة سلسلة إنتاج منتجاتها ، وتوطن الحلقات في بلدان مختلفة حول العالم اعتمادا على ما يبدو في أى وقت أنه يحقق أكبر منفعة لها . ويتضاءل باستمرار ارتباط المنتجات التي تبيعها الشركات المتعددة الجنسية بأى بلد واحد ، على حين يزداد ارتباطها باسم تجارى عالمى أو باسم الشركة نفسها . وفى بلدان كثيرة يتم التعرف على الصور نفسها - فى الإعلانات ووسائل الترفيه . فالعولمة تعنى إخراج الأنشطة الاجتماعية من نطاق المعرفة المحلية وصيها فى شبكات تكيّفها فيها الأحداث العالمية ، أو تكيّف هي فيها هذه الأحداث .

وكثيرا ما تجرى مساواة العولمة باتجاه نحو تجانس المنتجات . وذلك مرة أخرى هو مجرد ما لا تعنيه العولمة . فالأسواق العالمية التى ينتقل فيها رأس المال والإنتاج بحرية عبر الحدود تعمل على وجه التحديد بسبب الاختلافات بين المحليات والدول والمناطق . فلو كانت الأجور والمهارات والبنية الأساسية والمخاطر السياسية هي نفسها على نطاق العالم ، ما أمكن أن يحدث نمو للأسواق العالمية . ولو كانت الظروف متماثلة فى كل مكان ما أمكن أن تتحقق أرباح عن طريق الاستثمار وإقامة المصانع فى كل مكان . إذن الأسواق العالمية لا تزدهر إلا على الاختلافات بين الاقتصادات . وهذا من الأسباب التى جعلت للاتجاه نحو العولمة مثل هذا الزخم الذى لا يقاوم .

وإذا كان رأس المال الزئبقى ذو القابلية العالية للتنقل يتفادى أى بلد أو إقليم بعينه ، لأن هذا البلد أو الإقليم يفتقر إلى البنية الأساسية ، أو إلى قوة عمل ماهرة ، أو إلى الاستقرار السياسى - مثلما تفادى رأس المال الاستثمارى الخاص إفريقيا الوسطى والغربية على امتداد العقود القليلة الماضية - فستصبح تلك الأجزاء من العالم أكثر فقرا ، وسيتم تضخيم اختلافاتها عن المناطق التى تُعدّ مواقع جاذبة لرأس المال الإنتاجى . وإذا ما انتشرت التكنولوجيات الجديدة من البلدان الغربية التى نشأت فيها إلى شرقى آسيا ، فإنها لن تحمل معها الثقافات الاقتصادية - التشكيلات المتنوعة للرأسمالية - التى أنتجتها . على النقيض من ذلك ، إذ إنها ستغذى وتعزز الثقافات الاقتصادية المحلية لتلك المناطق . وعندما تدخل التكنولوجيات الجديدة اقتصادات كانت قد منعت فى الماضى من دخولها ، أو كانت تفتقر إلى مؤسسات السوق التى كان يمكنها استغلالها بفعالية ، فإنها ستفاعل مع الثقافات المحلية لتوليد أنماط من الرأسمالية لم تكن حتى ذلك الحين موجودة فى أى مكان .

ولناخذ مثال الصين . إن دخول البر الرئيسي للصين فى الأسواق العالمية لا يعنى أن الحياة الاقتصادية الصينية ستصبح شبيهة لمثيلتها فى أى بلد صناعى آخر . فهى شديدة الاختلاف منذ الآن عن الرأسمالية التى نشأت فى روسيا ما بعد الشيوعية و التى تُعدّ العلاقات العائلية فيها أقل أهمية بكثير . كما أن الرأسمالية الصينية يجمعها شبه شديد بالرأسمالية التى يمارسها الصينيون المشتون فى كل مكان فى العالم . ولكنها رأسمالية ذات قممات مميزة وفريدة كثيرة ناشئة عن التاريخ المضطرب الرهيب للأمة طوال الجيلين الماضيين .

وفى الصين ، كما فى المجتمعات الأخرى ، تعبّر حياة الأسواق عن الثقافة الأوسع والأعمق التى تكون الأسواق فيها مجرد القمّة المنظورة . كما أن المكانة التى تحتلها علاقات الثقة فى العائلات والأسواق فى المجتمعات المختلفة هى فى حد ذاتها ضمان بأنه سيحدث تغير جوهري فى ثقافتها الاقتصادية - أى حجم المنشآت ، ومدى تركيز أو انتشار حيازات رأس المال ، وما شابه .

ولما كانت الثقة فى الصين لا تتجاوز بسهولة أعضاء الأسرة ، فمن غير المرجح أن تتخذ دوائر الأعمال الشكل الذى اتخذته فى اليابان ، حيث علاقات الثقة التى تتجاوز كثيرا شبكة القرابة هى العلاقات المألوفة . فاققتصاد السوق ذو الطابع الرأسمالى تماما فى الصين يمكن أن يختلف عن مثيله فى اليابان قدر اختلافه عن الرأسمالية الغربية . ومن المحتمل أن يشتمل على أعمال صغيرة كثيرة مزدهرة ، وشركات كبيرة قليلة من الأنواع الشائعة فى اليابان . كما أنه لن يقوم على طبقة متوسطة من النوع الذى وجد فى اليابان لفترة طويلة ، أو يفرز بالضرورة مثل هذه الطبقة . بل يبدو أن هذا النوع من الرأسمالية بدأ يظهر كنتيجة للإصلاحات السريعة للسوق فى مناطق عديدة من الصين .

ولذلك إرهاصات كثيرة فى مناطق الشتات الصينى . وكما لاحظ «ميكلكسويت» و«ودريدج» فإن :

«شبكة الببمو للنشاط العائلى التى خلقها المنظّمون الصينيون عبر البحار ، ليست مجرد صورة مختلفة أخرى مثيرة ، وإنما هى نموذج بديل مكتمل الصفات - ونموذج يبدو مترايد القوة . . . فى الفلبين لا يشكل صينيو ما وراء البحار إلا واحداً فى المائة من سكان البلد ، ولكنهم يتحكمون فى أكثر من نصف سوق الأوراق المالية . والنسبتان المقابلتان فى إندونيسيا هما ٤ فى المائة و٧٥ فى المائة ، وفى ماليزيا ٣٢ فى المائة و٦٠ فى المائة . . . وبحلول عام ١٩٩٦ كان الصينيون فيما وراء البحار ، البالغ عددهم ٥١ مليون صينى ،

يتحكمون في اقتصاد قيمته ٧٠٠ مليار دولار - أى قرابة مجموع ما يتحكم فيه سكان البر الرئيسي للصين البالغ عددهم ١,٢ مليار نسمة^(٤) .

كذلك فإن نمو الأسواق العالمية لا يعنى أن ثقافة الأعمال الأمريكية سيتم استنساخها فى كل أرجاء العالم . ذلك أن اعتقاد الأمريكيين بأن الشركات هى قبل أى شىء آخر أدوات لتحقيق الأرباح للمساهمين ، هو اعتقاد لا تشاطرهم فيه غالبية أقطاب الرأسمالية الأخرى .

ففى ألمانيا تكون مصالح كثيرين من «أصحاب المصالح غير المالية»^(٥) ، فضلا عن المساهمين ، ممثلة فى مجالس إدارة الشركات . ومن غير المتصور أن تنسحب مؤسسة كبيرة من سوق الأيدى العاملة المحلية بنفس السرعة والشمول اللذين انتقلت بهما الشركات الأمريكية من كاليفورنيا إلى المكسيك . ذلك أن وجود سوق عالمية تشكل بحيث تعكس الممارسة الأمريكية فى مجال الأعمال من شأنها تقويض الأسواق الاجتماعية التى بنيت وفقا للنموذج الألمانى لما بعد الحرب ؛ ولكنها لن تحوِّك الرأسمالية الألمانية إلى صورة أخرى من المذهب الفردى الذى تقوم عليه الرأسمالية الأمريكية . وبدلا من ذلك فإنها ستسفر عن تغيير فى طابع الرأسمالية فى كل من ألمانيا وأمريكا .

وليست هناك ثقافة اقتصادية فى أى مكان فى العالم تستطيع مقاومة التغييرات التى يفرضها وجود الأسواق العالمية . وفى كل حالة ، بما فى ذلك الولايات المتحدة نفسها ، ستكون النتيجة توليد أنواع جديدة من الرأسمالية . فالأسواق العالمية تفرض تحديثا قسريا على الاقتصادات فى كل مكان ؛ ولا تخلق نسخًا طبق الأصل من ثقافات الأعمال القديمة . ويجرى خلق رأسماليات جديدة وتدمير رأسماليات قديمة .

وبالمثل فإن انتشار الاتصالات العالمية لا ينتج أى شىء شبيه بالتلاقى بين الثقافات . فوجهة النظر الأمريكية العالمية التى تروج لها القناة التليفزيونية CNN - التى وفقا لها ، وعلى نقيض الظواهر وكل الحقائق الأساسية ، تعد القيم الأمريكية قيما كونية ،

(٤) جون ميكلسوث وأدرين وودريدج ، The Witch Doctors ، لندن : هاينمان ، ١٩٩٦ ، الصفحة ٢٩٤ .

(٥) Stakeholders : أصحاب المصالح غير المالية المرتبطة بشركة معينة ، والذين تعتمد عليهم هذه الشركة فى أمور جوهرية كثيرة ، من بينها التوريدات مثلا ، وكذلك المستخدمون ، والجماعات المحلية ، بل والمستهلكون ، وكثيرا ما يكون لهؤلاء جميعا حق التصويت فى إدارة الشركات . ويقابلهم المساهمون (Shareholders) أصحاب المصالح المالية - المترجم .

والمؤسسات الأمريكية هي الحل لأكثر مشكلات العالم عناداً- إنما تمثل ظاهرة عابرة بسبب سبق أمريكا الحالي في تكنولوجيا الاتصالات . وهي ليست معلماً على الطريق إلى حضارة عالمية . إن شركات وسائل الإعلام التي تغير نابعها لتلائم الثقافات المختلفة ، مثل شركة MTV ، يمكن توقع أن تظل عالمية . وإذا ظلت قناة CNN لا ترى أى شيء في العالم إلا من وجهة نظر أمريكا ، فالأرجح أنها ستصبح في القريب العاجل مجرد شركة إعلام وطنية بين شركات كثيرة أخرى .

وعن طريق تمكين ممارسي الثقافات المختلفة المشتتين جغرافياً من التفاعل خلال الوسائط الجديدة للاتصالات ، فإن العولمة تكون أداة للتعبير عن الفروق الثقافية وتعميقها . كما أن سكان جنوب آسيا المتشربين في البلدان الأوروبية يعززون روابطهم الثقافية عندما يشاهدون القنوات التلفزيونية التي تبث بلغاتهم عبر الأقمار الصناعية وتجدد تاريخهم وقيمهم . فالأكراد المنفيون في البلدان الأوروبية يحافظون على ثقافتهم المشتركة من خلال قناة تلفزيونية كردية .

والانتشار العالمي لصور مماثلة هو أثر ظاهر للوسائط العالمية للاتصالات . فهذه الوسائط تحطم الثقافات المشتركة ، وتُحل محلها آثاراً وشظايا . ومع ذلك فإن الوسائط الحديثة للاتصالات باستطاعتها أيضاً - كما هي الحال في اليابان وسنغافورة وماليزيا والصين - تمكين الثقافات من تأكيد هوياتها واختلافاتها عن المرحلة المتأخرة من الحدادة الغربية ، وبعضها عن بعض .

والاقتصادات يمكن أن تصبح أكثر اندماجاً بعضها في بعض - مثلما كانت الحال بين اقتصادي اليابان والولايات المتحدة في العقود الأخيرة - دون أن تتماثل في طريقة أدائها الأعمال . ويرغم التجارة التي تزايدت كثيراً بين البلدين ، فإن الثقافة السائدة بين الشركات اليابانية تختلف اختلافاً شديداً عن مثيلاتها لدى أية شركة أمريكية . فلم تعتمد أية شركة يابانية إلى تقليص لحجم الإنتاج أو إرجاء من النوع الذي أصبح روتيناً في جميع الشركات الأمريكية الرئيسية تقريباً . وهذه الاختلافات بين الشركات الأمريكية واليابانية تعكس الفروق بين ثقافتها الأم .

العولمة اليوم وقبل عام ١٩١٤

كان العالم قبل عام ١٩١٤ شبيهاً بسوق عالمية ، ولم تكن الحدود القليلة الموجودة حينذاك ذات أهمية كبيرة . وكان الناس والنقود والسلع يتنقلون في حرية . وكانت الأسس التكنولوجية للسوق الحرة في القرن التاسع عشر متمثلة في كوابل التلغراف الممتدة

فى قاع البحار فيما بين القارات وفى السفن البخارية التى عرفها النصف الثانى من هذا القرن . ومنذ ذلك الحين ارتبطت مروانى العالم معا ، وأخذت تظهر إلى الوجود أسعار عالمية لكثير من السلع . وبحلول أواخر القرن التاسع عشر (على وجه التقريب من عام ١٨٧٨ إلى عام ١٩١٤) جاء إلى الوجود نظام مالى دولى كان بمثابة قيد على الاستقلال الاقتصادى للحكومات الوطنية . وفى تلك «الحقبة الجميلة» ، كانت سيادة الدول القومية محصورة فى السياسات الاقتصادية التى باستطاعتها اتباعها عن طريق «قاعدة الذهب» التى كانت سارية فى ذلك الحين بنفس الفعالية التى تستطيع بها اتباعها الآن عن طريق قابلية رأس المال للتنقل . ومن خلال هذه الطرق جميعا يمكننا أن نتعرف فى عالم ما قبل عام ١٩١٤ على إرهاصات السوق العالمية الراهنة .

ومع ذلك من الخطأ المسيم أن نخلص إلى أننا قد عدنا إلى الاقتصاد العالمى للقرن التاسع عشر . فجميع جوانب العمولة الاقتصادية اليوم - السرعة ، الحجم ، الاتصالات المتبادلة بين تنقلات البضائع والمعلومات عبر العالم - أكبر بدرجة هائلة من أى أبعاد وجدت فى أى فترة سابقة . ولتأمل فى بعض هذه الأبعاد . فى غضون فترة ما بعد الحرب ، تمت التجارة العالمية اثنتى عشرة مرة ، على حين لم يزد الإنتاج فى الوقت نفسه إلا خمس مرات فقط . وفى جميع البلدان تقريبا تشكل الواردات والصادرات نسبة من النشاط الاقتصادى أكبر كثيرا مما كانت عليه فى الماضى . ويفيد تقرير أكاديمى أن الروابط التجارية بين عينة ثابتة قوامها ٦٨ بلدا ، زادت من ٦٤ فى المائة فى عام ١٩٥٠ إلى ٩٥ فى المائة فى عام ١٩٩٠^(٥) . وحتى فى السوق الأمريكية الشاسعة التى تكون فيها التجارة الداخلية فقط هى المجال المتاح للشركات الصغيرة ، فإن خمس الشركات التى لديها أقل من ٥٠٠ عامل كانت تصدر بضائع أو خدمات فى عام ١٩٩٤ ، وتلك النسبة فى ازدياد^(٦) .

وليس هناك شك فى أنه ، منذ ثمانينيات هذا القرن على الأقل ، كانت نسبة التجارة العالمية إلى الناتج المحلى الإجمالى تتجاوز مثلتها التى عرفت فى أى وقت فى الاقتصاد الدولى المفتوح الذى كان موجودا قبل الحرب العالمية الأولى .^(٧) كما حدث توسع ضخم وغير مسبوق فى حجم التجارة .

وتوجد الآن سوق عالمية فى رأس المال على نحو لم يعرف من قبل ، كما توجد بيئة

(٥) توم نيروب ، *Systems and Regions in Global Politics* ، لندن : جون ويلي ، ١٩٩٤ ، الفصل ٣ .

(٦) ميكلوثيت وودريدج ، المرجع السابق ، الصفحة ٢٤٥ .

(٧) انظر ، پول كروجرمان ، "Growing World Trade : Causes and Consequences" ، أبحاث بروكترز فى

النشاط الاقتصادى ، العدد ١ (١٩٩٥) .

قوية على أن المستثمرين في كثير من البلدان يتوعدون ما في حوزتهم عالميا سواء من الأسهم أو السندات ، وعلى أنه نتيجة لذلك كانت عوائد رأس المال تتجه إلى التقارب في العقدين الأخيرين . (٨) وهو اتجاه أكثر وضوحا فيما يتعلق بالسندات الحكومية منه فيما يتعلق بالأسهم ، ولكنه ظاهر ولا شك فيه . (٩) وتتحدد أسعار الفائدة في جميع البلدان بدرجة متزايدة بالظروف العالمية ، وليس بالظروف أو السياسات في أي بلد واحد . كما أن تدفقات الاستثمار الخاص من البلدان الصناعية المتقدمة إلى البلدان الحديثة التصنيع ازدادت بمقدار عشرين مرة في الفترة من عام ١٩٧٠ إلى عام ١٩٩٢ . (١٠)

وربما كان من الأمور البالغة الدلالة أن المعاملات في أسواق الصرف الأجنبي وصلت الآن إلى رقم يعث على الدهشة ، هو حوالي ٢ ، ١ تريليون دولار في اليوم - أي أعلى بمقدار خمسين مرة من مستوى التجارة العالمية . كما أن حوالي ٩٥ في المائة من هذه المعاملات له طبيعة المضاربة ، وكثير منها يستخدم أدوات مالية اشتقاقية (١١) جديدة معقدة تقوم على العمليات الآجلة وحقوق الخيار (١٢) . (١١) يقول ميشيل ألبرت : إن الحجم اليومي للمعاملات في أسواق الصرف الأجنبي في العالم يبلغ حوالي ٩٠٠ مليار دولار - أي ما يساوي الناتج المحلي الإجمالي السنوي لفرنسا ، وما يزيد بأكثر من ٢٠٠ مليون دولار على مجموع احتياطات العملات الأجنبية في البنوك المركزية بالعالم (١٢) .

(٨) من أجل الإلمام ببراهين على هذه النقطة ، انظر ، ج . فرانكل ، *The Internationalization of Equity Markets* ، شيكاغو : إدارة النشر بجامعة شيكاغو ، ١٩٩٤ ، ص ٤ . أكديجان ، *The Integration of International Capital Markets* ، لندن ، إدوارد إلجار ، ١٩٩٥ .

(٩) حول الاتجاه إلى التسعير العالمي للأسهم ، انظر ، لويل بريان وديانا فاريل ، *Market Unbound: Unleashing Global Capitalism* ، نيويورك : جون ويلي ، ١٩٩٦ ، الفصل الثاني .

(١٠) الجات ، ٤ - ١٩٩٣ ، *International Trade 1993* ، المجلد ١ ، جنيف : الجات ، ١٩٩٤ ؛ برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ، *Human Development Report 1994* ، أكسفورد : إدارة النشر بجامعة أكسفورد ، ١٩٩٤ ؛ برنامج الأمم المتحدة للتجارة والتنمية ، *World Investment Report 1994* ، جنيف ، برنامج الأمم المتحدة للتجارة والتنمية ، ١٩٩٤ .

(١١) *Derivative financial instruments* : أي أشكال للضمان (مثل عقود الخيار) مشتقة من السندات والأذون والأسهم العادية - المترجم .

(١٢) *Futures and options* : الاتجار في السلع أو الأسهم على أساس التسليم في وقت لاحق ؛ *Options* : منح شخص ما إمكانية شراء شيء أو بيعه في غضون فترة زمنية] - المترجم .

(١١) جريدة وول ستريت جورنال ، عدد ٢٤ من أكتوبر عام ١٩٩٥ ؛ بنك التسويات الدولية ، التقرير السنوي ، ١٩٩٥ .

(١٢) ميشيل ألبرت ، *Capitalism against Capitalism* ، لندن : دار وور للنشر ، ١٩٩٣ ، الصفحة ١٨٨ . وللكتاب طبعة عربية صادرة من مكتبة الشروق [١٩٩٥] .

وهذا الاقتصاد المالى التصورى^(*) لديه طاقة كامنة رهيبية على تمزيق الاقتصاد الأساسى العيى^(**) ، كما رأينا فى عام ١٩٩٥ فى انهيار بنك بارنج ، أقدم بنوك بريطانيا. وجنبا إلى جنب مع التطور المتسارع لأسواق رأس المال ، فإن الاقتصاد التصورى يُعدّ ظاهرة غير معروفة فى التاريخ الاقتصادى للعالم ، إذ لم يوجد شىء شبيه له قبل عام ١٩١٤ .

إن نمو الشركات المتعددة الجنسية وقوتها هما عملية ضخمة وكذلك غير مسبوقه ، فهذه الشركات تستأثر الآن بحوالى ثلث الناتج العالمى وثلثى التجارة العالمية . والأمر الأكثر دلالة أن حوالى ربع التجارة العالمية يحدث داخل نطاق الشركات المتعددة الجنسية .^(١٣) ويفيد مسح أجرته الأمم المتحدة أن الناتج المشترك لهذه الشركات كان فى عام ١٩٩٣ حوالى ٥,٥ تريليون دولار- أى ما يقرب من ناتج الولايات المتحدة ككل .^(١٤)

ومن المعروف أن الشركات التى تمارس التجارة والاستثمار على النطاق الدولى كانت موجودة أيضا منذ عدة قرون- ومن أمثلتها شركة خليج هدسون وشركة الهند الشرقية . وبهذا المعنى الواسع تكون الشركات المتعددة الجنسية قد بدأ وجودها مع الاستعمار الأوروبى ، ولكن دورها فى عالم اليوم يختلف اختلافا كاملا . وهى باستطاعتها تقسيم عملية الإنتاج إلى عمليات منفصلة ، وتوطينها فى بلدان مختلفة فى أنحاء العالم . كما أنها أقل اعتمادا من أى وقت مضى على الظروف الوطنية ، وبإستطاعتها أن تختار البلدان التى يبين لها أن أسواق العمل والضرائب والأنظمة الموجهة فيها أكثر ملاءمة . كذلك فإن الوعد بالتوسع فى الاستثمارات المباشرة ، والتهديد بسحبها ، لهما تأثير على خيارات الحكومات الوطنية فى مجال السياسات . وبإستطاعة الشركات الآن تقييد سياسات الدول . وليست هناك سوابق تاريخية تذكر لهذا النوع من قوة القطاع الخاص .

وذلك لا يعنى القول إن الشركات المتعددة الجنسية هى مؤسسات عبر وطنية لا وطن لها تتحرك عبر الحدود دون تكلفة أو عناء ، ولا تعبر عن أى ثقافة وطنية خاصة فى مجال الأعمال . فهى فى أغلب الأحيان شركات تحتفظ بجذور قوية فى اقتصاداتها وثقافتاتها الأصلية . وفى مسح متظم وشامل يخلص زيجروك وفان تولدر إلى أن قلة من كبرى

(*) Virtual economy : الاقتصاد التصورى .

(**) Real economy : الاقتصاد العيى .

(١٣) برنامج الأمم المتحدة للتجارة والتنمية ، Investment Report, 1994

(١٤) ميكثريت ووودريدج ، المرجع السابق ، الصفحة ٢٤٦

شركات العالم لها طابع عالمي حقًا ، إن كانت هناك شركات لها هذا الطابع . بل إن شركات مثل بريتش أيروميسيس^(١٥) ، يتم الجانب الأكبر من أعمالها في الخارج ، تحتفظ بغالبية أصولها في وطنها .^(١٥) ويلاحظ هيرست و ثومبسون أن الشركات المتعددة الجنسية تحتفظ بحوالي ثلثي أصولها في أوطانها أو مناطقها ، وتبيع قرابة نفس النسبة من بضائعها وخدماتها في أوطانها أو مناطقها^(١٦) .

ومرة أخرى فإن قلة صغيرة للغاية من الشركات المتعددة الجنسية هي التي تُعدّ ذات ثقافة مشتركة حقًا . ومن أمثلتها النادرة شركة ABB ، وهي شركة سويسرية سويدية تتكون من ١٣٠٠ شركة منفصلة .^(١٧) وقد تكون هذه الشركة ذات طابع ثقافي مشترك أكثر من أي شركة أخرى . وهي في ذلك قد تكون فريدة . ذلك أن جميع الشركات المتعددة الجنسية تقريبًا تعبر عن ثقافة واحدة هي ثقافة الوطن الأم ، وتجسد هذه الثقافة ، وهو ما يصدق بوجه خاص على المنشآت الأمريكية .

ومن المتعارف عليه النظر إلى الشركات المتعددة الجنسية على أنها تشكل نوعًا من الحكومة الخفية التي تضطلع بكثير من وظائف الدولة القومية . وهي في الواقع غالبًا ما تكون منظمات ضعيفة فاقدة الشكل والصورة ، كما تتكشف عن فقدان القوة وتآكل القيم العامة اللذين تبتلئ بهما من الناحية العملية جميع المؤسسات الاجتماعية في المرحلة الحديثة المتأخرة . فالسوق العالمية لا تفرّخ شركات تضطلع بالوظائف التي كانت تقوم بها الدولة ، بل هي بالأحرى قد أضعفت كلتا المؤسستين وأفرغتهما من مضمونهما .

شكوك حول العولمة

ثمة رأى له وزنه ينكر أن اتجاهات اليوم تعنى أى شئ جديد حقًا ، و يقيم الحجة على أنه لما كانت الحركة التاريخية التي نسميها «عولمة» قد بدأت منذ عدة قرون ، وبما أن انفتاح الاقتصاد الدولي على العالم كان عاليًا في النظام الاقتصادي الليبرالي لما قبل عام ١٩١٤ ، فإن

(١٥) British Aerospace (الهيئة البريطانية لشتون الفضاء) .

(١٥) و. ويجروك ، س. فان تولدر ، The Logic of International Restructuring ، لندن : روتلج ، ١٩٩٥ .

(١٦) پول هيرست وجراهام ثومبسون ، "Globalization" ، في مجلة Soundings ، العدد ٤ ، خريف عام ١٩٩٦ ، الصفحة ٥٦ .

(١٧) انظر ، ميكلتويت وودريدج ، المرجع السابق ، الصفحتان ٢٤٣ و ٢٤٤ .

عولمة أواخر القرن العشرين لا تُعدّ ظاهرة جديدة . ووجهة النظر هذه فيها صواب وفيها خطأ . فهي تصحيح مفيد لوجهة نظر يوتوية في العولمة قدمها بعض مفكرى دوائر الأعمال . ويعطى كينتشى أوميا بيانا صادقا بما يمكن أن نسميه وجهة نظر ماكينزى العالمية- أى الرؤية التى تروج لها المدارس الأمريكية لإدارة الأعمال- عندما كتب يقول : «إنه مع نهاية الحرب الباردة تمزقت إلى غير رجعة أطر التحالفات والخلافات التى كانت مألوفة لفترة طويلة بين الدول الصناعية . وبدرجة أقل من الظهور ، ولكن بدرجة أكبر من الأهمية ، فإن الدولة القومية الحديثة نفسها- ذلك الناتج الاصطناعى للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر- أخذت فى التصدع»^(١٨) . وهؤلاء المفكرون لدى تقديمهم للمنظرين للعولمة المفرطة^(١٩) إنما يسهمون فى فهم الحاضر ، ولكنهم كأنما يهاجمون شخصا وهمياً .

ولا أحد ، فيما عدا قلة من اليوتويين فى مجمع دوائر الأعمال ، يتوقع أن يصبح العالم سوقا واحدة حقيقية تلاشت فيها الدول القومية ، وحلت محلها شركات متعددة الجنسية لا وطن لها . ومثل هذا التوقع هو إحدى شطحات خيال الشركات ، ودوره هو تعزيز وهم قيام سوق حرة عالمية النطاق .

إن الذين تساورهم شكوك فى العولمة يكونون على صواب عند إشارتهم إلى الدور الأيديولوجى لهذه الخيالات الجامحة . وهم يعززون الاعتقاد بأن الحكومات الوطنية ليس لديها فى هذه الأيام خيارات واقعية . وكما قال هيرست واثومسون فإن «العولمة خرافة مناسبة لعالم بلا أوهام ، ولكنها أيضا خرافة تسلبنا الأمل . . . لأنها تفترض أن الاشتراكية الديمقراطية الغربية واشتراكية الكتلة السوفيتية قد انتهتا كلتاهما . وليس بوسع المرء إلا أن يسمي التأثير السياسى «العولمة» باثولوجيا التوقعات التى تتناقص بشدة»^(١٩)

(١٨) كينتشى أوميا ، *The End of the Nation - State : The Rise of Regional Economies* ، لندن : هاربر- كولينز ، ١٩٩٥ ، الصفحة ٩ .

(١٩) *Hyper - globalization* .

(١٩) پول هيرست وجراهام ثومسون *Globalization in Question* ، كمبردج : پوليتى برس ، ١٩٩٦ ، الصفحة ٦ . ويمكن أن توجد حجج متشككة ماثلة حول العولمة فى ب. بايرونك ، "Globalization, Mythes and Realities" ، فى العمل الجماعى الذى أعده س. بوير ، د. دراتشى ، *States Against Markets - The Limits of Globalization* ، لندن : روتلج ، ١٩٩٦ . انظر أيضا ، ب. بايرونك ، ر. كوزول-رايت ، *Globalization Mythes : Some Historical Re-* ، *flections on Integration, Industrialisation and Growth in the World Economy* ، أوراق مناقشة UNCTAD ، رقم ١١٣ .

ومع ذلك فإن شكوك هيرست وثومسون في العولمة نفسها تخدم غرضا سياسيا . فهما يقولهما إن السوق العالمية الراهنة ليست بدون سابقة يكون باستطاعتها أن يدافعا عن استجابات سياسية للعولمة والقول بأنها مازالت مع ذلك قابلة للحياة - مثل الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية - بالرغم من أنها تنتمي إلى الماضي .

وهما يقولان: إن «الاقتصاد الدولي كان من نواح كثيرة أكثر انفتاحا في فترة ما قبل عام ١٩١٤ مما كان عليه في أى وقت مادامت التجارة الدولية وتدفقات رأس المال ، سواء بين نفس الاقتصادات السريعة التصنيع ، أو بين هذه الاقتصادات والمناطق المختلفة التي تستعمرها ، كانت أكثر أهمية بالنسبة لمستويات الناتج المحلي الإجمالى قبل الحرب العالمية الأولى مما هي عليه اليوم . . . وهكذا فإن الفترة الراهنة ليست بأى حال فترة لا سابقة لها» .^(٢٠) ووجهة النظر هذه تغفل التباينات الأكثر حسما بين الاقتصاد الدولي فيما قبل عام ١٩١٤ والسوق العالمية اليوم .

وقد لاحظ المفكر السياسى البريطانى ديفيد هيلد وزملاؤه أنه «إذا ما قيست بالأسعار الثابتة ، فإن المعدلات الكلاسيكية لقاعدة الذهب (للتجارة كنسبة من الناتج المحلي الإجمالى) تم تجاوزها بحلول سبعينيات القرن العشرين ، والمعدلات الآن أعلى بكثير وفضلا عن ذلك فإن جانبا كبيرا من نمو الناتج المحلي الإجمالى في فترة ما بعد الحرب كان في خدمات غير قابلة للتبادل ، لا سيما الخدمات العامة . . . وكانت مستويات الرسوم الجمركية (وكذلك تكاليف النقل) أدنى من المستويات الكلاسيكية لقاعدة الذهب منذ سبعينيات القرن العشرين ، مما يشير إلى أن الأسواق الآن أكثر انفتاحا» . ويخلصون إلى أنه «قد ظهر نظام تجارى عالمى عند نهاية القرن التاسع عشر ، ولكنه كان أقل اتساعا مما هو عليه اليوم ، وكثيرا ما كان أقل وقوعا في شباك الأسواق الوطنية والإنتاج الوطنى» .^(٢١) وذلك يبدو تقييما معقولا .

وثمة اختلاف أساسى بين الاقتصاد الدولي اليوم ، وما كان عليه قبل عام ١٩١٤ ، هو أن القوة والتأثير أخذان في الابتعاد عن الدول الغربية . إذ إن معدلات التبادل التجارى العالمى ، وسير النظام المالى من خلال قاعدة الذهب ، وكل جانب آخر من جوانب اقتصاد ما قبل عام ١٩١٤ ، إنما كانت تفرضها الدول الأوروبية وتحافظ عليها .

(٢٠) هيرست وثومسون ، *Globalization in Question* ، المرجع السابق ، الصفحة ٣١ .

(٢١) هيلد وآخرون ، *New Political Economy* ، الصفحة ٦ .

صحيح أن التجارة قد نمت أساسا بين البلدان الصناعية الغربية - وإن كان أمراً مستغرباً، فأنتا ندرج اليابان في دول الغرب - ومع ذلك فإن نمط التجارة اليوم شديد الاختلاف عما كان عليه من قبل . وكما يلاحظ ديثيد هيلد وآخرون فإن :

«التجارة ظلت تنمو بالنسبة للدخل ، كما استمرت متركزة بين البلدان الصناعية ، على نقيض العصر الكلاسيكي لقاعدة الذهب ، عندما كان التبادل بين البلدان المتقدمة والنامية يمثل نصف مجموع التجارة أو أكثر . . . وأدت التجارة فيما بين الصناعات المختلفة إلى نمو نسبي في الصناعات ذات وفورات الحجم والديناميكية التكنولوجية ، على حين أن مستويات الدخل المتصاعدة زادت الطلب على التنوع مما زاد الطلب على المنتجات المستوردة المتباينة ، وبخاصة فيما بين البلدان الصناعية . . . وأدى ذلك . . . إلى زيادة كبيرة في نسبة السلع المصنعة في واردات البلدان المتقدمة ، فيما عدا اليابان» .

والأكثر من ذلك أن البلدان الحديثة التصنيع لم يعد ممكناً اعتبارها كتلة متجانسة . فالدخول والأجور في بعض منها - كوريا الجنوبية ، تايوان ، سنغافورة - أعلى فعلياً منها في بلدان الغرب الصناعي التي تدهورت مهارتها ، مثل بريطانيا . كما أن ميزان المزايا ، الذي كان في عصر ما قبل عام ١٩١٤ مؤكداً لصالح البلدان الأوروبية ، يتحول الآن بعيداً عن البلدان الغربية في كثير من مجالات النشاط الاقتصادي .

وإذا كان الاقتصاد المفتوح في فترة ما قبل عام ١٩١٤ نتاجاً اصطناعياً للسيطرة الأوروبية على مناطق واقتصادات كل مجتمعات العالم الأخرى تقريباً ، فإن السوق العالمية التي شاهدنا طفولتها المضطربة لا تقوم على أية هيمنة من هذا القبيل . فهل هناك دولة غربية تستطيع الآن أن تزعم أن لها تأثيراً فعالاً على الصين؟ إنه حتى الولايات المتحدة لا تمارس الآن على الصين شيئاً شبيهاً بالنفوذ الذي كان مألوفاً للدول الإمبراطورية في فترة ما قبل عام ١٩١٤ .

وفي هذا الصدد ، فإن فترة العولمة المتصاعدة التي نعيشها الآن تعد حقاً فترة لا سابقة لها . ولكونه صحيحاً إلى حد ما أنها لا تتضمن أية دولة مهيمنة مثل بريطانيا قبل عام ١٩١٤ ، أو الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ، فإن الاستقرار في أوقات أزمة السوق العالمية لا يمكن اعتباره أمراً مسلماً به . وإذا كان هناك شبيه تاريخي حديث بالنسبة لعالمنا منذ عام ١٩٨٩ ، فإنه ليس عالم ما قبل عام ١٩١٤ . بل الفترة المتقلبة بين الحربين التي أعقبت عام ١٩١٩ .

ويهدى الاقتصاد العالمي اليوم سمات مميزة كثيرة تجعله ، حسب قول هيرست و ثومسون ، أقرب إلى سوق معولة بطريقة غير منظمة منها إلى السوق الدولية التي كانت منظمة نسبيا قبل عام ١٩١٤ . وهما يسترعيان الأنظار إلى جوانب حقائق اليوم عندما يقولان : إن «النظام الدولي يكتسب قدرًا من الاستقلال الذاتي ويتعد عن أصوله الاجتماعية عندما تصبح الأسواق عالية حقا . فالسياسات المحلية ، سواء أكانت سياسات الشركات الخاصة أم سياسات المنظمين العموميين ، يتعين عليها أن تأخذ الآن في الاعتبار المحددات السائدة دوليا لمجال عملياتها» (٢٢) .

إن الدول ذات السيادة اليوم لا تواجه الضوابط التي يمكن التنبؤ بها للنظام شبه الآلي لقاعدة الذهب ، وإنما هي مقيدة بدلا من ذلك بالمخاطر وعدم اليقين ، وبمدرجات السوق العالمية و ردود أفعالها . فخيارات السياسة المتاحة أمام الدول القومية في العقد الأخير من القرن الحالي لا تقدم لها في صورة وجبة ذات أسعار ثابتة . كما أن الحكومات ذات السيادة لا تعلم مقدما ماذا ستكون عليه ردود أفعال الأسواق . وثمة قواعد قليلة ، إن وجدت قواعد أصلا ، للاستقامة النقدية أو المالية التي يسفر انتهاكها عن جزاءات يمكن التنبؤ بها . وعند الحافة لا شك في أن السياسات المحفوفة بمخاطر شديدة من زاوية التضخم أو الدين الحكومي ، مثلا ، ستعاقب بأسواق السنوات الحذرة ؛ ولكن مدى قسوة تلك الاستجابات من جانب الأسواق لا يمكن معرفته مقدما . فالحكومات الوطنية في هذا العقد تتحرك معتمدة على ما يشبه جهاز الطيران الآلي .

إن النظرة إلى العولة التي يقدمها التشككون الأكاديميون ، مثل هيرست و ثومسون ، تستخف بما هو جديد في ظروف أواخر القرن العشرين . فالاقتصاد العالمي اليوم هو بدرجة جوهرية أقل استقرارا وأكثر فوضوية من النظام الاقتصادي الدولي الليبرالي الذي انهار في عام ١٩١٤ . وعلى غرار المؤمنين بالعولة المفرطة الذين يتسعدون بفاعلية خيالاتهم البيوتوية الجامحة ، فإن التشككين في العولة يتاجرون في الأوهام ، ولا يستطيعون قبول فكرة أن العولة قد جعلت الاقتصاد العالمي اليوم مختلفا اختلافا جذريا عن أي اقتصاد دولي وجد في الماضي ؛ مما قد يعنى تبدد آمالهم في قيام اشتراكية ديمقراطية محسنة . وهم على صواب في اعتقادهم بأن العالم المعولم بدرجة أكثر جذرية سيكون حكمه أقل يسرا . فالاقتصاد عالمي كهذا يجعل رؤياهم للكينزية «القارية» رؤية غير

عملية. (٢٣) والحقيقة أن عالما يكون حكمه أقل يسرا بكثير هو النتيجة المحتمرة للقوى التى كانت فاعلة على امتداد العقدين الماضين .

العولمة المضطربة ، يوتوبيا شركات

تعترف مدرسة فكر منافسة بأن السوق العالمية إنما هى ظاهرة مستجدة . وهى تعتقد أن الأسواق العالمية قد جعلت الدول القومية غير ذات أثر من الناحية العملية ، فضلا عن أنها تصور الاقتصاد العالمى كما لو كان يضم دولاً قومية لا حول لها وشركات لا وطن لها . ومع ذبول سلطة الدول ذات السيادة تتعاضم سلطات الشركات المتعددة الجنسية . ويقدر ما تصبح الثقافات الوطنية تعبيراً فى الأساس عن تفضيلات المستهلكين ، فإن ثقافة الشركات تتخذ طابعا كوزموبوليتانيا يزداد باستمرار .

ويصور أصحاب هذه المدرسة كأمر محتوم ما هو فى الحقيقة نتيجة بعيدة الاحتمال للغاية للحملة الجارية من أجل خلق سوق عالمية حرة . وهى تمزج بين الحالة النهائية التى يساندها ذلك المشروع وبين التطور الفعلى للعولمة الاقتصادية ، كما تمثل تحولا تاريخيا ليس له حالة نهائية ، وتهدم الرأسمالية الأمريكية وكذلك منافسيها ، باعتبار ذلك عملية تؤدى إلى قبول كوني للأسواق الحرة الأمريكية .

ونظريات «العولمة المخرطة» - وفقا لتسمية هيلد وزملائه لهذه الآراء (٢٤) - تصور الأسواق العالمية على أنها تمجد شيئا شبيها بالمنافسة الكاملة . وفى هذه الرؤية الخادعة يكون باستطاعة الشركات المتعددة الجنسية التحرك فى أرجاء العالم بحرية ودون تكلفة لزيادة أرباحها إلى أقصى حد ، حيث تكون الفروق الثقافية قد فقدت أى تأثير سياسى فعال على الحكومات والشركات . ومثلما هى الحال فى أسواق المنافسة الكاملة فى النظرية الاقتصادية ، فإن المشاركين فى هذا النموذج للاقتصاد العالمى - الدول ذات السيادة والشركات المتعددة الجنسية على سبيل المثال - من المفترض أن تكون لديهم جميع المعلومات التى يحتاجون إليها لاتخاذ قراراتهم .

والواقع أنهم يبحرون فى ضباب من المخاطر ومظاهر عدم اليقين التى لا يسمعون سوى تصور عواقبها . ذلك أن عالما بلا حدود تحكمه شركات عبر وطنية لا وطن لها هو يوتوبيا شركات ، وليس وصفا لأى واقع حاضر أو مقبل .

(٢٢) هيرست وثومسون ، المرجع السابق ، الصفحة ١٠ .

(٢٣) هيرست وثومسون ، المرجع السابق ، الصفحة ١٦٣ وما بعدها .

ويؤيد كيتشى أوميا هذه الرؤية البوتوية عندما يقول : «طيلة أكثر من عقد من الزمان كان بعض منا يتكلمون عن العولمة المتصاعدة لأسواق سلع المستهلكين ، مثل بنطلونات «ليقى» الجينز ، وأحذية «نايك» الرياضية ، ولفاحات (إشارات) «هيرمس» - وهذه عملية يحركها التعرض لنفس المعلومات ، ونفس الأيقونات الثقافية ، ونفس الإعلانات غير أن عملية التقارب تمضى اليوم على نحو أسرع وأكثر عمقا . وهى تتجاوز مسألة النوق لتصل إلى أبعاد أشد أساسية لوجهة نظر عالمية واتجاه عقلى ، وحتى لعملية تفكير» . ويخلص أوميا إلى أن هذا التقارب بين الثقافات الذى تدفع إليه السوق يُسلم مؤسسة الدولة القومية للهامشية فى الحياة الاقتصادية : «فى اقتصاد بلا حدود تكون الخرائط التى تركز على الدول ، والتى نستخدمها عادة لتدرك المراد من النشاط الاقتصادي ، خرائط مضللة بصورة مفاجئة . وعلينا أن نواجه بشجاعة فى نهاية الأمر الحقيقة الحرقاء غير المريحة : وهى أن علم رسم الخرائط القديم قد فقد صلاحيته ، ولم يعد أكثر من وهم»^(٢٥) .

وبالمثل فإن نيكولاس نجرهونت يعلن أنه «على غرار كرة النفطالين التى تتحول مباشرة من الحالة الصلبة إلى الحالة الغازية ، فإنى أتوقع أن تبخر الدولة القومية وما لا شك فيه أن دور الدولة القومية سيتغير بدرجة شيرة ، ولن يكون هناك متسع للقومية أكثر مما يوجد لمرض الجذوى»^(٢٦) . ويقول بريان وفاريل : إن «ملايين المستثمرين ، الذين يعملون بدافع مصلحتهم القومية الخاصة ، يزداد دورهم فى تحديد أسعار الفائدة ، وأسعار الصرف ، وتخصيص رأس المال ، بغض النظر عن رغبات الزعماء السياسيين الوطنيين أو مقاصدهم السياسية»^(٢٧) . ويتحدث روبرت راينغ «عما ستجىء به الأيام من اتعلم أهمية جنسية الشركات» ، ويشير إلى أنه مع وقوع جميع الدول فى الشبك العالمية ، فإن السؤال العام - من زاوية الثروة الوطنية - ليس أى المواطنين يملكون ماذا، ولكن أى المواطنين يتعلمون كيف يفعلون ماذا ، بحيث يكونوا باستطاعتهم إضافة مزيد من القيمة إلى الاقتصاد العالمى ، وبذلك يزدون من قيمتهم الاحتمالية»^(٢٨) . ويؤكد نيسبت «أننا نتحرك نحو عالم مكون من ألف بلد

(٢٤) هيلد وآخرون ، *New Political Economy* .

(٢٥) كيتشى أوميا ، *The End of the Nation - State, the Rise of Regional Economies* ، لندن :

هاربر كولينز ، ١٩٩٥ ، الصفحات ١٥ و١٩ و٢٠ .

(٢٦) نيكولاس نجرهونت ، *Being Digital* ، لندن : هودر وستاوتون ، ١٩٩٥ .

(٢٧) بريان وفاريل ، المرجع السابق ، الصفحة ١ .

(٢٨) روبرت ب. راينغ ، *The Work of Nations : Preparing Ourselves for 21st Century Capital* -

lam ، نيويورك : ألفريد كنوب ، ١٩٩١ .

فالدولة القومية تتلاشى ، ليس لأن الدول القومية يجرى إدماجها في دول عظمى ، ولكن لأنها تفتتت إلى أجزاء أصغر أكثر كفاءة - شأن ما يحدث في الشركات الكبيرة^(٢٩) .

لكن الدول والأسواق ليست بالمؤسسات المنظمة من الأنواع التي يتصورها نموذج كهنا . ولا توجد غير شركات قليلة عبر وطنية حقا من النوع الذي يتحدث عنه أوميا وغيره من الحالمين في دوائر الأعمال . فعالية الشركات المتعددة الجنسية تحتفظ بجذور قوية في بلدان خاصة وثقافات أعمال خاصة . كما أن الملكية والمجالس التنفيذية وأساليب الإدارة وثقافات الشركات تظل وطنية تماما . والشركات الأمريكية التي تقرب كثيرا جدا من نموذج أوميا تفعل ذلك لأنها تمثل القيم الأمريكية المحلية وثقافة أعمال محلية ، وليس لأنها شركات عالمية .

أما الشركات القليلة في العالم التي تصرف في اتساق فيما يتعلق باقتصادها المحلي على أنها شركات عالمية ليس لها جذور ، فإنها تفعل ذلك ليس بسبب الممتلكات التي تتقاسمها مع شركات دولية أخرى ، ولكن لأن ما لديها من ثقافة الشركات إنما تحكمه قيم شركات أمريكية تظفي الأرباح فيها على التكاليف الاجتماعية والولاءات الوطنية .

وتفيد دراسة موسعة أن قرابة أربعين منشأة كبيرة على نطاق العالم تولد في الخارج نصف أصولها على الأقل ، على حين أن أقل من عشرين منشأة تحتفظ في الخارج بنسبة تقرب من نصف مرافقها الإنتاجية .^(٣٠) فضلا عن ذلك ، كما يقول هيرست ووثومسون ، فإن الوظائف الرئيسية للمنشآت ، مثل البحث والتطوير^(*) ، تظل تحت سيطرة داخلية محكمة : «إن الشركات اليابانية تبدو عازفة عن أن تقيم في الخارج مواقع أو وظائف رئيسية مثل البحث والتطوير ، أو أجزاء الإنتاج ذات القيمة المضافة العالية» . ويخلصان إلى أن «وجود شركات وطنية لها مجال عمليات دولي في الوقت الحالي وفي المستقبل المنظور يبدو أكثر احتمالا من وجود شركات حقيقية عبر وطنية» .^(٣١)

إن نموذج العولة المفرطة يفضل الطريق كثيرا عندما يستبعد الدول ذات السيادة باعتبارها مؤسسات هامشية . وبالنسبة للشركات المتعددة الجنسية ، لا تُعدّ هذه الدول عناصر

(٢٩) جون نيسبت ، *Global Paradox* ، لندن : دارنيكولاس بريالي للنشر ، ١٩٩٥ ، الصفحة ٤٠ .

(٣٠) ريجروك وقان تولدر ، المرجع السابق .

• R & D (•)

(٣١) هيرست ووثومسون ، المرجع السابق ، الصفحة ١٢ .

هامشية فى الاقتصاد العالمى يسهل التحكم فى سياساتها ، وإنما تُعدّ لاعبين رئيسيين يجدر تملق سلطتهم . كما أن تأثيرها على الأعمال يمكن من الناحية الفعلية أن يفوق اليوم فى بعض النواحي ما كان عليه فى الماضى .

وليس لدى الشركات اليوم ما كان يتمتع به بعضها من علاقات تميمها الحكومات عندما كانت الإمبريالية فى عنفوانها . وإذا كان صحيحاً أن الشركات تستطيع أن تقوم بحملة حول العالم للعشور على النسق الضريبي والتنظيمى الذى تريده ، فمن الصحيح أيضاً أن المخاطر السياسية قد زادت فى كثير من أجزاء العالم . وعندما تكون الدول هشة فإنه يكون من الأصعب فرض نظام على رعوس الأموال والعمليات الإنتاجية القادرة على التنقل ، كما يكون من الأصعب أيضاً بالنسبة للأعمال تطريز علاقات شركات ثابتة مع الحكومات . وذلك قيد على قوة كل من الدول والشركات .

والمنافسة الحالية بين الدول على الاستثمارات التى تقوم بها الشركات المتعددة الجنسية ، تسمح لها بأن تمارس تأثيراً لم تكن تملكه فى نظام عالمى أكثر تعدداً فى درجات النفوذ . وفى الوقت نفسه فإن تلك المنافسة تقيد ما لدى الدول ذات السيادة من حرية فى العمل . فالتأثير الذى تستطيع الدول ممارسته على الشركات يبنى أن تمارسه فى بيئة عالية تعمل فيها غالبية الضغوط التنافسية المؤثرة على حصر سيطرة الحكومات على اقتصاداتها داخل هامش ضيق .

وتظل الدول ذات السيادة هى الساحة الرئيسية للشركات الساعية إلى النفوذ . وتمارس الشركات المتعددة الجنسية هذا النفوذ على سياسات تلك الدول ، كما تستخدم براعتها فى التخلص من تشريعاتها . وذلك هو التفاضل المعتاد بين الدول ذات السيادة ودوائر الأعمال فى أواخر القرن العشرين .

وليس هناك شك فى أن تغلب النافتا (اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة بين الولايات المتحدة والمكسيك وكندا) على المعارضة السياسية للحلية فى الولايات المتحدة إنما يرجع بدرجة كبيرة إلى الأنشطة الجليدة التسيق التى يقوم بها لوى الشركات الأمريكية الكبيرة .

إن مفكرى العولمة المفرطة ، شأنهم شأن متقديهم التشكيكين ، يخطئون فى تصور أن الاقتصاد العالمى الراهن يعود إلى حالة انتظام سابقة . فواقع الاقتصاد العالمى فى أواخر القرن العشرين هو صعوبة التحكم فيه سواء من جانب الدول ذات السيادة أو من جانب الشركات المتعددة الجنسية .

العولمة والرأسمالية المضطربة

تقدم كلنا المجموعتين من المفكرين - المتشككين والأنصار المتحمسين - صورة غير واقعية للبيئة العالمية الجديدة التي تعمل فيها الدول . فالدول ذات السيادة ليست موجودة - مثلما كانت الحال في أواخر القرن التاسع عشر - في بيئة دولية مألوفة تنحصر خياراتها في طرق يمكن التنبؤ بها ، بل إنها تجذب نفسها في بيئة غير مألوفة تتضائل فيها إمكانية التنبؤ بسلوك قوى السوق العالمية أو التحكم فيه . وهي اليوم مقيدة لا بمؤسسات واتفاقيات حكومية دولية ، وإنما بالمخاطر واحتمالات انعدام اليقين التي تصاحب سوقا دولية تتجه إلى الفوضى .

وبما أن الشركات المتعددة الجنسية تنفق موارد كبيرة للتأثير في سياسات الحكومات ، فإن ذلك يؤيد وجهة النظر القائلة بأن الدولة ذات السيادة لم تصبح مؤسسة لا لزوم لها . ففي هالوية أرجاء العالم تُعدّ مؤسسات الدولة منطقة حاسمة إستراتيجيا تجرى حولها مزاوله المنافسة بين الشركات .

ولم تكن كلتا مدرستي الفكر الرئسيين تتصور أن ظهور اقتصاد عالمي هو لحظة حاسمة في تطور نوع حديث من رأسمالية مضطربة فوضوية .^(٣٢) فالرأسمالية اليوم مختلفة اختلافا شديدا عن المراحل المبكرة من التطور الاقتصادي التي صاغ كارل ماركس وماكس فيبر على أساسها شروحهما للرأسمالية - ومختلفة أيضا عن الرأسماليات المستقرة الموجهة التي شهدتها مرحلة ما بعد الحرب .

وقد تضاءلت الطبقة العاملة الصناعية من حيث الحجم والأهمية الاقتصادية . وحدث ذلك مع تقلص الصناعات التحويلية ، وبعد أن دخلت الاقتصادات الحديثة في مرحلة ما بعد الصناعة بصورة أكثر شمولا . كما حدث تحول واسع النطاق من الأشكال التaylorية^(*) لتنظيم العمل - الإنتاج الواسع من خلال العمل الأجير الذي أسسه المصانع - إلى أسواق مرنة للأيدى العاملة . وفي أسواق العمل الجديدة هذه تكون المؤسسات الرأسمالية الكلاسيكية للعمل الأجير والاستخدام المنظم معصورة في نسبة متناقصة من السكان .

(٣٢) استعنت هنا ببعض جوانب التحليل الذي أجراه سكوت لاش وجون أورفي في كتابهما *The End of Organised Capitalism* ، كبريدج : بوليتي برس ، ١٩٨٧ .

(*) نسبة إلى مهندس الإنتاج الأمريكي فريدريك وينسلي تايلور ، مؤسس علم إدارة الأعمال . وقد طبق تعبير التaylorية على الإدارة العلمية للعمل ، مثل الآلات العالية الكفاءة ، وتخطيط المصنع ، والوقت ، ودراسات الحركة ، إلخ - المترجم .

بل إن جانباً كبيراً من قوة العمل يفتقر الآن حتى إلى الأمن الاقتصادي الذي كان يصاحب العمل الأجير . وهذا الجانب يوجد في عالم العمل الجزئي (العمل لبعض الوقت) ، والعمل بعقود ، والعمالة الانتقالية ذات الهيكل المتنوع والمتغير^(*) ، وهو العالم الذي لا توجد به علاقة ثابتة بصاحب عمل واحد محدد . وإلى جانب هذه التغيرات حدث انهيار للمساومة الجماعية على الأجر على المستوى الوطني ، وتراجع كبير في تأثير نقابات العمال في العملية الإنتاجية .

كما ضعف الأساس الاقتصادي للأحزاب السياسية . وفي الوقت نفسه تعزز تأثير مجموعات الضغط المعنية بقضية واحدة . وعفا الزمن على الأيديولوجيات السياسية التي سيطرت على الحياة السياسية في الفترة التي أعقبت الحرب . وأدى ظهور توافق اقتصادي جديد إلى تسارع هذا التحول . وفي هذه النزعة الجديدة تضاهل دور الحكومات الوطنية في الإشراف على اقتصاداتها المحلية من خلال إدارة الاقتصاد الكلي^(**) ، أو أصبح هذا الدور هامشياً . وغدت المهمة المحورية للحكومة هي رسم وتنفيذ سياسات اقتصاد جزئي^(***) ، مع العمل في الوقت نفسه على زيادة المرونة في العمل والإنتاج .

إن تآكل الحياة البورجوازية من خلال الانعدام المتزايد للأمن الوظيفي هو جوهر الرأسمالية المضطربة . ويكاد التنظيم الاجتماعي للعمل اليوم أن يكون في حالة تحول مستمر . فهو يتبدل دون توقف تحت تأثير الابتكار التكنولوجي والمنافسة في أسواق تحملت ضوابطها .

ولا يقتصر تأثير التكنولوجيات الإعلامية الجديدة على ازدياد ندرة أنواع كثيرة من العمالة الأدنى مرتبة من حيث المهارة أو الكثافة المعرفية ، وإنما يمتد تأثيرها إلى الاختفاء الواسع النطاق لمهن بكاملها . وبالنسبة لجانب كبير من السكان لم يعد هناك وجود للمؤسسات البورجوازية التقليدية ، مثل الهياكل الوظيفية والمهنية .

والنتيجة هي إضفاء الطابع البروليتاري من جديد على جزء كبير من الطبقة العاملة الصناعية ، ونزع الصفة البورجوازية عما تبقى من الطبقات الوسطى . إذ يبدو أن السوق الحرة عقدت العزم على تحقيق ما لم تتمكن الاشتراكية أبداً من تحقيقه - وهو القتل الرحيم للحياة البورجوازية .

. Portfolio employment (*)

. Macroeconomic management (**)

. Microeconomic policies (***)

إن احتميات المرونة والقابلية للتنقل التي تفرضها أسواق العمل المتحررة من الضوابط تضع ضغوطا خاصة على الأساليب التقليدية لحياة الأسرة . إذ كيف يمكن لأفراد الأسرة أن يجتمعوا معا لتناول الطعام إذا كان الأب يعمل في نوبة مختلفة عن النوبة التي تعمل فيها الأم ؟ وأي مصير تكون عليه الأسرة عندما ترغم سوق الوظائف الأب على العمل في مكان يبعد عن ذلك الذي تعمل فيه الأم ؟

كما كان هناك إفراغ لشركة الأعمال من دورها كمؤسسة اجتماعية . ويؤدي الاستغناء المتزايد عن الأيدي العاملة إلى تحويل قوة العمل الدائمة التي تميزت بها الشركات الحديثة في مراحلها المتأخرة إلى إطار صغير . «وميكروسوفت» يمكن أن تكون نموذجا لهذا التطور ، فهي شركة عالية تهيمن على الأسواق في عدة تكنولوجيات جديدة ، ولكن قوة العمل الأساسية لديها لا تتجاوز بضعة آلاف .

وفي حالات محدّدة تصبح الشركات وسائط لتحصيل الفوائد وتوزيع الأرباح ، وكثيرا ما يكون لمن تبقى من موظفيها القليلين حصة في رأسمالها . كما أن طبقات بكاملها من موظفي الإدارة الوسطى السابقين قد استغنى عنهم في عمليات تقليص أحجام الشركات ، وهي العمليات التي يكون لها تأثير مفيد مباشر على كشوف الأرباح . ذلك أن دوائر الأعمال في كل مكان ، ولكن بوجه خاص في البلدان الناطقة بالإنجليزية ، تتخفف من التكاليف الاجتماعية لمن تبقى من موظفيها . وهي تفعل ذلك بأن تعيد إليهم كأفراد المسئولية ، مثلا ، عن متطلبات المعاش التقاعدي .

ويعمى تقليص دور الشركات كمؤسسات اجتماعية مرادفا لاستمرار تحول العمل إلى سلعة . فقد أصبحت الأيدي العاملة شيئا يباع بالتجزئة للشركات . وتتصلت دوائر الأعمال من مسئوليات كثيرة كانت من قبل تجعل عالم العمل محتملا إنسانيا . وبعضها لا يعدو كونه مؤسسات تصورية .

ويؤدي نمو اقتصاد تصوري ضخم شديد الاعتماد على الاقتراض^(*) ، تجري فيه المتاجرة في العملات من أجل تحقيق أرباح قصيرة الأجل ، إلى تفاقم عدم الاستقرار الكامن في طبيعة الأسواق العالمية الفوضوية ، بسبب افتقارها إلى إطار مستقر لتوجيه

. Enormous, highly leveraged virtual economy (*)

النظام النقدي الدولي . فمئذ انهيار اتفاقية بريتون وودز^(*) للتعاون الاقتصادي الدولي فيما بين عامي ١٩٧١ و ١٩٧٧ لم تكن هناك أي اتفاقيات لفرض أسعار ثابتة للصرف . وبذلك بات النظام النقدي الدولي اليوم فوضى عملات متغيرة القيمة . وتوجد شطحات متكررة في قيمة عملات خاصة ، وفورات نشاط متقطعة في مجال الرسم المنسق للسياسات بين الدول الرئيسية (مثل اتفاقات بلازا لعام ١٩٨٥)^(**) لتضاد انهيار النظام . إذ إن التقلبات في أسعار الصرف يمكن أن تحدث اضطرابا في استقرار النشاط الاقتصادي يبلغ درجة سمي معها النظام النقدي العالمي الخالي نظام «وأسمالية الكازينو»^(***) .

وقد شاهدنا تحولا كبيرا عن الصناعة التحويلية وتقديم الخدمات بحسبانها النشاطين الاقتصاديين المحوريين إلى المتاجرة في الأصول المالية . فقد أصبحت الهندسة المالية ، وليس الإنتاج ، هي النشاط الأكثر ربحية .

وهذه الآثار للرأسمالية المضطربة يمكن أن نلمسها في مجتمعات شديدة التباين ، من إيطاليا إلى السويد وأستراليا . ولم تقطع هذه الآثار شوطا طويلا في ألمانيا واليابان ، ولكن تطورها بلغ ذروته في الاقتصادات الأنجلو سكسونية . وتبرز الولايات المتحدة وبريطانيا وأستراليا ونيوزيلندا بوصفها رائدة الأنواع الجديدة من الرأسمالية .

ولكن يكون خطأ جسيما الاعتقاد بأن الرأسمالية في كل مكان ستقود إلى فوضى مماثلة . فالقدرة على المتاجرة عالميا وبسرعة تتجه إلى إسقاط هذه السمات المميزة

(*) بريتون وودز : مدينة بولاية هامبشاير في الولايات المتحدة عقد بها مؤتمر الأمم المتحدة لشئون المال والنقد في عام ١٩٤٤ ، وذلك لإعداد النظام النقدي الدولي الذي ينهي العمل به بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . وقام بإعداد المخطط اللازم لورد كيتز وزير الخزانة البريطاني ومستر هوایت وزير الخزانة الأمريكي . وكان الاتجاه في المؤتمر أميل إلى الأخذ بالأفكار الأمريكية . وأسفر المؤتمر عن قيام مؤسستين ماليتين دوليتين هما صندوق النقد الدولي والبنك الدولي للإتشاء والتعمير (البنك الدولي) - المترجم .

(**) Plaza Accords : بلازا اسم أشهر فندق في مدينة نيويورك . عقد به في عام ١٩٨٥ اجتماع حضرته فرنسا وألمانيا واليابان والولايات المتحدة والملكة المتحدة لبحث مشكلة ارتفاع قيمة الدولار . ذلك أنه بحلول عام ١٩٨٥ كان الدولار قد وصل إلى أعلى قيمة له في أي وقت بالنسبة لكثير من العملات الرئيسية ، وبسبب ذلك كانت الولايات المتحدة تعاني عجزا كبيرا في ميزانها التجاري . وأسفرت الجهود المنسقة لهذه الدول في الاجتماع عن تخفيض قيمة الدولار بنسبة ٣٠ في المائة على امتداد العامين التاليين - المترجم .

(***) انظر ، سوزان سترنج ، Casino Capitalism ، أكسفورد ، بازيل بلاكويل ، ١٩٨٦ . [التسمية برأسمالية الكازينو هنا نسبة إلى ألعاب القمار والمضاربة - المترجم] .

للرأسمالية غير المنظمة على كل بلد ؛ ولكن الكيفية التي تؤثر بها على الحياة الاجتماعية والاقتصادية تختلف اختلافا عميقا وواسعا .

ففى بلدان مثل إسبانيا ، مازالت الأسرة الممتدة فيها قوية ، لا تكاد توجد الطبقة الدنيا من الأسر المعيشية العاطلة عن العمل التي تعد سمة مميزة شديدة الإحباط للمجتمعات الأنجلو سكسونية . وذلك برغم أن البطالة فى إسبانيا ، قد وصلت فى السنوات الأخيرة إلى مستويات عالية للغاية وبدرجة أكبر حتى مما فى الاقتصادات الأخرى لأوروبا القارية . ويعزى ذلك جزئيا إلى أن السياسات فى أوروبا القارية لم تكن تهيمن عليها ، على امتداد العقدين الماضيين ، أهداف من قبيل تحرير سوق العمل من الضوابط . ولكن ذلك ليس من المرجح أن يكون السبب الكلى ، أو حتى الرئيسى ، لاستمرار تلك الاختلافات .

ولم يكن لدى أى بلد من بلدان أوروبا القارية فى أى وقت عنصر من سياسة «دعه يعمل» ؛ كما أن مؤسسات السوق لم تحقق الانعناق من القيود التي تفرضها المؤسسات الاجتماعية الأخرى ، والتي تعد سمة مميزة للسوق الحرة الأنجلو سكسونية . وليس هناك مجتمع أوروبى لديه الخبرة الطويلة والعميقة التي تتمتع بها الأشكال الفردية لحياة الأسرة والملكية العقارية التي تميز إنجلترا والولايات المتحدة والمجتمعات الأنجلو سكسونية الأخرى .

وفى كل بلد يعمل التوتر الجديد والأكثر تقريبا للرأسمالية على تحويل الحياة الاقتصادية . ويؤدى تأثير الأسواق العالمية الفوضوية على الثقافات الاقتصادية فى أوروبا القارية إلى إضفاء طابع مؤسسى على المستويات العالية للبطالة الهيكلية . وفى هذه المجتمعات يكون المصدر الأساسى للانقسام الاجتماعى هو عدم المساواة فى إمكانية الحصول على العمل .

وفى الولايات المتحدة ، فإن وجود سوق شديدة التحرر من الضوابط ، إلى جانب تراجع فى اعتمادات الرعاية الاجتماعية ، وتجربة فى السَّجْن الجماعى أودعت أكثر من مليون أمريكى خلف القضبان ، يمكن أن يحقق بعض النجاح فى المحافظة على معدلات منخفضة للبطالة . واحتمال أن يكون المصدر الأساسى للانقسام الاجتماعى فى أمريكا هو افتقاد إمكانية الحصول على عمل ، إنما هو أقل من احتمال أن يكون هذا المصدر هو الفوارق فى الدخل والثروة إلى جانب عدم المساواة فى الخدمات الصحية والتعليمية وفى الأنواع الأخرى من الخدمات التي يمكن لقطاعات السكان المختلفة الحصول عليها .

أما الرأسمالية المحلية الصينية التي نشأ الآن في الصين، فهي ليست قائمة حول الشركات الكبيرة التي تطورت في الرأسمالية الأنجلو سكسونية . وبصرف النظر عن مشروعات الدولة ، فإن المنشآت الصينية صغيرة الحجم ومملوكة للأسر . واضطرابات الرأسمالية في الصين ليس مبعثها تفريغ الشركات أو تفتيت الأسر ، وإنما هو افتقار التضامن بين قطاعات المجتمع المختلفة وانتشار التدهور في البيئة . وتظهر الرأسمالية الروسية اضطرابات مماثلة .

وتنشأ هذه الاختلافات من التباينات التاريخية الطويلة الأمد في الثقافات وفي المؤسسات الاقتصادية - جنبا إلى جنب مع انمكاساتها المستمرة في السياسات العامة المختلفة للدول القومية . ويتجلى أثر الرأسمالية المضطربة في الحد من استغلال الحكومات الوطنية ، وليس بالتأكيد في إخفاء ما بينها من اختلافات .

الرأسمالية الضوضوية والدولة

يتعين على الدول القومية الآن أن تعمل في عالم تفتقر خياراته إلى اليقين . فليس الأمر كما لو أن أمامها قائمة بالخيارات مرفقا بها بطاقات بالأسعار . وتجد الحكومات الوطنية نفسها في ييئات ليست حافلة بمجرد مخاطر ، وإنما بعدم يقين جذري . والمخاطر في النظرية الاقتصادية تعنى وضعا يمكن فيه معرفة تكاليف الأعمال المختلفة بترجيح معقول ، على حين أن عدم اليقين هو وضع لا يمكن فيه أن تكون تلك الترجيحات معروفة . كما أن كثيرا من السياسات التي تستطيع الحكومات انتهاجها ليس لها نتائج يمكن الترجيح بينها .

والأسوأ من ذلك أن الحكومات لا يكون باستطاعتها عادة معرفة ما إذا كانت ردود أفعال الأسواق العالمية لسياستها مجرد جعلها باهظة التكلفة أو غير قابلة للتطبيق بالمرّة . فالحكومة هي في وضع تكون فيه حتى سعة الخيارات المتاحة أمامها غير يقينية . وعدم اليقين الجذري المستمر هنا هو القيد الأشد على سلطة الدول ذات السيادة .

ويُعدّ تضاول تأثير الدولة ذات السيادة علامة على اتجاه أوسع تشتت فيه أو تضعف السلطات التي أحرزتها مؤسسات الدولة في العصور الحديثة المبكرة . بل إن القدرة على شن الحروب وإنهائها عن طريق امتلاك احتكار فعال لقوة مسلحة ، وهي السمة التي حددت الدولة ذات السيادة منذ بدايتها ، لم تعد متاحة لها بصورة مطلقة . ومهما كانت

أهوال الحروب في القرن التاسع عشر ، فقد كانت لها أهداف محددة ، وكان باستطاعة الدولة التي بدأتها أن تهيبها . وكان ذلك نوع الحرب الذي وضع كلاوزفيتس^(*) نظريته الكلاسيكية .

فمنذ الحرب العالمية الثانية أصبح يتعاض جزئيا عن الحرب الكلاوزفيتسية بين جيوش الدول ذات السيادة بحروب بين جيوش غير نظامية ، ومجموعات قبلية وعرقية ، ومنظمات سياسية مثل منظمة التحرير الفلسطينية^(**) والجيش الأيرلندي الجمهوري^{(***)(٢٤)} . ولما كان التحكم في الحرب قد انسل بقدر ما من بين أيدي الدول ذات السيادة ، فإن العالم لم يصبح نتيجة لذلك أكثر سلما ، بل زادت صعوبة السيطرة عليه ، وفوق ذلك أصبح أقل أمنا .

ولم تكسب الشركات المتعددة الجنسية القوة والسلطة اللتين فقدتهما الدول ذات السيادة ، كما أنها معرضة لأهواء المجتمعات الحديثة في مرحلتها المتأخرة بقدر تعرض الحكومات لها . والشركات العالمية ليست أدوات حرة تستطيع تحملي الرأي العام دون مخاطرة أو تكلفة ، بل وتتقاذفها التحولات في الثقافات العامة للدول التي تعمل فيها . من ذلك أن شل ، وهي شركة ضخمة للنفط ، قد نُحيت عن استخدام منصة بحرية قبالة الساحل في برنت سبار نتيجة لحملة قام بها أنصار البيئة نَسَّقت بمهارة تغطية إعلامية منظمة . وثبت أن شل معرضة لضغوط العمل السياسي بقدر تعرض أي دولة ديمقراطية معاصرة ضعيفة .

ولا يعني ذلك أن الشركات ستكون دوما ، كمسألة سياسة متسقة ، راغبة في تحمل الأعباء الاجتماعية والبيئية لأنشطتها . وهي في سوق حرة لا تستطيع ذلك . وفضلا عن الضغوط الدعوية للمنافسة العالمية ، فإن الشركات المتعددة الجنسية لا بد أن تواجه الآن تفجرات متقطعة لاهتمام وسائل الإعلام يمكن أن تنحيتها عن هدفها الوحيد وهو الربح العاجل .

(*) كارل فون كلاوزفيتس : (١٧٨٠ - ١٨٣١) ، القائد العسكري البروسي الشهير ، ومؤلف في الاستراتيجية الحربية . من أشهر مؤلفاته «فن الحرب» الذي أوضح فيه نظرياته الحربية ، ومنها نظرية الحرب الشاملة - المترجم .

(*) PLO .

(**) IRA .

(٢٤) من أجل الاطلاع على عرض بارع للتراجع التدريجي للحرب الكلاوزفيتسية ، انظر ، مارتن فان كرايلند ، On Future War ، لندن : براسي (المملكة المتحدة) ، ١٩٩١ .

وهكذا نجد في مرحلة متأخرة من الأوضاع الحديثة أن السلطة تسرب من الدول والشركات معا. فكلتا المؤسستين تبدل وتضمحل، إذ إن الأسواق العالمية والتكنولوجيات الجديدة تعمل على تحويل الثقافات التي تستمد كلتاها منها شرعيتها وهويتها.

والدول ذات السيادة تعمل اليوم في بيئة أدخلت عليها قوى السوق درجة من التحول جعلت من المستحيل على أي مؤسسة أن تسيطر عليها. حتى لو كانت أكبر شركة أو أكبر دولة ذات سيادة. وفي هذه البيئة فإن أعتى القوى التي يستحيل السيطرة عليها تتشأ من سيل دافق من الابتكارات التكنولوجية. كما أن التأليف بين هذا التيار الذي لا يتوقف من التكنولوجيات الجديدة، والمنافسة الطليقة في السوق، والمؤسسات الاجتماعية الضعيفة أو الهشة، هو الذي يفرز الاقتصاد العالمي الراهن.

وكما لا يكف أصحاب نظريات الإدارة أبدا عن تذكيرنا، فإن الدول القومية والشركات المتعددة الجنسية لا تستطيع اليوم أن تعيش وتزدهر إلا عن طريق استخدام تكنولوجيات جديدة لتحقيق ميزة لها على منافسيها. وما يعجز غالبيتهم عن ملاحظته هو أن الميزة التنافسية تتلاشى سريعا وبصورة حتمية في البيئة الفوضوية للرأسمالية العالمية المضطربة. ففي أواخر القرن العشرين لا يوجد ملاذ- للشركات أو للحكومات - من الإعصار العالمي للتدمير الإبداعي.

ذلك أن الميزة الحاسمة التي تحققها شركة متعددة الجنسية على منافسيها إنما تأتي في نهاية الأمر من قدرتها على توليد تكنولوجيات جديدة، وعلى نشر هذه التكنولوجيات بطريقة فعالة ومربحة. وهذا بدوره يعتمد بدرجة كبيرة على الطرق التي تتمكن بها الشركات من حفظ المعرفة وتوليدها. وفي المرحلة المتأخرة من البيئة التنافسية الحديثة سرعان ما ستندثر منظمات الأعمال التي لا تمسك بالمعارف الجديدة وتتفلها، أو تبدد مخزون المعارف المتوافرة لدى مستخدميها، أو تثنيهم عن اكتساب معارف جديدة.

إن الاقتصاد العالمي يبدد ما لدى الناس والمنظمات من مهارات، وهو يحدث ذلك بأن يجعل من المتعذر عليهم تمييز البيئات التي يعيشون ويعملون فيها. وبذلك تتضاءل باستمرار المنفعة التي يحققها لهم رصيدهم من المعارف المحلية والضمنية. وثمة مشكلة خطيرة تمكنت منظمات الأعمال من حلها - عدا الشركات اليابانية^(٣٥) إلى حد ما - وهي

(٣٥) توجد دراسة متممة لتنظيم الأعمال كمخططات للإبداع المعرفي أجراها إيكوچيرو نوناكا وهيروتاكا تاكيشي، *The knowledge - Creating Company: How Japanese Companies Create the* ، نيويورك واكسفورد: *Dynamics of Innovation*، نيويورك واكسفورد: إدارة النشر بجامعة أكسفورد، ١٩٩٥.

التأليف بين الاستمرار المؤسسي اللازم ، إذا ما أريد الاستعانة بالمعرفة المحلية لدى المستخدمين وبين قدرة الابتكار التنظيمي اللازمة لتحقيق أكبر فائدة ممكنة من التكنولوجيات الجديدة .

والدول ذات السيادة لن تصبح بمرور الوقت في عداد التاريخ ، بل ستظل هيكل وسطية حاسمة تتنافس الشركات المتعددة الجنسية فيما بينها من أجل السيطرة عليها . وهذا الدور الحيوي الذي تقوم به الدول ذات السيادة يظل مزاعم العولمة للقرطة ، وأوهام اليوتوبين ، والشعبيين ، الذين يؤكدون على أن الشركات المتعددة الجنسية قد حلت محل الدول ذات السيادة بوصفها الحاكم الحقيقي للعالم . وهذا يفسر لماذا تسعى الأسواق العالمية إلى التأثير على الدول ، ولماذا لا تستطيع أن تتجاهلها . كما أنه يوضح الهامش الضيق الذي يمكن للحكومات فيه العمل على مساعدة مواطنيها في مجال السيطرة على المخاطر . وهذه الوظيفة الحمايية للدول من المرجح أن تتوسع ، إذ إن المواطنين يطلبون ملاذاً من فوضى الرأسمالية العالمية .

وللدول ذات السيادة فضلاً عن ذلك وظيفة أخرى - وهي السيطرة على الموارد الطبيعية اللازمة للنمو الاقتصادي . ففي وسط آسيا وشرقها مازال الصراع من أجل السيطرة على النفط اليوم مصدراً للتنافس الدبلوماسي بقدر ما كان في القرن التاسع عشر ، وهو يمكن أيضاً أن يكون سبباً للحرب ؛ فمع تزايد ندرة الموارد الطبيعية تساق الدول ذات السيادة إلى منافسة عسكرية من أجل ضرورات البقاء .^(٣٦)

إن انحسار القوة الأمريكية يعني ظهور عالم متعدد الأقطاب حقاً . وفي عالم كهذا لن تقل المنافسة بين الدول ذات السيادة ، بل ستزداد انتشاراً وكثافة .

(٣٦) حول التفاعل المعاصر بين ندرة الموارد والنزاع العسكري ، انظر ، هومر - ديكسون ، "On the Threshold Environmental Changes as Causes of Acute Conflict" ، في إنترناشيونال سيكورتى ، هارفارد ومعهد سانشوس للتكنولوجيا : بوسطن ، آخر عام ١٩٩١ .

■ الفصل الرابع ■

كيف توازن الأسواق الحرة العالمية أسوأ أنواع الرأسمالية، ألقانون جريشام جديد؟

هناك قانون أو مبدأ عام يتعلق بتداول النقود أسماء مستر ماركوليد «قانون أو نظرية جريشام» ، على اسم سير توماس جريشام ، الذي أدرك صدقه بوضوح منذ ثلاثة قرون . وينص هذا القانون في إيجاز على أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من التعامل ، ولكن العملة الجيدة لا تستطيع أن تطرد العملة الرديئة .

و . س . جيفرنز (١)

في النظرية الاقتصادية يقول لنا قانون جريشام إن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة . وفي سوق حرة عالمية توجد صورة أخرى لقانون جريشام : هي أن الرأسمالية الرديئة تنجبه إلى طرد الرأسمالية الجيدة . وفي أي منافسة تجرى وفقا لقواعد «دعه يعمل» على النطاق العالمي ، التي وضعت لتكون انمكاسا للسوق الحرة الأمريكية ، فإن اقتصادات السوق الاجتماعية في أوروبا وآسيا توجد بصورة منتظمة في ظروف غير مواتية ، ولن يكون لها مستقبل ما لم يكن باستطاعتها تحديث نفسها عن طريق إصلاحات جذرية وسريعة .

فالدول ذات السيادة تخوض حربا في التنافس على التحرر من الضوابط والقيود ، وهي حرب تفرضها عليها السوق الحرة العالمية . وتعمل الآن بالفعل آلية لتتسبب اقتصادات السوق في اتجاه هبوطي . ويلقى في البوتقة بكل نوع من الرأسمالية القائمة حاليا . وفي هذا السياق تمتلك السوق الحرة الأمريكية المضطربة اجتماعيا ميزات قوية .

وفي النظرية الاقتصادية ، اعترف كينز بأن قابلية رأس المال للتقل على المستوى

(١) و . ستانلي جيفرنز ، *Money and the Mechanism of Exchange* ، لندن : كيجان بول ، ترنس تروينر ، ١٩١٠ ، الصفحة ٨١ .

الدولى من شأنها إضعاف سياسات العمالة الكاملة التى يمكن أن تنتهجها الحكومات الوطنية . ولكنه ما كان يستطع التنبؤ بأن قابلية رأس المال للتنقل عالميا يمكن أن تعيد الحكومات إلى عالم لا تكون فيه الإدارة الاقتصادية الوطنية مجدية إلا فى أضيق الحدود . إذ لم يعد باستطاعة الحكومات الوطنية اليوم تنفيذ سياساتها الطموحة لمواجهة التقلبات الدورية ، وهى السياسات التى انتزعت اقتصاداتها من برائن الكساد فى فترة ما بعد الحرب، إلى جانب أن الأسواق العالمية تفرض عليها سياسة مالية محافظة - أى الإدارة الحكيمة للدين الحكومى .

وقد تنبأ قليلون فى العصر الكينزى بأن قابلية رأس المال والإنتاج للتنقل على نطاق العالم يمكن أن تشمل فتيل التنافس بين الدول ذات السيادة فى الحد من أنظمة الضبط والرعاية الاجتماعية . فمعد انهيار الاتحاد السوفيتى أخذ التنافس بين الأنواع المختلفة من الرأسمالية - الأمريكية والألمانية واليابانية والروسية والصينية - يحل محل المنافسة بين التخطيط المركزى والرأسمالية .

وفى هذا التنافس الجديد تعمل الأسواق الحرة الأمريكية على فصصمة أجنحة اقتصادات السوق الاجتماعية فى كل من أوروبا وآسيا ، وذلك برغم حقيقة أن التكاليف الاجتماعية للأعمال إنما يجرى تحملها بطرق مختلفة فى الأسواق الاجتماعية الأوروبية والآسيوية . فكل منها يتهدده النموذج الأمريكى ، لأن كل مجال أعمال يتحمل التزامات اجتماعية أفرتها الرياح فى الولايات المتحدة . وفى الوقت نفسه تظهر الرأسمالية الصينية كمنافس للصورة الأمريكية لأنها تستطيع أن تقطع شوطا أبعد من السوق الحرة الأمريكية فى عدم الالتزام بالأسواق الاجتماعية السائدة فى أوروبا وبقية آسيا .

إن جميع النماذج المألوفة لمؤسسات السوق تكتسب خصائص جديدة مع استبعاد المنافسة العالمية من خلال هياكل الدول ذات السيادة . وإنه لخطأ جسيم أن نعتقد أن ذلك نزاع يستطيع أن يكسبه أى من النماذج القائمة . فهى تتآكل جميعا وتحمل محلها أنواع من الرأسمالية جديدة وأكثر تقلبا . والنتيجة الرئيسية لهذه المنافسة الجديدة هى جعل اقتصادات الأسواق الاجتماعية لفترة ما بعد الحرب غير قابلة للاستمرار ، على حين يحدث تحول فى اقتصادات السوق الحرة التى كانت هى الفائز الاسمى فيها .

كيف تطرد الرأسمالية الرديئة الرأسمالية الجيدة

إن التكاليف الاجتماعية التى تحملها دوائر الأعمال فى اقتصادات الأسواق

الاجتماعية تمكنها من أداء وظيفتها كمؤسسات اجتماعية دون إضعاف للتماسك فى المجتمعات الأكبر التى تعمل فيها . وفى الوقت نفسه فإن هذه التكاليف الاجتماعية لابد أن تصبح أعباء فى أى منافسة مع المشروعات التى تعمل فى الأسواق الحرة . أما المنشآت الأمريكية فليس لديها إلا القليل من تلك الالتزامات .

كما أن المزايا الكامنة التى تتمتع بها المنشآت التى تعمل فى اقتصادات الأسواق الحرة ليست عرضية أو مؤقتة ، وإنما هى مزايا من طبيعة النظام نفسه ، ولا يمكن أن تعوض عنها المستويات الرفيعة للتعليم والمهارة التى كثيرا ما حققتها اقتصادات الأسواق الاجتماعية ، أو الاستثمارات الأفضل فى البنية الأساسية ، أى فى الطرق والمرافق العامة الأخرى ، أو حققها التماسك الاجتماعى الذى تميزه تلك النظم الاقتصادية . وكذلك فإن الأداء المتفوق الذى أظهرته الأسواق الاجتماعية فى هذه المجالات لن يمكنها من دعم مستويات الرعاية الاجتماعية وأنماط الإدارة والتنظيم التى تميزت بها فى الماضى .

وفى مسيرة التاريخ الطويلة ربما تكون الأسواق الاجتماعية فى أوروبا أكثر إنتاجية من الأسواق الحرة الأمريكية . أما فى المدى القصير ومن زاوية التنافس فى سوق حرة عالمية ، فإنه ليس باستطاعتها حتى أن تكون ذات قدرة تنافسية فى مجال التكاليف .

إن الظروف التى تمنح السوق الحرة ميزة استراتيجية على اقتصادات الأسواق الاجتماعية لفترة ما بعد الحرب هى التجارة الحرة العالمية التى لا تحكمها ضوابط مقترنة بقابلية رأس المال للتنقل بغير قيود على نطاق العالم .^(٢) أما فى سوق عالمية للتجارة الحرة فإن الميزة تكون (مع تساوى الأمور الأخرى) مرتبطة بمنشآت منخفضة التكاليف . ويصدق ذلك سواء أكانت تكاليف أيدٍ عاملة ، أم تكاليف تنظيمية ، أم تكاليف ضريبية .

ولتناول التكاليف البيئية . إذا كانت التكاليف البيئية فى بلد واحد جزءا من بيئة تكاليفه الإجمالية^(٣) نتيجة لنظام ضريبي يلزمها بأن تنعكس فى تكاليف المشروعات ،

(٢) من أجل الاطلاع على نقد قوى للتجارة الحرة العالمية ، وهو نقد أنا مدين له ، انظر ، هيرمان أ.

دالى ، "From Adjustment to Sustainable Development : The Obstacle of Free Trade" ،

وردت فى : - The Case Against Free Trade. GATT, NAFTA, and the Globalization of Cor-

porate Power ، سان فرانسيسكو ، دارنشر إيرث آيلند ، ١٩٩٣ ، الصفحات ١٢١ إلى ١٣٢ . انظر

أيضا ، جيرى ماندر وإدوارد جولد سميث ، "The Case Against the Global Economy and For

Turn Toward the Local" ، سان فرانسيسكو ، سيرابوكس ، ١٩٩٦ .

(٣) Internalized Costs

ولكن تلك المشروعات مرغمة على المنافسة في السوق العالمية مع مشروعات في بلدان أخرى لا تتحمل مثل تلك التكاليف البيئية ، فإن البلدان التي تتطلب من دوائر الأعمال الخضوع للمساءلة البيئية تكون بانتظام في أوضاع غير مواتية .

وبمرور الوقت ، فإما أن المشروعات التي تعمل في نظم خاضعة للمساءلة البيئية ستسحب من دوائر الأعمال ، وإما أن الأطر الضابطة لتلك النظم ستراجع إلى مستوى محتمل تنخفض فيه معوقات التنافسية . وتعد هذه الموازنة جزءاً لا يتجزأ من السوق الحرة العالمية .

السوق الحرة العالمية تعمل على «استبعاد» التكاليف التي تعدّها نظم أفضل جزءاً من بنية تكاليفها الإجمالية ، وعلى «إلحاق» عبء هذه التكاليف على الآخرين^(*) . وفي الاقتصادات الحساسة بيئياً توضع السياسات الضريبية والتنظيمية بحيث تكون المنشآت مطالبة بتحمل التكاليف التي تفرضها أنشطتها على المجتمع وعلى الطبيعة . وكانت تلك لفترة طويلة هي الحالة في بلدان أوروبا القارية . وتمارس الأسواق الحرة العالمية ضغطاً شديداً على تلك السياسات . كما أن البضائع التي تنتجها المنشآت الخاضعة للمساءلة البيئية تكون تكلفتها أعلى من تكلفة البضائع التي تنتجها المشروعات المطلقة اليد في تلويث البيئة .

إن التنظيم العالمي للمعايير البيئية ، وإن يكن مثلاً أعلى ملهماً ، يعد تنظيمياً يوتوبياً . وهو لا يكون ملزماً عندما تشتد الحاجة إليه . مثال ذلك أنه لا توجد سوى بضعة تدابير فعالة لحماية البيئة في روسيا أو الصين . وفي كلا البلدين يعدّ التدهور البيئي بمثابة الطوفان ، وذلك في جانب منه ميراث من فترة التخطيط الاقتصادي المركزي ، وفي جانب آخر نتيجة لإصلاحات السوق . ومع ذلك ، فإن كلا من البلدين يجري إقناعهما بدخول السوق الحرة العالمية حيث سيكون على بضائعهما أن تنافس مع بضائع يتم إنتاجها في الأسواق الاجتماعية الخاضعة للمساءلة البيئية .

وبعض اقتصادات العالم الصناعية المتقدمة على درجة من الثراء تكفى لمواجهة الضغط لتخفيف المعايير البيئية . وقد يكون باستطاعتها تعويض المنشآت التي تخسر في المنافسة مع الأعمال التي تقوم على اقتصادات منخفضة الضبط والتنظيم . وإذا كان باستطاعة الاقتصادات المتقدمة حماية بيئاتها بهذه الطريقة ، فإن ذلك سيكون جزئياً لأن بإمكانها تصدير التلوث عن طريق نقل الإنتاج المسبب للتلوث إلى بلدان العالم الثالث حيث المعايير

. To externalize Costs (*)

البيئة أقل تشددا . وستظل البلدان المتقدمة نظيفة على حساب أجزاء أخرى من العالم تصبح أكثر قذارة .

ولن يطرأ تغيير على التأثير الشامل للأسواق الحرة العالمية على البيئة العالمية . وسيستمر مفعوله على نطاق العالم للتخفيف من التكاليف التي كانت تتحملها المؤسسات في أنواع ميكرة من الرأسمالية كانت أكثر خضوعا للمساءلة . ونتيجة لذلك ستقل باستمرار صلاحية مساحات متزايدة من كوكب الأرض للسكنى . وفي الوقت نفسه سيرتفع الثمن الذى يتعين أن تدفعه المجتمعات القليلة الغنية بدرجة تكفى لأن يكون بإمكانها المحافظة على صلاحية بيئاتها للعيش ، وإذا واصلت ، برغم ذلك ، فرض تكاليف التلوث وغيرها من التكاليف الاجتماعية البيئية على دوائر الأعمال ، فستخفف الأرباح ، وسيلجأ رأس المال إلى الهجرة .

وبدلا من ذلك ، يمكن للمجتمعات أن تتبنى سياسات تقضى بأن تتحمل الأموال العامة مباشرة تكاليف التحكم فى التلوث . وقد تنجح بموجب تدابير كهذه فى حماية بيئاتها المحلية من بعض أنواع التدهور ، وإن كانت لن تعزل نفسها عن التأثير العالمى للتلوث المحلى فى البلدان الفقيرة . وقد أثبتت كارثة تشيرنوبل أن بعض أنواع التلوث تمتد آثاره مسافات بعيدة للغاية .

التجارة الحرة العالمية التى لا تحكمها ضوابط وقابلية رأس المال للتنقل دوليا

فى النظرية الكلاسيكية للتجارة الحرة يكون رأس المال غير قابل للتنقل . فمنهبط ريكاردو فى الميزة المقارنة - الذى مازال كثيرون يلجئون إليه للدفاع عن التجارة الحرة العالمية التى لا تحكمها ضوابط - يفيد بأنه عندما تتخلص المشروعات أو الصناعات عديمة الكفاءة نسبيا فى أى بلد ، ستنمو مشروعات وصناعات أخرى تستوعب ما يتحرر من الأنشطة المتدنية من رأسمال وأيد عاملة . وفى كل بلد يمارس التجارة يتقل رأس المال إلى الأنشطة الاقتصادية التى يكون فيها أكثر إنتاجية . والميزة المقارنة عند ريكاردو تنطبق داخليا فى الدول التى تمارس التجارة ، وليس خارجيا فيما بينها . ويعنى ذلك أنه فى نظام للتجارة الحرة غير المقيدة سيكون تخصيص الموارد عند أقصى إنتاجية لها داخل كل دولة تمارس التجارة ، ومن ثم - عن طريق الاستدلال - على نطاق العالم . ويقدر ما يصبح العالم سوقا واحدة ، سترداد الكفاية والإنتاجية فى كل بلد إلى أعلى مستوى ممكن .

خالصة وضيقة تكون السوق الحرة العالمية سوقا مجدية بدرجة هائلة . وبالمثل فإنه في الممارسة الاقتصادية السوق الحرة وأنظمة الأسواق الاجتماعية كثيرا ما تكون الأسواق الحرة متفوقة في الإنتاجية . وليس هناك شك في أن السوق الحرة هي غطت الرأسمالية الشديدة الكفاءة اقتصاديا . وذلك ينهي المسألة بالنسبة لمعظم الاقتصاديين . غير أن ما فعله اقتصادات السوق الاجتماعية ليس بعيدا عن المنطق بأي حال . كما أن الممارسة البياتية في استخدام العمال غير المتجبن اقتصاديا في مجموعة متنوعة من المهن القليلة المهارة ليست ممارسة تفتقد المعقولة أو الكفاءة ، شريطة أن يكون أحد معايير الكفاءة الذي يحكم به على سياسة كهذه هو المحافظة على التماسك الاجتماعي عن طريق تجنب البطالة الواسعة النطاق .

وكما اعترف بعض الاقتصاديين دائما ، فإن الحرص على الكفاءة الاقتصادية دون اعتبار للتكاليف الاجتماعية هو في حد ذاته أمر غير معقول ، كما أنه في الواقع يعطى لمطالب السوق الأولية على حاجات المجتمع . وذلك على وجه التحديد هو الذي يدفع المنافسة في السوق الحرة العالمية . وقد أصبح من حتميات النظام بأسره تجاهل التكاليف الاجتماعية ، وذلك تشويه مهني المهمة الاقتصادية .

إن عدم الكفاءة الاقتصادية الذي تتميز به القيود على التجارة الحرة ، يكاد أن يكون بديها بدرجة يسهل معها أن يدان بالجهل الاقتصادي أي ناقد للتجارة الحرة العالمية التي لا تحكمها ضوابط^(٥) . ولكن الحجج الاقتصادية المؤيدة للتجارة الحرة العالمية التي لا تحكمها ضوابط تنطوي على تجريد جامح بعيد عن الحقائق الاجتماعية . وصحيح أن القيود على التجارة الحرة العالمية لن تعزز الإنتاجية ، ولكن الإنتاجية القصوى التي تتحقق على حساب الاضطراب الاجتماعي والبؤس البشري تعدّ هدفا اجتماعيا شاذًا وخطيرًا .

الأسواق الحرة العالمية وتهاوى الأجور

عندما يكون رأس المال قابلا للتقل كما هو اليوم ، فإنه سيتجه ، مع تساوي الأمور

(٥) تلك هي حجة اثنين من الكتاب المعاصرين البارزين الذين دافعوا عن التجارة الحرة العالمية غير المقيدة ، هما دوغلاس أ. إيروين ، *Against the Tide: An Intellectual History of Free Trade* ، برنستون ، نيوجيرسي : إدارة النشر بجامعة برنستون ، ١٩٩٦ ؛ بول كروجمان ، *Pop Internationalism* ، كامبردج ، ماشوستس : إدارة النشر بمعهد ماشوستس للتكنولوجيا ، ١٩٩٦ . وللإلمام بصورة كلاسيكية حديثة لنظرية الميزة النسبية ، انظر ، بتل أوهلين ، *Interregional and International Trade* ، كامبردج ، ماشوستس : إدارة النشر بجامعة هارفارد ، ١٩٣٣ .

الأخرى ، إلى الانجذاب نحو البلدان التي تكون أجور العمال المطلقة فيها عند أدنى مستوى .
ويطبيعة الحال ، فإن الأمور نادرا ما تكون متساوية ، لا سيما التكاليف التي تتحملها
المشروعات بالإضافة إلى أجور العمال . كما أن نوعية البنية الأساسية والخدمات في
البلدان المختلفة تختلف اختلافا كبيرا . كذلك تتفاوت من بلد لآخر التكاليف والمخاطر
المرتبطة بعدم الاستقرار السياسي ، والممارسة المحلية للقانون ، والفساد . وعما له أهمية
أيضا درجة تعليم قوة العمل المحلية ، ومواقع المصانع ، وتكاليف النقل ، والبيئة
السياسية ، وعوامل أخرى كثيرة .

والأجور المنخفضة في بعض البلدان - مثل بلدان إفريقيا الوسطى والغربية على سبيل
المثال - تعكس حقيقة أن تلك البلدان تمدّ مواقع غير جذابة لرأس المال الإلتاخي . أما الأجور العالية
في بلدان أخرى ، مثل سنغافورة ، فتعكس مستوياتها الممتازة للتعليم بين أفراد قوة العمل ،
وحكم القانون ، والحلّو من الفساد ، والاستقرار السياسي .

من ذلك أن تكاليف العامل الواحد في شركة أوسرام - التي مقرها ألمانيا ، وثاني أكبر
منتج في العالم للمصابيح الكهربائية - لإنتاج هذه المصابيح في الصين تبلغ واحدا على
خمس من مثيلاتها في ألمانيا ، ولكن إنتاج نفس العدد من المصابيح يتطلب عددا من
العمال يزيد في الصين ٣٨ مرة على ما يتطلبه في ألمانيا . وهنا نرى أن تكاليف الفرد من
الأيدي العاملة يمكن أن تلغيا بدرجة كبيرة المستويات الأدنى للمهارة والإنتاجية .^(٦)

فضلا عن أن معدلات الأجور في أي اقتصاد إنما تحددها سوقه للأيدي العاملة
المحلية ، وليس معدلات الأجور في البلدان الأخرى . فسيارة التاكسي التي أستوقفها في
بيكاديللي ليست موضع منافسة مع سيارة التاكسي في لاهور . غير أن هناك نطاقا متزايدا
من المهارات التي يتحدد سعرها عالميا . وثمة خدمات كثيرة يمكن تصديرها إلى أي مكان
تكون فيه الأيدي العاملة اللازمة لها أرخص ما يمكن - كما حدث عندما حولت شركات
الطيران عمليات بيع التذاكر ومسك الدفاتر إلى الهند . ولكن غالبية الأجور مازالت
تحددها الأسواق المحلية .

إن تدهور قدرة العمال على المساومة في بلدان الشمال الغنية لم يكن نتيجة التجارة
الحرّة العالمية وحدها . والاعتقاد بأنها يمكن أن تفعل ذلك معناه المبالغة في تأثير التجارة

(٦) من أجل هذه المقارنة ، انظر ، بيتر مارش ، "A Shift To Flexibility" ، في جريدة فاينانتشيال
تيمس ، عدد ٢١ من فبراير عام ١٩٩٧

الدولية وتدفقات رأس المال على الاقتصادات الوطنية . ذلك أن البطالة في البلدان المتقدمة هي من الضخامة بحيث لا يمكن أن تعزى فقط إلى التجارة مع بلدان الأجور المنخفضة .

ويُعدّ كل من التكنولوجيات الجديدة وهبوط مستوى مهارة أجزاء من السكان بسبب التعليم غير الملائم ، سببا محورياً للبطالة الطويلة الأمد في البلدان الغربية المتقدمة . كما أن الفوارق المتزايدة في الدخل قد تضخمت نتيجة لتحرر سوق العمل من الضوابط والسياسات الضريبية الليبرالية الجديدة . ولكن السبب الجوهرى لانخفاض الأجور وتعاقد البطالة هو انتشار التكنولوجيا الجديدة على نطاق العالم .

أما الاقتصادات الحديثة التصنيع والاقتصادات التي دخلتها الصناعة أخيراً ، فلا تقعان فيما يتعلق بالأجور ضمن فئات بسيطة متجانسة . وفي بعض البلدان الحديثة التصنيع ، مثل كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة ، تكون الأجور في مهن كثيرة أعلى منها في بعض البلدان المتقدمة ، لاسيما بريطانيا والولايات المتحدة . وهذا هو السبب في أن قيام بعض الشركات الآسيوية المتعددة الجنسية بنقل مصانعها من الجنوب إلى الشمال نحو مناطق العالم الأول التي تكون أجور الأيدي العاملة فيها رخيصة ، لا يُعدّ اليوم من الأمور غير المألوفة .

ومن أمثلة ذلك القرار الذي اتخذته المجمع الصناعى الكورى «لاكى جولد ستار» فى بداية عام ١٩٩٧ ، بتوطين مصنع له فى نيويورت ، ويلز ؛ وبذلك قام هذا للمجمع بتصدير وظائف من كوريا إلى منطقة أوروبية ، هى حتى الآن فى العالم الأول ، تنخفض فيها أجور العمال وتكاليف العمل غير الأجرية . (وقد حصل هذا المجمع على إعانة كبيرة من الحكومة البريطانية لتشجيعه على أن يفعل ذلك) . وقبل هذا بسنة نقلت شركة رونسون مراقفها الخاصة بإنتاج ولاعات السجاير من كوريا إلى ويلز ، وتمكنت بذلك من توفير ٢٠ فى المائة من تكاليف الأجور .^(٧)

وتوضح هذه الأمثلة أن ما لسياسة «دعه يعمل» على النطاق العالمى من تأثير على الأمن الوظيفى لم يعد يتركز فى المقام الأول على قوة العمل فى العالم الأول . وقد برهنت المظاهرات الجماهيرية للعمال فى سول فى يناير عام ١٩٩٧ ، على أن تدهور الأمن الوظيفى يحدث على نطاق العالم .

(٧) "Come to low - wage Wales" ، فى جريدة إنديبنثنت ، عدد ١٣ من يناير عام ١٩٩٧ .

كذلك ليست بلدان العالم الأول متجانسة فيما يتعلق بتكاليف الأيدي العاملة . فالأجور التي تدفعها شركة سيمتز لعمالها الألمان مرتفعة ، ولكن ذلك يرجع في جانب منه إلى مستويات التعليم والتدريب الأعلى كثيرا في ألمانيا ، وإلى أن إنتاجية عمال سيمتز الألمان تبلغ قرابة ضعف مثيلاتها في المصانع الأمريكية .^(٨)

ومع ذلك فإن الأثر الإجمالي للتجارة الحرة العالمية غير الخاضعة للضوابط مازال هو دفع أجور العمال إلى أدنى - وبوجه خاص عمال الصناعات التحويلية غير المهرة - في البلدان المتقدمة . وإذا خفضت الحواجز أمام التجارة الدولية ، عندئذ - فيما يشير إليه الاقتصاديون على أنه «التسوية بين سعر عوامل الإنتاج»^(٩) - سيتجه سعر هذه العوامل ، بما في ذلك سعر الأيدي العاملة ، إلى التقارب . وهذا هو ما يعنيه الاقتصاديون عندما يقولون للعمال إن «أجوركم مستحدد في بكين» .^(٩)

وتكنولوجيات المعلومات الجديدة تسمح لسلع كثيرة ، من بينها مدى متسع من الخدمات ، بأن يتم إنتاجها في البلدان النامية بجزء فقط من تكاليف الأيدي العاملة التي يتطلب إنتاجها في المجتمعات الصناعية الأكثر نضجا . وكما أوضحت منظمة العمل الدولية في دقة وإيجاز ، فإن «القرارات الخاصة باختيار مواقع المصانع في هذه الأيام إنما تحكمها بدرجة كبيرة تكاليف الأيدي العاملة»^(١٠) . وتلك حقيقة مهمة . ومن ثم فإن نظرية ريكاردو التي بموجبها لم يكن رأس المال قابلا للتقليل إلا داخل البلد الذي نشأ فيه ، وكان الإنتاج من الناحية العملية غير قابل للتقليل دوليا ، لم تعد نظرية ذات صلة بالموضوع .

ويختلف عالمنا عن عالم ريكاردو في نقطة مهمة أخرى . إذ توجد في البلدان الحديثة التصنيع معدلات سريعة لنمو السكان . ومن شأن ذلك تعزيز ما للتجارة الحرة العالمية غير الخاضعة للضوابط من ضغط نزولي على الأجور في الاقتصادات الصناعية التامة النمو . ففي غالبية هذه الاقتصادات تكون معدلات النمو السكاني

(٨) من أجل هذه المقارنة ، انظر ، بيتر مارش ، "A Shift to Flexibility" ، في جريدة فاينانشيال تيمس ، عدد ٢١ من فبراير عام ١٩٩٧ .

(٩) Factor - price equalization (٩)

(٩) س. فريمان ، "Are your wages set in Peking ?" ، في مجلة جورنال أوف إيكونوميك برهيكتر ، العدد ٩ ، صيف عام ١٩٩٥ .

(١٠) World Labour Report ، جنيف : منظمة العمل الدولية ، ١٩٩٢ .

منخفضة ، وتكون الأيدي العاملة - الماهرة منها على الأقل - موردا نادرا يستحق علاوة في الأجر . وفي كثير من البلدان الحديثة التصنيع ، حيث يتزايد السكان بسرعة ، تكون الأيدي العاملة - بما في ذلك بعض أنواع العمالة الماهرة - متوافرة بكثرة .

وعندما يكون النمو السكاني على هذا النحو من عدم التماثل فإن العمالة في البلدان الحديثة التصنيع تؤدي إلى خفض الأجور في الاقتصادات الصناعية التامة النمو . وعندما يمارس رأس المال والإنتاج التنقل بلا ضوابط عبر العالم ، فإنهما سيتجهان إلى التوطن في البلدان التي تكون فيها الأيدي العاملة شديدة الوفرة وقليلة التكلفة . وباستطاعتها في الوقت الحالي أن يفعل ذلك سواء أكانت الأيدي العاملة التي يحتاجان إليها ماهرة أم غير ماهرة . وقد عبر ميخائيل ليند عن ذلك بقوله :

«في غضون جيل واحد فإن سكان العالم الثالث الذين يتزايدون بسرعة كبيرة سيضمون بينهم ليس فقط مليارات العمال غير المهرة ، وإنما أيضا مئات الملايين من العلماء والمهندسين والمعماريين وغيرهم من المهنيين القادرين على القيام بعمل من طراز عالمي ، مقابل جزء ضئيل من الأجر الذي يتوقعه نظراؤهم الأمريكيون . ويأمل اللبيراليون دعاء التجارة الحرة ألا يكون لدى أمريكا ذات الأجور المرتفعة والمهارة العالية ما تخشاه من العالم الثالث ذي الأجور المنخفضة والمهارة المتدنية . غير أنه ليست لديهم إجابة على احتمال - وفي الحقيقة ترجيح - حدوث منافسة من الخارج تتزايد باستمرار أساسها الأجور المنخفضة والمهارة العالية . وفي هذه الحالة لن يكون كافيا التدريب الأفضل للعمال ولا الاستثمار الأكبر في البنية الأساسية في الولايات المتحدة فمن العسير مقاومة الاستتاج بأن هناك تنافرا جلدريا بين رأسمالية السوق الاجتماعية المتحضرة ، والتجارة الحرة غير المقيدة»^(١١) .

وقد بين مسح أجرى في عام ١٩٩٣ لعشرة آلاف شركة ألمانية متوسطة الحجم أن ثلث هذه الشركات كان يخطط لنقل أجزاء من إنتاجه إلى مناطق في العالم ، مثل أوروبا الشرقية في مرحلة ما بعد الشيوعية ، كانت الأجور فيها أقل ، والضوابط الاجتماعية والبيئية فيها أقل صرامة . كما أن هناك شركات كثيرة تنقل مصدر حصولها على احتياجاتها من برامج الحاسبات الإلكترونية إلى الهند ، حيث يكسب المبرمجون في الهند (حوالي ٣٠٠٠ دولار)

(١١) ميخائيل ليند ، «The Next American Nation : The New Nationalism and the Fourth Ameri- can Revolution» ، نيويورك : ذي فري برس ، ١٩٩٥ ، الصفحة ٢٠٣ .

أقل مما يكسبه المبرمجون في البلدان الأوروبية أو الولايات المتحدة . ويمكن إيراد أمثلة كثيرة أخرى .^(١٢)

ومن شأن تكنولوجيات المعلومات الجديدة تعزيز ما للسوق العالمية من تأثير في تخفيض الأجور إلى المستوى الذي تصل إليه في اقتصادات العمل الرخيص المتحررة من الضوابط . كما أن التكنولوجيات الجديدة تدمر مهنا كثيرة . وإذا كانت مهنة صرافى البنوك مهنة محكوما عليها بالزوال ، فإن مصيرها مماثلا يتظر عازى فى الموسيقى فى الحفلات . ففى كلتا الحالتين يمكن الاستعاضة الآلية عن عملهم أو محاسناته بتكلفة رخيصة . وبالمثل تمارس التكنولوجيات الجديدة ضغطا نزوليا على الدخل فى مهن كثيرة حتى فى حالة عدم وجود سوق حرة عالمية . ويرتب على الاستعاضة بالتكنولوجيا عن العمل البشرى خلق معضلات لم يستطع أى مجتمع حتى الآن (ربما باستثناء اليابان) إيجاد حلول لها .^(١٣)

وقد اعترف ريكاردو بأن الابتكار التكنولوجى يمكن أن يكون مدمرا للوظائف . وهو لم يشاطر الاعتقاد الحديث بأنه ستشأ دائما بصورة آلية فرص عمل جديدة من الآثار الجانبية للتكنولوجيات الجديدة . وقد قال : إن «اكتشاف الآلات واستعمالها يمكن أن يصبحهما نقص فى الرىح الإجمالى ، وحيشما تكون تلك هى الحال فإنها ستكون ضارة بالطبقة الكادحة ، إذ إن أعدادا منها سيلقى بها خارج العمالة ، وسيصبح السكان فائضين عن الحاجة . . . فالرأى الذى تراه الطبقات الكادحة ، وهو أن استخدام الآلات كثيرا ما يكون ضارا بمصالحها ، هو رأى لا يقوم على التحيز أو الخطأ ، بل يتفق مع المبادئ الصحيحة للاقتصاد السياسى»^(١٤) .

وكما ذكرنا من قبل ، فإن رأس المال سيهاجر إلى البلدان التى يمكن فيها صنع البضائع

(١٢) أدين بهذه الأمثلة لمقال عنوانه "Who Competes ? Changing landscapes of corporate control" ، نشر فى مجلة *نيكولوجست* ، للجلد ٢٦ ، العدد ٤ ، يولية / أغسطس عام ١٩٩٦ ، الصفحة ١٣٥ .

(١٣) حول هذه المسألة ، انظر ، جيريمى ريفكين ، *The End of Work : The Decline of the Global Labor Force and the Post - Market Era* ، نيويورك : ج . ب . بوتنام ، ١٩٩٥ .

(١٤) دافيد ريكاردو ، *Principles of Political Economy and Taxation* ، لندن : ج . م . دنت ، الصفحتان ٢٦٦ و ٢٦٧ . ومن أجل الإلمام بحجة أحدث تدعم رأى ريكاردو ، انظر ، پول صمويلسون ، "Mathematical vindication of Ricardo on machinery" ، فى مجلة *جورنال أوف پوليتيكال إيكونومى* ، المجلد ٩٦ ، ١٩٨٨ ، الصفحات ٢٧٤ إلى ٢٨٢ ؛ وكذلك صمويلسون ، "Ricardo was Right" ، فى مجلة *سكاندينافيا جورنال أوف إيكونوميكس* ، المجلد ٩١ ، ١٩٨٩ ، الصفحات ٤٧ إلى ٦٢ .

من أجل مستهلكي العالم في البلدان الغنية بأقل تكاليف العمل ، و نادرا ما ستكون هذه البلدان هي التي تستهلك فيها تلك البضائع . (١٥) وقد علق وليم فاف على ذلك قائلا : «إنه بوضوح ليس مصادفة أن قدرة الحركة النقابية في الدول الغربية على المساومة كانت تضعف بشدة وباطراد منذ أن بدأت العوالة . فحتى السبعينيات كان على الاستثمار بوجه عام أن يقتصر على مجمع وطني للأيدى العاملة من أجل أن ينتج لسوق وطنية . وعندما لم يصبح ممكنا تكنولوجياً فقط ، بل ومفيدا اقتصادياً أيضا ، إنتاج سلع من أجل المستهلكين في بلد غنى في أسواق عمل فقيرة ومتحررة من الضوابط في آسيا أو أمريكا اللاتينية أو إفريقيا ، فقدت الأيدى العاملة في البلدان المتقدمة قدرتها على المساومة» (١٦) . وتنتج دراسات أكاديمية عديدة إلى ترسيخ هذه الملاحظة . (١٧)

إن ما يحدث في بلدان العالم الأول من توليف غير مسبوق بين التغيير التكنولوجي السريع والحرية العالمية في التجارة وانتقالات رأس المال ، وكذلك بين تحلل سوق العمل من الضوابط في المجتمعات الصناعية المتقدمة والنمو السكاني السريع في البلدان النامية ، هو الذي أدى إلى كسوف قوة الأيدى العاملة المنظمة .

الأسواق الحرة العالمية وزوال الاشتراكية الديمقراطية (٥)

إن الاشتراكيين الديمقراطيين في بريطانيا وغيرها من البلدان الأوروبية الذين يتصورون أن

(١٥) انظر ، باتريك مينفورد ، "Free trade and Long wages - still in the general interest" ، في مجلة الاقتصاديين والدراسات الإتائية ، للمجلد ٧ ، عدد أول مارس ١٩٩٦ ، الصفحات ١٢٣ إلى ١٢٩ . (١٦) وليم فاف ، "Job security is disappearing around the World" ، في مجلة إترناشونال هيرالد تريبيون ، عدد ٨ من يوليو عام ١٩٩٦ ، الصفحة ٨ .

(١٧) انظر ، أدريان وود ، "North - South Trade, Employment and Inequality - Changing Fortunes in a Small World" ، أكسفورد . كلارنيلون برس ، ١٩٩٤ ؛ وكذلك "How Trade hurts unskilled Workers" ، في مجلة جورنال أوف إيكونوميكس برسبيكتيف ، للمجلد ٩ ، العدد ٢٣ الصفحات ٥٧ إلى ٨٠ . انظر أيضا ، منفورد وآخرين ، "The Ethic of Growth" ، في العمل الجماعي الذي أعده سنور ودي لا ديهيا ، Unemployment Policy ، لندن ، مركز بحوث السياسات الاقتصادية ، ١٩٩٦ . وقد قدمت حجة مضادة تؤكد على أهمية وجود ضوابط على الهجرة إلى الخارج كوسيلة تستطيع بها الدول - القومية حماية عمالها ضد المنافسة العوالة ، لاسيما في قطاع الخدمات غير التجارية . وفيما يتعلق بوجهة النظر هذه فإن عوالة العمل كانت في القرن التاسع عشر أكثر تقدما مما هي عليه اليوم . انظر ، فينست كيرل ، "Deedalus" ، للمجلد ١٢٤ ، العدد ٢ ، يوليو عام ١٩٩٥ .

(٥) مرة أخرى ، كيف يمكن أن يقال ذلك في الوقت الذي مازالت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية فيه تحكم في كبرى الدول الأوروبية ١٩ المترجم .

اقتصادات الأسواق الاجتماعية التي يألّفونها يمكن أن تتوافق مع سوق حرة عالية ، لم يظفهما الظروف الجديدة التي نشأت في المجتمعات الصناعية المتقدمة .

ذلك أن اقتصادات الأسواق الاجتماعية قد تطورت في بيئة اقتصادية خاصة . وهذه الاقتصادات محتوم عليها أن تتحول أو تدمر نتيجة لتصنيع آسيا ودخول بلدان ما بعد الشيوعية في الأسواق العالمية .

إن ما يترتب على المنافسة القادمة من بلدان فرض فيها نظام للتحرر من الضوابط وللضرائب المنخفضة ، وتراجعت فيها دولة الرعاية الاجتماعية ، هو إرغام الدول التي تحتفظ باقتصادات سوق اجتماعية على اتباع تسبق نزولي للسياسات . ذلك أن السياسات التي تفرض سوق عمل متحررة من الضوابط واقتطاعات في إعانات الرعاية الاجتماعية إنما تتبّع بوصفها إستراتيجيات دفاعية رداً على سياسات يجري تنفيذها في بلدان أخرى . كما أن المنافسة الضريبة فيما بين الدول المتقدمة تحمل على استتراف الأموال العامة ، وتجعل من المتعذر تحمل أعباء دولة الرعاية الاجتماعية . وقد لاحظت افتتاحية جريدة فليمنشغال تيمس أنه «نتيجة لتآكل قاعدة الإيرادات يمكن للمنافسة الضريبة أن تتجاوز الحدود . بل إن حروب العطاءات بين البلدان باستطاعتها أن تدمر قاعدة الإيرادات الجماعية . ومن شأن ذلك زيادة العبء الضريبي على الصناعات الأقل قابلية للتنقل وعلى الأيدي العاملة ، بالنسبة لرأس المال» (١٨) .

إن التنافس الضريبي ليس إلا آلية واحدة يمكن من خلالها للمنافسة بين الحكومات على رهوس الأموال والصناعات القابلة للتنقل ، أن تعمل على تخفيض الإعانات الاجتماعية وزيادة الضرائب على الأيدي العاملة . وتؤدي ممارسات الأسواق العالمية للأوراق المالية إلى أن يتفحص أو يزال من أسواق العالم الاجتماعية قدر كبير مما كان لدى حكوماتها في الماضي من حرية في انتهاج سياسات لمواجهة التقلبات الدورية . كما أنها ترغمها على الارتداد إلى وضع سبق الكينزية لم يكن لديها فيه سوى أدوات قليلة لإدارة الاقتصاد الكلي . وهي مرغمة على الوقوف ساكنة دون فعالية خلال فترات الركود في النشاط الاقتصادي مهما تكن تكاليفها الاجتماعية والاقتصادية .

ومن قبيل معاقبة الحكومات التي تحاول حفز النشاط الاقتصادي بالاقتراض أو الاضطلاع بأشغال عامة ، فإن الأسواق ترغمها على العودة إلى عالم ما قبل الكينزية الذي كانت الحكومات فيه تستجيب لدورة الكساد بالوسيلة الانكماشية المدمرة ، وهي الحد من

(١٨) "Living with tax rivalry" ، في جريدة فليمنشغال تيمس ، عدد ١٤ من يناير عام ١٩٩٧ .

الإفناق . وهكذا فإن الأسواق العالمية للأوراق المالية إنما تحاكي ما كانت قاعدة الذهب تفعله . ولكنها تفعل ذلك دون أن تكون نسخة طبق الأصل من طابعها شبه الألى الذى كان يضى درجة من الاستقرار على الاقتصادات التى كانت تحكمها . وهى تعمل فى سياق اضطرابات سوقية يجعل من المحتوم حدوث انفجارات وأزمات أساسها المضاربة (مثل انهيار السوق العالمية للأوراق المالية فى أوائل عام ١٩٩٤) . فقد حلت قواعد اللعب فى كازينوهات المضاربات محل آلية قاعدة الذهب .

ولكن الأسواق العالمية لرأس المال تفعل ما هو أكثر من ذلك . فهى تجعل الاشتراكية الديمقراطية غير قابلة للبقاء . وأنا أعنى بالاشتراكية الديمقراطية التوليف بين عمالة كاملة عمولة بالعجز فى الموازنة ، ودولة رعاية اجتماعية شاملة ، وسياسات ضريبية تقوم على العدالة ، وهو التوليف الذى ظل قائما فى بريطانيا حتى أواخر السبعينيات ، وعاش فى السويد حتى أوائل التسعينيات .

وذلك النظام الاشتراكى الديمقراطى كان يفترض وجود اقتصاد مغلق . وكانت تنقلات رأس المال مقيدة بأسعار صرف ثابتة أو شبه ثابتة . وليس باستطاعة كثير من السياسات الأساسية الاستمرار فى اقتصادات مفتوحة . وينطبق ذلك على العمالة الكاملة الممولة بالعجز فى الموازنة وعلى دول الرعاية الاجتماعية فى فترة ما بعد الحرب . كما ينطبق بالمثل على الصفقات الاشتراكية الديمقراطية التى تقوم على المساواة . فجميع النظريات الاشتراكية الديمقراطية فى العدالة (مثل نظرية جون رول القائلة بالمساواة) تفترض مقدما وجود اقتصاد مغلق . (١٩)

وذلك لأنه فقط فى داخل نظام مغلق للتوزيع يكون باستطاعتنا أن نعرف ما إذا كانت مبادئ العدالة التى تملئها تلك النظريات مطبقة . وبصورة عملية أكثر فإنه فقط فى نظام مغلق يمكن تطبيق مبادئ المساواة ، إذا إنها فى الاقتصادات المفتوحة ستصبح غير قابلة للتطبيق نتيجة لحرية الهجرة المتاحة لرأس المال - بما فى ذلك رأس المال البشرى .

والنظم الاشتراكية الديمقراطية تفترض إمكانية تمويل مستويات عالية من الإعانات العامة دون مشكلات من الضرائب العامة . وذلك الافتراض لم يعد قائما . بل إنه ليس صحيحا حتى بالنسبة لما تفهمه النظريات الاقتصادية على أنه مرافق عامة

(١٩) من أجل الاطلاع على نقد لنظرية رول ، انظر ، كتابى ، *Liberalism* ، لندن ، روتلج ، ١٩٨٩ ، الفصل ٦ .

حقيقية . ومنطق قابلية رأس المال غير المقيدة للتنقل يجعل تمويل المرافق العامة أكثر مشقة بالنسبة لجميع الدول . والمرافق العامة هذه ، وفق الفهم القياسي لها ، هي الخدمات التي يتمتع بها الجميع . وهي لا يمكن شطرها أو تجزئتها ، وينبغي تديرها تكاليفها من الضرائب إذا كان يتعين عدم الإخلال بها . وفي المؤلفات التقنية للنظرية الاقتصادية والإدارة العامة التي توجد بها وجهة النظر القياسية هذه ، فإن عبارة المرافق العامة ترد بمعنى أمور من قبيل القانون والنظام والدفاع عن الوطن وحفظ البيئة .

والحل الكلاسيكي لمشكلات تمويل المرافق العامة هو الإلزام الذي تتفق عليه جميع الأطراف . فالجميع يتفقون على أنهم سيفقدون إذا ما أتاحت المرافق العامة . وهم يحلون المشكلة الكلاسيكية التي يثيرها فتح المرافق العامة - أولئك الذين يسعون إلى التمتع بالمرافق العامة دون تحمل أي مسئولية - عن طريق مطالبة الجميع بالإسهام من خلال الضرائب . وهذا الحل الكلاسيكي يفشل عندما تكون الضرائب غير قابلة للتطبيق على رهوس الأموال والشركات المتقلة . وإذا كانت مصادر الإيرادات - رأس المال والشروعات والأفراد - حرة في الهجرة إلى نظم منخفضة الضرائب ، فإن الإلزام الذي تتفق عليه جميع الأطراف لا يكون صالحا كوسيلة لتدبير تكاليف المرافق العامة . ذلك أن أنواع ومستويات الضرائب التي تفرض لتدبير هذه التكاليف في أي دولة لا يمكن أن تتجاوز بدرجة كبيرة مثيلاتها الموجودة في الدول التي تُعدّ مماثلة من نواح أخرى .

إن القابلية العالية لرأس المال والإنتاج للتنقل في عالم اقتصادات مفتوحة جعلت السياسات المحورية للاشتراكية الديمقراطية الأوروبية غير قابلة للتطبيق .^(٢٠) وهي إذ تفعل ذلك إنما تجعل من البطالة الواسعة اليوم مشكلة يتعذر إيجاد حل سهل لها .

ونظريات المذهب النقدي التي تهيمن في الوقت الحالي على البنوك المركزية والمؤسسات المالية عبر الوطنية في العالم تنكر إمكانية تحقيق أي مبادلة للعمالة الكاملة باستقرار الأسعار . فأوراق الاعتماد الفكرى لتلك المذاهب ليست مثيرة بوجه خاص . إذ تبدو كأنها تقترض مقدما وجهة نظر في الحياة الاقتصادية على أنها تتجه إلى تحقيق توازن من النوع الذي وُفق كينز في نقده . وفي أيامنا هذه تم بطريقة تنطوي على مفارقة تاريخية إحياء فكرة توازن الحياة الاقتصادية ، وذلك في نظريات «التوقعات العقلانية» التي انطلقت

(٢٠) ناقشت ذلك بطريقة أكثر منهجية في بحث عنوانه *After Social Democracy* ، لندن ، ديموس ،

١٩٩٦ ، أعيد نشره باعتباره الفصل الثاني من كتابي *Endgames : Questions in Late Modern*

Political Thought ، كامبردج : پوليتي برس ، ١٩٩٧ .

ن جامعة شيكاغو . وتلك عمليات تنظير مثيرة للجدل ليست جديدة بتوافق عام حتى بين
تصايدى الاتجاه السائد. (٢١)

ومع ذلك فإن هذه النظريات الملتبسة قد أوحى ببرامج التكيف الهيكلى التى يتبناها
بنك الدولى ، والتى فرضت فى بلدان متباعدة ، مثل المكسيك ونيجيريا ، حالات كساد
عميقة ومستمرة للنشاط الاقتصادى العيى سعيا وراء الاستقامة المالية . ونحاكى الأسواق
هالمية للأوراق المالية برامج التكيف الهيكلى هذه . وهى تفرض على بلدان العالم الأول
سوابط انكماشية للتكيف الهيكلى أخفقت بوضوح بوصفها تدايير طوارئ فى البلدان
نامية .

إن النظريات التى يتحقق فيها توازن السوق عن طريق التوقعات العقلانية من جانب
لشاركين فى السوق لا يسهم فيها من حققوا ثروات من فهمهم لكيفية عمل الأسواق فى
لمارسة . وتعليقا على النظرية الاقتصادية التى تعد الأساس لانفاقيات ماستريخت^(٢٠) ، التى
سيعهد بموجبها إلى بنك مركزى أوروبى جديد يشرف على عملة أوروبية واحدة بهدف
ساسى ، وهو استقرار الأسعار ، يقول جورج سوروس : «تكن خلف كل ذلك نظرية
وازن اقتصادى مخطئة . وقد أوضح جون ماتيارد كيتز أن العمالة الكاملة ليست الحاصلة
لطبيعة لتوازن السوق . ومن أجل تحقيق عمالة كاملة يحتاج الاقتصاد إلى سياسات حكومية
وضع خصيصا لهذا الغرض . . . إن اليد الخفية لن تصل بنا أبدا إلى توازن سعيد»^(٢٢) .

وما يخلص إليه سوروس ينطبق على مشروع السوق العالمية الواحدة ذاتية التنظيم
نفس القوة ، أو بقوة أكبر من تلك التى ينطبق بها على الاقتراح الخاص بإنشاء عملة
أوروبية واحدة يتحكم فيها بنك مركزى أوروبى يكون التزامه الوحيد هو المحافظة على
ستوى ثابت الأسعار .

(٢١) تم تقديم نقد قوى لنظريات توازن «التوقعات العقلانية» فى الحياة الاقتصادية ، وذلك فى كتاب ج .
شاكل ، *Epistemics and Economics* ، كمبردج : إدارة النشر بجامعة كمبردج ، ١٩٧٦ .
(٢٠) *Maastricht* : مدينة هولندية اجتمع بها فى عام ١٩٩٤ ملوك ورؤساء اتتى عشرة دولة أوروبية هى
بلجيكا والمانمرك وألمانيا واليونان وإسبانيا وفرنسا وأيرلندا وإيطاليا ولكسبرج وهولندا والبرتغال
والمنجترا ، حيث وقعا على معاهدة ماستريخت التى أقيم بموجبها اتحاد أوروبى أساسه الجماعة
الأوروبية التى كانت قائمة بالفعل قبل التوقيع عليها ، إضافة إلى أشكال وسياسات التعاون التى
اتفقت هله الدول عليها فى هذا الاجتماع - المترجم .

(٢٢) جورج سوروس ، «Can Europe work ? A plan to rescue the union» ، فى مجلة فورين
أفيرز ، عدد سبتمبر / أكتوبر عام ١٩٩٦ ، المجلد ٧٥ ، العدد ٥ ، الصفحة ٩ .

كما أن الأسواق العالمية للأوراق المالية والعملات ، عن طريق زعزعتها لاستقرار أي حكومة وطنية تحاول الإعراض عن هذه المذاهب - مثل حكومة فرانسوا ميتران في بداية الثمانينيات - باستطاعتها أن تكون قادرة بنفسها على الوفاء بأغراضها . وهي تحكم الخناق على أي دولة تحاول زيادة العمالة عن طريق توسع في النشاط الاقتصادي يعتمد على التمويل بالعجز . وكما يقول هيرست و تومسون :

«إن حجم المعاملات القصيرة الأجل في الأسواق الدولية للصرف الأجنبي - ألف مليار دولار في اليوم - يفوق بكثير تدفقات التجارة الخارجية والاستثمار المباشر . كما أنه يعني أن البنوك المركزية الرئيسية لا توجد لديها (منفردة أو مجتمعة) الاحتياطيات اللازمة للدفاع عن سعر صرف معين إذا ما أوحش لها الأسواق بأنه سيتحرك صعوداً وهبوطاً . وما لاشك فيه أن المتاجرين والمعلقين تكون لديهم أحكام مسبقة ؛ فهم يفضلون التضخم المنخفض والسياسات العامة «للتقود السليمة» وهذه السياسات تشكل بلا ريب رادعا عاقما ، كما أنها تلي المصلحة القصيرة الأجل للمؤسسات المالية الرئيسية باعتبارها الحكمة الاقتصادية الأسمى . (٢٣)

وخلال الثمانينيات كان باستطاعة كبرى الدول القومية ذات السيادة ، وهي الولايات المتحدة ، تطبيق سياسات توسعية كينزية الأسلوب ، عندما كانت منهمكة في بناء صرح ضخيم للأسلحة ؛ ولكن من المشكوك فيه أن يكون في مقدورها القيام بمحاولة مماثلة في الظروف الحالية . ذلك أن خيرة الرئيس كليتون في بداية إدارته الأولى ، عندما فرضت سوق الأوراق المالية أسعار فائدة مرتفعة كرادع ضد التخفيف المحتمل للضرائب ، قد علمته أنه حتى «مقترض الملاذ الأخير» في العالم خاضع لحكم السوق العالمية في الأوراق المالية الحكومية .

كذلك فإن التجربة السويدية الطويلة الأمد في العمالة الكاملة ، التي واجهت في بداية التسعينيات صعابا خطيرة ، قد وصلت إلى نهايتها بسبب قوة السوق العالمية للأوراق المالية . وقد وصف وليم جريندر هذه الحالة النموذجية للأسواق العالمية في أثناء عمله بقوله :

لقد شعرت السويد بسيط السوق في صيف عام ١٩٩٤ عندما أضرب عن العمل

(٢٣) بول هيرست وجرامام تومسون ، "Globalization" ، في مجلة Soundings ، العدد ٤ ، أغسطس عام ١٩٩٦ ، الصفحة ٥٨ .

المشرون الدوليون الرئيسيون لأوراقها المالية ، معلنين أنهم لن يشتروا المزيد منها . ونتيجة لذلك حُلقت أسعار الفائدة الطويلة الأجل إلى أعداد من رقمين ، مرتفعة أربع نقاط مئوية كاملة في تلك السنة ، وهي أعلى تكلفة اقتراض طلبت من أية دولة صناعية متقلعة ، باستثناء إيطاليا . ورغم أن السويد كانت قد انتخبت حكومة محافظة عاقلة العزم على تحجيم دولة الرعاية الاجتماعية التي اشتهرت بها ، فقد كان العجز السنوي مع ذلك أكثر من ١٠ في المائة من الناتج المحلي الإجمالي ، وزاد الدين الحكومي المتراكم إلى درجة الانفجار ، من ٤٤ في المائة من الناتج المحلي الإجمالي في عام ١٩٩٠ إلى ٩٥ في المائة في عام ١٩٩٥ . ولتهلته المقاطعة من جانب أصحاب الأوراق المالية ، اضطرت البنك المركزي في السويد إلى تشديد ضوابط الائتمان بدرجة أكبر ، وأعلن رئيس الوزراء على وجه السرعة خططاً لإجراء اقتطاعات أخرى من الإنفاق . ومع ذلك فلإن اقتصاد السويد- الذي كان ذات يوم النموذج لاشتراكية ديمقراطية مستقرة مزدهرة- كان بالفعل في حالة كساد شديد ، مع وصول البطالة إلى قرابة ١٦ في المائة . لكن التنايير الجديدة زادت الأمور سوءاً . ولى الانتخابات التالية أعاد الناخبون الاشتراكيين إلى السلطة ، ورغم أنهم سيواجهون المعضلة نفسها . (٢٤)

وكان لما حدث في السويد تداعيات بالنسبة لاقتصادات السوق الاجتماعية في كل مكان . وعلى نقيض التفسيرات التقليدية الكثيرة ، فإن جوهر العمالة الكاملة السويدية لم يكن السياسات الفعالة التي اتبعتها الحكومات الاشتراكية الديمقراطية المتعاقبة في مجال العمل ، وإنما كان استعداد هذه الحكومات لاستخدام الدولة بوصفها الملاذ الأخير لتوفير الوظائف . (٢٥) وقد حالت أسواق الأوراق المالية دون حدوث ذلك . وما يعنيه هذا بالنسبة للحكومات الأخرى المنتزعة بالحفاظ على التماسك الاجتماعي عن طريق تفادي البطالة الواسعة النطاق ، هو أنها لا تستطيع ذلك بوساطة أي سياسة تحكم عليها أسواق الأوراق المالية بأنها ليست حكيمة من الناحية المالية .

لقد سحبت الأسواق المالية الأرض من تحت سياسات العمالة الكاملة التي اتبعت

(٢٤) وليم جريدر ، *One World, Ready or Not: The Manic of Global Capitalism* ، نيويورك :

سيمون آلا شوستر ، ١٩٩٦ ، الصفحة ٢٨١ .

(٢٥) إن وجهة النظر القائلة بأن استعداد الدولة لأن تكون الملاذ الأخير للتوظيف كان هو ، وليس سياستها الفعالة في مجال العمل ، الذي مكّن السويد الاشتراكية الديمقراطية من تفادي البطالة الواسعة النطاق ، تناقش بطريقة مقنعة في ، د. ب. فريمان ، ب. سوينبرج ، د. تويل ، *Welfare State* ، إستوكهولم : مركز دراسات الأعمال والسياسات ، ورقة عارضة رقم ٦٩ ، ١٩٩٥ .

بعد الحرب . ولا يوجد لدى أي حكومة غربية اليوم أى خُلف موقوف للسياسات التي أنتت المجتمعات الغربية ضد البطالة الواسعة النطاق في الفترة الكينزية . فأعداد المحرومين من إمكانية الحصول على عمل كانت تزايد في غالبية للمجتمعات الغربية طيلة عشرين عاما أو أكثر . وقد حدث ذلك على الرغم من النمو الاقتصادي القوي ، والذي يكاد أن يكون مستمرا ، في جميع البلدان المتقدمة . إن هدف العمالة الكاملة الذي يتبناه الاشتراكية الديمقراطية لا يمكن أن يحققه الآن سياسات اشتراكية ديمقراطية .

وتصور أن اقتصادات السوق الاجتماعية التي كانت موجودة في الماضي يمكن أن تمهد نفسها بصورة سوية في ظل قوى التنسيق في اتجاه نزولي ، إنما يعد الأشد خطورة بين الأوهام الكثيرة المرتبطة بالسوق العالمية . وبدلا من ذلك فإن أنظمة السوق العالمية ترغم بدرجة متزايدة على تفكيك نفسها ، حتى يكون باستطاعتها التنافس بشروط أكثر مساواة مع الاقتصادات التي تكون فيها التكاليف البيئية والاجتماعية وتكاليف العمل عند أدنى مستوى . والسؤال الذي تواجهه اقتصادات السوق الاجتماعية ليس ما إذا كانت تستطيع البقاء بمؤسساتها وسياساتها الراهنة - فهي لا تستطيع - بل هو ما إذا كانت التعديلات المحتملة ستم عن طريق موجة أخرى من الإصلاحات الليبرالية ، أو عن طريق سياسات تُخَرّ الأسواق لتلبية الاحتياجات البشرية ؟ .

السوق الحرة العالمية في مقابل الأسواق الاجتماعية الأوروبية

ألمانيا هي بوتقة الاختبار لمن يعتقدون أن الأسواق الاجتماعية لعصر ما بعد الحرب يمكن أن تستمر في ظل سوق حرة عالمية . والعلامات في هذا الصدد ليست مشجعة ، ذلك أن نفس الظروف التي جعلت ألمانيا فاتحة النجاح في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية إنما تعمل اليوم ضد النموذج الألماني . فهذا النموذج كان له في فترة ما بعد الحرب حجرا زاوية : دولة رعاية اجتماعية شاملة ، وشركات أعمال كانت مصالح مجموعة كبيرة من أصحاب المصالح غير المالية ممثلة في مجالس إدارتها . وكل من حجرى الزاوية هذين زعزعتهما البيئة التنافسية التي واجهتها ألمانيا بعد إعادة توحيد شطريها .

إن مؤيدى نموذج الراين للرأسمالية الألمانية لم يفهموا أن موطن القدم التنافسي الذي ازدهرت فيه السوق الاجتماعية الألمانية قد اختفى مع إعادة توحيد أوروبا ، وتصنيع آسيا ، والضغوط التنافسية على التحلل من الضوابط . وقد أدرك ميشيل ألبرت بوضوح أن

التنافس الاقتصادي الذي يسود العالم اليوم إنما هو تنافس رأسمالية ضد رأسمالية ،^(٢٦) ومع ذلك أخفق في فهم منطق هذا التنافس . فهو يعترف بأن تدويل الأسواق المالية ونمو التجارة العالمية لهما دورهما في الصعاب التي تواجه نموذج الراين ، ولكنه مازال يتوقع أن تتغلب «سلحفاة الراين» على «الأرنب الأمريكي» ؛ حتى على الرغم من إقراره بإمكانية أن تطرد الرأسماليات الرديئة الرأسماليات الجيدة .^(٢٧)

ويختلف اقتصاد السوق الاجتماعية الألمانية اختلافا أساسياً وجذرياً عن رأسمالية السوق الحرة الأمريكية . فهو يمنح حق التصويت لأصحاب المصالح غير المالية - المستخدمين ، والجماعات المحلية ، ورجال البنوك ، وفي بعض الأحيان الموردين والمستهلكين - في إدارة الشركات . كما يكفل للعمال في المنشآت الكبيرة (أكثر من ٨٠٠ مستخدم) التمثيل في المجالس الإشرافية جنباً إلى جنب مع ممثلي حملة الأسهم وغيرهم من أصحاب المصالح غير المالية . كما أن توزيع السلطة بين عدد كبير من أصحاب المصالح غير المالية في النظام الألماني يعد أساسياً في تفسير انخفاض مستويات الفروق الاقتصادية به مقارنة بالاقتصادات الأنجلو سكسونية .

والرأسمالية الألمانية تعطي قيم الأسهم وزناً أقل بكثير مما يعطيه أي اقتصاد للسوق الحرة . فأسواق الأسهم وعمليات الشراء غير الودية ليست ذات أهمية محورية فيها . وهناك أعداد كبيرة من المشروعات ، بما في ذلك منشآت كبيرة ومتوسطة الحجم ، مازالت ملكية عائلية . وبالمثل فإن سوق العمل في ألمانيا تختلف اختلافاً شديداً عن مثيلاتها في الولايات المتحدة وتلك التي تم تكييفها وفق النموذج الأمريكي (مثل بريطانيا) . كما توجد في ألمانيا مساومة جماعية على الأجور على نطاق الصناعة ، ودرجة أكبر من الأمن الوظيفي .

إن ثقافة تخفيض وحرق الأجور ، والاستخدام والطرده ، التي سمحت بتقليص حجم المشروعات في الولايات المتحدة في بداية التسعينيات ، لا يسمع عنها في ألمانيا ، أو هي ثقالة مرفوضة هناك . وإذا فقد العمال الألمان وظائفهم فإنهم يحصلون على حوالى ثلثي دخولهم في أثناء العمل في صورة إعانة بطالة (مقابل حوالى الثلث في بريطانيا ، بل وأقل من ذلك في الولايات المتحدة) . وفي الأسواق الاجتماعية الألمانية تفرض قيود شديدة على معاملة

(٢٦) ميشيل ألبرت ، *Capitalism against Capitalism* ، لندن : دار وور للنشر ، ١٩٩٣ .

(٢٧) المرجع نفسه ، الصفحة ١٩١ .

الأيدى العاملة كسلعة قابلة للتسويق . وينقل عن هنريخ لون بيرر ، رئيس سيمتر (وهي الشركة التي تصادر صناعة الإلكترونياات فى ألمانيا) أنه قال : «إن مبدأ حرية الاستخدام والطرء لا يوجد هنا ، ولا أريد أبدا أن يوجد»^(٢٨)

وهذه السمات المميزة للاقتصاد الألماني تنشأ عن توافق ثقافى وسىاسى طويل العهد حول الكيفية التى ينبغى أن يتم بها تشكيل الأسواق . وهى ترمى إلى حماية ورعاية التماسك الاجتماعى ، وكذلك إلى تعزيز الكفاءة الاقتصادية . وبعد هذا التوافق الاقتصادى أمرا جوهرىا للثقافة السىاسية الليبرالية التى يتها ألمانيا منذ الحرب العالمية الثانية . وبينما لا توجد احتمالات للتخلى عنه ، فإنه لا يستطيع أن يجدد نفسه دون إجراء إصلاحات عميقة الأثر .

إن الفلسفة الاقتصادية التى يجدها النموذج الألماني - فلسفة ليبرالية الأروء^(٢٩) - تنظر إلى حريات السوق على أنها منتجات اصطناعية قانونية واجتماعية ، وليست حقوقا أساسية للإنسان . كما أنها نفهم اقتصاد السوق ليس على أنه حالة من الحرية الطبيعية نتجت عن تحلل من الضوابط ، وإنما على أنه مؤسسة حاذقة ومعقدة تحتاج إلى إصلاح متكرر إذا ما أريد الحفاظ عليها فى حالة صالحة . وفى هذه الفلسفة الاقتصادية لا تكون اقتصادات السوق كىانات مستقلة عما حولها ؛ وإنما تكون امتدادا للمؤسسات الأساسية ، مثل المجتمع المحلى والولة الديمقراطية .

والمودج الألماني الذى نعرفه اليوم دشه لودفيج إيرهارت^(٣٠) كصورة مجمعة

(٢٨) وودت فى ديفيد جودهارت ، *The Reshaping of the German Social Market* ، لندن : معهد بحوث السياسات العامة ، الصفحة ٢٢ . انظر أيضا ، أوليقيه كادو وبيير بليم ، *Can Industrial Europe be Saved ?* ، لندن : مركز الإصلاح الأوروبى ، ١٩٩٦ ، وذلك من أجل الإلام بتقييم متأن لسجل أوروبا الصناعى وأفاقها الصناعية .

(٢٩) *Ordo - liberalism*

(٢٩) تناولت فلسفة ليبرالية الأروء بطريقة أكثر انظاما وشمولا فى كيبى ، *The Post - Communist Societies in Transition : a Social Market Perspective* ، لندن : مؤسسة السوق الاجتماعية ، ١٩٩٤ ، الذى أعيد نشره باعتباراه الفصل الخامس من كتابى *Enlightenment's Wake* ، لندن : روتلج ، ١٩٩٥ .

(٣٠) لودفيج إيرهارت : (١٨٩٧ - ١٩٧٧) ، السىاسى الألماني المعروف . كان وزير مالية ألمانيا الغربية فى الفترة ١٩٤٩ - ١٩٦٣ ، ومستشارها فى الفترة ١٩٦٣ - ١٩٦٦ . يعود إليه الفضل فى النهضة الاقتصادية التى حققتها ألمانيا الغربية فى فترة ما بعد الحرب - المترجم .

لليرالية الأردو . وهذه الفلسفة الاقتصادية - التي تسمى في بعض الأحيان مدرسة فيورج - لم تختف كلية أبدا في ألمانيا على الرغم من الهجرة القسرية لكثير من رموزها خلال الفترة النازية . وقد استهزل إيرهات التحرر الاقتصادي الألماني دون اعتبار للسياسات الاقتصادية ذات التوجه التخطيطي لقوات الاحتلال المتحالفة ولايديولوجية الاقتصاد الحر . والأرجح أن التحرر الاقتصادي في ألمانيا في فترة ما بعد الحرب لم يكن يدين بالكثير لتأثير القوات المتحالفة (٣٠) .

إن اقتصاد السوق من النوع الذي تصوره فلسفة ليرالية الأردو راسخ بعمق في ثقافة ألمانيا في فترة ما بعد الحرب ؛ فلماذا ينبغي الاستعاضة عن مؤسسة اجتماعية متحضرة وناجحة ، بعدم أمن مستوطن ، وانقسامات اجتماعية ، ومواقع متكاثرة للسوق الحرة الأمريكية؟ وكما قال ديفيد جودهارت: «إن نموذج الولايات المتحدة أنتج بلدا ديناميا ينبض بالنشاط مفتوح الأبواب أمام كثيرين من أفقر أهل الأرض . ولكن إذا توافر اختيار حر مبنى على معلومات ، فأين سيتبنى معظم الناس أن يكونوا قد ولدوا إذا كانوا لا يعلمون إلى أية طبقة أو مجموعة عرقية سوف يتسمن - ديترويت أو كولون؟» (٣١) .

ومع ذلك فإن النموذج الألماني لا يمكن أن يتحدد في أي شكل شبيه بشكله في فترة ما بعد الحرب . ويرجع ذلك جزئيا إلى الأخطاء السياسية الخطيرة التي ارتكبت على الطريق إلى إعادة توحيد ألمانيا . فمستوى التعادل الذي أدمجت عنده عملتا ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية كان غلطة أساسية . ذلك أن حكومة ألمانيا الغربية وطبقة رجال الأعمال فيها لم تكونا مؤهلتين لإدراك مقدار ما كان هناك في الحقيقة من شبه بين اقتصاد ألمانيا الشرقية واقتصادات بلدان أوروبا الشرقية الأخرى - التي كان يوجد في غالبيتها قدر كبير من التبدد والتلوث والفوضى التكنولوجية . ولو كان قد أجرى تقسيم أكثر واقعية لحزام الصدا (٣٢) الألماني الشرقي لكانت سياسة ألمانيا الغربية قد نجحت هذه الأخطاء .

(٣٠) قيل إن اثنين من مستشاري الحلفاء الاقتصاديين ، هما كارل بوده ، أ . ف . شوماخر (الذي ألف في وقت لاحق كتاب *Small is Beautiful*) ، قد أشارا على إيرهات ببدء التحرير الاقتصادي لألمانيا ، انظر ، نيل أشرسون "When Soros Debunks Capitalism" ، في جريدة *Independent on Sun-day* ، عدد ٢ من فبراير عام ١٩٩٧ ، الصفحة ٢٢ .

(٣١) ديفيد جودهارت ، المرجع السابق ، الصفحة ٨٠ .

(٣٢) *Rustbelt* : تمييز يطلق على الولايات الشمالية الشرقية وولايات الوسط الغربي من الولايات المتحدة التي تدهورت فيها الصناعات الثقيلة - المترجم .

إن جانباً من تكاليف التوحيد لم يكن ممكناً نفاذيه . فالمانيا الغربية لم يكن باستطاعتها تلافى الاضطلاع بالتزامات الأمن الاجتماعى لألمانيا الشرقية - إذ إن ذلك كان أحد متطلبات الدستور الألماني . ولكن ذلك سكب الوقود على الأزمة المالية الألمانية المشتعلة فى بطنه والناشئة عن نظام المعاشات الألماني الذى لا يعتمد على تمويل كامل .

وعندما يوضع كل ذلك موضع التأمل ، فإن حقيقة واحدة تظل واضحة ، وهى أنه لم يكن باستطاعة أى بلد آخر ، ربما باستثناء اليابان ، تحمل وإدارة امتيعاب اقتصاد مفلس ، ذلك الاستيعاب الذى استوجبه عملية التوحيد . ومن المؤكد أنه لم يكن بين الدول الأنجلو سكسونية دولة باستطاعتها حتى البدء فى عملية من هذا القبيل .

وترجع بعض مشكلات الاقتصاد الألماني إلى الجهود التى بذلت للامثال للشروط المالية الانكماشية للغاية التى فرضتها معاهدة ماستريخت . كما أن اهتمام المستشار كول الطامح بالشروع فى إيجاد عملة أوروبية واحدة أدى إلى سياسات أسفرت عن خفق الطلب فى الاقتصاد . ولو أن مشروع العملة الواحدة قد انهار لكان لنا أن نتوقع التخلى عن تلك السياسات .

وترجع الأسباب الأعمق للصعاب التى تواجهها السوق الاجتماعية الألمانية اليوم إلى العالم الذى ينبغى أن تعيش فيه أوروبا موحدة . فالتوحيد الأوروبى قد سمح لمئات الملايين من العمال بدخول الأسواق العالمية . وذلك لأن مستوياتهم التعليمية العالية وأجورهم المنخفضة تجعلهم جذابين للشركات المتعددة الجنسية والمستثمرين الدوليين . ومن المحتوم أن تودى هذه البيئة التنافسية الجديدة إلى إضعاف الانفاقات المتشابهة حول الأجور والأحوال والأمن الوظيفى التى كانت تدعم النموذج الألماني .

وبرغم أنه ليست هناك شركة ألمانية أخذت بالممارسة الأمريكية وأعادت توطين مصالحها بالجملة فى الدول الشرقية فى فترة ما بعد الشيوعية ، فإن الشركات الألمانية تنقل إنتاجها باطراد عند الحفاة إلى جمهورية التشيك وبولندا وأماكن أخرى فى أوروبا الشرقية . ولما كانت نسبة العمال الذين استخدمتهم الشركات الألمانية فى الخارج قريبة من نسبة العمال الذين استخدمتهم الشركات الأمريكية والبريطانية والهولندية ، فإن هذه المنشآت ستجد من الأصعب استمرار علاقات أصحاب المصالح غير المالية التى شكلتها فى الماضى .

وعند نقطة ما ستصبح العلاقات الاجتماعية فيما بين أصحاب المصالح غير المالية أكثر هامشية في حياة المنشآت الألمانية . ذلك أن ما للفوارق في الأجور من قوة جاذبة نحو المركز من شأنه أن يفك عَقْد الثقة والعرف التي كانت تعمل على تضافر المنشآت بوصفها مؤسسات اجتماعية في السوق الاجتماعية الألمانية في فترة ما بعد الحرب . وعندما تصبح علاقات أصحاب المصالح غير المالية أقل شأنًا ، يرجح أن تزداد الفوارق الاقتصادية اتساعا . وستعرض للخطر سمة مميزة جوهرية للسوق الاجتماعية لما بعد الحرب - وهي تضييقها للفوارق في الدخل والثروة .

إن توسع المنشآت الألمانية في الخارج لا يمكن أن يتفادى تغير دورها في المجتمع الألماني . فشركة سيمتز كانت تتوقع في عام ١٩٩٧ الاستغناء عن ٦٠٠٠ وظيفة في ألمانيا ، على حين كانت تتوسع في الصناعة عبر البحار . وبحلول عام ١٩٩٩ سيكون لديها مستخدمون في الخارج أكثر مما لديها في ألمانيا . وهذا التوسع الدولي يزيد حاجة سيمتز إلى رأس المال الأجنبي . ومنذ فترة اعترف رئيس الشركة ، هنريخ فون بييرر ، بوصفه معارضا لسياسة «الاستخدام والطرده» الأنجلوسكسونية ، «بأننا نخوض منافسة عالية من أجل القروض ورأسمال الأسهم»^(٣٣) . وهناك شركات ألمانية أخرى عديدة ، مثل هوكست لإنتاج الأدوية ومجموعة ثايسن لإنتاج الصلب ، اتخذت إجراءات لكي تحقق على وجه السرعة زيادة في الأرباح وأسعار الأسهم .

كما أن المنافسة العالمية على رأسمال الأسهم هي بمثابة رافعة لزيادة الوزن الذي يعطى لقيم الأسهم في سياسات الشركات ، ولكنها تضعف التزام الشركة إزاء أصحاب المصالح غير المالية الآخرين .

وتبدأ السوق الاجتماعية في التفكك عندما تصبح علاقات دوائر الأعمال ، التي كانت طويلة الأمد وقائمة على الثقة ، علاقات قصيرة الأمد أساسها المعاملات والعقود . وثمة علامات كثيرة على أن هذا التفكك يمضي قدما في ألمانيا اليوم . فالشركات الكبيرة أكثر قابلية للتركيز على التخفيضات القصيرة الأجل في التكلفة منها للتركيز على الحفاظ على علاقة مستقرة طويلة الأجل في تعاملها مع مورديها . وتضع شركات كثيرة استراتيجيات لجعل تكاليف العمل أكثر مرونة في اتجاه الانخفاض . وقد كان تعيين

(٣٢) مقابلة نشرت في جريدة في أوروبا ، عدد ١٦ من يناير عام ١٩٩٧ ، الصفحة ٢٨ .

مستول تنفيذى معروف بتخفيض التكاليف من شركة جنرال موتورز لإدارة قسم التوريدات فى شركة فولكس فاجن فى عام ١٩٩٣ لحظة رمزية فى التحويل البطيء للسوق الاجتماعية فى ألمانيا . وعمله دلالة ماثلة أن اثنين من عمليات الشراء الأربع غير الودية التى وقعت فى ألمانيا فى فترة ما بعد الحرب قد تمنا فى السنوات الست الأخيرة .

ولا يعنى شىء من ذلك أن السوق الاجتماعية الألمانية تتمثل النموذج الأمريكى . فالنظام المعقد للحيازات المتبادلة فى ألمانيا ، بدعم من مؤسسات القرار المشترك ، سيحول دون ذلك . كما أن هذه القيود على سياسة الشركات ستكون قوة موازنة للقوة المتزايدة لمصالح حملة الأسهم . ولن تستطيع أسواق رأس المال أن تكسب فى الاقتصاد الألماني مالها من قوة فى الرأسمالية الأمريكية (والبريطانية) . ذلك أن الشركات الألمانية لن تصبح مؤسسات جوفاء تنحصر وظائفها الرئيسية فى تحصيل الكمبيالات وتوزيع الأرباح . ولكنها بالفعل تمضى فى طريق من المحتمل أن يقضى إلى تغيير أوضاع السوق الاجتماعية التى كانت معروفة لجلب كامل فى ألمانيا ما بعد الحرب .

وعلى الرغم من ذلك فإن السوق الاجتماعية الألمانية ليست على شفا الانهيار : فهى واسعة الحيلة ، ولديها لهذا الغرض تراث سياسى ضخم للغاية . وتوجد إجراءات كثيرة باستطاعتها أن تتخذها للتكيف مع ما تواجهه من الظروف التنافسية الجديدة . والشركات الألمانية ملائمة للغاية لاستراتيجية «التخصص المرن» التى يستعاض فيها عن الأساليب التقليدية للإنتاج الكبير بالاستخدام المتغير لقوة عمل ذات مهارة واسعة لإنتاج مدى من السلع أكثر تنوعا وأكثر تحقيقا لرغبات المستهلكين .^(٣٣) إن الموقف الوسطى للشركات الصغيرة والمتوسطة فى ألمانيا ، التى هى فى أغلب الأحوال مملوكة لأسرة واحدة ويزيد عمرها فى بعض الأحيان على مائة عام ، موقف يتميز بالقوة والقدرة على الابتكار . كما أن مرافق البحث والتطوير فى ألمانيا مازالت مرافق نموذجية .

ومن الخطأ الاعتقاد بأن الطريق الوحيد الذى تستطيع الرأسمالية الألمانية أن تطرقه لتحقيق قدر أكبر من المرونة هو محاكاة الممارسة الأمريكية - التى تمضى فيها المرونة جنبا إلى جنب مع انعدام الأمن الوظيفى . والاتفاق التاريخى الذى وقّع فى أوائل عام ١٩٩٧ بين

(٣٣) من أجل الإلام «بالتخصص المرن» فى ألمانيا ، انظر ، ديفيد جودهارت ، للرجع السابق ، الصفحات ٥٩ إلى ٦٢ .

نقابة عمال الصناعات الهندسية IG Metall ، وهي من أكبر نقابات العمال في ألمانيا ، وإدارة شركة أوسرام ، يوضح كيف يستطيع النموذج الألماني الاستجابة للمنافسة العالمية المكثفة . فقد كانت شركة أوسرام بصدد دراسة خطة لنقل خط جديد للإنتاج من ألمانيا إلى موقع في إيطاليا حيث تكاليف العمل أقل بمقدار ٤٠ في المائة . واستنادا إلى مسح أجرته مؤسسة DINT ، وهي المنظمة التي تجمع معا غرقتي الصناعة والتجارة الألمانيين ، فإن ٢٨ في المائة من رجال الصناعة في ألمانيا الغربية كانوا يخططون لإجراء عمليات نقل مماثلة في غضون الأعوام الثلاثة التالية ، وأن حوالي ثلثيهم أعلنوا أن السبب الرئيسي لهذه العمليات هو تكاليف الأيدي العاملة . وكان واقع المنافسة العالمية المتزايدة واضحا أمام أصحاب شركة أوسرام . كما أن ثلاثة أرباع مستخدمي هذه الشركة يعملون خارج ألمانيا ، و٩٠ في المائة من مبيعاتها لعملاء أجنب . وتنظر الشركة باستمرار في توطين إنتاجها . وفي هذه الظروف كانت نقابة العمال على استعداد لتوقيع اتفاق لزيادة المرونة فيما يتعلق بنوبات العمل ترتب عليه إطالة أسبوع العمل . ومن المرجح كثيرا أن هذه النقابة وغيرها من نقابات العمال ستوافق في المستقبل القريب وفي الأجل المتوسط على صفقات أبعد أثرا . (٣٤)

وتوضح تلك الصفقات أن السوق الاجتماعية الألمانية تتكيف مع المنافسة في السوق العالمية دون أن تتخلى عن الممارسات التي تميزها عن السوق الحرة الأمريكية . ولكن آيا من إجراءات التكيف التي تستطيع السوق الاجتماعية الألمانية اتخاذها لاستغلال ميزاتها التنافسية لن يحول دون الانقلاب الذي يمضي بالفعل . ذلك أن منطق تكاليف العمل الأقل في أوروبا ما بعد الشيوعية ، إلى جانب قابلية الإنتاج الألماني للتنقل ، يعينان أنه آيا كان ما ينشأ عن المرونة الحالية فإنه سيكون مختلفا عن النموذج الألماني لما بعد الحرب قدر اختلافه عن السوق الحرة .

وليس هناك احتمال لأن يصبح النموذج الألماني القاعدة التي تسير عليها اقتصادات الاتحاد الأوروبي . ففي اتحاد أوروبي موسع في فترة ما بعد الحرب الباردة ، يضم دول ما بعد الشيوعية ، وكذلك بريطانيا ما بعد فترة حكم تاتشر ، ستكون الثقافات والظروف الاقتصادية للدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي شديدة التباين . ذلك أن المشروع

(٣٤) فيما يتعلق بنقابة العمال في شركة أوسرام IG Metall ، انظر بيتر مارش ، "A shift to flexibility" ، في جريدة فاينانشيال تيمس ، عدد ٢٦ من فبراير عام ١٩٩٧ ، الصفحة ١٤ .

الاشتراكي الديمقراطي لامتداد رأسمالية الراين عبر بلدان الاتحاد الأوروبي لا يعدو أن يكون مفارقة تاريخية .

والاتحاد الأوروبي لا يستطيع أن يعزل نفسه عن ضغوط التنافس على التحلل من الضوابط . «فالكينزية القارية»^(٣٥) كان يمكن أن ترمي إلى إعادة ابتكار نظام اشتراكي ديمقراطي كف أن يكون قابلا للتطبيق في أي دولة قومية على مستوى أوروبي عابر للوطنية . ومع ذلك فإنه لم يكن باستطاعة حتى اتحاد أشد تكاملا ومجهز بسياسة موحدة للعملة والمالية أن يفلت من عواقب المنافسة مع قوى عاملة منخفضة الأجر وذات مستوى تعليمي عال ، وهي المنافسة التي فرضها عليه كل من إعادة توحيد أوروبا والتصنيع الآسيوي .

إن السياسات النقدية والمالية للاتحاد الأوروبي التي رؤى أنها متساهلة سنستدعي رقابة من الأسواق العالمية . فالأسواق المتحررة من الضوابط للعملة العالمية ، المصابة بحساسية مزمنة تجاه سياسات خلق فرص العمل من خلال الاقتراض العام ، ستؤدي إلى إضعاف العملة الأوروبية ، وستكون سببا للوقوع في أزمة . وإذا ما انتهج الاتحاد الأوروبي سياسات لمواجهة التقلبات الدورية يرى أنها سياسات توسعية أكثر مما يجب ، فإن الأسواق العالمية ستلغظ الأوراق المالية للاتحاد الأوروبي . وستكون النتيجة أعلى مستوى لأسعار الفائدة ومزيدا من البطالة .

وليس بوسع حتى اقتصاد في ضخامة وتنوع اقتصاد الاتحاد الأوروبي أن يأمل في التملص من قيود منافسة الأسواق العالمية التي تفرضها رءوس الأموال والشركات التي لا تيد على حركتها . إذ لن يكون باستطاعة اتحاد أوروبي متكامل اقتصاديا أن يبدى مقاومة للأسواق العالمية أكثر مما تستطيع الولايات المتحدة . فالكينزية القارية لم تعد مجدية .

لقد أزيلت الاشتراكية الديمقراطية على نطاق أوروبا من جدول أعمال التاريخ . ولكن ذلك لا يعني أن الرأسمالية الألمانية قد عفا عليها الزمن . على التقيض ، فسواء نجح مشروع العملة الأوروبية الواحدة أو لم ينجح ، فإن ألمانيا ستصبح مرة أخرى ، مثلما كانت منذ مائة عام ، إحدى القوى الاقتصادية الكبرى في العالم ، باتجاهها نحو الشرق لتوسيع نفوذها الاقتصادي .

(٣٥) هيرست وثورسون ، مجلة Soundings ، المرجع السابق .

وفى القرن القادم ستكون لدى الرأسمالية الألمانية جوانب قوة ، ولكن هذه الجوانب لن تمارس بالكامل إلا بعد فترة إصلاح عميق وله وقع الصدمة .

إن أزمة اقتصادات الأسواق الاجتماعية فى أوروبا أزمة عميقة . وإذا هى حاولت دعم الهياكل الاجتماعية التى ورثتها ، فإنها ستظل تعاني كثيرا أسوأ الاضطرابات التى عرفتتها الرأسمالية العالمية . ذلك أن شرور الرأسمالية المضطربة لا يمكن الإفلات منها بسياسات جل غايتها تجديد اقتصادات الأسواق الاجتماعية لعصر ما بعد الحرب .

الولايات المتحدة ويوتوبيا الرأسمالية العالية

إن الولايات المتحدة ليست مهيأة على الإطلاق للدور العالمى الذى عهدت إلى نفسها القيام به . والتفاوت النظرى فى اليقين الشسمى الأمريكى ، المتخلف على كل المستويات الرسمية للمجتمع الأمريكى ، هو تفاوت طوره الأمة ، وكان باستطاعتها الحفاظ عليه منذ عام ١٨٦٥ بسبب الرخاء العام والعزلة الوطنية. ولدى هذه الظروف أصبحت الولايات المتحدة مجتمعا يقوم اليوم، بفضل قدرة سحرية متفائلة جبارة ، بتحويل الشاؤم المتأصل فى اليهودية ، وتعاليم الزهد والتواضع وإنكار الذات فى المسيحية ، إلى الرضا العاطفى والمتلذذ للبورجوازية ... ومثل هذه الظواهر ... ترتبط ارتباطا وثيقا بالسياسات الدولية الأمريكية التى تفترض إمكانية - والحقيقة شبه إمكانية - إحداث إصلاح جوهرى فى المؤسسات وفى سلوك البشر بوجه عام . وهى براهن على عزلة الحضارة الأمريكية المستمرة والمنيمة (حتى الآن) عن التجارب الكبرى لتاريخ الدول الغربية وعن السياسات الحديثة . كما تشهد على العزلة الوطنية الأمريكية عن إدراك مأساة البشر وتماستهم ، أو العناد ومنافاة العقل ، أو بشكل أعمق القمع الأمريكى لهذا الإدراك .

إدموند ستيلمان ووليم فاف^(١)

إن الدعوة إلى شعار «دعه يعمل» على النطاق العالمى هى مشروع أمريكى ، ولكن الولايات المتحدة لم تكن تقيد قيام سوق حرة على نطاق عالمى . فبالنسبة لجناح كبير من تاريخها تكون لديها شعور بأن لها رسالة عالمية فريدة عن طريق عزل نفسها عن بقية العالم . وقد تبع الأمريكيون لفترة طويلة توماس جيفرسون^(٥) فى نظرتهم إلى أنفسهم

(١) إدموند ستيلمان ووليم فاف ، *The Politics of Hysteria : The Sources of Twentieth Century* ،

Conflict ، لندن : فيكتور جولانز ، ١٩٦٤ ، الصفحتان ٢٢٢ و ٢٢٣ .

(٥) توماس جيفرسون : (١٧٤٣-١٨٢٦) ، الرئيس الثالث للولايات المتحدة (١٨٠١-١٨٠٩) - المترجم .

على أنهم « أفضل أمل للعالم » ، ولكن هذا الأمل لم يصبح مرادفاً لامتداد الأسواق الحرة إلى أرجاء المعمورة إلا في الآونة الأخيرة .

إن السوق الحرة العالمية هي المشروع التنويري لحضارة كونية تحت رعاية آخر الأنظمة التنويرية العظمى في العالم . وتقف الولايات المحلثة منفردة في هذه المرحلة المتأخرة من العالم الحديث في الدفاع بقوة عن التزامها بهذا المشروع التنويري . وفي الوقت نفسه فإن أمريكا ، بسبب قوة وعمق ما تحويه من حركات أصولية^(٥) ، تشوش على ما ينطوى عليه التنوير من آمال الحدائة .

وتعلمن كل الدول المعاصرة تقريبا الولاء لبعض المثل العليا للتنوير الأوروبي . وجميع هذه الدول إلا قليلا وقّعت على إعلان الأمم المتحدة لحقوق الإنسان . وكان هذا الإعلان إحدى ثمار الحرب العالمية الثانية التي وقف فيها الحلفاء متراصين في مواجهة دولة نازية كانت تستخف بالتنوير وبكل مظاهره ، على حين تضع التكنولوجيا الحديثة في خدمة الاستعباد العرقي ، ونوع فريد مفرغ من الإبادة الجماعية . وأدى تدير النظام النازي على أيدي الحلفاء إلى إعطاء إيمان التنوير بحضارة شاملة صاعدة فترة حياة جديدة . وربما كان أهم ما كشفت عنه التسويات العالمية فيما بعد الحرب هو رفض أجزاء كبيرة من العالم لمثال التنوير هذا .

ففي الصين وماليزيا وسنغافورة ، وفي مصر والجزائر وإيران ، وفي روسيا ما بعد الشيوعية وأجزاء من البلقان ، وفي تركيا والهند ، أدت نهاية الحرب الباردة إلى إطلاق حركات سياسية قوية ترفض كل أيديولوجيات التغريب . ولم يعد مضمونا مستقبلا أكثر النظم في هذا القرن توجها نحو التغريب ، وهو نظام أتاتورك في تركيا ، حيث تبرز في داخله حركات إسلامية تشكل تحديا للمؤسسات العلمانية ذات التوجه الغربي .

وتعترف الدول الأوروبية ، لاسيما فرنسا ، بالولاء لقيم التنوير ، ولكن ذلك مشروط بإحساس بالفروق الدائمة بين الثقافات ، وبالاعتراف بأن التفوق الأوروبي ، الذي كان التنوير يعدّه أمرا مفروغا منه ، قد مضى عهده ولن يعود . ذلك أن غالبية البلدان الأوروبية قد تشكلت جزئيا بفكر التنوير ، ولكنها الآن جميعا أصبحت ثقافات ما بعد التنوير .

(٥) Fundamentalem : (الأصولية) ، استخدم هذا المصطلح في الولايات المتحدة للتعبير عن حركة دينية متطرفة نشأت بين الطوائف البروتستانتية في أوائل القرن العشرين ، وكان هدفها الحفاظ على التفسير التقليدي للإنجيل ، وعلى ما يعتقد المؤمنون أنه المبادئ الأصلية للعقيدة المسيحية . المترجم .

وفى الولايات المتحدة وحدها مازال مشروع التنوير الداعى إلى قيام حضارة عالية عقيدة سياسية حية . وفى فترة الحرب الباردة كانت عقيدة التنوير هذه مجسدة فى مناهضة أمريكا للشيوعية . وهى فى عصر ما بعد الشيوعية تعزز المشروع الأمريكى لإقامة سوق حرة عالمية .

إن الأوهام الأربعين التى أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية قد استغرقها نزاع عالى بين أيديولوجيتين للتنوير- الليبرالية والماركسية السوفيتية . وتتبع كلتا العقيدتين من صميم « الحضارة الغربية » . كما أن كلاً من الماركسية الكلاسيكية والشيوعية السوفيتية كانتا من الأزهار المتأخرة للتراث الغربى العتيق . والحقيقة أن مؤسسيهما وأتباعهما عدّوا أنفسهم وريثة تقاليد كانت تشمل النظريات الاقتصادية الكلاسيكية لأدم سميث ودافيد ريكاردو وفلسفات هيجل وأرسطو . ولم يكن النزاع بين الشيوعية السوفيتية والديمقراطية الليبرالية صداماً بين الغرب والآخرين ، بل كان شجاراً عائلياً بين أيديولوجيتين غريبتين .

ولم يكن انهيار الاتحاد السوفيتى انتصاراً أحرزه « الغرب » على أحد أعدائه ، وإنما كان الدمار للنظام الأكثر طموحاً بين أنظمة هذا القرن ذات التوجه الغربى . ولم تكن نتيجته القبول العالمى للمؤسسات والقيم الغربية ، وإنما كانت بدلاً من ذلك عودة روسيا إلى كل الأشكال التاريخية التى ميزت علاقتها بأوروبا والعالم .

إن العالم الذى ينبثق من نهاية الحرب الباردة ، لا يمكن رؤيته بوضوح من خلال عدسات أية فلسفة تنويرية . وأى بلد تقوم سياساته على آمال تنويرية سيجد أن توقعاته تحبط المرة تلو الأخرى ، ولن يكون مهياً لعودة التاريخ فى عالم ما بعد التنوير .

والمشكلة المحورية التى تواجهها الولايات المتحدة اليوم هى أن مؤسساتها وسياساتها تقوم على أساس أيديولوجية عصرية مبكرة لم تعد تتفق مع الظروف الحالية . وهى مشكلة قد يتبين أنها بلا حل .

إن الأديان التى تستعيد نشاطها ، والعداوات العرقية القديمة ، والنزاعات الإقليمية ، والتكنولوجيات التى تستخدم لأغراض الحرب بدلاً من خلق الثروة ، هذه كلها لا تتفق تماماً مع توقعات التنوير بشأن انتشار العلمانية والدعوة إلى إقرار السلم عن طريق التجارة . وهى تنبئ بعودة إلى منابع الكلاسيكية للنزاع السياسى والعسكرى بين الدول وفى داخلها .

ووفقاً لأيديولوجيات التنوير ، الليبرالية والماركسية على حد سواء ، فإن النزاعات التى

من هذا القبيل ليست ملازمة للوجود البشرى؛ وإنما هي مراحل تطويرية في تقدم الإنسان .

والمحافظون الجدد الذين يؤكدون على أن الدول الرأسمالية الديمقراطية هي الشكل الشرعى الوحيد للحكومات ، وعلى أن مثل تلك الحكومات لن تخوض أبداً غمار الحرب بعضها ضد بعض ، ليسوا بدورهم أقل من أشد الماركسيين تبسطاً للأمور وقوعاً فى أسر الوهم الذى يوحى بأن المصادر التاريخية للتزاع يمكن تجاوزها . وهم بذلك يتبرعون من الممارسة التقليدية للدبلوماسية التى كانت تهدف إلى احتواء مصادر النزاعات المدمرة وتخفيفها دون تصوره أن باستطاعتهم اجتثاثها .

إن عودة ظهور النزاعات العرقية ، والمطالب الإقليمية ، والديانات باعتبارها قوى حاسمة فى الحرب والسياسة ، إنما تسخر من أي دبلوماسية تعتمد على أفكار التنوير المتعلقة بالإنسان الاقتصادى ، وإمكانية قيام حضارة عالمية . ومن الواضح أن الذين يؤمنون بأن الحدائى المنتشرة على نطاق العالم ستستبعد هذه القوى لم يألوا أنفسهم لماذا يلاحظ أن التحرير الاقتصادى والتشدد الدينى كثيرا جدا ما يكونان متلازمين .

وقد كانت السياسة الخارجية الأمريكية ، شأنها شأن سياسة الاتحاد السوفييتى السابق ، تعتمد على توقعات التنوير أكثر من اعتمادها على أى فهم للمصلحة الوطنية . كما أن الحرب الباردة كانت نزاعاً بين صورتين متعارضتين من نفس المشروع التنويرى . وفى المرحلة المتأخرة من العالم الحديث ، مرحلة ما بعد التنوير ، التى يتعين على الولايات المتحدة أن تمشى فيها ، لن يكون للسياسة الخارجية التى تستمد سندها من هذه الأفكار تأثير يذكر على الأحداث .

وكما لاحظ هنرى كيسنجر فى إيجاز يفى بالعرض ، فإن « التعريف الواضح للمصلحة الوطنية لا بد أن يكون بالمثل مرشداً إلى السياسة الأمريكية » .^(٢) وبقدر ما تظل السياسات الخارجية للولايات المتحدة مهتدية بالأمال فى سرعة زوال المصادر التاريخية للتزاع ، فإنها ستكون بلا دفة توجه حركتها فى العالم الذى سيأتى فى أعقاب التنوير .

إن أمريكا اليوم لا تطرق طريقاً ستبعه كل المجتمعات الأخرى ؛ وإنما هى تتأى بنفسها عن كل الثقافات « الغربية » الأخرى فى نظرف تجربتها فى الهندسة الاجتماعية للسوق الحرة ، وفى كثافة الحركات الأصولية التى تبعتها تلك التجربة .

(٢) هنرى كيسنجر ، Diplomacy ، نيويورك : سيمون أند شوستر ، ١٩٩٤ ، الصفحة ٨١١ .

وكما هي الحال في البلدان الأخرى، فإن الحركات الأصولية تعد استجابة من المجتمع الأمريكي لما يقع فيه من قصور نتيجة لنظام اقتصادي يتسم بحدائه راديكالية.

سطوة التيار المحافظ الجديد هي أمريكا

لم يكن هناك منذ الثمانينيات أي تحدٍ جدّي في الولايات المتحدة للفلسفة الاقتصادية للسوق الحرة. وكانت تلك هي الفترة التي حققت فيها النزعة الأرثوذكسية للسوق الحرة سطوتها على الثقافة العامة الأمريكية. وتحصنت تلك النزعة بأحداث عام ١٩٨٩، عندما سقط سور برلين ودخل النظام السوفيتي مرحلة انهياره الأخيرة.

وجاء الانهيار السوفيتي ليمنح فترة حياة جديدة للاعتقاد الأمريكي المترنح بأن الولايات المتحدة تجسد العصر الحديث مثلما لا يجسده أي بلد آخر. ومُحقت بضمرة واحدة الأحاديث عن «التراجع» - أي الأفكار التي ترى أن القوة والرّخاء الأمريكيين آخذان في التضاؤل. وبدأ أن العالم يتقارب على أساس القيم والمؤسسات الأمريكية. ومنذ ذلك الحين غدت الحدائث والسوق الحرة والامتدادات العالمية للمؤسسات الأمريكية أمورا مترادفة من الناحية الفعلية في العقل العام الأمريكي.

ومشروع اليوم الذي يقوم على وجود سوق عالمية واحدة هو الرسالة العالمية لأمريكا التي انتقتها سطوتها المحافظة الجديدة. وقد لمجحت يوتوية السوق في الاستحواذ على إيمان الأمريكيين الراسخ بأنهم يتمون إلى بلد فريد، هو النموذج لحضارة عالمية، الذي بات من أقدار جميع المجتمعات أن تحاكيه.

وفي وقت سابق من هذا القرن، وجد التراث الإيماني الأمريكي تعبيراً نبيلاً وكرامياً عنه في ليبرالية روزفلت التي ساعدت على هزيمة النازية في أوروبا. والآن حلّت السوق الحرة محل ذلك التراث الليبرالي الأمريكي، بل وقطعت شوطاً بعيداً على طريق ترسيخ نفسها باعتبارها الدين المدني الأمريكي غير الرسمي.

إن سطوة السوق الحرة في الخطاب الأمريكي الحديث هي ظاهرة تسترعي الانتباه، إذ إنها أفقدت الليبرالية شرعيتها في الثقافة العامة الأمريكية، حتى أصبح النظر إلى المرء على أنه ليبرالي أمراً يحسب عليه. والرأي الليبرالي في الولايات المتحدة اليوم هو صوت أقلية محاصرة. وغدا الليبراليون الأمريكيون مهمشين نتيجة لإستراتيجية محافظة جعلت الليبرالية تمثل نزعة أرثوذكسية مطوّقة.

ومع ذلك فالليبرالية ليست سائدة في الولايات المتحدة ، فقط من منظور أنه لم يعد هناك وجود لفلسفة محافظة حقاً . والاعتذارات البليغة عن عدم الكمال في كتابات ستيانا ولييمان ، وكتابات مينكين ولوجلين^(*) ، لم تعد أكثر من ذكريات تاريخية في الوقت الذي يصبح فيه المحافظون مبشرين صاخيين بالرأسمالية العالمية . واليوم باتت النزعة المحافظة الأمريكية نوعاً شاذاً ومتعصباً من أيديولوجية التنوير - أي ليبرالية القرن التاسع عشر .

والإستراتيجية التي وضعها اليمين لتحقيق الهيمنة على الفكر الأمريكي خلال الثمانينات لم تكن إستراتيجية معقدة . وقد كان هدفها المطابقة بين المؤسسات الأمريكية والسوق الحرة . ولكن تاريخ الولايات المتحدة من الصعب أن يكفل ترادفاً جسوراً كهذا . فعلى غرار إنجلترا ، أخذت الولايات المتحدة بنموذج مبكر من سياسة «دعه يعمل» في حياتها الاقتصادية المحلية في أثناء القرن التاسع عشر . ولكن السوق الحرة الأمريكية على خلاف نموذجها البريطاني ، أحيطت بحماية جمركية ، ودُعِمت - حتى نهاية الحرب الأهلية - بالرق .

ولم تكن الحكومة الأمريكية تنفيذ في أي وقت بقاعدة عدم التدخل في الحياة الاقتصادية . لقد أرسيت أسس الرخاء الأمريكي خلف أسوار الحماية الجمركية العالية . وكان للحكومة الفيدرالية وحكومات الولايات دور فعال في بناء خطوط السكك الحديدية والطرق السريعة . وتم فتح الغرب بترسانة من أشكال الدعم الحكومي . وخارج المجال الاقتصادي ، كانت الحكومة الأمريكية أكثر من أي بلد غربي آخر انتهاكاً للحرية الشخصية توخياً للفضيلة . مثال ذلك أنه

(*) هؤلاء جميعاً مفكرون ليبراليون .

- جورج ستيانا : (١٨٦٣ - ١٩٥٢) ، فيلسوف وكاتب وشاعر أمريكي . ولد في مدريد ، وتعلم في جامعة هارفارد ، ثم عاد إلى أوروبا . حارب الشعائر واعتم بروح الدين . وهو طبيعي في فلسفته ، يرى كل شيء جزءاً من الطبيعة ، ولا شيء خارجها ، من أهم أعماله كتاب «حياة العقل» .

- والتر ليمان : (١٨٨٩ - . .) كاتب مقالات ومحور أمريكي . تطور تفكيره من الاشتراكية إلى المحافظة . للحرر الرئيسي في جريدة نيويورك هيرالد تريبيون .

- هنري لويس مينكين : (١٨٨٠ - ١٩٥٦) ، مؤلف وصحفي وناقد . شارك في تحرير عدد من الصحف والمجلات الأمريكية . كان أحد اثنين قاما بتأسيس مجلة أميركا ميركوري في عام ١٩٢٤ - المترجم

ليست هناك دولة غربية أخرى حاولت حظر صنع الخمر ونقلها وبيعها^(*) . ولذلك فإن تصوير الولايات المتحدة على أنها بلد يتميز بتاريخ حكومة الحد الأدنى، إنما هو أمر يتطلب قدراً كبيراً من المناورة والخيال .

ومع ذلك فإن الرأسمالية غير المقيدة التي عرفتها الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الأولى كانت تحاول التمدد على شرعيتها ببعث الروح في الفلسفة الاقتصادية الذي أساسها مبدأ «دعه يعمل» وتدخّل حكومي في أضيق الحدود . وكانت الأفكار التي من هذا القبيل تستخدم عادة لمهاجمة المصلحين التقدميين من جيل لاحق والذين يدعون إلى تصفية الترسّات^(**) ، وللدفاع عن الاحتكارات الكثيرة التي وطدت أقدامها في القرن التاسع عشر باعتبارها النتيجة الطبيعية للرأسمالية غير المقيدة . ووجود عصر ذهبي أمريكي لمبدأ «دعه يعمل» لا يعدو أن يكون خرافة تاريخية ، ولكن استخدامه باعتباره من وسائل مساندة السوق الحرة الأمريكية اليوم له سوابق تاريخية كثيرة .

ومما يدخل في الأساطير الأمريكية أن الدستور يجسد مبادئ لا يحدها زمان وذات حجبية على نطاق العالم . وفي هذه الميثولوجيا (علم الأساطير) لا تعد الولايات المتحدة نظاماً خاصاً نشأ في ظروف محددة ، وسينقضى في وقت ما ، بل هي تجسيد لحقائق عامة يضمن التاريخ مستقبلها .

وفي فكر الجناح اليميني الذي فرض سطرته في الولايات المتحدة على امتداد العقدين الماضيين⁽³⁾ اندمج في كيان واحد كل من المبادئ العامة للمؤسسين ، والزرع بأن أمريكا هي الحدّثة التي ينبغي أن تحتذى ، ومؤسسات السوق الحرة ، ونتيجة لذلك كان انتشار السوق الحرة يجري تصويره على أنه الحدّ القاطع للحدّثة ، وجزء لا يتجزأ من اتساع نطاق القيم الأمريكية .

(*) Prohibition : يمكن للدولة ، حتى في النظم الرأسمالية ، أن تحظر صنع أو نقل أو بيع بضائع تراها ضارة نفسياً أو بدنياً ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك صدور قانون بهنزا المعنى في الولايات المتحدة بالنسبة للخمر في الفترة ١٩٢٠ - ١٩٣٣ - المترجم .

() Trust busters** : الذين كانوا يسعون في الولايات المتحدة إلى تصفية الترسّات من خلال «قوانين مكافحة الاحتكار» التي أصدرتها الحكومة الفيدرالية بالولايات المتحدة للحيلولة دون تكوين الترسّات ، والتي كان أولها «قانون شيرمان لمكافحة الاحتكار» لعام ١٨٩٠ - المترجم .

(3) من أجل الاطلاع على دراسة موثوق بها للسلطة الأمريكية للمحافظة ، انظر ، جودفري هودجسون ،

The World Turned , Right Side up : A History of the Conservative Ascendancy In

America ، بوسطن ونيويورك : هوتون ميغلين ، ١٩٩٦ .

وإذا كانت سلطة المؤسسات الأمريكية عالمية ، وكانت السوق الحرة هي في القلب منها ، فإن انتشار السوق الحرة الأمريكية يجب أن يكون عالميا . فهذه الأسواق لا ينظر إليها على أنها مجرد أسلوب محلي واحد لتنظيم اقتصاد سوقى ، بما فيه من مزيج خاص من الميزات والعيوب ، بل تفهم على أنها ما تمليه الحرية البشرية في كل مكان .

وفي هذا الطرح الذى يقدمه الجناح الليبيرى للعقيدة الأمريكية ، تم بهلوه إدخال انقلاب سورىالى (فوق واقعى) فى التاريخ . فالعقيدة الجامدة القائلة بأن الأسواق الحرة هي أكثر الوسائل فعالية لخلق الثروة، لا تتلأهى من الناحية الفعلية مع الرأسماليات القائمة فى العالم فى أى نقطة . ذلك أنه فى الاقتصادات الحديثة النشأة الأكثر نجاحا فى العالم، لم يكن التحديث يعنى الأخذ بالطراز الأمريكى للأسواق الحرة ، وإنما كان يعنى تدخل الدولة المستمر على نطاق واسع .

وبالنسبة لغالبية البلدان المصنعة حديثا التى حققت أكبر قدر من النجاح - سنغافورة وماليزيا وتايوان واليابان ، والصين الآن - سيكون الأخذ بالأسواق الحرة تكرارا لمرحلة من التطور وصلت إليها الولايات المتحدة فى المراحل الأولى من التحديث . كما أن أخذ هذه البلدان الآسيوية بالأسواق الحرة سيكون ارتدادا عن عالم المرحلة المتأخرة من العصر الحديث . وواقع الأمر أنه ليس بينها بلد واحد حاول أن يحاكي السوق الحرة الأمريكية ، ولن يفعل أى منها .

إن أيديولوجية السوق الحرة التى تدعو إليها أمريكا فى الوقت الحالى ليست أداة للتحديث - إلا بطريقة ملتوية ومتناقضة فى الولايات المتحدة نفسها . فهى من بقايا عصر التنوير فى القرن السابع عشر ، كما أنها تنتمى إلى عالم جون لوك^(*) ، لا إلى عالمنا . وتأكيدا لحقوق الإنسان الشاملة التى ترجع جذورها إلى الدين المسيحى ، وتمسكها بأن أساليب الحياة الأمريكية إنما هي تصوير عملى للقانون الطبيعى ، ونظامها القائم على الحكومة المحدودة والملكية الخاصة - كل هذا الورع الأطلسى يخفى العالم التمددى الذى يتعين على الولايات المتحدة أن تعيش فيه .

كذلك لا تتفق هذه النظرة العالمية العتيقة مع التهجين الخلاق للأعراق فى الحياة الأمريكية . كما أن فكر السوق الحرة، شأنه شأن جانب كبير من الخطاب الأمريكى المعاصر، يجسد ميراثا ثقافيا يتعارض مع أشد القوى تأثيرا وأكثرها ابتكاراً فى عالم اليوم .

(*) جون لوك : (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ، مؤسس النزعة التجريبية البريطانية . وكان يرى أن الدولة تقوم على عقد اجتماعى يضمن للمواطنين الحقوق والحریات . وهو صاحب فكرة الضوابط والموازانات التى أخذ بها الدستور الأمريكى فيما بعد . وقد استدل إلى أفكاره جانب كبير من الأفكار التحررية فى القرن الثامن عشر - المترجم .

وسيكون من الخطأ قبول الفلسفة الاقتصادية الأمريكية للسوق الحرة على أساس قيمتها الظاهرية ، وتفسير تأثيرها بأنه إعادة عقارب الساعة إلى الوراء . ففي الممارسة نجد أن هندسة السوق الحرة في أمريكا في أواخر القرن العشرين تبعد كثيرا عن التوق إلى الماضي ، وإنما هي عمل دال على قوة المرحلة العالية للحدثة . ف تحرير الأسواق ليس مشروعا محافظا ، بل هو برنامج لثورة مضادة ثقافية . وفي الولايات المتحدة ، كما في غيرها ، ليست الأصولية عودة إلى التراث ، وإنما هي استفحال للحدثة .

وقد تطلبت إعادة تشكيل المجتمع الأمريكي ليتلاءم مع احتميات الأسواق الحرة استخدام سلطة الشركات والحكومة الفيدرالية لتحقيق مستويات من التفاوت الاقتصادي لم تعرف منذ عشرينيات هذا القرن ، وتتجاوز كثيرا تلك الموجودة في أى مجتمع صناعي متقدم آخر اليوم . وانطوى ذلك على تجربة في إبداع جموع غفيرة من المواطنين في السجون مصحوبة بانسحاب النخبة إلى جماعات مغلقة بالأسوار ، مما جعل الولايات المتحدة دولة أشد انقسامًا بكثير من الوضع القائم في دول أمريكية لاتينية ، مثل الأرجنتين وشيلي . واضطرت الولايات المتحدة إلى تطبيق سياسات للمساعدة الاجتماعية لحماية قيم الأسرة التي كانت قوى السوق قد دمرتها بالفعل . وترادف ذلك مع حرب صليبية ضد « النسبية » و« التعددية الثقافية » - وهما عدوآن أسىء تعريفهما بحيث أصبح ممكنا ، لأغراض عملية ، ربطهما بالحياة كما يعيشها معظم الأمريكيين اليوم .

وليس هذا برنامجا للديمومة الثقافية أو المؤسسة في الولايات المتحدة . وكما اعترف أشد المدافعين عنه صراحة ، فإنه بمثابة إستراتيجية طويلة الأمد لحرب أهلية ثقافية . وفي الممارسة كان معناه انقطاعا عن الرأسمالية الليبرالية التي أنتجت تفوق أمريكا الاقتصادي فيما بعد الحرب .

إن النتيجة المترتبة على ترنح أمريكا نحو اليمين هي حتى الآن موضع شك . ففي الولايات المتحدة ، كما في كل مكان آخر ، تؤدي الأسواق الحرة إلى حركات اجتماعية وسياسية مضادة قوية . وتعد المخاطرة الاقتصادية المزمته التي تفرضها على غالبية السكان تربة خصبة لنشاط السياسيين الشماليين^(*) . وفي ظل سياسات انعدام الأمن ، فإن الميزات

(*) أعضاء حزب سياسي قام في الولايات المتحدة في الفترة 1891 - 1904 ، تحت اسم « الحزب الشعبي » Populist Party ، أو « حزب الشعب » People's Party ، وكان هذا الحزب يدعو إلى حرية سك العملة الذهبية والفضية ؛ والملكية العامة للمرافق الأساسية ؛ وفرض ضريبة على الدخل ؛ وتأييد العمال ؛ ودعم الزراعة ، إلخ - المترجم .

لاتذهب بصورة عادية إلى الساسة الذين يعتقدون برنامجا للتحرر من الضوابط وتقليص الحكومة .

والمصير الذى انتهى إليه متهوس ديماجوجى يمينى ، مثل نيوت جنجرش^(٥) ، عندما سقط بسرعة من الصدارة السياسية إلى هامشية مزرية ، إنما يؤيد ما قاله سياسى من أنصار الرئيس السابق ريجان ، هو دافيد ستوكمان ، من أن « ثورة ريجان التى أجهضت قد أثبت أن الناخبين الأمريكين يريدون اشتراكية ديمقراطية معتدلة لحمايةهم من شطط الرأسمالية »^(٤) .

وقد تبين أنه لم تكن هناك مبالغة فيما زعمه النشطاء الريجانيون من أنهم حركوا ثورة فى الولايات المتحدة ؛ إذ لم يعد فى الوسع الربط بين اليمين الأمريكى وسياسات الديمومة المؤسسية والترابط الاجتماعى . فسياساتهم ليست سياسات متقلبين لا يثبتون على مبدأ أو دعاء إصلاح هنا أو هناك ، وإنما سياسات من يرغبون فى إصلاح جذرى وتتطلب أهدافهم هندسة اجتماعية واسعة النطاق ، وليس مجرد إيداء الاحترام للميراث التاريخى . وروطاتهم المنمقة ليست مصوغة نحو الأخذ بالتحوط أو الحذر من عدم الكمال ، وإنما هي تمجيد صاخب للتكنولوجيا ، ونسبة كل الشرور الاجتماعية إلى الحكومة ، والتأكيد الشديد على أن هذه الشرور هي مشكلات تستطيع قوى السوق إيجاد حلول لها .

وفى الثمانينيات تم فى الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض البلدان الأخرى إحياء فلسفة عفا عليها الزمن ، من أجل إضفاء قدر من العقلانية على التمزقات الكبيرة فى السياسة والمجتمع التى كانت أهداف اليمين تمليها فى ذلك الحين . ويعد ذلك مؤشرا على التحول فى الخطاب القائل بأن الأهداف والإستراتيجيات التى يملها لم تكن محافظة ، وإنما هي عقيدة ليبرالية قديمة .

(٥) Newt Gingrich سياسى أمريكى يمينى متهوس . كان زعيما للأغلبية الجمهورية فى مجلس الشيوخ . وكان يملق آمالا كبيرة على نتائج الانتخابات المحلية وانتخابات حكام الولايات التى أجريت فى صيف العام الماضى ، فلربما عززت كثيرا موقف الحزب الجمهورى ومكته من الفوز فى الانتخابات الرئاسية القادمة التى كان يزعم الترشيح فيها . ولكن هذه النتائج جاءت مخيبة جدا لآماله بعد الأداء السيئ للحزب الجمهورى فيها ، فأعلن استقالته من مناصبه السياسية واعتزال الحياة السياسية .
المترجم

(٤) دافيد ستوكمان ، and ، *The Triumph of Politics : The Crisis In American Government* ،

How It Affects the World ، نيويورك ، ١٩٨٦ ، الصفحة ٤٢٢ .

ورonald ريجان شخصيا لم يكن ليبراليا من أى نوع ، بل لعله لم يكن حتى يقصد الثورة المضادة الاقتصادية التى حدثت بالفعل . فالاقتصاد السياسى للريجانية لم يكن بوجه خاص فأتوجه نحو السوق الحرة ، وإنما كان نوعا من الكينزية الحمايتية يقوده جموح عسكرى . فقد تحملت الميزانية عجزا شديدا من أجل تمويل الاقتطاعات الضريبية والنفقات العسكرية . ولقى جانب كبير من الصناعات الأمريكية حماية متزايدة عن طريق الدعم والرسوم الجمركية . ولم تكن هناك صلة كبيرة ، إن وجدت صلة أصلا ، بين سياسات ريجان للمالية والتجارية وبين نظام الميزانية المتوازنة والتجارة الحرة الذى حاولت حكومات « اليمين الجديد » إدخاله فى بريطانيا ونيوزيلندا . وباستثناء السياسات الضريبية وسياسات التحرر من الضوابط ، فإن النتائج التى ترتبت على رئاسة ريجان ربما تكون أكثر دلالة مما فعله فى أثناء رئاسته .

وقد كان الأثر الرئيسى غير المباشر لرئاسة ريجان هو التفاوضى عن عدم المساواة فى المجال الاقتصادى فى الولايات المتحدة ، وإنتاج ثقافة لدوائر الأعمال يمكن فيها تجاهل التكاليف الاجتماعية للأشطة الاقتصادية دون عناء ضمير . وكما قال جودفرى هودجسون : « إن ثبات الدخول على حالها فى الولايات المتحدة ، وتفاقم عدم المساواة ، هما من الناحية الجوهرية التيجتان الأساسيتان لتصرفات وإدارة الشركات ، سواء بصورة مباشرة داخل الشركات الصناعية ، أو بصورة غير مباشرة كحصيلة للموجات الفكرية السائدة فى القطاع المالى . وأدى التحرر من الضوابط السياسية إلى إطلاق يد المديرين ، كما ساد مناخ سياسى شجعهم على تقليل الاهتمام بالاعتبارات غير الاقتصادية . وفرضت دوائر الأعمال مزيدا من عدم المساواة ، وكان للعقيدة السياسية دور فى إيجاد المسوّج لهذا الوضع » (٥) .

إن حرية المسئولين التنفيذيين فى الشركات فى ظل اقتصاد متحرر من الضوابط - مثل الحق فى الاستخدام والفصل ، والحق فى تصغير حجم المنشأة (٥) أو تأجيل السداد (٥٥) ، والحق فى بيع أو شراء الأسهم بشروط محددة (٥٥٥) ، وفى أن يكافئوا أنفسهم بمنح سخية - لم يكن ينظر إليها على أنها مزايا خاصة تمنح فى ظل نوع محدد من الرأسمالية ، بل على أنها ممارسة لحقوق الإنسان غير القابلة للتصرف . فقد أصبحت الرأسمالية الأمريكية

(٥) هودجسون ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٠٣ .

(٥) Downsizing : تصغير حجم منشأة ما ، عن طريق تخفيض عدد المستخدمين فيها مثلا ، من أجل جعلها أكثر ربحية - المترجم .

(٥٥) Delaying : إرجاء شركة ما سداد فواتيرها بعض الوقت - المترجم .

(٥٥٥) Share options : الحرية التى تمنح لسئول تنفيذى بالشركة لبيع أو شراء أسهم بسعر معين فى فترة ما من المستقبل - المترجم .

مرادفة لحرية اتخاذ الإجراءات ، كما أصبح هيكل السوق الحرة الأمريكية متطابقا مع هيكل حقوق الإنسان . فمن يتحاصر على إدانة مظاهر عدم المساواة والتحلل الاجتماعي الآخذة في الازدهار والتي تولد الأسواق الحرة، عندما لا تعنى هذه الأسواق ما هو أكثر من الحق في الحرية الفردية في المجال الاقتصادي ؟

والأسس الفلسفية لهذه الحقوق أسس واهية وتعوزها المتانة . وليست هناك نظرية يوثق بها في القول بأن هذه الحريات الخاصة للرأسمالية المتحررة من الضوابط لها مكانة الحقوق العامة . فالمفاهيم الأكثر قبولا للحقوق لا تستند إلى مثل القرن السابع عشر المتعلقة بالملكية ، بل تستند إلى الأفكار الحديثة المتعلقة بالاستقلال الذاتي . وحتى هذه ليست قابلة للتطبيق بصفة عامة ، وإنما هي تعكس فقط خبرة تلك الثقافات وأولئك الأفراد الذين يعدون ممارسة الاختيار الشخصي أكثر أهمية من الترابط الاجتماعي ، أو السيطرة على المخاطر الاقتصادية ، أو أى خير جماعى آخر .

والحقيقة أن الحقوق لم تكن أبدا هي المحتوى الأساسى للنظريات الأخلاقية أو السياسية - أو للممارسة العملية ؛ وإنما هي استنتاجات ، محصلات نهائية ، لسلاسل طويلة من الاستدلال المنطقي من افتراضات مقبولة بوجه عام ، فليست للحقوق سلطة أو مضمون في حالة عدم وجود حياة أخلاقية مشتركة . إنها اتفاقيات لا تعيش إلا إذا كانت تعبر عن توافق معنوى . وعندما يكون الاختلاف الأخلاقى عميقا وواسعا فإن الرجوع إلى الحقوق لن يستطيع إيجاد حل له . وهو في الواقع يمكن أن يجعل ذلك النزاع مستعصيا بدرجة تنطوي على الخطر .

إن النظر إلى الحقوق لتكون حكماً في النزاعات العميقة - بدلا من السعى إلى تخفيفها عن طريق المهادنات السياسية - إنما هو وصفة لنشوب حرب أهلية محدودة الكثافة . وقد تفاقم النزاع بين الأوروبيين بشأن مسألة الإجهاض بسبب سيادة ثقافة ذات طابع قانونى تدعو إلى وجود حقوق غير قابلة للتفاوض بحيث ينفجر النزاع في حرب من هذا القبيل . وهو نزاع لا يمكن الآن عرضه للتحكيم أو التوصل إلى حل له . ولا يمكن لثقافة الحقوق غير المشروطة إلا أن تعجل بسير الولايات المتحدة نحو أوضاع يتعذر التحكم فيها .

وتسم المطالبات بالحقوق في النظريات المعاصرة بالشطط والجموح ، ولكنها معدة جيدا بحيث تؤدي إلى إغلاق الحوار السياسى .^(٦) وقد استخدمت سلطة الحقوق في

(٦) لقد قمت بدراسة للتمسك الليبرالى الأمريكى بالنص القانونى، فى صورته اليسارية واليمينية ، =

الولايات المتحدة ، على النحو الذى أعادت السطوة المحافظة الجديدة تشكيلها به ، لتكون درعاً يحمى تمركات السوق الحرة من التفحص الدقيق من جانب الجمهور ومن التحدى السياسى . كما استخدمت أيديولوجية للحقوق لإضفاء الشرعية على وريث جديد للرأسمالية الليبرالية الأمريكية .

إن رئاسة ريجان ، لدى صياغتها لثقافة عامة لم يعد ممكناً فى إطارها التمييز بين حتميات السوق الحرة ومصالح الشركات ومطالب الحرية البشرية ، كانت قد وضعت جدول أعمال لا لجورج بوش وحده ، وإنما لكليتون أيضاً .

وقد رسم خطأ يؤكد نهاية العصر الليبرالى فى الحكومة الأمريكية عندما وضع الرئيس كليتون فى أغسطس عام ١٩٩٦ «قانون إصلاح الرعاية الاجتماعية»^(*) . فعندما جرد كليتون الحكومة الفيدرالية من معظم مسئولياتها فيما تعلق بتوفير الخدمات الاجتماعية كان قد عكس اتجاه أهم إصلاح جوهرى أدخله روزفلت . وفى المناخ السياسى الذى خلقتة الهيمنة المحافظة الجديدة ، ربما كان الخيار الوحيد أمام كليتون أن يفعل ما فعله كى يتحدى أسوأ نماهجات الجناح اليمى فى الحزب الجمهورى عن طريق تنفيذ تلك الإجراءات التى تحظى بتأييد الناخبين .

وكان فرويد يعتقد أن الحضارة تستلزم نوعاً من المقايضة يتنازل فيها الناس عن قدرتهم على تحقيق ذواتهم مقابل الأمن . وكان يرى أن السياسة هى الممارسة الرشيدة للقمع الذى تقضيه هذه المقايضة حتماً . ورؤية التنويريين هذه لا تتفق مع الممارسات السياسية الأمريكية فى الجزء الأخير من القرن العشرين . فهناك أمريكيون كثيرون على استعداد لمقايضة الأمن بالسعى إلى السعادة ، ولكنهم غالباً ما يحجمون عن الاعتراف بالمبادلة التى يقدمون عليها .

= فى ، Enlightenment's Wake Ch.1 : Politics and Culture at the Close of the Modern Age ، لندن ، روتلج ، ١٩٩٥ ، وكذلك Endgames : Questions in Late Modern Political Thought ، كمبرج ، بوليتى پرس ، ١٩٧٧ ، الفصل الثانى .

(*) Welfare Reform Act : وقع الرئيس بيل كليتون فى صيف عام ١٩٩٦ تشريعاً خاصاً بإصلاح الرعاية الاجتماعية ، يخول لكل ولاية سلطة وضع برنامج خاص بها للرعاية الاجتماعية . والتشريع يسمى إلى مساعدة المعجزة وأطفالهم ، وتوفير فرص العمل لمن لا عمل له ، وتزويد العاطلين بالمهارات التى تمكنهم من الحصول على وظائف . أما المشروع الجمهورى المضاد فلا يتضمن أى تدريب أو أية خدمات لرعاية الطفولة . وكان من المقرر أن يعود مجلس الشيوخ إلى مناقشة تشريع كليتون ، ولكن الصورة الجديدة التى ستناقش لا تغل سوءاً عن الصورة التى سبق لكليتون الاعتراض عليها فى يناير من ذلك العام - المترجم .

ومن مهام الزعيم السياسى أن يخفى الاختيارات التى قام بها مجتمعه بالفعل . وكان ذلك فى حالة كليتون هو إعطاء الانطباع الكاذب بأن المجتمع الذى يكون الاختيار الفردى فيه هو القيمة المؤكدة ، يمكن أن يلبى الحاجة البشرية إلى الاستقرار . وقد فعل كليتون ذلك عن طريق التواطؤ مع عادة الأمريكيين فى الحفاظ على الخداع الذاتى الذى مؤداه أن سياسة الأمن والنظام يمكن أن تكون بديلا عن المؤسسات الاجتماعية التى دمرتها السوق الحرة . وعندما يتصرف كليتون كمراف سياسى يمكن التعبير من خلاله عن متناقضات ثقافية من غير أن يدرك الآخرون ذلك ، أو يجدوا حلا له ، فقد ثبت أن بيل كليتون هو الطراز الذى ينبغى السير على منواله فى حسن إدارة شئون الدولة فيما بعد الحدائة .

وعلى غرار أيدىولوجيات التنوير الأخرى ، فإن يوتوية الأسواق تدفع أتباعها إلى التكر بصلف لدروس التاريخ . فهم لا يكلون عن القول بأن للأفكار نتائجها ، ولكنهم لم يلاحظوا أن تلك النتائج نادرا ما تكون هى النتائج المتوقعة أو المرجوة ، وأنها لا تكون أبدا تلك النتائج وحدها . وكان من آثار هندسة السوق الحرة الأمريكية فى الثمانينيات حدوث انعدام جديد للأمن الاقتصادى بين أفراد الطبقات الوسطى الأمريكية .

الصورة الجديدة لانعدام الأمن الاقتصادى الأمريكى

من المفارقات أن يعتقد أحد أن أمريكا فى أواخر القرن العشرين تمثل ثقافة الرضا والارتياح . فأمريكا اليوم ليست مجتمعا توجد فيه أغلبية موسرة تنظر بشئ من العطف إلى طبقة دنيا واقعة فى براثن الفقر والتهميش بلا أمل فى الفكك منهما ، وإنما هى مجتمع يتشر القلق بين أغلبيته . وبالنسبة لمعظم الأمريكيين أصبح بساط الأمن الذى يعيشون فوقه الآن أضيئ كثيرا مما كان عليه فى أى وقت منذ الثلاثينيات .

ومن الواضح أن هذا القلق ليس تأثيرا عارضا للركود الاقتصادى ، بل هو على النقيض من ذلك تماما . ففى خلال السنوات الخمس عشرة الماضية كان الاقتصاد الأمريكى فى توسع مستمر تقريبا ، وكانت الإنتاجية والثروة القومية تزفادان باطراد . كما أن إعادة هيكلة الصناعة الأمريكية مكنتها من أن تستعيد أسواقا كان يظن ذات يوم أنها فقدتها إلى الأبد لصالح اليابان . ومثلما حدث فى إنجلترا فى منتصف الحقبة الفيكتورية ، فإن تحرير الأسواق فى نهاية القرن العشرين أدى إلى أن تحقق أمريكا ازدهارا اقتصاديا مثيرا للإعجاب - وغير قابل للتكرار .

وفي الوقت نفسه تجمدت دخول معظم الأمريكيين . وحتى بالنسبة لمن زاد دخلهم ، فإن المخاطر الاقتصادية الشخصية تفاقمت بصورة ملحوظة . ويشفق معظم الأمريكيين من حدوث اضطراب اقتصادى فى منتصف عمرهم يخشون ألا يكون باستطاعتهم الشفاء منه . وليس هناك غير القليلين ممن يتوقعون الآن أنه سيكون لهم عمل دائم طوال الحياة . بل إن الكثيرين يتوقعون - وليس بغير سبب - أن ينقص دخلهم فى المستقبل . وليست هذه بطرؤف تسمح بازدهار ثقافة الرضا والارتياح .

ووفقا لما كتبه جو كينيث جالبريث فى عام ١٩٩٣ ، فإن « الجديد فيما يسمى الاقتصادات الرأسمالية - وتلك نقطة جوهرية - هو أن الارتياح المحدود والعقيدة الناتجة عنه هما الآن موقف الكثيرين من السكان ، وليس موقف مجرد عدد قليل منهم . وتلك مشاعر تتحرك تحت الغطاء القوى للديمقراطية ، ولو أنها ديمقراطية ليست لجميع المواطنين، وإنما ديمقراطية من يذهبون بالفعل إلى صناديق الانتخاب، للدفاع عن مزاياهم الاجتماعية والاقتصادية . وتكون النتيجة هى وجود حكومة لاتوافق مع الواقع ولا مع الاحتياجات العامة ، بل مع معتقدات من يشعرون بالرضا والارتياح ، وهم الآن أغلبية من يدلون بأصواتهم فى الانتخابات »^(٧) . وقد يكون هذا تصورا دقيقا للولايات المتحدة خلال رئاسة ريجان ، ولكنه ليس وصفا لها فى أواخر التسعينيات .

ذلك أن أمريكا لم تعد مجتمعا بورجوازيا ، بل أصبحت مجتمعا منقسما على نفسه ، توجد فيه أغلبية قلقة واقعة بين طبقة دنيا لا أمل لديها ، وطبقة عليا تنكر أن عليها أي التزامات مدنية . وفى الولايات المحدة اليوم حدث تباعد بين الاقتصاد السياسى للسوق الحرة والاقتصاد الأخلاقى للحضارة البورجوازية - والأرجح أن يكون تباعدا دائما .

إن عملية « إضفاء الطابع البورجوازى » ، التى كانت الموضوع لكتب مدرسية فى علم الاجتماع لا حصر لها وغير مستلثة للانتباه ، قد انعكس مسارها . وقد تنبأت تلك النظرية باندماج الفئات العاملة فى المدى الطويل فى الطبقات الوسطى . وأيدتها فى ذلك الاتجاهات التى ظهرت فى غالبية البلدان الغربية المتقدمة على امتداد جيل كامل بعد الحرب العالمية الثانية . وكان علماء الاجتماع والاقتصاد ومارسو السياسة فى جميع الأحزاب

(٧) ج . ك جالبريث ، The Culture of Contentment ، هارموندويرث : پنجوين ، ١٩٩٣ ، الصفحة

يرون أن عملية «إضفاء الطابع البورجوازي» تمثل انحماها طويل الأمد لاربعة فيه ، وهم ليسوا مهئين لحدوث انعكاس لهذه العملية .

والطبقات الوسطى تعيد الآن اكتشاف حالة انعدام الأمن الاقتصادي المعتمد على أصول ثابتة ، وهي الحالة التي ابتليت بها پروليتاريا القرن التاسع عشر . ومن المؤكد أن دخول الأمريكيين من الطبقة الوسطى ، برغم ركودها على امتداد الأعوام العشرين الماضية ، مازالت أعلى كثيرا من دخول العمال في ذلك الحين أو الآن . ومع ذلك فانه نتيجة لتزايد اعتماد الطبقات الوسطى الأمريكية على وظائف يقل أمانها بصورة مطردة ، أصبحت هذه الطبقات أشبه بالپروليتاريا الكلاسيكية في أوروبا القرن التاسع عشر . وهي تعاني صعوبات اقتصادية ماثلة لتلك التي تواجه العمال الذين فقدوا الدعم الوقائي الذي توفره أحكام الخدمات الاجتماعية كما تضمنته النقابات العمالية .

وثمة خطر سائد آخر هو انهيار الأسرة . فالزيادة في المخاطر الاقتصادية المصاحبة للتحول العميق للرأسمالية في الولايات المتحدة في أواخر القرن العشرين ، حدثت في مجتمع أصبحت الأسرة فيه أكثر هشاشة وتصدعا منها في أي بلد آخر . ففي عام ١٩٨٧ كان متوسط عمر الزواج في الولايات المتحدة الأمريكية سبع سنوات .^(٨)

وكم عدد الأسر الأمريكية التي يتناول أفرادها طعامهم معا كما تفعل الأسر المألوفة؟ وكم عدد الأبناء الذين يعيشون في نفس المجاورات السكنية أو المدن التي يعيش فيها أبائهم؟ وإذا تعرض أحد الأمريكيين للتعطيل عن العمل ، فهل يستطيع أن يجد مساندة من أسرة ممتدة على نحو ما يجده الإسباني أو الإيطالي في الدول الأوروبية؟ إن الأسرة الأمريكية أكثر تصدعا من أي أسرة في البلدان الأوروبية ، بما في ذلك روسيا ، حيث ظلت الأسرة الممتدة قائمة على امتداد سبعين عاما من الشيوعية .

ومن أسباب ضعف الأسرة في الولايات المتحدة تلك المستويات المرتفعة - بصورة غير مألوفة - للحراك المطلوبة من العمال . فأسواق العمل المتحررة من الضوابط تفرض حتمية التنقل عبر خريطة الولايات المتحدة بدرجة تتجاوز كثيرا الوضع القائم في أي بلد أوروبي . وفي المملكة المتحدة - وهي مجتمع أقل استقرارا من أي مجتمع آخر في غالبية المجتمعات الأوروبية - يكون احتمال انتقال العمال إلى منطقة مختلفة داخل البلد أقل

(٨) Statistical Abstract of the United States, 1991 ، واشنطن ، الجدلان ١٢٩ و ١٣٣ ،

بمقدار ٢٥ مرة عن مثيله بين العمال الأمريكيين .^(٩) وبصفة خاصة عندما تملى الضرورة الاقتصادية أن يكون للأسرة دخلان ، مثلما كانت الحال في الولايات المتحدة خلال السنوات العشرين الماضية، فإن حتميات سوق العمل ربما تدفع الشريكين - وكثيرا ما تفعل ذلك - في اتجاهين يصعب التوفيق بينهما . ولكن هذا لا يعدو أن يكون شكلا واحدا من أشكال تصرف اقتصاد أعيدت صياغته كإقتصاد للسوق الحرة . وهذا الاقتصاد المفروض للالتزام بمكان معين إنما يعمل أيضا ضد وجود مجاورات سكنية مستقرة .

وعلى الرغم من المطالب الأصعب كثيرا التي تفرضها سوق العمل المتحررة من الضوابط على عمالها ، وعلى الرغم من الأعباء النفسية والاجتماعية التي تحملها الأسر والمجاورات السكنية ، فإن سجل التوظيف الأفضل الذي تدعيه تلك الأسواق كثيرا ما يكون مبالغاً فيه . واستنادا إلى إحدى الدراسات فإنه يوجد قصور في استخدام قدرات ما يقرب من ١٠ في المائة من قوة العمل (حوالي ١٣,٥ مليون فرد) . وهذا الرقم يتضمن ٤,٥ مليون فرد يعملون بعض الوقت ، ويرغبون في العمل كل الوقت ، كما يتضمن العمال الذين لم يوقفوا في العثور على وظيفة دائمة خلال الشهور الاثني عشر السابقة . ووفقا لتقديرات « مكتب العمل الأمريكي » فإن ١٢,٢ مليون عامل يشتغلون باعتبارهم عمالا مؤقتين بموجب عقود .^(١٠)

وقد ذكر واحد من أبرز الاقتصاديين في المملكة المتحدة « أن البطالة الظاهرة هي بطبيعة الحال أدنى في الولايات المتحدة . ولكننا عندما نأخذ في الحسبان جميع أشكال البطالة لا نجد فارقا يذكر بين أوروبا والولايات المتحدة . ففي الفترة بين عامي ١٩٨٨ و ١٩٩٤ كانت البطالة في فرنسا تشمل ١١ في المائة من تتراوح أعمارهم بين ٢٥ و ٥٥ سنة ، في مقابل ١٣ في المائة في المملكة المتحدة و ١٤ في المائة في الولايات المتحدة و ١٥ في المائة في ألمانيا»^(١١) .

فضلا عن ذلك فإن العمالة في الولايات المتحدة زادت بالسرعة التي زادت بها، وذلك جزئيا لأن الإنتاجية الأمريكية كانت منخفضة - حوالى نصف الإنتاجية في غالبية البلدان الأوروبية . وعلى ضوء هذا التباين في الانتاجية ليس من المستغرب أن الولايات

(٩) د . هوجا ، *The Rise and Fall of Regional Inequalities* ، لندن : مركز الأبحاث الاقتصادي ، نوفمبر عام ١٩٩٦ .

(١٠) *The State of Working America* ، واشنطن : معهد السياسة الاقتصادية ، ديسمبر عام ١٩٩٦ .

(١١) ريتشارد لايارد ، " *Clues to Prosperity* " ، في جريدة فاينانشيال تيمس ، عدد ١٧ فبراير ١٩٩٧ .

المتحدة كان باستطاعتها أن تخلق وظائف لكل وحدة من الناتج تبلغ مثلى ماتخلقه بلدان أوروبا القارية .

وأخيرا فإن كل تقديرات العمالة الأمريكية يجب أن تأخذ فى حسابها معدل الإبداع فى السجون الأمريكية . ولو كانت السياسات العقابية فى الولايات المتحدة مشابهة لميلاتها المطبقة فى أى بلد غربى آخر لكان قد أضيف إلى الباحثين فيها عن عمل أكثر من مليون شخص من المدعين فى سجونها . ويبدو أنه لم يخطر لمن يريدون تصدير سوق العمل الأمريكية على نطاق العالم إلى ثقافات مختلفة جنريا ، مثل بريطانيا أو ألمانيا ، أن يسألوا عما إذا كانت المستويات الشديدة الارتفاع للحراك فى سوق العمل الأمريكية ربما تكون مستولة عن واقع أنه بينما لا يتجاوز المدعون خلف القضبان فى بريطانيا واحدا فى كل ألف من السكان ، فإنهم فى الولايات المتحدة يقربون من واحد فى كل مائة . وما إن يؤخذ هذا السياق الأوسع فى الحسبان حتى يبدو التفوق الأمريكى فى خلق فرص العمل ضئيلا ، إن لم يكن وهميا .

وعلى ضوء هذه الخلفية تطورت هذه المرحلة الجديدة فى انعدام الأمن لدى غالبية الأمريكين . وقد علق لوتواك على ذلك قائلا :

لما كانت صناعات بكاملها تزدهر وتسقط أسرع كثيرا من ذى قبل ، ولما كانت المنشآت تتوسع وتتخلص وتندمج وتفصل وتقلل من حجمها وتعيد هيكلة أوضاعها بسرعة غير مسبوقة ، فلا بد أن موظفيها فى كل المستويات ، باستثناء أعلاها ، سيذهبون إلى العمل فى يوم من الأيام دون أن يعرفوا ما إذا كانوا سيظلون فى اليوم التالى يشغلون الوظيفة التى يشغلونها فى ذلك اليوم . وهذا يصدق افتراضيا على كل الموظفين المتعين إلى الطبقة الوسطى ، ومن بينهم المهنيون . وهم إذ يفتقرون إلى الضمانات الرسمية التى تكفلها قوانين حماية العمال فى أوروبا أو المزايا الاجتماعية الطويلة المدى التى يحصلون عليها بعد انتهاء مدة عملهم ، وإذ يفتقرون إلى الأسر التى مازال معظم البشر يعتمدون عليها لعبور الأوقات الصعبة ، وإذ يفتقرون إلى المدخرات السائلة الكبيرة التى تتوافر لظرفائهم من أفراد الطبقات الوسطى فى جميع البلدان المتقدمة الأخرى ، فإن معظم الأمريكين العاملين ينبغي لهم الاعتماد كلية على وظائفهم لتحقيق الأمن الاقتصادى - وينبغى لذلك الآن أن يعيشوا فى ظروف انعدام مزمن وحاد للأمن . (١٢)

(١٢) إدوارد لوتواك ، « Turbo charged capitalism and its consequences » ، فى جريدة لندن ريفيو أوف بوكس ، عدد ٢ من نوفمبر عام ١٩٩٥ ، الصفحة ٧ .

وتؤدى السوق الحرة الأمريكية ، عن طريق تأثيراتها على الأسرة ، إلى إضعاف واحدة من المؤسسات الاجتماعية التى تتجدد من خلالها حضارة رأسمالية ليبرالية ؛ كما أنها عن طريق تأثيرها على توزيع الدخل إنما تعرض للخطر أوضاع التكافؤ الاجتماعى التى كان المراقبون ، من دى توكفيل^(*) فصاعدا ، يعدونها من الإنجازات الجوهرية للولايات المتحدة .

التفاوت المتصاعد والأغلبية الأمريكية

يؤثر تدهور الدخل فى الولايات المتحدة على الأغلبية العاملة ، ولا سيما أغلبية الفقراء الذين يعملون . والولايات المتحدة هى المجتمع المتقدم الوحيد الذى كانت الإنتاجية فيه ترتفع باطراد على امتداد العقدين الماضيين ، فى حين أن دخول الأغلبية - ثمانية من كل عشرة - ظلت على حالها أو انخفضت . وزيادة كهذه فى التفاوت الاقتصادى ليس لها مثل فى التاريخ ؛ ولم تحدث فى أى دولة ديمقراطية أخرى ، حتى فى الدولتين المتحدثتين بالإنجليزية ، بريطانيا ونيوزيلندا ، اللتين فرضت عليهما سياسات السوق الحرة بشكل منهجى فى الثمانينات . كذلك لم تحدث فى عصر السوق الحرة فى القرن التاسع عشر فى إنجلترا أو الولايات المتحدة .

من ذلك أن متوسط الكسب الأسبوعى لثمانين فى المائة من العمال العاديين الأمريكين ، بعد تصحيحه لاستبعاد أثر التضخم ، انخفض بنسبة ١٨ فى المائة بين عامى ١٩٧٣ و ١٩٩٥ ، من ٣١٥ دولارا فى الأسبوع إلى ٢٥٨ دولارا . وفى الوقت نفسه فإنه فيما بين عامى ١٩٧٨ و ١٩٨٩ زاد الكسب السنوى الحقيقى للمسؤولين التنفيذيين الرئيسيين^(**) الأمريكين بنسبة ١٩ فى المائة ، أو بنسبة الثلثين بعد استقطاع الضرائب^(١٣) . ويلاحظ لوتواك أنه ، طبقا لبعض أفضل التقديرات المتاحة ، أصبحت القيمة الصافية لأغنى واحد فى المائة من الأسر الأمريكية والتى كانت تستأثر بـ ٣١ فى المائة

(*) ألكسيس دى توكفيل (١٨٠٥ - ١٨٥٩) ، سياسى ومفكر ليبرالى كان يعتقد أن الديمقراطية السياسية والمساواة الاجتماعية ستحلان فى النهاية محل المؤسسات الارستقراطية الأوروبية . ذهب إلى الولايات المحلدة فى بعثة لدراسة نظم السجون هناك ، وانتهم الفرصة لدراسة المجتمع الأمريكى ، وأعد حول ذلك كتابه القيم « الديمقراطية فى أمريكا » (مجلدان ، ١٨٣٥) - المترجم .

(**) Chief Executive Officer

(١٣) مكتب إحصاءات العمل ، ٢٩ من يناير عام ١٩٩٦ ؛ ل . ميشيل ج . برنشتين *The State of Working America* ، واشنطن : معهد السياسة الاقتصادية ، ١٩٩٤ .

من مجموع الثروة الخاصة للأمة في عام ١٩٨٣ - أكثر من ٣٦ في المائة من ثروة الأمة في عام ١٩٨٩ . (١٤)

وفي دراسته القيمة عن تأثير الريجانية على التفاوت في الدخل في الولايات المتحدة ، كتب كيثن فيليبس يقول :

في عام ١٩٨٧ أراد الاقتصاديون في لجنة الميزانية بالكونجرس تخطيط الترتيب الجديد لأسعار الضريبة الإجمالية الفعلية ، فأخذوا كل الضرائب الفيدرالية - الدخل الفردي ، التأمينات الاجتماعية ، دخل الشركات ، الضرائب غير المباشرة - وحسبوا التغيير في تأثيرها للمجموع على مختلف فئات الدخل بعد عام ١٩٧٧ ، فبين أن الأسر التي تلي العشير الأعلى^(١٥) التي حُمّلت عبئا غير متناسب من الزيادة في التأمينات الاجتماعية والضرائب غير المباشرة ، وكوفئت بأقل من أي تخفيضات في ضريبة الدخل ، كان يمكن أن تدفع أسعارا فعلية أعلى . وفي الوقت نفسه كانت أكثر الأسر ثراء تدفع أسعارا أقل ، وذلك إلى حد كبير بسبب التخفيض الشديد المطبق على الدخل من مصادر أخرى بخلاف الأجر الثابت (المكاسب الرأسمالية ، الفائدة ، الأرباح الموزعة ، والريع) .

ويخلص فيليبس إلى أن « هذه التحولات تفسر كلا من الزيادة الحادة المفاجئة في الاستهلاك ، والتفاوت المتصاعد في الدخل . فشريحة الخمسة في المائة الأكثر ثراء في أمريكا (ويوجه خاص الواحد في المائة الأكثر ثراء) كانت هي المستفيدة الجديدة من السياسات الضريبية »^(١٥) .

وقد أوجز جودفري هودجسون الشواهد وتداعياتها إيجازا جامعا وفعالا فقال :

في الفترة ما بين عامي ١٩٧٣ و ١٩٩٣ . . . انخفض دخل الستين في المائة الدنيا من الأمريكيين بمقدار ٣, ٢ في المائة ، من ٣٤, ٩ في المائة إلى ٣١, ٧ في المائة . وقد تبدو ٣ في المائة أو ٥, ٣ في المائة نسبة ضئيلة . ولكن ٣ في المائة من الدخل القومي للولايات

(١٤) إدوارد لوتوك ، *The Endangered American Dream* ، نيويورك ولندن : سيمون وشوستر ، ١٩٩٣ ، الصفحة ١٦٣ .

(١٥) *Top decile* : هناك إحصائيات تربوية هي الريمات والعشيرات والمبنيات التي تقسم للمجتمع إلى أربعة أقسام أو عشرة أقسام أو مائة قسم متساوية على الترتيب - المترجم .

(١٥) كيثن فيليبس ، *The Politics of Rich and Poor . Wealth and the Electorate In the Regan Aftermath* ، نيويورك : هاربر بيرينال ، ١٩٩١ ، الصفحة ٨٢ .

ليست مبلغا يستهان به ، ذلك أننا نتكلم عن مبلغ يناهز ٢٠٠ مليار دولا جرت العادة على أن يذهب - مثل هذا المبلغ - إلى الثلاثة أخماس الأسوأ حظاً من السكان ، ولكنه يذهب الآن إلى الخمس الأفضل حظاً وفى غضون الفترة نفسها لم تكد تطراً زيادة على دخل الأمريكى المتوسط ، ولم يعد هذا الدخل إلى المستوى الذى كان عليه فى عام ١٩٧٣ إلا فى أواخر الثمانينات . (١٦)

والركود فى دخل الأغلبية فى الرأسمالية الأمريكية ، رأسمالية « الفائز يحصل على كل شيء » (١٧) ، ليس نائماً ثانوياً للابتكارات التكنولوجية . وعند المقارنة بالاقتصادات التى لا تقل عن الاقتصاد الأمريكى تقدما من الناحية التكنولوجية ، يتبين بوضوح شديد أن هذا الركود فى الدخل إنما هو النتيجة المترتبة على السياسات العامة . واستنادا إلى تقديرات مبنية على تحريات علمية ، فإن المشورين التنفيذيين الرئيسيين الأمريكين حققوا فى عام ١٩٩٠ كسبا يزيد على أجر العامل المتوسط بحوالى ١٥٠ مرة ، فى حين أن الرقم المقابل فى اليابان كان ١٦ وفى ألمانيا ٢١ . (١٨)

وهذا التفاوت هو نتيجة للسياسات الأمريكية ، وليس نتيجة للضغوط التى تواجهها المجتمعات المتقدمة . وقد كان للتخفيضات الضريبية تأثير مباشر ، ولكن التدابير المالية كان لها أثرها أيضا على توزيع الدخل والثروة . وكما ذكر مايكل ليند ، فإن « الولايات المتحدة ، على خلاف أي دولة ديمقراطية أخرى فى العالم الأول ، كانت منذ أيام ريجان تتعامل مع الاقتراض الواسع النطاق - وليس مع الضرائب - باعتباره وسيلة دائمة بدرجة أو بأخرى لتمويل النفقات الحكومية فى وقت السلم » (١٩) . وأدت سياسة الاقتراض الواسع النطاق هذه إلى مزيد من ميل الميزان لصالح من يملكون أصولا مالية ، وفى غير صالح الأجراء العاديين .

(١٦) هودجسون ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٠٢ .

(١٧) اتنظر ، روبرت هـ . فرانك وفيليب ج . كوك ، *The Winner - Take - All Society* ، لندن ونيويورك : ذى فرى برس ، ١٩٥٥ .

(١٨) جـيريف كـريـسنـال ، *In Search of Excess : The Overcompensation of American* ، نيويورك : و . ونورتون ، ١٩٩١ ، الصفحات ٢٩٧ إلى ٢٩٩ .

(١٩) مايكل ليند ، *The Next American Nation : The New Nationalism and The Fourth American Revolution* ، نيويورك ولندن : ذى فرى برس ، ١٩٩٥ ، الصفحة ١٨٩ .

وترتب على هذه السياسات أن أصبحت الولايات المتحدة تقف وحيدة بتوزيع للدخل والثروة أكثر شيها بتوزيعهما في الغالبين أو البرازيل منه في أي من اقتصادات العالم الرئيسية الأخرى . وحتى في روسيا ما بعد الشيوعية ربما تكون مستويات التفاوت أدنى من ذلك . (٢٠)

وقد أوجز المصرفي الأمريكي والمعلق المالي البارز فيليكس روهاتين العملية التي تمر بها الولايات المتحدة بقوله : « إن ما يحدث هو تحويل هائل للثروة من العمال الأمريكيين المثمين إلى الطبقة الوسطى الأقل مهارة إلى أصحاب الأصول الرأسمالية ، وإلى أرستقراطية تكنولوجية جديدة يتوافر لها عنصر تمويش يرتبط بقيمة الأوراق المالية» (٢١). وفي أمريكا اليوم يجيء الأجراء في المركز الذي يلي من يحصلون على الكورونات (*) فهل كان الناخبون الأمريكيون ، الذين انتخبوا رونالد ريجان ، ثم أعادوا انتخابه ، يدركون أن نتيجة سياسته الضريبية والمالية ستفضى إلى قيام نظام في الولايات المتحدة أساسه الربيع على نمط نظم أمريكا اللاتينية ؟

إن الولايات المتحدة اليوم ليست النموذج لمجتمع « ما بعد التاريخ » الذي يتحدث عنه فرنسيس فوكوياما . بل هي تدخل فترة جديدة وصعبة في تاريخها سيتم فيها التعبير عن العداوات القديمة بين الأعراق والطبقات بطرق لا نستطيع أن نتنبأ بها .

أكثر من مليون سجين وأكثر من ثلاثة أمثالهم تحت الرقابة أو ما شابه

إن معدلات الجريمة في الولايات المتحدة كانت دائما أعلى منها في غالبية البلدان الأوروبية . أما الجديد فهو لجوء الولايات المتحدة إلى سياسة إيداع مئات الآلاف في السجون كبديل للضوابط التي تفرضها المجتمعات المحلية ، وهي الضوابط التي أضعفتها أو قضت عليها قوة السوق المتحررة من الضوابط . وفي الوقت نفسه ينسحب أثرياء

(٢٠) ونشارد لايارد وجون پاركر ، *The Coming Russian Boom* ، نيويورك ، ذى فرى برس ، ١٩٩٦ ، الصفحة ٣٠١ : « إن التفاوت (في روسيا ما بعد الشيوعية) ما زال أقل من مثيله في الولايات المتحدة ، وهو قريب من مثواه في بريطانيا » .

(٢١) فيليكس روهاتين ، « قداس على روح زعيم ديمقراطي » ، محاضرة ألقى في جامعة ويك فورست ، ونستون - سالم ، نورث كارولينا ، ١٧ من مارس عام ١٩٩٥ . وأنا ملين بهذه الإشارة إلى سيمون هيد ، « *The New Ruthless Economy* » ، في جريدة نيويورك ريفيو أوف بوكس ، عدد ٢٣ من فبراير عام ١٩٩٦ ، الصفحة ٤٧ .

الأمريكيين بأعداد تتزايد باطراد من التعايش مع مواطنيهم ، ويلجئون إلى مواقع ذات أسوار وبوابات . والآن يعيش نحو ٢٨ مليون أمريكي - أي أكثر من ١٠ في المائة من مجموع السكان - في مساحات منعزلة بها قصور تقوم عليها حراسة خاصة . (٢٢)

وفي نهاية عام ١٩٩٤ كان هناك ما يزيد قليلا على خمسة ملايين أمريكي تحت نوع من القيد القانوني . ووفقا لأرقام وزارة العدل الأمريكية كان حوالي المليون ونصف المليون من هؤلاء مودعين في السجون - سواء سجون الولايات أو السجون الفيدرالية أو السجون المحلية . ومعنى ذلك أن واحدا من كل ١٩٣ أمريكيا بالغا مودع في السجن ، أي ٣٧٣ من كل مائة ألف أمريكي ، وذلك مقابل ١٠٣ من كل مائة ألف عند تولي رونالد ريغان رئاسة الولايات المتحدة في هام ١٩٨٠ . كما كان هناك ثلاثة ملايين ونصف المليون أمريكي تحت الاختبار أو ممن أخلى سبلهم بشروط . (٢٣)

وفي أواخر عام ١٩٩٤ كان معدل إيداع الأمريكيين في السجون أربعة أمثاله في كندا ، وخمسة أمثاله في بريطانيا ، وأربعة عشر مثله في اليابان . وكانت روسيا ما بعد الشيوعية هي البلد الوحيد الذي لديه نسبة أكبر من مواطنيه خلف القضبان . (٢٤) وفي كاليفورنيا يوجد حوالي ١٥٠ ألف شخص في السجون . ويبلغ المودعون في سجون كاليفورنيا حاليا ثلاثة أمثال المستوى الذي بلغوه في أوائل السبعينيات ، وهم يتجاوزون مثيله في بريطانيا وألمانيا مجتمعتين . (٢٥)

وبحلول بداية عام ١٩٩٧ ، كان هناك واحد من بين كل خمسين من الأمريكيين البالغين محتجز وراء القضبان ، وحوالي واحد من كل عشرين أخلى سبيله تحت شرط أو رهن الاختبار . وهذا المعدل يبلغ عشرة أمثال نظيره في البلدان الأوروبية . (٢٦)

ويختلف معدل الإيداع في السجون اختلافا كبيرا عبر السكان الأمريكيين . ففي عام

(٢٢) "Many seek security in Private Communities" جريدة نيويورك تيمس ، عدد ٣ من سبتمبر عام ١٩٩٥ .

(٢٣) جريدة ذي تيمس ، عدد ١١ من ديسمبر عام ١٩٩٥ ، الصفحة ٣٨ .

(٢٤) لويس أ . شيلي ، American crime : an international anomaly ، البحوث الاجتماعية المقارنة ، ١٩٨٥ ، الصفحات ٨١ إلى ٨٩ .

(٢٥) "Crime and punishment" ، في جريدة فاينانشيال تيمس ، ٨-٩ مارس ١٩٩٧ ، الصفحة ٧ .

(٢٦) ريتشارد لايارد ، "Clues to prosperity" ، في جريدة فاينانشيال تيمس ، عدد ١٧ من فبراير عام ١٩٩٧

١٩٩٥ كان حوالي ٧ في المائة من السكان الأمريكيين السود قد قضوا بعض الوقت في السجون .^(٢٧) وتعرض السود لأن يزعج بهم في السجون أعلى بحوالي سبع مرات من تعرض البيض . من ذلك أن واحدا من كل سبعة من الرجال السود أودع السجن في مرحلة مامن حياته ؛ وأنه في عام ١٩٩٢ كان أكثر من ٤٠ في المائة من كل الذكور السود ، فيما بين الثامنة عشر والثلاثين ، ممن يعيشون في مقاطعة كولومبيا ، مودعين في السجون أو مفرجا عنهم أو رهن المراقبة أو بشروط بانتظار المحاكمة أو هارين .^(٢٨)

ويؤخذ من تلك الأرقام أن الفروق العرقية والطبقية تشابك الآن في الولايات المتحدة قدر تشابكها في بعض بلدان أمريكا اللاتينية .^(٢٩) وهي تزيد ما وصفه مايكل ليند بأنه اكتساب أمريكا للطابع البرازيلي عندما قال : « أكبر خطر يواجه الولايات المتحدة في القرن الحادي والعشرين ليس «البلقنة» ، وإنما ما يمكن أن يسمى «البرزلة» .^(*) وما أعنيه بعبارة «البرزلة» ليس الفصل بين الثقافات حسب العرق ، وإنما الفصل بين الأعراق حسب الطبقة »^(٣٠) .

إن من يكترون الحديث عن قيم الأسرة قد غابت عن انتباههم النتائج المترتبة على ذلك المعدل المرتفع بصورة غير طبيعية الذي يودع به السود في السجون الأمريكية . فمن الأسباب الرئيسية لظاهرة الأسرة وحيلة الوالد^(**) في الأحياء القديمة الأكثر ازدحاما بالسكان في المدن أن الآباء مودعون في السجون . إذ كيف يمكن إنعاش الأسرة في هذه الأحياء مع وجود نسبة كبيرة من سكانها السود الذين يودعون في السجون فترة طويلة من حياتهم ؟

(٢٧) جريدة ذي تيمس ، عدد ١١ من ديسمبر عام ١٩٩٥ ، الصفحة ٣٨ .

(٢٨) جريدة نيويورك بابل ، عدد ٢٥ من مايو عام ١٩٩٢ ، الصفحة ٧ .

(٢٩) سبق أن قلت في عام ١٩٩٠ إن أمريكا تكتسب طابعا برازيليا . انظر ، مقال - The Brazilianization

in 1990 في مجلة فورشن ، المجلد ١٢٢ ، العدد ٥ ، ١٩٩٠ .

(*) Balkanization and Brazilianization . وتعبير «البرزلة» هنا يشير بطبيعة الحال إلى الأوضاع السائدة في البرازيل - المترجم .

(٣٠) ميشيل ليند ، The Next American Nation ، المرجع السابق ، الصفحة ٢١٦ ، وحول انتعاش النزعة العرقية المحافظة في الولايات المتحدة ، انظر ، ميشيل ليند Up from Conservatism : Why the Fright is Wrong for America ، نيويورك : ذي فري برس ، ١٩٩٦ ، الفصل الثامن .

(**) برغم أن كلمة الوالد ترد بمعنى أحد الوالدين (الأب أو الأم) ، كما أوضحت في حاشية سابقة ، فمن الواضح أن المقصود هنا هو الأسرة التي توجد بها الأم بمفردها من غير وجود من الأب - المترجم .

وما لا شك فيه أن ذلك يرجع في جانب منه إلى « حملة التطهير » التي تشنها أمريكا على المخدرات . فحوالي ٤٠٠ ألف من العدد المتزايد المودع في السجون الأمريكية هم ممن يتعاملون مع للمخدرات ، تعاطيا أو تجاراً ، وكثرتهم من السود . وفي الوقت نفسه فإن تعاطي المخدرات في الولايات المتحدة أكثر انتشاراً وأقل خضوعاً للسيطرة منه في أى بلد متقدم . وتوجد في الولايات المتحدة ارتباطات عديدة وعميقة الجذور بين كثرة المسجونين ، وانهيار الأسرة ، والحرب على المخدرات ، والعداوات بين الأعراق ، وهى ارتباطات قد يكون الأوان قد فات كثيرا للفصل فيما بينها . (٣١)

وهذا الالتقاء بين الانقسامات والعداوات العرقية والاقتصادية ليس له مثيل فى أى بلد آخر من بلدان العالم الأول . فقد أحدثت السوق الحرة تغييرا فى الرأسمالية باتت معه أكثر شبهاً بالأنظمة الأوليغاركية القائمة فى غالبية بلدان أمريكا اللاتينية منها بالحضارة الرأسمالية الليبرالية السائدة فى أوروبا ، والتي كانت سائدة فى الولايات المتحدة نفسها فى مراحل سابقة من تاريخها .

ومعدلات الإيداع فى السجون فى الولايات المتحدة تسير موازية لمعدلات الجريمة المتسمة بالعنف . ولتأخذ أرقام حوادث القتل ، والجرائم التي ترتكب باستخدام الأسلحة النارية . فحتى عام ١٩٩٣ كان معدل القتل بين الذكور ٤ ، ١٢ فى كل مائة ألف ، مقابل ٦ ، ١ فى الاتحاد الأوروبى ، وأقل من الواحد الصحيح فى اليابان . (٣٢) وفى عام ١٩٩٤ كان ٩٨ ر . من بين كل مائة ألف فى اليابان ضحية للقتل ، مقابل ٣ ، ٩ من الأمريكين ؛ على حين كانت أرقام الاغتصاب ٥ ، ١ فى اليابان و ٨ ، ٤٢ فى الولايات المتحدة . وفيما يتعلق بالسرقة كانت هناك ٧٥ ، ١ حالة لكل مائة ألف فى اليابان و ٨ ، ٥٥ حالة فى الولايات المتحدة . (٣٣)

أما عن جميع الجرائم المتسمة بالعنف ، فيما عدا القتل ، فإن المستويات فى أمريكا أعلى بكثير منها فى روسيا مابعد الشيوعية . ففي عام ١٩٩٣ كانت توجد بالنسبة لكل مائة ألف من السكان ٢٦٤ حالة سرقة وسلب بالطريق العام (فى مقابل ١٢٤ فى روسيا)

(٣١) من أجل حجة قوية لإصلاح سياسة للمخدرات بالولايات المتحدة ، انظر ، جورج سوروس ، « A new leaf for the law » فى جريدة جارديان ، عدد ٢٢ من فبراير عام ١٩٩٧ .
 (٣٢) جريدة ذى إيكونوميست ، عدد ٢٢ من أكتوبر عام ١٩٩٤ ، Survey ، الصفحة ٤ .
 (٣٣) س . م . لىست ، American Exceptionalism : A Double Edge Sword ، نيويورك ولندن : و . و . فورتون ، ١٩٩٦ ، الصفحة ٢٢٧ .

٤٤٢ تعديا بالابناء البدنى (فى مقابل ٢٧ حالة فى روسيا) . (٣٤) ولكن فى تطور منذر بسوء ، تجاوز مستوى جرائم الممتلكات فى بريطانيا أخيرا مثيله فى الولايات المتحدة التى ما زالت مع ذلك تسبق كل البلدان الغربية المتقدمة الأخرى من حيث مستوى العنف المفضى إلى الموت .

وجرائم القتل العمد للأطفال منتشرة بصفة خاصة فى الولايات المتحدة ، إذ ترتكب فيها قرابة ثلاثة أرباع كل جرائم القتل العمد للأطفال فى العالم الصناعى . وبالمقارنة بأى من أغنى ستة عشر بلدا فى العالم فإنه توجد بالولايات المتحدة أعلى معدلات انتحار الأطفال وجرائم القتل التى يرتكبونها ، ووفياتهم الناتجة عن استخدام الأسلحة النارية . (٣٥)

ويكمن جانب من التفسير فى ثقافة السلاح النارى التى لا شفاء لأمريكا منها . ويأتى جانب آخر من أن الوفرة الاقتصادية لدى الأسرة تركت أطفالا بغير إشراف أكثر مما يحدث فى البلدان الأخرى . وفى عام ١٩٨٧ كانت وفيات الرضع فى شرقى حى هارلم وفى واشنطن ماثلة تقريبا لوفياتهم فى ماليزيا ويوغسلافيا والاتحاد السوفييتى السابق . (٣٦) وبالمقارنة بالطفل الذى يولد فى نيويورك ، فإن الطفل الذى ولد فى شنغهاى فى عام ١٩٥٥ كانت وفاته فى العام الأول من ولادته أقل احتمالا ، وكان تعلمه القراءة والكتابة أكثر احتمالا ، كما كان يمكن أن يعيش عامين أكثر (٧٦ عاما) . (٣٧)

والمعدلات العالية للجريمة والإيداع فى السجون فى الولايات المتحدة تسير مترافقة مع مستويات استثنائية بالمثل من الخصومات القضائية وعدد المحامين . ففي الولايات المتحدة يوجد على الأقل ثلث مجموع ما يوجد فى العالم من المحامين الممارسين . وفى عام ١٩٩١ كان يوجد بها ٧٠٠ ألف محام ، وكان يتوقع أن يصل هذا العدد عند نهاية القرن إلى ٨٥٠ ألفا . ويوجد بها فى الوقت الحالى أكثر من ٣٠٠ محام لكل مائة ألف من سكان الولايات المتحدة ، مقابل ١٢ محاميا لكل مائة ألف فى اليابان ، وأكثر قليلا من

(٣٤) لايرد وباركر ، المرجع السابق ، الصفحة ١٥٠ .

(٣٥) المصدر : مركز مكافحة الأمراض والوقاية منها " Young America and how it dies " ، فى مجلة

إنترناشونال هيرالد تريبيون ، د . ٨ - ٩ من فبراير عام ١٩٩٧

(٣٦) كريستوفر دافيز ومورأى فايزباخ ، *Rising Infant Mortality in the USSR In The 1970* ، السلسلة P-

25 ، رقم ٧٤ ، واشنطن ، مكتب الولايات المتحدة للتعداد ، سبتمبر عام ١٩٨٠ .

(٣٧) ن . د . د . كريستوف ، س . وودون ، *China Wakes : The Struggle for the Soul of a Rising Pow-*

er ، لندن : دار نشر نيكولاس بريالى ، ١٩٩٥ ، الصفحة ١٦ .

١٠٠ محام لكل مائة ألف في بريطانيا ، وأقل قليلا من ١٠٠ محام لكل مائة ألف في ألمانيا. (٣٨) وفي عام ١٩٨٧ كانت المبالغ التي دفعت بسبب الإساءات الشخصية تمثل حوالى ٢,٥ في المائة من الناتج القومى الإجمالى للولايات المتحدة ، وكان أقل من ذلك بشمانى مرات (٠,٣) فى اليابان. (٣٩)

إن هذه الأرقام المتعلقة بالإيداع فى السجون ، وجرائم العنف ، والخصومات القضائية ، إنما تكشف عن مجتمع كاد القانون فيه أن يصبح المؤسسة الاجتماعية العاملة الوحيدة ، وأصبحت السجون فيه إحدى وسائل الضبط الاجتماعى القليلة المتبقية .

كما أن المجمعات السكنية الخاصة ذات البوابات والأسوار العالية ، وأدوات الأمن الإلكترونية التى توفر الحماية لسكانها من أخطار المجتمع الذى هجره ، هى صورة عاكسة للسجون الأمريكية ، وتقف شاهدا على انتفاء دور المؤسسات الاجتماعية الأخرى - الأسرة ، المجاورة السكنية ، بل وشركة الأعمال - التى كانت فى الماضى سندا لمجتمع نابض بالحياة . وهذه التوليفة بين السجون التى تستخدم التكنولوجيا الرفيعة ، والمجمعات السكنية التى تحيطها الأسوار ، والشركات الافتراضية ، ربما يمكن اعتبارها رمزا لأمريكا فى أوائل القرن الحادى العشرين .

لقد أصبحت السوق الحرة فى أمريكا فى أواخر القرن العشرين المحرك الذى يدفع نحو حداثة منحرفة . ذلك أن نبي أمريكا المعاصرة لم يعد جيفرسون أو ماديسون ، وهو بالتأكيد ليس بيرك ، وإنما هو جرهمى بتام* مفكر التنوير البريطانى فى القرن التاسع عشر

(٣٨) Statistical Abstract of the United States, 1979 ، واشنطن ، الجدول ٣٢٠ ، الصفحة ١٨٨ ؛

الجدول ٣٢٠ ، الصفحة ٧ ؛ الجدول ٣١٩ ، الصفحة ١٨٨ .

(٣٩) ليست ، المرجع السابق ، الصفحتان ، ٢٢٧ و ٢٢٨ .

(*) توماس جيفرسون : (١٧٤٣ - ١٨٢٦) ، الرئيس الثالث للولايات المتحدة (١٨٠١ - ١٨٠٩) .

جيمس ماديسون : (١٧٥١ - ١٨٣٦) ، الرئيس الرابع للولايات المتحدة (١٨٠٩ - ١٨١٧) ، كان من أشد معارضى السيطرة البريطانية . وكان من أهم أحداث عهده تجديد القتال بين بريطانيا والولايات المتحدة فى الفترة ١٨١٢ - ١٨١٤ ، الذى انتهى بانهاض المطامح البريطانية وتعزيز استقلال أمريكا .

إدموند بيرك : (١٧٢٩ - ١٧٩٧) ، كاتب سياسى بريطانى ، كان من أوائل من دعوا إلى إنشاء أحزاب سياسية ، وإلى التصالح مع المستعمرات الأمريكية . وكان من المحافظين فى الميدان السياسى . وعرف بعدائه للثورة الفرنسية والإصلاحات البرلمانية ، فاتفصل عن حزب الأحرار ، واعتزل فى عام ١٧٩٥ .

جرهمى بتام : (١٧٤٨ - ١٨٣٢) ، فيلسوف إنجليزى ومؤسس المذهب النفعى ، آمن بالمساواة وكان نصيرا للديمقراطية ومعارضاً للسلطوية ، أما فى الاقتصاد فكان أميل إلى أصحاب العمل . ترجم كتابه « أصول الشرائع » إلى العربية - المترجم .

الذى كان يحلم بمجتمع مفرط فى الحدائة ، ولكن الواقع كان مجتمعا أعيد بناؤه على نموذج سجن مثالى .

لماذا لم ينته التاريخ؟

يشيع فى الفكر الأمريكى اليوم ، مثلما كانت الحال فى الماضى ، شعور بأن هناك شيئا جديدا طرأ على الأحوال الأمريكية . ومع ذلك فإن هذا الفكر ، باستثناءات قليلة فقط ، لا يدرك ما هو الجديد حقاً فى الظروف الراهنة للولايات المتحدة .

فأمريكا متشبثة بالمطابقة بين الحدائة فى أنحاء العالم وحدائتها هى نفسها - وذلك فى وقت يتحقق فيه التحديث فى شرقى آسيا على وجه السرعة عن طريق رفض النموذج الأمريكى أو تجاهله . وتظهر أمريكا إلى نفسها على أنها نموذج «الحضارة الغربية» فى نفس الوقت الذى باتت فيه غائباتها مع المجتمعات الغربية الأخرى أضعف مما كانت عيه فى أى وقت مضى .

وأكثر الإسهامات الحديثة تأثيرا فى التفكير بشأن موقع أمريكا فى المرحلة المتأخرة من العالم الحديث ، لا تتبوع أوضاع العالم التى يتعين على الولايات المتحدة اليوم أن تبهر فيه . ويصدق ذلك على رؤية فرنسيس فوكوياما بشأن نهاية التاريخ ودعوى صمويل هتجتون^(*) بشأن صدام الحضارات . فكلاهما تتركز أنظاره على أمريكا وحدها ، ويقدم رؤية للعالم يتعذر على معظم الآسيويين والأوروبيين التعرف عليها . فادعاء فوكوياما بأن «الرأسمالية الديمقراطية» هى «الشكل النهائى لحكم البشر» ، وأن انتشارها فى العالم هو «انتصار للفكرة الغربية»^(٤٠) ، قد أطاح بها تحول فى الأحداث كان قد تنبأ

(*) مؤلف كتاب *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order* ، الذى يتناوله المتن فى فقرات كثيرة فى الصفحات التالية . وتوجد لهذا الكتاب ترجمة عربية تحت عنوان *صدام الحضارات* : إعادة صنع النظام العالمى ، قام بها طلعت الشايب ، مع مقدمة لصالح فنسوه . والترجمة صدرت فى عام ١٩٩٨ من دار «سطور» - للترجم .

(٤٠) نشر المقال الأصلى لفرنسيس فوكوياما *The end of history* (نهاية التاريخ) فى مجلة ناشونال إنترست ، عدد صيف عام ١٩٨٩ . أما كتابه *The End of History and the Last Man* (نهاية التاريخ وخاتم البشر) ، الذى أعيد فيه تأكيد رؤية المقال الأصلى دون تنقيح كبير ، فقد نشرته دار ذى فرى پرس ، نيويورك ، فى عام ١٩٩٢ .

به كثيرون من ناقيه في أوروبا . وبعد انتهاء النزاع بين أصحاب أيديولوجيات « التنوير » عاد العالم إلى الساحة الكلاسيكية للتاريخ . (٤١)

وكان باستطاعة فوكوياما القول بأن التاريخ قد انتهى لأنه وضع نموذجاً للنزاعات التاريخية يقوم على أساس التنافسات بين الأيديولوجيات في القرن العشرين . ولكن ذلك يعد تعميماً خالياً من التفكير يعتمد على الأوضاع في فترة زمنية وجيزة ، إذ إنه على الأكثر كانت الأيديولوجية السياسية مصدراً رئيسياً للنزاع الاجتماعي والعسكري بين عامي ١٧٨٩ و ١٩٨٩ . وكان ذلك هو العصر الممتد من الثورة الفرنسية حتى انهيار الاتحاد السوفييتي ، والذي كانت الحروب تقوم فيه - أو يجري فيه تبريرها على الأقل - بسبب الديانات السياسية المتنافسة التي نبعت من « التنوير الأوروبي » . غير أنه لدى إلقاء نظرة أبعد أمداً أو أكثر تدقيقاً على التاريخ يتبين أنه ليست هناك حروب تذكر كانت النزاعات والعداوات الإيديولوجية هي السبب الرئيسي لشوئها .

فطوال التاريخ البشري كله تقريباً ، كانت الحروب تنشأ بسبب نزاعات على الأراضي ، أو بين الأسر الحاكمة ، أو بسبب عداوات دينية وعرقية ، أو المصالح الاقتصادية المتضاربة التي كانت الدول ذات السيادة تسعى إليها . وكانت تلك هي الحال حتى في عصر التنوير بين عامي ١٧٨٩ و ١٩٨٩ . فالنزاعات بين الأتراك والأرمن في القرن التاسع عشر ، وبين الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا في عشرينيات القرن الحالي وخلال السنوات الثلاثين الماضية ، وبين اليونان وتركيا في قبرص في الستينيات ، فضلاً عن نزاعات كثيرة في جميع أنحاء العالم ، لم تكن بأي حال نزاعات أيديولوجية ، وإنما كانت صراعات حول الأراضي والأديان أو حول الفروق العرقية أو المزايا الاقتصادية .

(٤١) في مقال رداً على فوكوياما نشر في أكتوبر عام ١٩٨٩ قلت : « إننا نتحرك إلى الوراء ، إلى حقيقة تُعدّ تاريخية من الناحية الكلاسيكية ، وليس نحو الأمام ، إلى عصر أجوف في مرحلة ما بعد التاريخ سلّطت عليه الأضواء في مقال فوكوياما . إن عصرنا هو عصر يتضائل فيه على الأحداث تأثير الأيديولوجية السياسية ، سواء الليبرالية أو الماركسية ، ويشند فيه النزاع فيما بين قوى عتيقة وقائمة منذ الأزل ، قوى قومية ودينية وأصولية ، وربما سرعان ما تكون مالتية . . . وإذا كان الاتحاد السوفييتي قد تفتت حقا ، فإن تلك الكارثة إن كانت قد فعلت خيراً فلن تكون تدشيناً لعصر جديد من تناسق ما بعد التاريخ ، ولكنها بدلا من ذلك ستكون عودة إلى ساحة التاريخ الكلاسيكية ، ساحة التنافسات بين دول عظمى ، والدبلوماسية السرية ، والمطالبات باسترداد الحقوق ، والحروب » . انظر ، جريدة ناشونال ريفيو ، عدد ٢٧ من أكتوبر ، الصفحات ٣٣ إلى ٣٥ . وقد أعيد نشر هذا المقال بوصفه الفصل السابع عشر من كتابي *Post-liberalism : Studies in Political Thought* . لندن ونيويورك ، روتلج ، ١٩٩٣ ، الصفحات ٢٤٥ إلى ٢٥٠ .

ولم يحدث إلا فى السنوات الأربعين ونيف من الحرب الباردة - وذلك أيضا بصورة متقطعة وجزئية - أن كانت الاختلافات الأيديولوجية مصادر رئيسية للنزاع بين الدول . وعندما انتهت الحرب الباردة انتهى أيضا دور الأيديولوجية كسبب لخوض الحرب . ولكن ذلك لم يكن يعنى شيئا أكثر من أن المصادر الأقدم للحرب والنزاع قد عادت بقوة لاتهمن أو تناقص . ومثلما كان ذلك صحيحا دائما قبل الحرب الباردة ، فإنه ظل كذلك بعد انتهائها، فالحروب كانت تثنى لأسباب تتعلق بالأراضى ، أو بالفروق العرقية ، أو بالأديان .

والاعتقاد بأن التاريخ يمكن أن ينتهى لأن نزاعا بين أيديولوجيات التنوير السريعة الزوال قد وصل إلى نهايته، إنما يكشف عن ضيق فى آفاق التفكير يصعب الاطمئنان إليه . وإنها كملامة واضحة على حالة الحياة الفكرية والسياسية مع اقتراب القرن من نهايته أن تبدو مثل هذه التأملات السخيفة قابلة للتصديق .

لقد خلط فوكوياما بين التحديث والتغريب . ولتأمل ذلك الحدث التاريخي الذى أثار ، أكثر من أى حدث آخر ، نزعته المتتصرة التعجرفة . لقد كان انهيار الاتحاد السوفيتي هو الرفض لمشروع غريمى - أى المشروع الماركسى للتحديث الاقتصادى عن طريق التخطيط الاقتصادى المركزى . وهو لم يكن قبولا روسيا لأيديولوجية عصرية غربية أخرى - هى العقيدة الليبرالية الجديدة للخصخصة والأسواق الحرة .

كذلك فإن إصلاح السوق فى الصين لم يكن الدافع إليه نزعة إلى محاكاة النماذج الغربية أو استيعاب القيم الغربية ، وإنما كان دائما تطورا صينيا ذا طابع محلى لا فضل فيه لمشورة غربية أو مثال غريمى . بل إن إصلاح السوق فى الصين تطلب ارتدادا عن النموذج الماركسى ذى الطابع الغريمى الذى طبق فى فترة ماو والذى اتخذ أساسا للتطور الاقتصادى والسياسى . وفى الصين ، كما فى أجزاء كثيرة أخرى من العالم ، لم يكن تحديث الاقتصاد يسير متطابقا مع تغريب المجتمع أو الحكومة ، بل كان مصحوبا بانتعاش الرأسمالية المحلية ورفض التأثير الغريمى .

ولن يكون تفسير فوكوياما لتاريخ العالم الحديث مقبولا إلا إذا ساد لدى المرء اعتقاد بأن العالم يقترب بغير وعى من الأوضاع الأمريكية ، وبأن الولايات المتحدة هى النموذج لمجتمع « ما بعد التاريخ » الذى تذوى فيه المصادر التقليدية للنزاع . وفى أوروبا وآسيا تقابل ادعاءات كهذه بازدرأ لا يصدق .

ومن الواضح للمراقبين خارج الولايات المتحدة ، بل ولأمريكيين كثيرين ، أن المصادر التاريخية للنزاع الاجتماعي والسياسي - مثل الخلافات العنصرية والعرقية والدينية - موجودة بوفرة في أمريكا أواخر القرن العشرين .

« صدام الحضارات ، مقابل اضمحلال » الغرب ،

، يسلّم صمويل هنتجتون في دعواه بشأن صدام الحضارات^(٤٢) بأن التحديث والتفريب ليسا اليوم اتجاهين يتقاربان وإنما هما اتجاهان يتباعدان .

وفي رأى هنتجتون أن خطوط التمايز بين الحضارات ، وليست المصالح المتباعدة بين الدول ، هي التي ستحدد شكل النزاعات في عالم ما بعد الحرب الباردة . وقد صاغ هذا الرأى بقوله : « إن التنافس بين الدولتين العظيمين سيحل محله صدام الحضارات . ففى هذا العالم الجديد لن تكون النزاعات الأكثر انتشارا وأهمية وخطرا هي النزاعات بين الطبقات الاجتماعية ، أو بين الأغنياء والفقراء ، أو بين الفئات الأخرى المحددة اقتصاديا ، بل بين شعوب تنتمى إلى كيانات ثقافية مختلفة وأخطر النزاعات الثقافية هي تلك الموجودة على امتداد تمايز الحضارات »^(٤٣) . ويعتقد هنتجتون بحق أن نهاية الحرب الباردة تعنى نهاية الأيديولوجيات العلمانية بحبائنها مصدرا رئيسيا «للنزاعات الدولية» . ويخلص من هذه الحقيقة إلى أنه في المستقبل ستكون «النزاعات بين الحضارات» هي المصدر الرئيسى للحرب .

وتواجه دعوة هنتجتون القائلة بأن صدامات الحضارات هي المصدر الرئيسى للحروب صعوبات عارضة كثيرة . فليس من اليسير تحديد « الحضارات » التي يتشكل منها عالم اليوم . ومن العسير أن نعرف أين تقع أمريكا اللاتينية في روايته هذه ، ثم إنه يدرج اليهود ، بعد شيء من التردد ، في ملحق خاص « بالغرب » ؛ واليونان توصف بأنها لا تنتمى إلى « الحضارة الغربية » . وحضارة التبت العريقة الواسعة الانتشار وذات التاريخ الطويل مستبعدة تماما . وربما كان ذلك لأنها ليس لها مستقبل في الصين المعاصرة . ومن الصعب أن نجد تبريرات لهذه الأحكام تستند إلى المبادئ .

(٤٢) صمويل ه . هنتجتون ، The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order ، نيويورك :

سيمون أند شوستر ، ١٩٩٦ .

(٤٣) المرجع نفسه ، الصفحة ٢٨ .

وثمة أمثلة عديدة للتصنيفات التي توضع بطريقة تعسفية وشاذة . ذلك أن نهج تصنيف الحضارات عند هنتجتون ليس موضع ثقة تامة . وهو يبدو مقتنعا بأنه يوجد في عالم اليوم ما بين ست وتسع حضارات : الصينية ، الهندية ، الإسلامية ، الغربية ، الأمريكية اللاتينية ، البوذية ، الأرثوذكسية ، والإفريقية .

وتساور هنتجتون الشكوك فيما إذا كانت بعض هذه الثقافات جديدة بأن يطلق عليها لقب الحضارة الشرفى . والمعايير التي يجب توافرها للانضمام إلى هذا النادى الذى يصعب الحصول على عضويته هي معايير تفتقد الوضوح . والمعيار الذى يستخدمه هنتجتون ضمنا في أغلب الأحوال إنما يعكس الفكرة الأمريكية المتسلطة بشأن تعدد الثقافات . فالثقافة أو الشعب يُعدّ حضارة إذا كان له ما لأقلية أمريكية من فاعلية سياسية . وفى غير هذه الحالة فهو يتجاهلها .

وحتى إذا قُبل نهج التصنيف هذا ، فإن ادعاء هنتجتون بأن الحروب في زماننا هي نزاعات بين «مجموعات حضارية» لا يتفق مع الشواهد القائمة . «فالموجات البشرية» من الجنود الذين هلكوا في الحرب بين العراق وإيران فقدوا حياتهم في نزاع داخل إطار حضارة واحدة . كما أن عمليات الإبادة للتوتسى على يد الهوتو تتم داخل حضارة واحدة، كذلك كانت الحال في كمبوديا على يد پول بوت . وربما يرد هنتجتون على ذلك بأن هذه كانت نزاعات محلية ، في حين أن الصدمات الحضارية التي يتحدث عنها هي نزاعات عالمية .

ومع ذلك فثمة وصف جيد للحرب العالمية الأولى بأنها حرب أهلية أوروبية . والحرب الكورية أو حرب فيتنام لم تكن نزاعا حضاريا ، إنما كانت صداما إستراتيجيا بين دول كانت جميعا تبرر ادعاءاتها بالتسامح الأيديولوجيات «الغربية» . وفى الحرب العالمية الثانية تحالفت «بلدان غربية» ، مثل بريطانيا والولايات المتحدة ، مع بلد «أرثوذكسى» ، هو اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ، في مواجهة دولة «غربية» أخرى ، هي ألمانيا النازية . ومن اليسير إيجاد أمثلة من هذا القبيل .

والآن ، مثلما كانت الحال في الماضى ، تنشب الحروب عادة بين شعوب من قوميات أو أصول عرقية مختلفة ، وليس بين أعضاء حضارات مختلفة . وسواء كانت ما تشن الحروب دول ذات سيادة أو ميليشيات غير نظامية ، فإن منطق المنافسة العسكرية كثيرا ما يستلزم قيام تحالفات تجمع بين «حضارات» مختلفة . ففى النزاع بين أرمينيا وأذربيجان

أقلت إيران بقلها إلى جانب أرمينيا المسيحية ، وليس إلى جانب أذربيجان الإسلامية . كما أن الترويعات البيزنطية للتحالفات المتغيرة في البلقان وآسيا الوسطى لا تؤيد تبسيطات هتجتون المرفقة .

وقد علق روبرت كابلان على ذلك في تبصر وروية بقوله : إن ما يفترضه هتجتون من حرب بين الإسلام والمسيحية الأرثوذكسية لا يتفق مع شبكة التحالفات القائمة في القوقاز ، ولكن ذلك ليس إلا لأنه أخطأ في تحديد نوع الحرب الحضارية الناشئة هناك . فالأذريون الأتراك ، ولعلمهم أشد المسلمين الشيعة علمانية في العالم ، لا يرون هويتهم الثقافية مرتبطة بالدين ، بل يرونها مرتبطة بمنصرهم التركي . وكذلك فإن الأرمن لا يقاتلون الأذريين لأنهم مسلمون ، بل لأنهم أتراك ، منحدرين من نفس الأتراك الذين ارتكبوا مذبححة الأرمن في عام ١٩١٥ . (٤٤)

إن تصنيف هتجتون للحضارات ليس فقط تصنيفا بعيدا عن الواقع الثقافي ، ولكنه أيضا لا يفسر غالبية الحروب القائمة . ومع ذلك لا يمكن هنا الاعتراض الأساسى على روايته . فتقسيم البشر إلى حضارات متصادمة له عيوب جفرية عند النظر إلى الأمور بتدقيق أكثر من الناحية التاريخية . كما أن تقسيم الشعوب والثقافات إلى حضارات متنافسة هو تقسيم يمتد إلى التفسير التئورى للتاريخ ، وهو التفسير الذى يهاجمه هتجتون .

وفكرة « الحضارة » تفترض مسبقا أن كل المجتمعات « المتحضرة » هي كيانات من نمط واحد . وهي جميعا تجسيد لمخطط واحد للقيم نقيضه هو « الهمجية » . وكان هذا هو رأى مفكرى التئوير الرئيسيين بكل الأشكال المختلفة التى عبرت عنه : سواء من الفرنسيين (كوندورسيه ، ديدرو ، فولتير) أو الألمان (كانط ، ماركس) أو الإنجليز (بتام ، چون ستيورات مل) أو الإسكتلنديين (هيوم ، سميث ، فيرجسون) ، أو الأمريكيين (توماس چيفرسون ، بنيامين فرانكلين) . وكانت هذه الفكرة هي التى سعى نقاد التئوير الرئيسيين ، وفى مقدمتهم ي . ج . هرر (٥) إلى الاستعاضة عنها بمفهوم تنوع لا يمكن إنقاظه بين الثقافات البشرية .

(٤٤) روبرت د . كابلان ، - The Ends of the Earth : A Journey in the Dawn of the Twenty First Cen-

lury ، نيويورك : راندوم هاوس ، ١٩٩٦ ، الصفحة ٢٧٠ .

(٥) يوهان جوتفريت هرر : (١٧٤٤ - ١٨٠٣) ، أديب وفيلسوف وناقد ألماني كان له تأثير كبير على جونه ، وعلى نشأة حركة « المعاصرة والاندفاع » الأدبية . من كنه الشهيرة « أفكار فى فلسفة تاريخ البشرية » - المترجم .

وقد استخدم هرذر وغيره من مفكرى « التنوير المضاد »^(٤٥) فكرة التنوع الأساسى للثقافات من أجل مهاجمة الفكرة التى كان يُروِّج لها فى ذلك الحين بشأن وجود حضارة عالمية شاملة - وهى الإمبريالية الثقافية الفرنسية . إنها انتقاد لما تزعمه حركة التنوير من شمول عالمى ، وهو انتقاد لم تنقصر شهرته حتى اليوم ، حيث تضطلع الولايات المتحدة بالدور الذى كانت تضطلع به فرنسا وإنجلترا ذات يوم .

الواقع فى نهاية القرن العشرين - أمريكا فى مقابل كل الآخرين

يهاجم هتجتون تصور التنوير للقيم الشاملة للعالم قاطبة . وكانت تلك هى الرؤية الساذجة التى استندت إليها ثنائية التنوير عن الحضارة والهمجية . وهى ثنائية توحي بأن كل الشعوب المتحضرة لديها القيم الأساسية نفسها وتريد الأشياء نفسها .

ولنا بحاجة إلى المصادقة على « النسبية » من أجل رفض هذا الوهم الباطل . فعلى خلاف مايقول به أنصار النسبية^(٤٦) هناك نوازع شر ونوازع خير لدى البشر جميعا . والأمن من الموت غيلة أو بوسائل عنيفة ، ومن الموت جوعا ، ليس من «نوازع الخير» التى تختلف عليها الثقافات . فضلا عن ذلك هناك معايير أخلاقية وجمالية تسمح لنا بالتعرف على الإنجازات العظمى عبر الثقافات . فالياقة هوميروس إنجاز ثقافى أعظم من الفيلم السينمائى صمته الحملان ، حتى إذا كان معبد « زن »^(٤٧) فى ريونجى أرقى من الكنيسة التى يدخلونها بالسيارات . ولكن حقيقة وجود أشكال عالمية من الأعمال الجيدة والسيئة لاتعنى أن نظاما سياسيا واقتصاديا واحدا - ولتقل « الرأسمالية الديمقراطية » - هو أفضل الأنظمة بالنسبة للبشر جميعا . فالقيم البشرية العامة يمكن أن تتجسد فى أنواع مختلفة من النظم .

ومن طبيعة الأمور أن بعض المجتمعات تحقق نتائج أفضل من غيرها من الزاوية

(٤٥) حول رواية برلين للتنوير المضاد ، انظر ، كتابى Berlin ، لندن وپرنستون ، نيوجيرسى : إدارة النشر بجامعة هاربر كوليتز وپرنستون . [انظر ، حاشية عن « أشعيا برلين » ، فيما بعد - المترجم] .
(٤٦) أجريت نقدا للنسبية المعاصرة فى أكثر أشكالها قبولاً فى أعمال رتشارد رورتى ، وذلك فى كتابى Endgames ، الفصل الرابع .

(٤٧) Zen : طائفة بوذية غير عقلانية تطورت فى الهند ، وهى تنتشر الآن فى اليابان ، وتختلف عن الطوائف البوذية الأخرى فى سعيها إلى التنوير من خلال الاستبطان والبديهية والحدس ، بدلا من الأسفار البوذية المقدمة - المترجم

الاقتصادية والتعليمية والثقافية ، ولكن ليست هناك حاجة إلى الإيحاء بأن الثقافات «الغربية» هي دائما أرقى من غيرها . والمحافظون الجدد في أمريكا ، الذين يهاجمون الاعتقاد المعاصر بأن كل الثقافات متساوية ، إنما يفعلون ذلك لاعتقادهم الساذج بأن ثقافتهم هي الأفضل .

وهتجتون لا يبعد كثيرا عن اعتبار أمريكا محور العالم . إنه يتقد النزعة العالمية ، وهي الأساس الضمني لكل الفكر الأمريكي تقريبا ، ولكنه يظل متشبثا بالتراث الثنائي-الذي يصل أحيانا إلى حد اللاتوية^(*) -والذي كان لأمده طويل هو الأساس الذي تقوم السياسة الخارجية الأمريكية . وتسير حجة هتجتون في نفس اتجاه التصنيف الثنائي التنويري الذي يقسم الثقافات إلى متحضرة وهمجية . وهو يقسم العالم إلى عالمين : «الغرب والآخرين» ، و «الغرب» واحد ، و«الآخرين» كثيرون .

والحضارة الغربية ليست عالمية ، ولكنها وفقا لرأى هتجتون حضارة فريدة ، ولها هوية واحدة استمرت خلال فترات زمنية طويلة ، وتمتد فوق بلدان كثيرة . وهذه الهوية «الغربية» الفريدة هي في رأيه معرضة اليوم للخطر . فهو يقول لنا : إن «المسئولية الأساسية للزعماة الغربيين . . . هي صيانة الخصائص الفريدة للحضارة الغربية وحمايتها وتجديدها . ولما كانت الولايات المتحدة الأمريكية هي أقوى دولة غربية ، فإن تلك المسئولية تقع في جانبها الأكبر على عاتقها»^(٤٧) . وهو يشير بأن تفعل الولايات المتحدة ذلك عن طريق «الحضارة الأطلسية» التي توحد مجتمعات أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية عن طريق تدابير مثل إنشاء «منطقة للتجارة الحرة عبر الأطلسي»^(**) .

وإذا لم تقم الولايات المتحدة بذلك فهو يرى أن المستقبل سيكون حالكا . ويحذر في غموض من أنه «مالم تساند شعوب الغرب ، فإنها ستساقط فرادى»^(٤٨) .

ومع ذلك فإن نفس فكرة «الحضارة الغربية» هي اليوم موضع تساؤل . فتعير «الغرب

(*) Manicheantradition : نسبة إلى «مانى» المصلح الإيراني الذي ظهر في القرن الثالث ، وأعلن النبوة في عام ٢٤٢ . انتشر مذهب «المانوية» في أنحاء الإمبراطورية الرومانية وآسيا ، واتسم بتعاليم الزرادشتية ، متخذنا النضال أساسا للصراع بين الخير والشر ، وكان ذا تأثير روحي بين أتباعه الذين كانوا يأملون السعادة بعد الموت . وقد لقيت المانوية مقاومة عنيفة حتى قضى عليها .

(٤٧) هتجتون ، المرجع السابق ، الصفحة ٣١١ .

(***) (TAFTA) Transatlantic Free Trade Area .

(٤٨) صمويل هتجتون ، "The West V. the rest" ، في جريدة جارديان ، عدد ٢٣ نوفمبر ١٩٩٦ .

« ربما كان له واقع عندما كان معنى « المسيحية » الغربية - وإن كانت حروب « الإصلاح » (*) من أسوأ مآثره التاريخ من حروب . وذلك التعبير كانت له بعض القيمة الثقافية عندما كان في الوسع القول بأن كلاً من أمريكا وأوروبا تنحدران من مشروع تنويرى مشترك ، ولكن هذه الصلات التاريخية القوية تتداعى سريعاً . وفى الظروف الحالية يُعدّ الحديث عن « الغرب » من أعراض القصور الفكرى . وهو يرجع إلى التضامن الإستراتيجى الذى تشكل بين أوروبا الغربية والولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية واستمر خلال الحرب الباردة .

غير أنه فى أعقاب الحرب الباردة أصبحت العلاقة بين الولايات المتحدة وأوروبا أشبه بالعلاقة التى كانت قائمة بينهما فى الفترة ما بين الحربين ، عندما كان ينظر إلى أمريكا - وكانت تنظر هى إلى نفسها - على أنها فريدة فى بابها . والمشروع الضخم الذى يجرى تنفيذه تحت القيادة الأمريكية لتوسيع « حلف الأطلنطى » ، إنما هو أصداء لما سعى إليه ولسن (***) من إعادة تنظيم أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى . ولاتوجد الآن « حضارة غربية » تستطيع الولايات المتحدة الاضطلاع بقيادتها . والوضع الفريد الذى يشير إليه هتنتجتون ليس هو وضع « الغرب » ، إنما هو وضع الولايات المتحدة .

ولتأمل أحد مكونات الحضارة الغربية الذى يشير إليه هتنتجتون : ألا وهو الدين . فالآن بينما أصبحت غالبية الدول الأوروبية فى فترة ما بعد المسيحية ، لاتزال الولايات المتحدة بلداً يتم بتدين شديد وواسع النطاق ، وكثيراً ما يتخذ طابعاً أصولياً . ولا يقتصر ذلك على أن التردد على الكنائس ، والمجاهرة بالمعقيدة الدينية ، هما الآن أكثر مما عليه الحال فى أى بلد أوروبى آخر ، وإنما يتمثل أيضاً فى أن أعداداً كبيرة للغاية من الأمريكيين مازالت تحتفظ بمعتقدات وممارسات دينية أصبحت من الناحية العملية هامشية فى كل مكان

(*) الحركة الدينية الكبرى فى القرن السادس عشر ، والتى كان هدفها إحياء الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، والتى أدت إلى إنشاء الكنائس البروتستانتية . وقد استمرت الحروب بين الدول التابعة للجانين ثلاثين عاماً متصلة - المترجم .

(**) توماس وودرو ولسن : (١٨٥٦ - ١٩٢٤) ، الرئيس السابع والعشرون للولايات المتحدة (١٩١٣ - ١٩٢١) . فى عهده أعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا (٢ من أبريل عام ١٩١٧) ، فرجحت كفة الحلفاء ، وأعلن فى ٨ من يناير عام ١٩١٩ مبادته الأربعة عشر لعقد الصلح ، والتى كان من بينها تسوية مسألة الإلزام واللووين ، وتعديل حدود إيطاليا ، وتقسيم النمسا والمجر ، وتعديل الحدود فى شبه جزيرة البلقان ، وقصر حكم الأتراك على رعايا من جنسهم ، وتقرير استقلال بولندا وتمكينها من الوصول للبحر - المترجم .

آخر . من ذلك أن حوالي ٧٠ في المائة من الأمريكيين يعتقدون بوجود الشيطان ، بالمقارنة بثلاث البريطانيين ، وخمس الفرنسيين ، وثمان السويديين . ويتسمى حوالي ربع الأمريكيين إلى الطائفة المسماة المسيحيون الذين يولدون من جديد (*) الذين يَمُدُّون سيطرة الشيطان على البشر ليست تشبيها بلاغيا بل حقيقة واقعة .

وقد نبه روبرت مايلثورب - المصور المهوب الذي أثار دراسات السادية المازوشية ضجة في الولايات المتحدة في أوائل التسعينيات - إلى أن موضوعات صورته قد تمت من أجل الشيطان . وتعويدة مايلثورب هذه كان من شأنها في أي بلد أوروبي أن تثير تساؤلات حول توازنه السيكلوجي . أما في الولايات المتحدة فقد كان له حضور ثقافي حقيقي .

والولايات المتحدة ، في عمق تدينها واتساع مداه ، تقف مفردة بين البلدان المتقدمة . فجميع حكومات الولايات الخمسين وافقت على تمويل فيلدوالى لتفيلد للشروع الغرضى الرامى إلى تشجيع الزهد الجنسي بين الشباب الأمريكى تحت العشرين . وفى يوليى عام ١٩٩٧ ناصر «الاتلاف المسيحى» تعديللا للدمستور فى الكونجرس يمكن أن يجعل تعاليم ملهب الحلقن (***) الواردة فى «الكتاب المقدس» إلزامية فى المدارس الأمريكية . (٤٩) والحديث من أن الولايات المتحدة تمثل مجعما علماتيا هو حديث سخيف وبناف للعقل . فالتراث العلمانى فى أمريكا أضعف منه فى تركيا .

وكما أوضح ليبست ، فإن هذا الفارق بين الولايات المتحدة وكل البلدان المتقدمة الأخرى أخذ فى الاتساع لا فى الانكماش : «إن قوة الدين فى الولايات المتحدة لاتنصح عن أي علامة على الضعف . واستطلاعات الرأى التى تجربها مؤسسة جالوب وغيرها تبين أن الأمريكىين هم أكثر شعوب الدول البروتستانتية ترددا على الكنيسة ، وأنهم أكثر الشعوب أصولية فى الدين المسيحى وفى عام ١٩٩١ كان ٤٢ فى المائة من البالغين يتمون إلى إحدى الكنائس و ٤٢ فى المائة يحضرون إقامة الصلوات أسبوعيا ، وهاتان نسبتان تزيدان كثيرا على مثيلتهما فى أي دولة صناعية أخرى » . (٥٠)

(*) Born again Christians : يوجد اعتقاد لدى المسيحيين بأن من يتعملون يولدون من جديد - المترجم .

(**) Creationism (لاهوت) المذهب القائل بأن الله يخلق روحا جديدة لكل كائن بشرى يولد - المترجم .

(٤٩) انظر ، " God's soldiers get political " ، عدد الأحد من جريدة إنديبننت ، عدد ٢٧ من يوليى

عام ١٩٩٧ - الصفحة ١٦ .

(٥٠) ليبست ، المرجع السابق .

وقد لاحظ مزاقبون كثيرون، منذ أيام توكفيل، التمسك الاستثنائي بالدين في أمريكا. ويوحى استمرار هذا الوضع، وازدياده قوة في الوقت الحالى، بأن النموذج الاجتماعى- العلمى المألوف الذى ورثناه من المفكرين الاجتماعيين للتتوير الأوروبى، والذى يتطور التحديث فيه بالتوافق مع العلمانية، هو نموذج يتعرض الآن لتصدع جذرى. فالمجتمع الأمريكى لا يتفق مع نموذج مجتمع عصرى تمت وراثته من عهد التتوير. ومع ذلك فإنه مخترق بأوهام التتوير وخرافاته أكثر من أي ثقافة في مرحلة متأخرة من الحدائة .

إن « العقيدة الأمريكية » تجعل الصلة بين أمريكا والحدائة صلة جوهرية ، وليست عارضة . واليوم قام المحافظون الجدد باختطاف تلك العقيدة . أما المقاومة التى يبدىها العالم لعملية تحويله إلى سوق حرة عالمية ، فإنها لا تهدد فقط هيمنة المحافظين فى الولايات المتحدة ، وإنما تهدد أيضا ما اتسمت به من نظرة أمريكية عالمية . كما أن اكتشاف أن المسار الأمريكى هو مسار منفرد ، ولا يحدد بأى شكل مسار التاريخ العام للعالم الحديث ، سيكون حافزا على إحداث تغييرات ثقافية ضخمة . كذلك سيكون من آثاره تجريد الولايات المتحدة من الصورة التى تراها عن نفسها باعتبارها النموذج للحدائة .

والتزعة العالمية الجامدة للثقافة الأمريكية هى المسئولة جزئيا عما تتصف به مجادلاتها حول « تعددية الثقافة » من روح خلقية ضيقة . ففى التاريخ الأطول والأشمل للأعراق ، كانت التجمعات المتعددة الثقافات، هى الوضع السائد للبشرية . وكانت إمبراطوريات العالم جميعا- مثل الإمبراطوريات الرومانية والصينية والعثمانية ، وإمبراطورية أسرة رومانوف ، والإمبراطورية البريطانية ، وإمبراطورية هابسبرج (*) - تفتح ذراعيها لتنوع غزير فى الثقافات . وكانت لدى كل منها ثقافة سائدة ، كما كانت لدى بعضها أحيانا أهداف تشمل العالم قاطبة ، ولكن لم تقدم أى منها بصورة متسقة على تحويل رعاياها إلى طريقة واحدة فى الحياة أو مجموعة محددة من المعتقدات .

وعندما منحت إحدى المؤسسات اليمينية الأمريكية مبلغا كبيرا من المال لـ «جامعة رابطة اللبلاب» (**) لإنفاقه على دورات دراسية عن « الحضارة الغربية» ، أصيبت هذه المؤسسة بخيبة أمل عندما تبينت بعد انقضاء عدة سنوات أن المبلغ لم يتم إنفاقه . وكان مرجع ذلك أن أعضاء هيئة التدريس بالجامعة لم يتمكنوا من الاتفاق على

(*) Hapsburg : الأسرة التى حكمت النمسا فى الفترة ١٢٧٨ - ١٨١٨ - المترجم .

(**) Ivy League University

مايشكل « حضارة غربية » . ويبدو أنه لم يخطر لأى من الطرفين أن الصعوبة التي يواجهونها يمكن التغلب عليها بإتفاق المال على الحركة النسائية أو على تعددية الثقافات ، لأن هاتين الحركتين ، شأن الكثير من الحركات الاجتماعية فى المرحلة المتأخرة من العصر الحديث ، كانت - فى أكثر تجلياتها جذرية وانعزالية - ظواهر أمريكية بوجه خاص . وإذا كانت مثل هذه الحركات الاجتماعية الراديكالية لا تنتمى إلى « الحضارة الأمريكية » ، فليست هناك أي حركات تنتمى إليها .

ومما يغشى أبصار الأمريكيين عند تناول أفكار هنتجتون قوله إن النزعة العالمية هي نزعة غير أخلاقية ، لأنها تقود إلى الإمبريالية . ومع ذلك فإن الإمبراطوريات يمكن أن تكون متعددة الثقافات ، وكثيرا ما كانت كذلك ، كما أن الإمبراطوريات قد لا تكون دائما غير أخلاقية . وفى الولايات المتحدة وحدها تكتسب هذه الافتراضات التي يقدمها هنتجتون مكانة لا يظعن فيها أحد .

وهناك اعتراض أكثر إقناعا على النزعة العالمية هو أنها لا تتفق مع العقلية اللازمة للقيام بدور إمبريالى فى العالم . إن الإمبراطوريات التي امتد بها الزمن - إمبراطوريات العثمانيين وأل هابسبرج والرومان - استطاعت العيش باصدارها تشريعات تسمح بالتنوع الثقافى . كما أنها لم تحاول إعادة تشكيل العالم على صورتها ، أو تضع سياستها معتقدة أن العالم سيعمل فى الخفاء على نقضها . ومع ذلك فإنه لا النظام العالمى لما بعد التاريخ الذى وضعه فوكوياما ، ولا الكتلة الغربية التي يدعو لها هنتجتون ، يمكن تصورهما من غير أن يكون لأمریکا دور إمبريالى على نطاق العالم .

والحقيقة أنه ليس هناك شيء بعيد عن العقل الأمريكى اليوم بعد العقلية الإمبريالية . وقد كان التدخل الأمريكى فى البوسنة مدفوعا بالاعتقاد بأن النزاع السياسى والعسكرى الطويل الأمد يمكن أن يحل عن طريق فرض دستور يوضع ببراعة . وكان ذلك تعبيرا عن « وهم دايتون »^(*) ، وهو أن تدخلا أمريكيا قصير الأمد ، يمكن أن يمد إلى النظم

(*) Dayton Illusion ، دايتون هي المدينة الأمريكية التي عقدت بها « محادثات تقاربية دايتون » « Dayton Proximity Talks » التي توجت بالتوصل إلى « اتفاق إطار عام للسلم فى البوسنة والهرسك » . وشاركت فى هذه المحادثات جمهورية البوسنة والهرسك ، وجمهورية كرواتيا ، وجمهورية يوغسلافيا الاتحادية . وكان شهود التوقيع على الاتفاق يمثلون دول «مجموعة الاتصال» - الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وروسيا - والمفاوض الخاص للاتحاد الأوروبى . وأرفق بالاتفاق أحد عشر ملحقا تتعلق بالجوانب العسكرية ، والاستقرار الإقليمى ، والحدود ، والانتخابات =

والثقافات الأخرى قيما وإجراءات أمريكية - أى ثقافة قانونية بشأن الحقوق ، ومودجا للتفاوض بين الدول والجماعات ، ينبع من ممارسة القانون الاعتراري - لا يخرج سلطانها عن النطاق المحلي .

إن دوائر الأعمال والهيئات السياسية الأمريكية تتصرف على أساس أنها تستطيع أن تمد القيم الأمريكية إلى أبعد أركان الأرض - دون أن تتحمل الحسائر البشرية والمالية التي يتطلبها عادة إنشاء الإمبراطوريات . وذلك ادعاء غريب لا يكون مفهوما إلا إذا كانت النخبة الأمريكية تتصور أن الولايات المتحدة قد أعفت نفسها بطريقة ما من العبء الذي تعين أن تتحمله كل دولة إمبريالية على امتداد التاريخ .

أمريكا باعتبارها أمة ناشئة هي هترة مابعد سيادة الغرب،

يذكر هنتجتون أن ثمة عقبة أساسية تحول دون إعادة تأكيد القيادة الأمريكية «للحضارة الغربية» هي رفض قسم مهم من قاطنى الولايات المتحدة قبول «هوية غربية» . فهو يقول لقرائه : «إن دعاة التعددية الثقافية الأمريكيين . . يريدون أن يخلقوا بلدا يضم حضارات متعددة ، أى بلدا لا يتمى إلى حضارة معينة ، ويفتقر إلى جوهر ثقافى . والتاريخ يثبت أنه لا يمكن لبلد تم تشكيله على هذا النحو أن يدوم طويلا كمجتمع مترابط . ذلك أن ولايات متحدة متعددة الحضارات لن تكون هي الولايات المتحدة ، بل ستكون الأم المتحدة» .^(٥١)

وعلى غرار الدعوة إلى الاستقامة السياسية ، فإن مبالغات النزعة إلى تعدد الثقافات تكون هدفا يسهل النيل منه . والتقدم الذى تحققه دعوة الانعزال العرفى فى أمريكا فى أواخر القرن العشرين - فى الحركة الانفصالية السوداء التى يقودها لويس فرخان^(٥٢) على

= والدمستور ، والتحكيم ، وحقوق الانسان ، والمهاجرين والنازحين ، وصيانة المعالم والآثار القومية ، والنقل ، وقوة شرطة دولية . وقد ذهب غالبية جوانب هذا الاتفاق وملاحقه أدرج الرياح ، وأصبحت مجرد أوهام - المترجم .

(٥١) هنتجتون ، المرجع السابق . الصفحة ٣٠٦ .

(٥٢) لويس فرخان : الزعيم الأمريكى الزنجى المسلم ، الذى يتزعم طائفة زنجية مسلحة فى الولايات المتحدة تعرف «بأمة الإسلام» . وقد قام من فترة ليست بعيدة بزيارة بعض البلدان العربية والإسلامية - المترجم .

سبيل المثال - هو عقبة فى سبيل تجديد وجود أى نوع من المجتمعات الليبرالية المدنية . وهو فى الوقت نفسه عقبة فى سبيل وجود شعور قوى بالهوية الوطنية . وإذا كانت نزعة تعدد الثقافات الأمريكية تعنى مثل هذه المشروعات الداعية للانزعال العرفى ، فإن مصير الولايات المتحدة سيكون التآرجح بين وهم العالمية التزويرى والواقع القبيح للبلقنة .

ويتجاهل هتتجنون حقيقة أن دولا كثيرة فى الماضى والحاضر نجحت فى الأخذ بتعددية الثقافات لفترات طويلة . وفى عالم اليوم تُعدّ المملكة المتحدة وإسبانيا دولتين متعددتى الجنسية ، ومترابطين اجتماعيا بدرجة معقولة ، على حين أن أستراليا ونيوزيلندا وسنغافورة وماليزيا هى مجتمعات مستقرة متعددة الثقافات . ولا يمكن القول بأن كل الكيانات السياسية الحديثة المستقرة هى كيانات ذات ثقافة واحدة ، مثلما لا يمكن القول بأن كل الدول الحديثة لا بد أن تصبح متعددة الثقافات . فاليابان ستظل دولة ذات ثقافة واحدة فى أى مستقبل منظور .

ويتجاهل « صدام الحضارات » تحولات ثقافية ضخمة تجرى الآن فى الولايات المتحدة نفسها . فلم يعد من الواقعية فى شىء تصور الولايات المتحدة على أنها مجتمع « غربى » بشكل قاطع . وهناك مؤشرات كثيرة تبين أنها ستتحول ، فى غضون جيل أو نحوه ، إلى إحدى الدول الناشئة فى العالم فى مرحلة مابعد السيادة الغربية . ويؤخذ من الاتجاهات الديموجرافية أنه خلال جيل واحد أو نحوه سيكون هناك بين قاطنى الولايات المتحدة ما يشبه الأغلبية من الآسيويين والسود وذوى الأصل الإسباني . واستنادا إلى مكتب التعداد بالولايات المتحدة ، فإنه بحلول عام ٢٠٥٠ سيكون عدد الأمريكين المنحدرين من أصل إسباني أكثر من عدد السود والأمريكين الآسيويين والهنود الأمريكين مجتمعين ، وستخف نسبة البيض غير المنحدرين من أصل إسباني ، من ٧٣ ، ١ فى المائة من مجموع السكان فى عام ١٩٩٦ ، إلى ٥٢ ، ٨ فى المائة .^(٥٢)

ونتيجة لهذه التغييرات الديموجرافية ، ستكون الولايات المتحدة مختلفة اختلافا واضحا عن الدول الأخرى فى القارة الأمريكية ، مثل شيلى والأرجنتين ، التى مازالت أوروبية بشكل واضح فى تركيبها العرقى وتراثها الثقافى . فلماذا ينبغي أن نتوقع من السكان الذين يقترب فيهم الأمريكين المنحدرين من أصل أوروبى من أن يصبحوا أقلية ، أن يقبلوا

« Hispanic number explodes in US » فى جريدة جارديان ، عدد ٣١ من مارس عام ١٩٩٧ ،

الترات الثقافية والسياسى الأوروبى ؟ بل لماذا ينبغي لأحد أن يتصور أن ذلك أمر مرغوب فيه ؟

ولكن السكان الذين لم يعد للأوروبيين الصفة الغالبة بينهم ، سوف يتجون نخبا سياسية لم تعد ارتباطاتها الثقافية تنتمى إلى البلدان الأوروبية . وقد بات هذا التطور واضحا بالفعل ، ويتجلى فى التحولات التى طرأت داخل الطبقات السياسية الأمريكية بعد انتهاء رئاسة بوش . فنخب الساحل الشرقى القديمة ، والتى شكلت رؤاها الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة ، والتى كانت ولاءاتها الثقافية أطلسية ، قد أصبحت بالفعل مهمشة سياسياً .

وذلك لايعنى أن ولاءات النخب الجديدة هى ولاءات إسبانية أو آسيوية ، وإنما يعنى على وجه الإجمال أن تصبح هذه النخب ذات طابع أمريكى محلى متزايد ، ولكن الهوية الأمريكية التى تجسدها لم تعد مبنية على أيديولوجية أوروبية فى مرحلة مبكرة من العصرية ، بل هوية أمة ناشئة فى عصر مابعد السيادة الغربية .

ولعل أستراليا ونيوزيلندا أوضح مثالين على تحول مستعمرات أوروبية سابقة إلى دول متعددة الثقافات تعيش فى عصر مابعد سيادة الغرب . فهما مجتمعان متعددا الثقافات أكثر نجاحا من المجتمع الأمريكى المتعدد الثقافات ، ومرجع ذلك فى جانب منه أنهما لا تنوءان بوزم رسالة عالمية .

هل السوق الحرة الأمريكية قابلة للإصلاح ؟

إن أمريكا اليوم ليست هى النظام المتسم بالتساوى الديمقراطى الذى وصفه دى توكفيل وأشاد به . كما أنها ليست مجتمع الفرص المتزايدة الذى جمده سياسة «النيوديل» لفترة مابعد الحرب . وإنما هى بلد زاخر بالتزاعات الطبقيّة ، والحركات الأصولية ، والحروب العرقية التى لم تصل بعد إلى حد الانفجار . والحلول السياسية لهذه الأزمات تفرض مسبقا إصلاح السوق الحرة . ومن المشكوك فيه أن يكون هذا الإصلاح ممكنا من الناحية السياسية فى أمريكا اليوم .

فى مناخ سياسى أصبحت فيه مُثل وسياسات «النيوديل» غير مشروعة بسبب السطوة المحافظة ، لا يمكن أن تشار قضايا العدالة الاقتصادية إلا على الأطراف

البعيدة للحياة السياسية . من ذلك أن روس ييرو (*) ووالف نادر (***) ويات بوكاتان (***) استفادوا جميعا من عدم ثقة الجمهور بالتحب السياسية . وحاول كل منهم فى حملته الانتخابية استفار الناخبين بشأن التفاوتات الاقتصادية الجديدة فى الولايات المتحدة .

وقد يكون مما يندر بشؤم ، أنه فى حملة يات بوكاتان الانتخابية فى عام ١٩٩٦ وحدها ، كان لقضايا العدالة الاقتصادية تأثير ملموس على التيار الأساسى للحياة السياسية الأمريكية . فقد أشعل بوكاتان قضايا الاستقامة الاقتصادية بروح حرب ثقافية أصولية وعدارة متأصلة لبقية العالم . وبرغم ما يتمتع به مزيج كهذا من جذبية شعبية ، فانه سرعان ما دفع إلى الهامش - وهو المصير المرجح لأي حملة مماثلة فى المستقبل .

ويظل من المشكوك فيه أن يكون باستطاعة السخط المتفشى بين الناخبين أن يشير استجابة قوية لدى التيار الأساسى . فعن طريق التنظيم الضريبى للتبرعات للحملات

(*) روس ييرو : (١٩٣٠ -) عمل فى عام ١٩٥٧ مندوب مبيعات لشركة IBM ، ثم أسس فى عام ١٩٦٢ شركة « لشبكات المعلومات الإلكترونية » ، التى كانت أول شركة من نوعها ، بعد ذلك باعها لشركة « جنرال موتورز » ، وأخذ ينوع نشاطاته ، فاشتغل بالمقارات والغاز والنفط . وفى عام ١٩٨٨ أنشأ شركة جديدة لخدمات المعلومات . أصبح فى مجال اهتمام وسائل الإعلام خلال أزمة الرهائن فى إيران فى عام ١٩٧٩ ، عندما قام بتمويل حملة ناجحة لإنقاذ اثنين من موظفيه كانا محتجزين فى سجن إيرانى . وفى عام ١٩٩٢ ظهر كمرشح مستقل لرئاسة الولايات المتحدة معربا عن قلق خاص بشأن « الدين الداخلى » ، ولكنه انسحب من الترشيح فى شهر يولية ، وهو الانسحاب الذى نال كثيرا مما له من تأييد . ثم عاد إلى حلبة الانتخابات فى شهر أكتوبر ، وأجرى محاولات تلفزيونية كان لها تأثير كبير ، وجاء ترتيبه الثالث فى عدد أصوات الناخبين بعد بيل كلينتون وجورج بوش - المترجم .

(**) والف نادر : (١٩٣٤ -) اشتغل بالمحاماة فى عام ١٩٥٨ ، وكان محاضرا فى التاريخ ونظم الحكم فى جامعة هارفارد فى الفترة ١٩٦١ - ١٩٦٣ . صدر فى عام ١٩٦٥ كتابه **Unsafe at any Speed** فى الصناعة وسوء معايير الأمن الصناعى ، وكان أكثر الكتب مبيعا . وأصدر الكونجرس الأمريكى ، بفضل تأثيره ، « قانون السلامة فى صناعة السيارات » . أسس فى عام ١٩٦٩ مركز دراسات قانون الاستجابة « الذى كشف انعدام مسؤولية الشركات واخفاق الحكومة الفيدرالية فى تنفيذ اللوائح الخاصة بالأعمال . أسس مؤخرا « مجموعة بحوث المصالح العامة بالولايات المتحدة » التى كانت مظلة لمجموعات أخرى كثيرة تحمل نفس الإسم - المترجم .

(***) يات بوكاتان : المعلق التلفزيونى الأمريكى المعروف . من زعماء الحزب الجمهورى . رشع نفسه فى الانتخابات الرئاسية لعام ١٩٩٢ ، ولكنه تراجع عن هذا الترشيح لصالح جورج بوش بسبب ضعف التمويل . أعلن مؤخرا عن ترشيح نفسه لانتخابات الرئاسة لعام ٢٠٠٠ ليصبح ثانى المرشحين لهذه الانتخابات بعد جورج بوش الصغير - المترجم .

الانتخابية يكون للأموال تأثير في الولايات المتحدة أكبر من تأثيرها في أى نظام سياسى غربى آخر . وما الذى يوجب افتراض أن نظاما سياسيا يمكن أن يستجيب بطريقة فعالة لمظاهر السخط التى تحتاح أغلبية قلقه ؟ غير أن النظام السياسى الذى لا يتم التعبير فيه عن السخط الشعبى إلا فى حركات على أطراف الحياة السياسية ليس نظاما ديمقراطيا يقوم بوظائفه .

لقد تمكنت سطوة السياسة المحافظة الجديدة من المطابقة بين السوق الحرة وادعاء أمريكا أنها نموذج الأمة العصرية . واتخذت هذه السطوة من الصورة التى تراها أمريكا لنفسها النموذج لحضارة عالمية مسخرة لخدمة سوق حرة عالمية . وبالنسبة لجمهور تربي على هذه الأوهام سوف تكون السنوات المقبلة حافلة بالألام .

وفى أكثر اقتصادات العالم نجاحا، تعتبر السوق الحرة علامة على النكوص إلى الماضى وليس رمزا للتطلع للمستقبل . واقتصادات شرقى آسيا يختلف أحدهما عن الآخر اختلافا كبيرا فى مؤسساته السياسية ونظمه الاقتصادية وأعرافه الثقافية . والأمر المشترك فيما بينها هو رفض الربط الذى يكاد يرقى إلى مرتبة الدين بين الأسواق الحرة التى تدعو إليها السياسة الأمريكية ، والتخلى عن المثال التنويرى لحضارة عالمية تجسدها السوق الحرة العالمية .

إن الخنوع للعقائد الجامدة التى تنطوى عليها السوق الحرة لا يمكن أن يودى إلى التحديث مع اقتراب القرن العشرين من نهايته . وفى المباراة بين السوق الحرة الأمريكية والرأسماليات الموجهة فى شرقى آسيا، فإن السوق الحرة هى التى تنتمى إلى الماضى .

وإدراك أن البلدان التى لا تأخذ بأى من مبادئ « العقيدة الأمريكية » تتفوق على الولايات المتحدة يعد أشد إيلاما من أن يقبله الوعى العام، إذ إن القبول بأن يكون باستطاعة البلدان تحقيق الحدائة دون توفير طرق التفكير التى تتميز بها الفردية، أو الإذعان لطقوس حقوق الإنسان، أو المشاركة فى خرافات التنوير بشأن السير نحو حضارة عالمية، إنما هو تسليم بأن الدين المندى الأمريكى قد ثبت بطلانه .

وإدراك من هذا القبيل ليس فى مقدور معظم الأمريكين تحمله . وبدلا من ذلك فإن الشواهد على النمو الاقتصادى المتفوق ، وعلى ارتفاع معدلات الادخار ومستويات التعليم ، وعلى استقرار الأسرة ، فى البلدان التى رفضت النموذج الأمريكى ، سوف تكبت ويجرى إنكارها والتصدى لها بلا هوادة . إذ إن التسليم بهذه الشواهد يعنى

مواجهة التكاليف الاجتماعية للسوق الحرة الأمريكية . فهذه السوق تعمل على إضعاف الترابط الاجتماعي . إن إنتاجيتها هائلة ، ولكن كذلك أيضا تكاليفها البشرية . وقد باتت تكاليف السوق الحرة في الوقت الحالي من المحرمات في الخطاب الأمريكي ، ولا يتحدث عنها إلا حفنة من الليبراليين المشككين . وإذا أمكن التسليم بأن الأسواق الحرة والاستقرار الاجتماعي أمران متعارضان ، فلن يؤدي ذلك إلى اخضاع النزاع بينهما ، ولكن ربما يؤدي إلى تخفيفه .

إن المعضلة الأساسية في السياسة العامة اليوم هي كيفية التوفيق بين حتميات الأسواق المتحررة من الضوابط وبين الاحتياجات البشرية المستمرة . فخطوة السياسة المحافظة الجديدة ، بإسقاطها هذه المسألة من جدول الأعمال السياسي ، أنكرت على أمريكا فرصة توضيح الأسلوب الذي يمكن به أن تصبح السوق الحرة أكثر احتمالا من الناحية الإنسانية . والواقع أن « النموذج الاقتصادي الأمريكي » ليس متجانسا تماما . فعلى الساحل الغربي ربما تكون بعض الأعمال قد نجحت في الجمع بين درجة عالية من المرونة والحساسية لل حاجات الأساسية لموظفيها وللمجتمع . وما دام هناك إنكار لإمكانية حدوث تعارض بين الأسواق الحرة والاحتياجات البشرية الحيوية ، فإن « نموذج كاليفورنيا » هذا لن يكون في الوسع تقيمه تقيما سليما ، ولن يكون في الوسع محاكاته ، في بقية أنحاء الولايات المتحدة . (٥٣)

وأكثر السيناريوهات رجحانا في العقود المقبلة هو أن تحافظ الولايات المتحدة على صورتها الذاتية باعتبارها نموذجا عالميا ، عن طريق مزيد من الأنطواء نحو الداخل . وهي سوف تستبعد من مفاهيمها كل ما يمكن أن يهدد ثقتها بأن العالم يتجه نحو الأخذ بأسلوبها .

ومع ذلك فإن أمريكا تتردد إلى العزلة والسياسة الحمائية . ولكن ارتدادا كهذا سيلحق الضرر بمصالح شركات كثيرة للغاية . وقد أدى اللجوء المتزايد إلى « الإنتاج في الخارج » (*) الذي مؤدها نقل بعض المنشآت الصناعية إلى المناطق ذات الأجور المنخفضة في الخارج - إلى خلق وضع أصبح فيه خمس واردات الولايات المتحدة يأتي من فروع تابعة

(٥٣) حول « نموذج كاليفورنيا » ، انظر ، تشارلز ليندبير ، Britain - The California of Europe ،

ديوس أو كيجيتال بيبرز ، ١٩٩٧ .

• Plantation Production (*)

للشركات الأمريكية عبر الوطنية فى الخارج . (٥٤) وسوف يعترض رأس المال الأمريكى على حماية التجارة . وفى السنوات القادمة لن تكون العزلة الأمريكية اقتصادية أو عسكرية ، بل ستكون عزلة معرفية وثقافية .

والإيمان الأمريكى المعاصر بأن الولايات المتحدة أمة عالمية إنما يعنى القول بأن كل البشر يولدون أمريكيين ، وأنهم يصبحون أى شىء آخر بالمصادفة - أو عن طريق الخطأ . ووفقا لهذا الإيمان فإن القيم الأمريكية هى الآن - أو لن تلبث أن تكون - مشتركة بين جميع البشر . ومن الطبيعى أن يكون لمثل هذه الأوهام انتشارها . وفى القرن التاسع عشر ادعت الصفة العالمية كل من فرنسا وروسيا وإنجلترا . والآن أصبح هذا الغرور - حتى أكثر مما كان فى الماضى - ذا طبيعة خطيرة .

لقد أدخلت الولايات المتحدة أوهام وخرافات التنوير فى نظرتها إلى نفسها . وما كانت هذه الرؤية لتكسب أهمية كبيرة فى وقت آخر . أما اليوم فإنها تهدد بالعجز عن النهوض بأكثر المهام صعوبة فى هذا العصر - ألا وهى مهمة توفير شروط التعايش السلمى والإنتاجى بين الشعوب والنظم التى ستكون دائما مختلفة .

(٥٤) ليند ، المرجع السابق ، الصفحتان ٩٨ و ٩٩ .

الفصل السادس

الأسماوية الفوضوية في روسيا ما بعد الشيوعية

إن البلاشفة... يمثلون فلسفة للحياة غريبة عن الشعب الروسي، ولا يمكن فرضها عليه دون تفسير الغرائز والعادات والأعراف، وكلها خصائص على درجة من العمق تتطلب تحجيف المتابع الحوية للحركة، وتتج عنها ثور الهمة واليأس، بين الضحايا البسطاء لحركة التنوير الجاهدة.

برتراند راسل^(١)

إن الكتاب الروس، باستثناء قلة منهم، يحضرون ثقافة الغرب. وحتى من أبدوا إعجابهم الشديد بأوروبا فعلوا ذلك لأنهم لم يفهموها فهما كاملا. وهم لا يريدون أن يفهموها. وهذا هو السبب في أنهم اختاروا دائما الأفكار الأوروبية في أغرب صورها.

ل. شيتوف^(٢)

كانت روسيا مسرح تجريبتين من تجارب اليوتوبيا الغربية خلال هذا القرن. كانت أولاهما التجربة البولشفية. وقد أسفرت في بداية مراحلها وأكثرها راديكالية - شيوعية الحرب - عن توقف التصنيع وانتشار المجاعة، وأدت إلى ما دعا إليه ستالين من «الثورة من أعلى»، التي ترتب فيها على التحول إلى الزراعة الجماعية تدمير الزراعة الفلاحية. وكانت ثانيتهما تجربة العلاج بالصدمات. وقد طُبّق هذا العلاج لفترة قصيرة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وكان يهدف إلى إقامة سوق حرة في روسيا ما بعد الشيوعية. ولكنه أنتج بدلا من ذلك نوعا من الأسماوية الفوضوية التي تسيطر عليها المافيا.

وكان لكل من التجريبتين تكاليف بشرية هائلة. وكانت كلتاها محاولة فاشلة

(١) برتراند راسل، *The Practice and Theory of Bolshevism*، لندن: جورج ألن آند أنون،

١٩٢٠، الصفحة ١١٨.

(٢) ل. شيتوف، *All Things are Possible*، لندن: مارتن سيكر، ١٩٢٠، الصفحة ٢٣٨.

لإدخال تحديثات تهتدى بالنظريات أو النماذج الغربية التي ليست لها صلة تذكر بتاريخ روسيا وظروفها .

ففي الفترة ما بين عامي ١٩١٨ و ١٩٢١، حاول البلاشفة تحويل روسيا إلى اقتصاد شيوعي . وكانت شيوعية الحرب التي سعى البلاشفة لفرضاها على روسيا خلال تلك السنوات تجسيدا لرؤية ماركسية خالصة . وكانت تهدف إلى إلغاء الرأسمالية ، التي يكون فيها دور محوري للملكية الخاصة ومبادلات السوق ومؤسسة النقود ، وإلى إقامة اقتصاد ملوك ملكية جماعية ، ويجرى تخطيطه وفقا لقواعد رشيدة وعقلانية .

وكانت شيوعية الحرب متفقة مع بعض السمات الروسية ، مثل كراهية الإثراء الذاتي عن طريق التجارة ، والشعور بأن للبلد دورا مقدّسا ، وكان ذلك دائما من سمات المسيحية الأرثوذكسية الروسية . ومع ذلك لم تكن شيوعية الحرب تعبيراً بسيطاً عن الأعراف الروسية . فقد شنت حرباً على المجتمع المحلي الفلاحى ، وعلى كل أعراف حياة الفلاحين الروس . ولكنها جسّدت في ذلك عملية تحديث وحشية من أعلى ، كانت لها سوابق في عملية التغريب الاستبدادية التي فرضها بطرس الأكبر^(٥) .

ولقد تأثرت شيوعية الحرب بصورة حتمية بمفارقات التاريخ الروسى ، ولكن جذورها كانت ممتدة في حركة «التنوير الأوروبي» التي كانت تسمى إليها الماركسية الكلاسيكية .^(٣) وعلى غرار «القفرة الكبرى إلى الأمام» في الصين ، كانت شيوعية الحرب يوتوبيا غربية . فهي لم تكن وضعا فرضته على البلاشفة ضرورات الحرب ، بل كانت تجسيدا ماركسيا للمشروع التنويرى الذي يدعو إلى حضارة عالمية .

وفي أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتى في عام ١٩٩١ اضطلعت روسيا بمشروع تغريبى آخر . وعن طريق سياسة العلاج بالصدمة التي نفذها ييجور جيدار ، حاولت حكومة ما

(٥) بطرس الأكبر: (١٦٧٢ - ١٧٢٥)، إمبراطور روسيا (١٧٢١ - ١٧٢٥) وقصرها (١٦٨٢ - ١٧٢٥) ، ومؤسس نهضتها الحديثة . ظهرت موهبته في سن مبكرة . اهتم ببناء الأسطول وإدخال النظم العصرية في الجيش . أدخل تقنيات الصناعة الأوروبية في روسيا ، ونقل العاصمة إلى مدينة بطرسبرج التي بناها على بحر البلطيق ، وحرر النساء من ذل الاستعباد . أمر الأشراف بحلق لحاهم ، وأمر الروس بارتداء الملابس الأوروبية . وقد نفذ إصلاحاته بدقة وقسوة وصرامة ، فأثار عليه العناصر للمحافظة ورجال الدين - المترجم .

(٣) من أجل الإلمام بالاستمزاج بين الأهراف الشقافية الأوروبية والروسية في الفلسفة اللينينية ، انظر ، ألين بازانكون ، *The Rise of the Gulag: Intellectual Origins of Leninism* ، نيويورك : كوتينوم ، ١٩٨١ .

بعد الشيوعية بقيادة بوريس يلتسين أن تتبع مشورة المنظمات عبر الوطنية والمستشارين الغربيين، وتغرس في روسيا اقتصاد سوق على الطراز الأمريكي .

وكما كان متوقعا، بل وحتما في الحقيقة، أخفقت المحاولة. فقد ظهر نوع جديد من الرأسمالية الروسية، يختلف عن أي رأسمالية في الغرب وعن الرأسماليات التي تطورت في غيرها من بلدان ما بعد الشيوعية. ويرتبط مستقبل روسيا بهذا النوع من الرأسمالية المحلية، وليس النموذج الذي حاول جيدار، باعتباره الأخير في طابور طويل من دعاة التفريب الروس، أن يفرضه عشا على البلد في الفترة ١٩٩٢ - ١٩٩٣ .

وتوحى سياسات حكومة يلتسين، منذ أن تخلت عن العلاج بالصدمة أنه قد أدرك هو ومستشاروه أن التحديث وفقا لنموذج أي اقتصاد سوق غربي لن ينجح في روسيا، بل وربما لا يكون مرغوبا فيه .

ففي روسيا اليوم أصبحت التنمية الاقتصادية وبناء الدولة أمرين لا يمكن الفصل بينهما، وينبغي أن يسيرا معا إذا أريد التخلص من سيطرة رأسمالية النهب التي أعقبت على الفور فترة ما بعد الشيوعية. فمما لا غنى عنه للتحديث التواصل وجود دولة عصرية لديها مؤسسات فعالة تضطلع بالتنفيذ .

إن الحداثة التي مازال على روسيا أن تحققها لا يمكن أن تكون حداثة أمة أوروبية. ومن المحتوم أن تكون حداثة بلد لديه كل من المصالح والأعراف الأوروبية والآسيوية. كذلك لا يمكن نقل المؤسسات الاقتصادية أو السياسية من أي بلد آخر إلى الظروف الفريدة لروسيا ما بعد الشيوعية. والحديث المرسل عن روسيا بوصفها دولة انتقالية لا يجيب عن السؤال الوحيد الجوهرى، ألا وهو الانتقال إلى ماذا؟

ولاشك في أن الرأسمالية الفوضوية التي حلت محل التخطيط المركزي السوفيتي هي مرحلة من مراحل التغيير، وليست نقطة النهاية في التطور الاقتصادي الروسى . ولكنه ليس تطورا في اتجاه أي اقتصاد غربي، بل هو تطور إلى نوع هجين من الرأسمالية يزداد تماثلا مع تلك الرأسمالية التي كانت قائمة في روسيا قبل الثورة. وهي ليست السوق الحرة التي نتحدث عنها الكتب المدرسية الجديدة في الغرب، وإنما هي رأسمالية يتعايش فيها تدخل الدول على نطاق واسع مع وجود مجالات مهمة لنشاط المنظمين المتحرر من الضوابط .

ولو تطورت روسيا حقا في هذا الاتجاه لكانت قد استأنفت عملية تحديث ذات طابع

محلّى، بدأت في العقود الأخيرة للعهد القيصري، وهو المسار الذي انحرفت عنه بسبب الحرب العالمية الأولى وسبعين سنة من الحكم السوفيتي.

شيوعية الحرب السوفييتية والعلاج بالصدمة في فترة ما بعد الشيوعية

مثلما كانت الحال بالنسبة للاتحاد السوفيتي خلال أعوامه السبعين أو نحوها، كانت شيوعية الحرب محاولة لتحديث روسيا وفقا لنموذج غربي. وقد كتب ريتشارد بايس يقول إن «شيوعية الحرب في مجموعها لم تكن «تديرا مؤقتا»، بل كانت محاولة طموحة - وسابقة لأوانها كما تبين فيما بعد - من أجل تطبيق الشيوعية بصورتها الكاملة»^(٤).

وشأن كل الأفكار اليوتوية، كانت شيوعية الحرب التي تتطلب، قبل أن يكون ممكنا تثبيت أركانها، تغييرا غير مسبوق في الطبيعة البشرية. وقد عبر فيدجس عن ذلك بقوله: «كان الهدف الأبعد للنظام الشيوعي هو تغيير الطبيعة البشرية، وهو هدف كانت تقاسمه النظم الأخرى المسماة بالشمولية في فترة ما بين الحربين. وكان ذلك، برغم كل شيء، عصرا للتفاضل اليوتوي بشأن قدرة العلم على تغيير الحياة البشرية. . . . وكان برنامج البلاشفة قائما على المثل العليا للتتوير - إذ كان ينبع من كانط بقدر ما كان ينبع من ماركس - مما جعل الليبراليين الغربيين، حتى في عصر ما بعد الحداثة، يتعاطفون معه»^(٥).

وقد اعترف لينين بأن شيوعية الحرب هي يوتويا. وقال إن البلاشفة مهندسو الروح. وفي كتابه اليوتوي الدولة والثورة كان يتوخى مجتمعا شيوعيا لا يوجد به جيش ولا جهاز للشرطة، ويقوم فيه أي شخص بجميع وظائف الدولة المتبقية. وقد يكون من الضروري في الأجل القصير الاحتفاظ ببعض الممارسات الرأسمالية. أما في الأمد الأطول فإن الاقتصاد الرشيد يجب أن يكون بلا نقود، وبلا ملكية، وبلا دولة، ومع ذلك يكون مخطئا مركزيا!!

وكان لينين يعتقد أن هذه أهداف يمكن بلوغها. وكان في ذلك يتبع ماركس، ويحظى بمصادقة من تروتسكي. وكان تروتسكي، من خلال دفاعه عن «عسكرة العمل»، أحد

(٤) ريتشارد بايس، The Russian Revolution, 1890 - 1919، لندن: كولنز هارڤيل، ١٩٩٦، الصفحتان ٦٧١، ٦٧٢.

(٥) أولاندو فيدجس، A People's Tragedy: The Russian Revolution, 1891 - 1924، لندن: جونانان كيب، ١٩٩٦، الصفحة ٧٣٣.

المهندسين الرئيسيين لشيوعية الحرب . وبالمثل ارتد ستالين إلى نوع من شيوعية الحرب بعد المحاولة القصيرة التي قام بها البلاشفة في التعامل مع الأسواق عند تطبيق «السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب)»^(٦) . وكان جوهر النظام السوفييتي دائما هو ضرورة إعادة تشكيل البشر حتى يتلاءموا مع احتياجات اقتصاد جديد «رشيد» . واستبعدت فكرة أن الاقتصاد إنما يوجد لخدمة البشر .

ومنذ البداية ، قامت الشيوعية السوفييتية بمحاكاة تقنيات الإدارة العالية الكفاءة في أكثر المجتمعات الرأسمالية تقدما . وسعى لينين إلى تطبيق «التايلورية» - أي نظرية المهندس الأمريكي ف . و . تايلور بشأن «الإدارة العلمية»^(٧) وقد استخدمت التايلورية العمل بالقطعة ، ودراسات الوقت والحركة ، في محاولة لإعادة تشكيل نفسية العامل - وهي رؤية سخر منها الكاتب الروسي زامياتين في روايته المعنونة We^(٨) .

وكانت العقيدة البولشفية تتطلب أن يقوم البشر بدور موارد الاقتصاد . واستخدمت «علوم الإدارة» في محاولة لإحداث تغييرات عميقة الأثر في النفسية البشرية . ومن المفيد أن نرى أوجه التشابه بين التصنيع الاجتماعي البلشفي وبين نظرية وممارسة دعاة الأسواق الحرة في أنحاء العالم اليوم .

وفي روسيا - كما حدث في كجمونيا ورومانيا والصين وفي السنوات الأولى لكوبا تحت حكم كاسترو - كانت المحاولة الرامية إلى إقامة نظام اقتصادي استبعدت منه مبادلات السوق هي الطريق إلى الكارثة . فهذه المحاولة ، عندما ألفت الأسعار ، لم تترك وسيلة تستطيع بها جهة ما - سواء مجالس التخطيط الحكومية أو مديرو المؤسسات - تقييم التكاليف النسبية وتقدير المواد النادرة . والأسوأ من ذلك أنها ألفت لدى العمال الحافز على توجيه جهودهم إلى المجالات التي تمس فيها الحاجة إليها . وهذا بدوره جعل اللجوء إلى الإكراه والقهر أمرا لا مفر منه .

(٦) New Economic Policy (NEP) : في مارس عام ١٩٢١ اعتمد المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي الروسي (البولشفيك) ، بناء على مبادرة من لينين القرار الخاص بـ «السياسة الاقتصادية الجديدة» ، التي كانت تهدف إلى التغلب على عناصر الرأسمالية ، وبناء اقتصاد اشتراكي ، عن طريق استخدام آليات السوق والتجارة ودوران النقود . وكانت تقوم على تحالف الطبقة العامة والفلاحين . وكان من اللحن أن تؤدي هذه السياسة في بدايتها إلى انتعاش العناصر الرأسمالية في المدينة والريف - لترجم .

(٧) لم ينشر عرض يوثق به عن حياة تايلور وأعماله إلا في عام ١٩٩١ ، انظر ، تشارلس د . ريدج ، Myth

and Reality ، هوموود ، إلينوى : إروين ، ١٩٩١ .

(٨) انظر ، فيدجس ، المرجع السابق ، الصفحة ٧٤٤ .

وقد عبر فيدجس عن ذلك بقوله ، «مع عدم وجود حافز السوق ، الذي كانوا يرفضونه على أسس أيديولوجية ، لم تكن لدى البلاشفة وسيلة للتأثير على العمال سوى التهديد باستخدام القوة . . . وكان ذلك هو السبب في عسكرة الصناعة الثقيلة : فوضعت المصانع الإستراتيجية تحت الأحكام العسكرية ، وفرض الانضباط العسكرى على مواقع العمل ، وعوقب العمال المستمرون في الغياب بالإعدام رميا بالرصاص بدعوى الهروب من الجبهة الصناعية»^(٨) .

إن رفض مبادلات السوق باعتبارها الأداة التنظيمية المحورية في الاقتصاد الحديث يؤدي بصورة حتمية إلى الاعتماد الشديد على الإكراه من جانب الدولة . وكانت التكاليف البشرية لذلك تشمل إرهاب ملايين الأرواح وتحطيم حياة بشر بلا عدد . وتبين أن منافعها الاقتصادية ضئيلة أو غير مؤكدة أو وهمية . لقد عانى من عانى ومات من مات بسبب المشروع السوفيتي ، وكان كل ذلك بغير مقابل .

وقد أوجز بايس الأثار التي ترتبت على شيوعية الحرب السوفيتية بقوله : «إن شيوعية الحرب ، في صورتها الكاملة التي لم تبلغها إلا في شتاء ١٩٢٠ - ١٩٢١ ، تضمنت عددا من التدابير الحاسمة الرامية إلى وضع اقتصاد روسيا بأسره - قوة العمل فيه ، وكذلك طاقته الإنتاجية وآلية التوزيع فيه - تحت إدارة الدولة وحدها» . وشملت تلك التدابير التأميم على نطاق واسع ، وتصفية التجارة الخاصة ، وإلغاء النقود كأداة للتبادل والمحاسبة ، وفرض خطة اقتصادية شاملة واحدة ، واستخدام العمل الإجباري»^(٩) .

وقد أخفقت شيوعية الحرب في تحقيق أي من أهدافها . وبحسب النظرية الماركسية ، فإن التنظيم الاقتصادي الشيوعي كان يمكن أن يحقق إنتاجية أعلى بكثير مما أمكن لل رأسمالية أن تحققه في أي وقت . لكن النتيجة الفعلية للتدابير الجذرية التي نفذت خلال فترة شيوعية الحرب كانت انخفاضا شديدا في الإنتاج الصناعي .

«كان الهدف الاقتصادي الحقيقي للسياسات الصناعية السوفيتية في ظل شيوعية الحرب ، هو بطبيعة الحال زيادة الإنتاجية . غير أن الشواهد الإحصائية تبين أن تأثير تلك السياسات كان بالتحديد هو النقيض . . . ففي ظل شيوعية الحرب ، انخفضت «البروليتاريا» الروسية بنسبة النصف ، وانخفض الإنتاج الصناعي بنسبة ثلاثة أرباع ،

(٨) المرجع نفسه والصفحة ٧٢٤ .

(٩) المرجع نفسه ، الصفحتان ٦٧٢ و ٦٧٣ .

وانخفضت الإنتاجية الصناعية بنسبة ٧٠ في المائة». ويخلص بايس من ذلك إلى القول: «إن البرامج الخيالية، التي وافق عليها لينين، لم تسفر إلا عن تدمير الصناعة الروسية وتمزيق الطبقة العاملة في روسيا»^(١٠).

وكانت النتيجة النهائية لشيوعية الحرب خطوة طويلة إلى الوراء. فروسيا - التي كانت قبل الحرب العالمية الأولى من أسرع اقتصادات العالم نموا - توقفت عن التصنيع، كما تراجعت الزراعة فيها تراجعا شديدا. وكانت شيوعية الحرب أحد العوامل التي أسهمت في وقوع المجاعة في الفترة ١٩٢١ - ١٩٢٢ من خلال سياسة الاستيلاء على الحبوب من المزارعين. وحتى عندما خفف لينين هذه السياسة، فقد تمسك بالمشروع اليوتوبى الرامى إلى إلغاء التبادل السوفى في المنتجات الزراعية: «فهو عندما تخلى عن الاستيلاء على الحبوب، تعلق مكرها بأمل أن يتمكن من تجنب منح حرية التجارة، وأنه لن يكون مضطرا لأن يسمح للسوق بتلويث نقاء العلاقات الشيوعية - لقد كانت الأفكار اليوتوبية متسلطة تماما. ولكن ثبت أن الواقع كان أقوى منها»^(١١). وعندما جاء الوقت الذى غير فيه لينين سياسة الاستيلاء على القمح كان خطر المجاعة واضحا بالفعل. واستادا إلى المصادر السوفيتية فإن المجاعة حصدت أرواح أكثر من خمسة ملايين نسمة^(١٢).

وتم التخلي عن شيوعية الحرب. وفي عام ١٩٢١ اضطر البلاشفة إلى طلب المعونة الدولية. وترتب على ذلك «أن إدارة الإغاثة الأمريكية وغيرها من منظمات المعونة الأجنبية كانت فى إحدى المراحل تقوم بإطعام أكثر من عشرة ملايين فم»^(١٣). وحدث عصيان عمالى فى كرونستاد، وبدأ تطبيق «السياسة الاقتصادية الجديدة» التى استمرت حتى قرابة الفترة ١٩٢٦ - ١٩٢٧، وأعدت مبادلات السوق، لاسيما فى المنتجات الزراعية. وكما يقول بيكر فإن لينين طبق السياسة الاقتصادية الجديدة «لكى تتاح للحزب فرصة لالتقاط الأنفاس، وذلك بالاستعاضة عن الاستيلاء على الحبوب بالضرائب، وإعادة فتح أسواق الأغذية، وذلك كجزء من تراجع واسع النطاق عن اليوتوبيا التى لا توجد فيها نفود أو حقوق ملكية والتى حاول أن يطبقها بعد عام ١٩١٨»^(١٤).

(١٠) المرجع السابق، الصفحات ٦٩٥ إلى ٦٩٧.

(١١) م. نيكريش، ا. هيلر، *Utopia in Power. The History of the Soviet Union from 1917 to the Present*.

١١٥ إلى ١٣٦.

(١٢) وردت فى م. نيكريش، ا. هيلر، المرجع نفسه، الصفحة ١٢٠.

(١٣) ج. بيكر، *Hungry Ghost: China's Secret Famine*، لندن: جون موراي، ١٩٩٦، الصفحة ٣٨.

(١٤) المرجع نفسه، الصفحة ٣٨.

إن المجاعات الكبرى التي عانتها روسيا في وقت لاحق (مثل المجاعة التي حدثت في الفترة ١٩٣٢ - ١٩٣٣) لم تكن بسبب محاولة إضفاء الطابع الاشتراكي على الصناعة، بل بسبب تحويل الزراعة إلى الجماعية. فعلى غرار شيوعية الحرب، كان هذا التحويل تطبيقا مباشرا للعقيدة الماركسية. فقد كان كل من ماركس نفسه وبيوريجي بليخانوف^(*)، أول المفكرين الروس الماركسيين العظام، يعتقدان أن مستقبل الزراعة يتطلب تصنيعها واستعمال الأعراف الفلاحية.

كان ماركس ينظر إلى مستقبل الزراعة باعتباره تطورا لصناعة القرن التاسع عشر التي يمكن أن تحمل فيها المزارع الصناعية العملاقة نتيجة له محل حيازات الفلاحين الصغيرة. وكان ذلك في جانب منه لأن ماركس اتخذ من المنصع الرأسمالي في القرن التاسع عشر نموذجه للتنظيم الرشيد للإنتاج. ولكن ذلك كان أيضا نتيجة لاعتقاده بأن المجتمع لا يمكن أن يكون مجتمعا اشتراكيا إلا إذا أصبحت غالبية أعضائه بروتارياتيا صناعية.

وكانت العقيدة الماركسية الجامدة القائلة بأنه يجب تصنيع الزراعة هي جوهر المشروع البولشفي لتحديث روسيا. وكانت نتيجة التحول إلى الجماعية في الزراعة والقضاء على طبقة الكولاك^(**) هي التدمير الفعلي لأعراف الزراعة الفلاحية في روسيا. وظلت بعض المهارات الزراعية باقية في المساحات الخاصة الصغيرة التي اعتمد عليها في أغلب الأحوال بقاء الناس العاديين على قيد الحياة في فترة العلاج بالصدمة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وكذلك في فترة التحول إلى الزراعة الجماعية. ومع ذلك كان إضعاف قدرة روسيا - بصورة دائمة - على إطعام نفسها، هو ثمن السياسة البولشفية التي تجسدت في إرغامها على قبول تحديث يتبع نموذج التطور الصناعي في أوروبا في القرن التاسع عشر.

ووفقا لتقديرات كونكويست، فإنه في الفترة بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٣٧ مات في

(*) جورجى فالتينو بليخانوف: (١٨٥٦ - ١٩١٨)، مؤسس الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية. بدأ كفاحه قائدا للتنظيم الناردوني «الفكر والحركة». خاض معركة فكرية طويلة وضع خلالها عدة كتب كان من أهمها «تطور النظرة الواحدة إلى التاريخ». وتوجد ترجمة عربية لهذا الكتاب قام بها محمد مستجير مصطفى، وراجعها مراد وهبة. وقد صدرت الترجمة عن «دار الكاتب العربي للطباعة والنشر» بالقاهرة في عام ١٩٦٩ - المترجم.

(**) الكولاك: الفلاح الروسي الفنى الذى كان يمتلك قطعة أرض ويستأجر الفلاحين لزراعتها. وكان معروفا في روسيا القيصرية في القرن التاسع عشر - المترجم.

الاتحاد السوفييتي أحد عشر مليوناً من الفلاحين، فضلاً عن هلاك ٣,٥ مليون غيرهم بالجلوج (*). (١٥) واستناداً إلى حسابات هيلمان، فإن ما بين سبعة وثمانية ملايين شخص ماتوا جوعاً في الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٣٣. (١٦). وكانت النتيجة عمالة، ولكن على نطاق واسع، عندما اتخذ ماو من التحول إلى الزراعة الجماعية في الاتحاد السوفييتي نموذجاً لتحديث الصين.

وكانت روسيا في العقد الأخير من العهد القيصري قد سلكت طريقاً آخر في اتجاه التحديث. ففي قانون صدر في ٩ من نوفمبر عام ١٩٠٦ كان رئيس الوزراء الإصلاحي الروسي ب. ا. ستولين (**). قد حرر الفلاحين من التزاماتهم تجاه كوموناتهم، ومنحهم الحق في طلب حصة فيها يحتفظون بها كملكية خاصة. وكان من نتيجة ذلك أن تقدم ما يقرب من ربع أسر الفلاحين في روسيا الأوروبية، في الفترة ما بين عامي ١٩٠٦ و١٩١٦، بالتماسات للحصول على ملكية خاصة لقطع الأرض التي يزرعونها.

وثمة خلافات مهمة في الرأي حول آثار إصلاحات ستولين. فليس هناك ما يؤكد أن تلك الإصلاحات كان باستطاعتها منع الثورة في روسيا لو أن اغتيال ستولين لم يقع في عام ١٩١١، ولو لم تقف الحرب العالمية حائلاً دون مواصلة روسيا القيصرية تطبيق الإصلاحات. ولكن من الواضح أن إصلاحات ستولين، على خلاف شيوعية الحرب والتحول إلى الجماعية في الزراعة، كانت تشجع على تحديث يتلاءم مع كثير من احتياجات روسيا وظروفها المتميزة.

وكان كل من شيوعية الحرب، والتحول إلى الزراعة الجماعية، تعبيراً عن نفس

(*) الجولوج: معسكرات للأشغال الشاقة في الاتحاد السوفييتي السابق، كان يرسل إليها المدانون بجرائم خطيرة، سواء جنائية أو ضد الدولة. كتب عنها ألكسندر سولجيتسن روايته المعروفة «أرخييل الجولوج» التي وصف فيها ما كان يزعم أنه أهوال وظائع ترتكب في هذه المعسكرات. وقد بدأت الأجزاء الأولى من هذه الرواية في الصدور في باريس في عام ١٩٧٤ - المترجم.

(١٥) روبرت كونكويست، Harvest of Sorrow، أكسفورد: إدارة النشر بجامعة أكسفورد، ١٩٨٦.
(١٦) ميشيل إيلمان "A Note on the number of 1833 famine Victims" في مجلة دراسات سوفييتية، ١٩٨٩. وردت في بيكر، المرجع السابق، الصفحة ٤٦.

(**) بيوتر أركاديفتش ستولين: (١٨٦٣ - ١٩١١)، رئيس وزراء روسيا في الفترة ١٩٠٦ - ١٩١١. اشهر بمناعته للحركات الثورية، أعدم في عهده آلاف الثوريين. سهلت تشريعاته بشأن الإصلاح الزراعي على الفلاحين شراء الأرض. حاول أن يقضي بالارهاب على ماكان يعتقد أنه إرهاب، فأغتل على يد إرهابي في عام ١٩١١ - المترجم.

المشروع الماركسي الذي كان يرمى إلى بناء اقتصاد يقضى فيه على مبادلات السوق . وباستثناء فترات قصيرة ، مثل فترة «السياسة الاقتصادية الجديدة» فى العشرينيات ، و«بيرسترويكا» جورباتشوف ، وعلى الرغم من الأسواق التى كانت متشرة طيلة العهد السوفيتى ، فقد كان هذا المشروع قائما طوال وجود الاتحاد السوفيتى^(١٧) .

وكان النظام السوفيتى ، منذ بدايته وحتى نهايته ، يعمل على تنفيذ مشروع محكوم عليه بالإخفاق لتحديث روسيا ، وفقا لنموذج غربى ماركسى . وهذا لا يعنى إنكار أنه كان هناك فى بعض الأحيان تأييد للمشروع بين الروس . والحقيقة أن هذا التأييد كان فى ذروته خلال أسوأ الظروف ، أى فى العهد الستالينى . ومن الخطأ القول ، مثلما فعل الكسندر زينوفيف ، أن الستالينية كانت ممارسة لسلطة شعبية ؛ ولكنه يصدق القول على بعض أسوأ الفظائع الستالينية ، مثلما يصدق على الثورة الثقافية فى الصين ، أنها ما كان ممكنا أن تحدث بالتعاون الفعال من جانب الناس العاديين^(١٨) .

ومع ذلك فإن مبرر وجود الدولة السوفيتية طوال تاريخها ، هو تحديث كانت بداياته وأهدافه «غريبة» دون التباس . وفى أول سيرة للينين تستفيد بالأرشيف الذى أصبح متاحا بعد انهيار الاتحاد السوفيتى ، يذكر فولكونجوف أن «شيوعية الحرب . . . كانت هى أساس سياسة لينين وجوهرها ، وأن إخفاقها الكامل كان هو السبب الذى أرغمه على اللجوء إلى طوق النجاة المتمثل فى السياسة الاقتصادية الجديدة . وشيوعية الحرب . . . لم تمت تماما ، ولكنها استمرت على قيد الحياة فى صور شتى ، بل ظل لها وجود حتى نهاية الثمانينيات»^(١٩) . وكان المشروع البولشفى الذى جسده النظام السوفيتى طوال تاريخه هو مشروع فرض حداثة غربية على روسيا ، ولكن دون رأسمالية .

وكان من أثر هذا المشروع إخراج التحديث عن المسار السليم الناتج من ظروف البلد ، الذى بدأ فى أواخر العهد القيصرى . وكان من المخلفات الأساسية التى تركها العهد

(١٧) ناقشت الأصول الماركسية للشمولية السوفيتية فى دراسة بعنوان "Totalitarianism, reform and civil society" ، وردت فى كتابي Post-liberalism: Studies in Political Thought ، روتلندج :

لندن ونيويورك ١٩٩٣ ، الفصل الثانى عشر .

(١٨) فيما يتعلق بزيتوفيف ، انظر ، The Reality of Communism ، لندن : جولانتر ، ١٩٨٤ ؛ Homo Sovieticus ، لندن : جولانتر ، ١٩٨٥ ؛ Perestroika in Partygrad ، لندن ، پتر أوين ، ١٩٩٠ ؛

Katastroika ، لندن : ندى كلاريدج برس ، ١٩٩٠ .

(١٩) ديمترى فولكونجوف ، Lenin: Life and Legacy ، لندن : هاربركوليتز ، ١٩٩٥ ، الصفحة ٣٣٤ .

السوفييتي لحكومة ما بعد الشيوعية اقتصاد زراعى مخرب . ونظرا لأن روسيا تمثل الآن مجتمعا حَضْرِيًا ، فإن سكانها الريفيين الذين يتناقص عددهم يعيشون فى عزلة ، وكذلك فى فقر . ففيما بين عامى ١٩٩١ و١٩٩٥ انخفض عدد سكان الريف من ٣٨,٥ مليون نسمة إلى ٣٥ مليوناً ، لأن من استطاعوا إلى ذلك سبيلا فروا إلى المدن . وقد تضاعفت المحصولات بحيث لم يزد محصول عام ١٩٩٦ على محصول عام ١٩٩٥ إلا قليلا ، فى حين أن هذا الأخير كان أسوأ محصول خلال ثلاثين عاما^(٢٠) .

كما أن إنتاج الحبوب فى الاتحاد السوفييتي لم يصل فى أى وقت إلى مستواه فى أواخر العهد القيصري ، ولكن الحفاظ على الإنتاج السوفييتي كان هدفا استحاله تحقيقه فى روسيا ما بعد الشيوعية . كذلك فإن مخططات خصخصة الأراضى التى أعدت بصورة خاطئة لم تؤد إلا إلى زيادة متاعب عمال الريف الذين لم تعد الرأسمالية الفلاحية بالنسبة لهم حتى مجرد ذكرى . وإذا كان التحول إلى جماعة الزراعة قد خلق بوليتاريا ريفية فى روسيا ، فإن الغاء التحول الإلزامى إلى جماعة الزراعة قد أنتج طبقة دنيا ريفية .

والفكر الذى ألهم إصلاح السوق فى روسيا يختلف عن اللينينية فى النظام الاقتصادى الذى سعى إلى إقامته . ولكن نتائجه من حيث المعاناة البشرية والدمار الاقتصادى كانت مماثلة بدرجة مذهلة .

فعلى غرار اليوتوبيا التى تصورها لينين ، كانت السوق الحرة العالمية تهدف إلى إيجاد وضع للأمور لم يوجد أبداً من قبل فى المجتمع البشرى - ويذهب إلى مدى أبعد كثيرا من السوق الحرة البريطانية فى منتصف العصر الفيكتورى - والنظام الاقتصادى الدولى الليبرالى الذى كان قائما حتى عام ١٩١٤ . ففى سوق حرة عالمية لا تكون حركات السلع والخدمات ورسوم الأموال مقيدة بضوابط تفرضها أى دولة ذات سيادة ، وقد انتزعت الأسواق من مجتمعاتها وثقافتها الأصلية . فهذه يوتوبيا منفصلة عن التاريخ ، ومعادية لاحتياجات البشر الحيوية ، وهى أخيرا تؤدى إلى تدمير للتراث أشد من أية محاولة أخرى أجريت فى هذا القرن .

وسياسة «دعه يعمل» على النطاق العالمى لا تتطلب قيام نظم شمولية . وهى لا تمتد نطاق عمل الدولة بحيث يشمل كل المؤسسات الأخرى ، وإنما تحد منه بحيث لا يتجاوز

(٢٠) «Russian farm reform's fruit: a rural underclass» ، فى جريدة إنترناشونال هيرالد تريبيون ،

عدد ٢ من أبريل عام ١٩٩٧ .

أكثر وظائفها اتجاهها للقمع . ويجرى تمويل كثير من وظائف الضبط الاجتماعى إلى الأسواق التى تتولى صياغة رأى العام وتشكيل تفضيلات المستهلكين .

إن السوق الحرة العالمية هى يوتوبيا لما بعد الشمولية . وهى تتطلب ممارسة العنف أساساً عند أطراف قوتها وفى المراحل المبكرة لقيامها .

ويمثل كل من النظام السوفيتى والسوق الحرة تجربة فى الترشيد الاقتصادى . ويقول المتعاملون فى السوق الحرة إن الإنتاجية غير المسبوقة لنظام اقتصادى رشيد متودى إلى زوال أسباب النزاع الاجتماعى والحرب . أما الماركسيون السوفيت فقد دأبوا على تأكيد أن الإنتاجية الأخذة فى الارتفاع مستقوم من تلقاء نفسها بحل غالبية المشكلات الاجتماعية . ويعطى كل من الطرفين الأولوية للنمو الاقتصادى على جميع الأهداف والقيم الأخرى .

وشأن البلاشفة ، فإن الدعاة الأساسيين للسوق الحرة معادون بشكل صارم لأى تراث يقف فى طريق ما يرون أنه تقدم اقتصادى . وإذا تطلبت أهدافهم التضحية بوضع ثقافات تترضى طريقها ، فذلك ثمن لا يتقاعسون عن دفعه .

إن سياسة «دعه يعمل» على النطاق العالمى ، والمشروع الشيوعى الذى كان يعث الحياة فى الاتحاد السوفيتى السابق ، لديهما أعداء متماثلون كثيرون . فهما معاديان للاختلافات الوطنية والثقافية فى الحياة الاقتصادية وللموروثات من الأعراف والتاريخ . كما أنهما يبغضان تأخر الفلاحين والحياة القروية ، ولا يتسامحان مع الفردية الجامحة للبورجوازية ولا مع عناد العاملين .

والضحايا الرئيسيون للسوق الحرة العالمية ، وكذلك ضحايا شيوعية الحرب ، هم الفلاحون . وبدرجة أقل ، وإن تكن ملحوظة . والعمال الصناعيون فى المدن والطبقات الوسطى المهنية .

العلاج بالصدمة، يوتوبيا غربية أخرى

يبدو أن قدر روسيا فى القرن العشرين هو أن تستخدم كحقل لاختبار يوتوبيات غربية . وقد كانت الشيوعية السوفييتية واحدة من تلك اليوتوبيات ، ولكن كان منها أيضا

إصلاحات جورباتشوف وسياسات العلاج بالصدمة التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفيتي (٢١).

إن النظام السوفيتي الذي سعى جورباتشوف إلى تجديده لم يكن قابلاً للإصلاح . فقد كان فاقداً للشرعية السياسية في روسيا وفي «الخارج القريب» لدى القوميات السوفيتية . ولم يكن الاقتصاد السوفيتي يعمل خارج القطاع العسكري الضخم إلا بالقدر اللازم لتغطية السوق السوداء والسوق الرمادية^(*) . وكان «عصر الركود» في أيام بريجنيف عصر الازدهار لبعض الأشخاص في بعض مناطق الاتحاد السوفيتي لأنه جعل من الفساد مؤسسة قائمة ، وبالتالي أتاح لمبادلات السوق أن تزدهر .

وقد بدأ برنامج جورباتشوف الإصلاحى كحملة لمناهضة الفساد . وكان غرضه الرئيسى «تسريع» الاقتصاد ، ولكن كان من بين نتائجه تباطؤ الاقتصاد ، ثم أعقب ذلك الانهيار . فالنظام السوفيتي للتخطيط المركزى ما كان يستطيع أن يعمل من غير الأسواق التي أداتها بالإجرام .

وكانت سياسات العلاج بالصدمة التي فرضت في أعقاب النظام السوفيتي ، هي في جانب منها اعتراف بأن النظام الاقتصادى السابق قد انهار تماما ، ولكنها كانت أيضا محاولة لإعادة بناء روسيا وفقا لنموذج آخر من نماذج اليوتوبيات الغربية . وهي سياسات كانت قد حققت بعض أهدافها في دول أخرى ، وإن كان قد ثبت عدم ملاءمتها لروسيا .

وفي الوقت الذى طبق فيه العلاج بالصدمة فى أواخر عام ١٩٩١ ، كان من المستحيل إجراء انتقال تدريجى من التخطيط المركزى ، فالاقتصاد السوفيتي القديم كان قد تحلل تقريبا . وكانت سياسات جورباتشوف القائمة على إعادة البناء (البيريسترويكا) والمصارحة السياسية (الجلاسنوست) قد أفضت إلى فوضى . فلم تتميز فقط مؤسسات التخطيط المركزى ، بل تمزق أيضا جانب كبير من جهاز الدولة السوفيتية . ولم يكن هناك جهاز قادر على تنفيذ برنامج للإصلاح التدريجى . كما لم يكن تفكيك المؤسسات والسياسات

(٢١) ناقشت المرحلة الأخيرة من القيصرية فى فصل بعنوان «Totalitarianism, reform and civil society» فى كتابي ، Post-liberalism ، المرجع السابق ، الصفحات ١٦٤ إلى ١٦٨ . انظر أيضا ، ب ، جاتريل ، The Tsarist Economy 1850 - 1917 ، لندن : ب . ت . باتسفورد ، ١٩٨٦ .
(*) Grey market : السوق الرمادية هي السوق غير الرسمية التي يتم فيها شراء وبيع الإصدارات الجديلة من الأسهم قبل طرحها فى بورصة الأوراق المالية . المترجم .

القديمة على مراحل من الخيارات المتاحة لأول حكومة فى روسيا فى مرحلة ما بعد الشيوعية .

وكان أهم ما ورثه بوريس يلتسين من ميخائيل جورباتشوف هو استحالة التدرج . وكان المؤيدون الأساسيون لإصلاحات هذا الأخير هم دائما ممن يشكلون الرأى العام فى البلدان الغربية ؛ وفى الاتحاد السوفيتى كانت اليرسترويكيا تثير السخرية والازدراء .

إن إصلاحات جورباتشوف كانت بوضوح غير قابلة للتنفيذ ، بحيث رأى مراقب غريمى فى صيف عام ١٩٨٩ أن الاتحاد السوفيتى قد وصل إلى وضع يمكن وصفه بأنه عشية ثورة : «إن ما نشهده فى الاتحاد السوفيتى ليس إصلاحا فى منتصف الطريق ، بل بداية لثورة لا يستطيع أحد أن يتبا بمسارها»^(٢٢) .

ذلك أن سياسات جورباتشوف قد كشفت عن نظام تضاءلت شرعيته إلى درجة أن أول المستفيدين منه ، وهم كبار المسؤولين الشيوعيين ، لم يكونوا على استعداد للجوء إلى القمع دفاعا عنه . وكان أمرا فريدا أن إمبراطورية لها تاريخ مفرغ فى القمع كفت عن الوجود دون عنف شديد سواء من جانب الحكام أو للمحكومين . وعندما أجهض الانقلاب الذى دبر ضد جورباتشوف ، فى الفترة من ١٩ إلى ٢١ من أغسطس عام ١٩٩١ ، كان من الواضح أن العصر الجديد ، عصر ما بعد السوفيت ، قد أصبح أمرا لا رجعة فيه^(٢٣) .

وكان تعيين ييجور جيندار فى نوفمبر عام ١٩٩١ للإشراف على انتقال روسيا إلى اقتصاد السوق قد بين أن يلتسين أدرك أن الإصلاح عن طريق سلسلة من التدابير المنظمة لم يعد ممكنا ، لو أن ذلك كان ممكنا فى أى وقت . ولم يكن هناك مفر من نوع ما من العلاج بالصدمة - باتخاذ تدابير سريعة وراдикаلية وبعيدة الأثر - وليس إصلاحات تدريجية وعلى خطوات .

غير أن النماذج التى استند إليها العلاج بالصدمة فى روسيا - وهى النماذج التى نجحت فى السيطرة على التضخم فى بعض بلدان أمريكا اللاتينية ، ومحاكاة ذلك النجاح فى

(٢٢) جون جراى ، «The risks of collapse into chaos» ، فى جريدة فاينانشيال تيمس ، عدد ١٣ من سبتمبر عام ١٩٨٩ .

(٢٣) أجريت تقييما مبكرا للانقلاب السوفيتى الذى وقع فى أغسطس عام ١٩٩١ فى كتابى The Strange Death of Perestroika, Causes and Consequences of the Soviet Coup ، لندن : معهد الدفاع الأوروبى والدراسات الإستراتيجية ، سبتمبر عام ١٩٩١ .

بولندا ما بعد الشيوعية. لم تكن أمامها فرصة تذكّر للتطبيق في روسيا. كما أن العمر الطويل الذي عاشه النظام الشيوعي في روسيا، والحجم الهائل للمجمع العسكري الصناعي الذي يستأثر بما يقرب من ثلث الناتج المحلي الإجمالي^(٢٤)، كانا فريدين في بابهما. وعلى نحو أكثر تعميماً، فإن الضعف الذي كان يتسم به في روسيا كل ما له نسب للمؤسسات المدنية التي جعلت بولندا أول بلد يخرج على الشيوعية - فضلاً عن عدم وجود أعراف راسخة لدوائر أعمال خاصة شرعية - كان معناه عدم توافر الشروط اللازمة لنجاح العلاج بالصدمة. ذلك أن العلاج بالصدمة يفترض مسبقاً وجود مجتمع قوى، واقتصاد نابض بالحياة، وإن يكن مكبوتاً. والعلاج بالصدمة لا يمكن أن يخلق هذين الشرطين، وإذا ما طبق بغير وجودهما فمن المتوقع أن يسفر عن نتائج معاكسة.

ومع التخلي بصورة فعالة عن العلاج بالصدمة في الفترة ١٩٩٣ - ١٩٩٤، كان من الواضح أن يلتصق قد أدرك أنه من المستحيل غرس نموذج للاقتصاد الغربي بسبب ظروف روسيا، فضلاً عن تاريخها الطويل.

ولا يمكن لأحد أن ينكر تكاليف العلاج بالصدمة وفشل هذا العلاج. غير أن ذلك لا يعني أنه كانت هناك سياسة بديلة قابلة للتطبيق لإنجاز الإصلاح الاقتصادي في أواخر عام ١٩٩١. وكان من المعقول القول بأن التغيير خطوة خطوة لم يكن مستطاعاً في ظروف الكارثة التي حلت في الفترة ١٩٩١ - ١٩٩٢، ولكن كان من غير المعقول توقع أن تكون للسياسة التي سبق أن طبقت بقدر من النجاح في بوليفيا أو بولندا نتائج مماثلة في الظروف التي كانت سائدة في روسيا^(٢٥).

(٢٤) OECD Economic Survey: The Russian Federation، باريس: مركز التعاون مع الاقتصادات التي في مرحلة انتقال.

(٢٥) انظر بحثي بعنوان Post - Communist Societies in Transition: A Social Market Perspective، لندن مؤسسة السوق الاجتماعية، ١٩٩٤، الذي أهدى نشره بوصفه الفصل الخامس من كتابي Enlightenment's Wake: Politics, and Culture at the Close Of the Modern Age، لندن ونيويورك: روتلج، ١٩٩٥. وتوجد دراسات نقدية قوية للعلاج بالصدمة في جوناثان ستيل، Eternal Russia، لندن: فاير، ١٩٩٤؛ مارشال جولدمان، Reforms in Russia Have Not Worked Opportunity: Why Economic Shock Therapy in Russia: Failure or Partial Success? تقرير بحثي أعدته راديو أوروبا الحرة/ راديو الحرية، ٣ من أبريل عام ١٩٩٢.

وقد أجاب جيفري ساخس على نقلي في كتابه، Understanding Shock Therapy، لندن: مؤسسة السوق الاجتماعية، ١٩٩٤. وقد أعد صمويل برينان عرضاً مفيداً للاختلافات بين آرائي =

ولم يكن في الوسع تجنب كثير من التكاليف البشرية التي تترتب على تلك السياسات . فهي قد فرضت على حكومة يلتسين باعتبارها قدراً تاريخياً - أى تركات النظام السوفيتي وبرنامج الإصلاح الفاشل على يد جورباتشوف . ولكن جانباً من مأساة العلاج بالصدمة كان مرجعه أن ذلك العلاج كان محاولة لأن تستورد روسيا نظاماً اقتصادياً يقوم على نظريات آدم سميث .

ومن قبيل المقارنة التي تكاد أن تكون حتمية ، أن هناك جوانب مشتركة كثيرة بين نظرية سميث هذه في التحديث الاقتصادي والنظريات الماركسية التي قامت المؤسسات السوفيتية على أساسها . وكما قال جوناثان ستيل : «إن نظرية كارل ماركس بشأن الحتمية التاريخية قد تبنتها فرية جديدة من المهندسين الاجتماعيين ، المستقرين في صندوق النقد الدولي ، ووزارة الخارجية الأمريكية ، وحكومات أوروبا الغربية ، وهيناتا تمرير معظم الصحف الغربية الرئيسية»^(٢٦) .

وثمة سمة مميزة دائمة في كل هذه العقائد ، هي قبولها لأفكار الترشيد الاقتصادي . وفي عام ١٩٢٠ علق برتراند راسل على النظرية المادية الماركسية في التاريخ ، التي استند إليها المشروع البولشفي في روسيا ، بقوله :

إن رغبة المرء في تقدم اقتصاده الخاص أمر معقول نسبياً . وكان في رأي ماركس - الذي ورث من الاقتصاديين الأرثوذكس البريطانيين في القرن الثامن عشر سيكلوجية الترشيد - أن السعي للإثراء الشخصي يبدو هو الهدف الطبيعي لأفعال الإنسان السياسية . ولكن علم النفس الحديث غاص إلى أعماق أبعد في محيط الخجل الذي يسبح فوقه في أمان الزورق الضئيل للعقل البشري ، ولذا فإن التناؤل الفكري^(*) الذي ساد في عصر سابق لم يعد ممكناً لدى الباحث الحديث في الطبيعة البشرية . ومع ذلك فإن هذا التناؤل مازال باقياً

- وأراء جيفري ساخس في مقال له بعنوان «Post - Communism: the rival models» ، في جريدة فاناثيال تيمس ، عدد ٢٤ من فبراير عام ١٩٩٤ ؛ ويوجد عرض أكثر شمولاً للمناقشة التي دارت بين وين ساخس في كتاب روبرت سكيلسكي ، «Russia's Stormy Path to Reform» ، لندن : مؤسسة السوق الحرة ، ١٩٩٥ .

(٢٦) جوناثان ستيل ، «Russia: Boom or bust» ، جريدة أوبزرفر ، عدد ٢٩ من ديسمبر عام ١٩٩٦ ، الصفحة ١٦ .

(*) Optimism : الاعتقاد بأن الخير يتصر في نهاية المطاف على الشر ، وبأن العالم الحاضر هو أفضل عالم ممكن - المترجم .

فى الماركسية مما يجعل الماركسيين جامدين ومتعصبين فى تناولهم لحياة الفطرة . ومن الأمثلة البارزة لهذا الجمود التصور المادى للتاريخ (٢٧).

وراسل نفسه كان تفاؤليا . فالرؤية العقلانية للحياة السياسية ، التى يكون محورها المصلحة الذاتية الاقتصادية لم تخف باختفاء الماركسية السوفييتية . فقد عادت إلى روسيا ، بعد ذلك بسبعين عاما ، مع الاقتصاد الليبرالى الجديد . وكان هناك نوع آخر من العقلانية يحرك التجربة الروسية القصيرة الأمد فى التحديث الاقتصادى عن طريق العلاج بالصدمة .

وهناك اعتقاد شبه ماركسى بالتفوق السياسى للمصلحة الذاتية الاقتصادية ، يُفسَّر بصورة فجأة على أنه يعنى ارتفاع الدخل واتساع الخيارات أمام المستهلكين ، كان هو الأساس لسياسات العلاج بالصدمة فى روسيا . وكما كانت الحال بالنسبة لنظرية المادية التاريخية التى اهتمدى بها البلاشفة فى الممارسة السياسية ، فإن نظريات الليبرالية الجديدة التى قام عليها العلاج بالصدمة كانت تتجاهل كلا من الاحتياجات الدائمة ، وظروف روسيا وأعرافها الخاصة .

وقد صاغ جيدار سياساته تحت تأثير اقتصاديين ، من أمثال جيفرى ساخس ، يرون فى الرأسمالية الأمريكية نموذجا لاقتصادات السوق فى كل مكان : «إن الرأسمالية العالمية هى بالتأكيد أفضل ترتيب مؤسسى شهده العالم فى أى وقت لتحقيق الرخاء العالمى» (٢٨) . ويعتقد ساخس أن مما يشجع على الرخاء العالمى أن تصبح مؤسسات السوق الحرة الأمريكية عالمية النطاق . وهو لا يرى سببا يجعل من روسيا استثناءً من هذا الافتراض (٢٩) .

والحقيقة أنه لا الوضع الذى كان قائما فى روسيا فى أوائل التسعينيات ، ولا تاريخ روسيا الطويل ، كان يسمح بإعادة تنظيم الاقتصاد وفقا لأى من تلك النماذج الغربية . فالعمى الاستثنائى بالتاريخ كان هو وحده الذى يسمح للمستشارين الغربيين ، من أمثال ساخس ، بتصور أن مسألة هوية روسيا ، وهل هى أوروبية أم آسيوية ، وهى المسألة التى لم

(٢٧) ب . راسل ، المرجع السابق ، الصفحة ٨٥ .

(٢٨) جيفرى ساخس «Nature, nurture and growth» ، فى جريدة دى إيكونوميست ، ١٤ من يونيه عام ١٩٩٧ ، الصفحة ٢٤ .

(٢٩) من أجل الاطلاع على دفاع عن آراء ساخس ، انظر ، جيفرى ساخس Understanding Shock Therapy ، المرجع السابق .

تجد حلاً منذ أيام بطرس الأكبر ، يمكن تسويتها في غضون بضعة سنوات من إصلاح السوق .

وكان جوهر برنامج جيدار هو تحرير الأسعار . وفي ٢ من يناير عام ١٩٩٢ ألغيت ضوابط الأسعار المفروضة على ٩٠ في المائة من السلع المتداولة في التجارة . وفي اليوم التالي اختفت الطوابير من أمام المتاجر - وارتفعت الأسعار بنسبة ٢٥٠ في المائة . ولم ترتفع الأجور إلا بما يقرب من ٥٠ في المائة ، وبذلك أصبحت المؤسسات لبعض الوقت أكبر ربحية . وعندما تم تحرير الأسعار كان جانب كبير من الاقتصاد تحت سيطرة الاحتكارات بحيث حقق المحظوظون التحكمون فيها كسبا غير مرتقب ، على حين ازدادت أوضاع غالبية الناس سوءاً .

وقال سكينداسكى عما قام به جيدار من تحرير الأسعار إنه «في تلك السنة الأولى على الروس معاناة رهية ، وتخفض مستوى معيشتهم بما يقرب من ٥٠ في المائة ، ولم يعد باستطاعتهم مواصلة الحياة إلا بالتعلق بقطع الأرض الصغيرة الخاصة بهم وإنتاج غلاتهم بأيديهم»^(٣٠) .

وكان العنصر الثاني في برنامج جيدار للعلاج بالصدمة ، وهو الخصخصة ، ينطوي على كثير من أوجه عدم الإنصاف بحيث كان بداية مشنومة لتجدد الرأسمالية الروسية في فترة ما بعد الشيوعية . وقد بدأت الخصخصة في يولييه عام ١٩٩٢ على أيدي أناتولى تشوبايس ، وهو من رجال الاقتصاد في لينينجراد ، وأصبح في نوفمبر ١٩٩١ رئيساً للجنة الاتحاد السوفييتي لممتلكات الدولة . وبحلول نهاية عام ١٩٩٤ كانت حكومة جيدار قد أتمت خصخصة ثلاثة أرباع المؤسسات الصناعية الروسية المتوسطة الحجم والكبيرة الحجم ، وأصبح نصف الناتج المحلي الإجمالي يتم توليده في القطاع الخاص^(٣١) .

ويؤكد التاريخ التالي للخصخصة في روسيا ما حلز منه شير في منتصف عام ١٩٩٢ ، عندما قال : «مكمن الخطر هو أن دول الغرب ... ستشجع أشكالاً زائفة من الخصخصة يمكن أن تعود بالفائدة على قليلين ، وأن تلحق الضرر بالكثيرين . ويمكن أن تكون النتيجة ، وليس لأول مرة في التاريخ الروسي ، رفضاً للقيم الغربية والتأثير الغربي»^(٣٢) .

(٣٠) سكينداسكى ، المرجع السابق ، الصفحة ١٥٢ .

(٣١) فيما يتعلق ببرنامج الخصخصة في روسيا ، انظر ، ج . د . بلازى ، م . كروموفا ، د . ريبوز ، *Kremlin Capitalism, Privatizing the Russian Economy* ، لندن وإشاكنا : إدارة النشر بجامعة كورنيل ، ١٩٩٧ .

(٣٢) جيمس شير ، «Russia's defence industry - conversion or rescue» ، في مجلة Jane's Intelligence Review ، عدد يولييه ١٩٩٢ ، الصفحة ٢٩٩ .

ومثلما حدث عندما تم تحرير الأسعار، لم تكن المكاسب المتحققة من الخصخصة موزعة توزيعاً متساوياً. فقد سمح للعمال والمديرين بأن يشتروا مجموعات كبيرة من الأسهم بشروط خاصة، ترتب عليها أن كان المطلعون على بواطن الأمور داخل المؤسسات (المديرون والعمال) هم أصحاب المصلحة في ٧٠ في المائة من جميع المؤسسات. وكانت القوائم التي تصدر لأفراد الجمهور لتتيح لهم حق شراء سهم يقوم بشرائها أولئك المطلعون على ما وراء الكواليس. وقد تمكن المديرون في حالات كثيرة من الإثراء من ممتلكات الدولة السوفيتية السابقة.

وكما حدث في معظم البلدان الأخرى في فترة ما بعد الشيوعية، فإن من استفادوا من الخصخصة في روسيا، من أعضاء الحزب المحظوظين، كانوا يزيدون بحوالي مليون ونصف مليون شخص على جميع من استفادوا منها على نطاق روسيا. والأرجح أن انتقال الأصول من المؤسسات التي كانت مملوكة للدولة إلى أقلية ثرية سوف يستمر لبعض الوقت، إذ إن العمال يبيعون أسهمهم ليحصلوا على النقد السائل الذي يحتاجون إليه لمواجهة ضرورات الحياة.

ويرغم ذلك ففي أواخر عام ١٩٩٤ كان أكثر من ٤٠ في المائة من أسهم الشركات المتوسطة الروسية التي تمت خصخصتها مازال مملوكاً للعمال، وأكثر من ١٠ في المائة مازال مملوكاً للدولة. ويبدو أن هذا النمط التعددي للملكية سوف يستمر. ذلك أن الرأسمالية الروسية لن تتطور نحو النموذج الأنجلوسكسوني للملكية حاملي الأسهم، بل سينشأ نظام تعددي يضم مؤسسات كثيرة يديرها مالكوها كما هي الحال في ألمانيا.

وكان العنصر الثالث في سياسات جدار للعلاج بالصدمة هو تثبيت مالية الدولة. وتحشياً مع السياسة التي يروج لها دائماً صندوق النقد الدولي، كان جدار يسعى إلى وضع ميزانية متوازنة لا يتم فيها طبع النقود لمجرد تمويل أنشطة حكومية. وتبعاً لذلك اختزلت المشتريات العسكرية بما يقرب من الثلثين، وخُفِّضت الإعانات التي كانت تقدم لدعم الصناعة تخفيضاً شديداً. وحدث نقص حاد في النقود. ونتيجة لذلك انخفض التضخم مع بداية عام ١٩٩٦ إلى ما يقرب من ٤٠ في المائة. وبذلك حققت هذه السياسة نجاحاً في الجانب الضيق المتعلق بمكافحة التضخم.

ولم يحدث أن كان لدى روسيا في أي وقت «سياسة للتثبيت» من النوع الذي خفِّض التضخم بشدة في هولندا. والذي يقوم على ارتفاع مفاجئ قصير الأجل في الأسعار يعقبه

استقرار نسبي فيها، مما أدى ببعض دعاة العلاج بالصدمة إلى القول بأن هذا العلاج لم يطبق تطبيقاً حقيقياً في روسيا^(٣٢). ولكن حججهم هي في أفضل الأحوال حجة غير قاطعة، لأن نفس الظروف السياسية التي أدت إلى جعل التدرج أمراً غير وارد، هي أيضاً التي استبعدت إحداث صدمة نقدية قصيرة الأجل. وتغيرات العملة في روسيا ترتبط لدى الشعب بنظام ستالين، وأى برنامج للإصلاح الاقتصادي بدأ بتغيير العملة لم يكن فقط مفتقراً إلى الشعبية، بل مفتقراً أيضاً إلى الشرعية بدرجة خطيرة ومندرة بالخطر.

والنتائج السياسية للعلاج بالصدمة لم تكن على هوى مؤيديه. ففي الانتخابات البرلمانية التي أجريت في ديسمبر عام ١٩٩٣ لم يحرز «حزب الخيار الروسي» الذي يترعمه جيندار إلا على ١٣ في المائة فقط من أصوات الناخبين، على حين أن حزب فلاديمير جرينوفسكي المعادي للسامية والمعادي للأجانب، والذي يحمل اسماً لا صلة له به، وهو «الحزب الديمقراطي الليبرالي»، أحرز ٢٤ في المائة. وهكذا فإن العلاج بالصدمة الذي كان يجسد الإستراتيجية الوحيدة المتاحة، لم يعد ممكناً استمراره من الناحية السياسية، ذلك أن تكاليفه الاجتماعية أصبحت أفدح من أن تحتمل.

التكاليف الاجتماعية للعلاج بالصدمة في روسيا

لا يمكن الادعاء بأن الفقر والجريمة كانا غير معروفين في الاتحاد السوفييتي. ومع ذلك فإن العلاج بالصدمة جلب معه المزيد من إفقار غالبية الروس، وجعل الجريمة مرتبطة بالاقتصاد ارتباطاً غير مسبوق.

فقد ترتب على انهيار النشاط الاقتصادي، وتفكك الخدمات التي تقدمها الدولة، انخفاض المستويات المعيشية لغالبية السكان، ودفع جزء منهم إلى العوز المطلق، والقضاء التام على قرابة نصف الطبقتين الوسطى والمهنية، وانخفاض معدل المواليد والأجل المتوقع (متوسط الأعمار) انخفاضاً أشد مما حدث في أي بلد حديث آخر في وقت السلم. وفي الوقت نفسه أصبح الروس جميعاً، نتيجة لتراخي قبضة الدولة، عرضة للاستغلال من جانب الجريمة المنظمة.

(٣٢) من أجل الإلمام بصيغة معتدلة للحجة القائلة بأن العلاج بالصدمة لم يكن يطبق بصورة مشقة في روسيا، انظر، وتشارد لايارد وجون باركر، *The Coming Russian Boom*، نيويورك: ذي فري برس، ١٩٩٦، الصفحة ٦٥ وما بعدها.

يقول بيتر تروسكوت ، فى المسح الذى أجراه لأثار إصلاح السوق : « كان للإصلاحات الاقتصادية فى الاتحاد الروسى أثر مدمر على غالبية الشعب »^(٣٤) . ففى الفترة ما بين ديسمبر عام ١٩٩١ وديسمبر عام ١٩٩٦ زادت أسعار السلع الاستهلاكية ١٧٠٠ مرة ، ونتيجة لذلك لم يعد لدى ٨٠ فى المائة من الأهالى الروس مدخرات من أى نوع .^(٣٥) ويمثل أصحاب الدخل المنخفض حوالى ثلث السكان (ما بين ٤٤ و ٥٠ مليون شخص) ، ولكنهم مهددون بالسقوط إلى فئة المعوزين - أى الفئة التى تشغل نسبة ما بين ١٥ و ٢٠ فى المائة من السكان (من ٢٢ إلى ٢٣ مليون شخص) ، والتى لا يستطيع أفرادها شراء أدوية أو ملابس جديدة . وهناك ما بين ٥ و ١٠ فى المائة من السكان (ما بين ٧ ملايين و ١٥ مليون شخص) يعانون الحرمان الشديد وسوء التغذية .

وعلى وجه الإجمال ، فقد سقط حوالى ٤٥ مليون شخص فى براثن الفقر منذ بداية التحول إلى اقتصاد السوق فى عام ١٩٩١ .^(٣٦) وفى الوقت نفسه ، فإن الروس الجدد ، الذين استفادوا من إصلاحات السوق - ما بين ٣ و ٥ فى المائة من السكان ، أى حوالى ٤ ، ٤ إلى ٧ ، ٢ مليون روسى - كان لديهم فى عام ١٩٩٥ دخل شهري يبلغ فى المتوسط ما بين ٥٠٠ دولار و ١٠٠ ألف دولار!^(٣٧)

وقد ذكر فيكتور إليوشن ، الذى كان بوريس يلتسين قد عينه بعد الانتخابات الرئاسية فى عام ١٩٩٦ نائباً أول لرئيس الوزراء ، أن ربع المواطنين الروس يعيشون تحت المستوى الرسمى للكفاف ، وهو ٧٠ دولاراً فى الشهر ، على حين انخفض الدخل الحقيقى للسكان بنسبة ٤٠ فى المائة ، وازداد عدم التكافؤ الاقتصادى بصورة مثيرة . إذ يذكر لا يارد وباركر أن « الأثرىاء الجدد أصبحوا فى وضع أفضل من ذلك الذى وجدت فيه أي فئات أخرى من قبل ومع ذلك فإن الفوارق مازالت أقل من مثيلاتها فى الولايات المتحدة ، وإن تكن قريبة من تلك السائدة فى بريطانيا »^(٣٨) . كما أن الأشخاص الذين

(٣٤) بيتر تروسكوت ، *Russia First Breaking with the West* ، لندن : ١ . ب . تورس ، ١٩٩٧ ، الصفحة ١٢٨ .

(٣٥) مارتن وولف ، " Russia's missed chance " ، فى جريدة فاينانشيال تيمس ، ١٨ من مارس عام ١٩٩٧ ، الصفحة ١٨ .

(٣٦) *Russian Economic Trends* ، لندن ، دار وور للنشر ، مثلى لهلبت ، ١٢ من يونيو عام ١٩٩٦ ، الصفحتان ٥ و ١٦ ، وردت فى تروسكوت ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٣٠ و ١٤٥ .

(٣٧) تروسكوت . المرجع نفسه ، الصفحة ١٣٠ .

(٣٨) لا يارد وباركر ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٠١ .

يعيشون في مستويات قرية من الفقر المدقع في روسيا مابعد الشيوعية أكثر عددا بكثير من نظرائهم في بريطانيا أو الولايات المتحدة .

كذلك ارتفعت البطالة إلى مستويات يتعذر تقديرها بدقة . وقد أفاد تقرير لمنظمة العمل الدولية أن البطالة في روسيا بلغت ٩,٥ في المائة في يولييه عام ١٩٩٦ ، وإن كان التقرير يرجح أن تكون هذه النسبة أقل كثيرا من الحقيقة . هذا فضلا عن أن معونة البطالة هي على درجة من الضآلة تدفع من لا عمل له إلى عدم تسجيل اسمه كمتعطل . وتمتفظ مؤسسات كثيرة بأسماء العمال في دفاترها تخشيا لدفع الضرائب والتعويضات ، ولكنها لا تدفع لهم أجرا . كما كان هناك في عام ١٩٩٤ ما يقرب من خمسة ملايين شخص يعملون لبعض الوقت ، وكان مابين خمس وثلث من لديهم وظائف يرغمون على ترك وظائفهم .^(٣٩)

ويؤخذ من تقرير منظمة العمل الدولية أن أكثر من ثلث السكان يتسمون إلى من يسميهم التقرير « متعطلون لا يعلن عنهم »^(٤٠) ، ويصف الأرقام الروسية الرسمية عن لا عمل لهم بأنها « حيل إدارية » تخفي المستوى الحقيقي « بأشد الطرق الممكنة قسوة »^(٤١) .

وقد جاء الارتفاع في البطالة في أعقاب انهيار تاريخي في النشاط الاقتصادي ، إذ انخفض الاقتصاد الروسى المسجل منذ عام ١٩٨٩ بمقدار النصف - أى انخفاض أكبر مما حدث في أمريكا في فترة « الكساد الكبير » . وفى منتصف عام ١٩٩٧ كان الناتج المحلى الإجمالى الروسى مازال يتقلص ، بحيث وصل الانكماش فى النشاط الاقتصادى منذ عام ١٩٩١ إلى ما يقرب من ٤٠ في المائة.^(٤١)

وقد توقفت الدولة الروسية عن دفع مرتبات كثيرين من المستخدمين ومن يعولونهم . وذكر « مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية » فى واشنطن ، أن « الحكومة لم تكن تدفع مرتبات مستخدميها والقوات المسلحة والمعلمين والعلماء . . . وكانت المرتبات والأجور والتحويلات لما يتراوح بين ٦٥ و ٦٧ مليون مواطن فى صورة متأخرات فى نهاية عام

(٣٩) . أ . بيرمان ، " Gloomly prospects for the Russian economy " - يوروپ - أسيا ستاديز ، للجلد ٤٨ ، العدد ٥ ، ١٩٩٦ ، الصفحة ٧٤٥ .

• Suppressed unemployed (٤٠)

• Russian Unemployment and Enterprise Restructuring : Reviving Dead Souls (٤٠)

جنيف ، منظمة العمل الدولية ، ١٩٩٧ .

(٤١) " Russian GDP continues to shrink " ، فى جريد ذى فاينانشيال تيمس ، الصفحة ٢ .

١٩٩٦ . أما عن المواطنين أصحاب المعاشات التقاعدية ، البالغ عددهم ستة وثلاثون مليوناً ، فإن معاشاتهم لم تكن تدفع في مواعيدها^(٤٢) .

وثمة صعوبة تواجه قياس المستويات الحقيقية لمن لا عمل لهم في روسيا هي ارتفاع عدد من يموتون قبل الأوان . ففيما بين عامي ١٩٩٠ و ١٩٩٥ زاد عدد الأشخاص في سن العمل الذين ماتوا لأسباب ترتبط بتعاطي الكحول بأكثر من ثلاثة أمثال .^(٤٣) كما زاد عدد حالات الانتحار بين الرجال الذين في سن العمل بنسبة ٥٣ في المائة فيما بين عامي ١٩٨٩ و ١٩٩٣ .^(٤٤) وثمة سبب آخر للموت المبكر في روسيا مابعد الشيوعية ، هو الجريمة . ففي عام ١٩٩٤ تم الإبلاغ عن ٣٠ ألف حادثة قتل عمد ، أي ثلاثة أمثال المعدل بالنسبة للفرد في الولايات المتحدة ، وعشرة أمثال المعدل البريطاني والأوروبي .^(٤٥)

وتزيد احتمالات موت الروس بالتسمم العارض عشرين مرة على احتمالات موت الأمريكيين .^(٤٦) ويكمن جزء من تفسير ذلك في تركة العهد السوفييتي - مستوى من التلوث لا نظير له في أي مكان آخر من العالم ، فيما عدا الصين . يقول موراي فيشباخ وألفريد فريندلي في كتابهما المهم *اختيال اليثة في الاتحاد السوفييتي*^(٤٧) « إن التلوث كان مثولاً جزئياً عن ارتفاع وفيات الأطفال في الاتحاد السوفييتي إلى المستويات الموجودة في بلدان العالم الثالث وفي المدن الأمريكية : « فبعد أن كانت معدلات وفيات الأطفال في عامهم الأول قد انخفضت من ٨٠,٧ في الألف في عام ١٩٥٠ إلى ٢٢,٩ في عام ١٩٧١ ، شهد الاتحاد السوفييتي - وحده بين الدول الصناعية - ارتفاعاً في وفيات الرضع مرة أخرى ، وفقاً للحسابات الرسمية ، إلى ٢٥,٤ في الألف في عام ١٩٨٧ ، أي تقريباً نفس المعدل القائم في ماليزيا ويوغسلافيا وشرق هارلم وواشنطن » . وخلص فيشباخ

(٤٢) وردت في جريدة ذي إيكونوميست ، عدد ١٢ يولييه ١٩٩٧ ، Russian Survey ، الصفحة ٥ .

(٤٣) Grim jobs picture emerges in Russia ، في جريدة ذي فاينانشيال تيمس ، عدد ٦ من فبراير عام ١٩٩٧ ، الصفحة ٢ .

(٤٤) اليونيسيف ، Crisis in mortality, health and nutrition : Central and Eastern Europe in transition ، في مجلة Economic and Transition Studies ، عدد ٢ من أغسطس عام ١٩٩٤ ، ٥٣ .

(٤٥) تروسكوت ، المرجع السابق ، الصفحة ١٣٩ .

(٤٦) تقرير اللجنة الرئاسية الروسية بشأن المرأة والأسرة والديموجرافيا ، كما ورد في جريدة إنديبننت ، عدد ١٥ مايو عام ١٩٩٧ .

(٤٧) Ecocide In The USSR (*)

وفريندلى « إلى أنه على الرغم من أن العلاقة بين إساءة استخدام البيئة والمرض ما زالت بالضرورة افتراضية وليست مؤكدة ، فإنه لا يوجد شك بشأن حجم التلوث نفسه . ولا توجد في الاتحاد السوفيتى سوى مناطق قليلة خالية من مخاطر التلوث ، ويحدث شكل ما من الظروف الإيكولوجية الحادة فى ١٦ فى المائة من مساحة البلد ، حيث يعيش خمس السكان » (٤٧) .

إن تلوث البيئة الذى دعمه فيشباخ وفريندلى بالوثائق كان هو تركة الموقف البولشفى إزاء الطبيعة . (٤٨) وفى هذا الجانب ، كما فى غالبية الجوانب الأخرى ، كان البلاشفة أتباعا أوفياء لماركس ، إذ كانوا يرون أن الطبيعة هى فى أحسن الأحوال مورد ينبغي استغلاله لمقاصد البشر ، وأنها فى أسوأ الأحوال خصم يتعين إخضاعه . وكان الموقف الغربى العدوانى من عالم الطبيعة هو الموقف الذى اهتمت به السياسات السوفيتية طوال حياة ذلك النظام . وكان ذلك أيضا أحد أسباب انهياره .

وكانت الاستجابة البطيئة من جانب القيادة السوفيتية لكارثة تشيرنوبيل هى التى أشعلت فتيل أول تحركات شعبية تفتح الاتحاد السوفيتى بكامله . وكان لهذه التحركات الشعبية دورها فى تعبئة تحالفات واسعة لمعارضة المشروعات الضخمة لبناء السدود فى سيبيريا . وجنبا إلى جنب مع هذه التحركات القومية فى « الخاريج القريب » (٤٩) السوفيتى ، كانت هذه التحركات البيئية الواسعة النطاق - وليس سخط المثقفين - هى العوامل الداخلية الحقيقية التى حفزت على انهيار الاتحاد السوفيتى .

والتلوث فى روسيا حافل بالغموض من حيث حجمه وعواقبه البشرية . ففى مسقط رأس چنكيزخان - بالى ، فى منطقة شيتا بالشرق الأقصى الروسى - يعانى أكثر من ٩٥ فى المائة من الأطفال قصورا عقليا ، وتبلغ معدلات المواليد الأموات (٥٥) خمسة أمثال المعدلات المتوسطة فى روسيا ، كما أن معدلات وفيات الأطفال أعلى بمقدار ٢,٥ مرة ،

(٤٧) مورزى فيشباخ وألفريد فريندلى الصغير ، *Ecocide in the USSR : Health and Nature under Siege* ، لندن : أورووم برس ، ١٩٩٢ ، الصفحتان ٤ و ٩ .

(٤٨) تناولت التعمير السوفيتى للبيئة الطبيعية ، وصلاته بالفلسفة الإنسانية الماركسية ، فى كتابى *Be-ound the New Flight : Markets, Government and the Common Environment* ، لندن

ونيو يورك : روتلج ، ١٩٩٣ ، الصفحات ١٣٠ إلى ١٣٣ .

(٥٠) وبما كان المقصود هنا هو الجمهوريات غير الروسية التى كان يتكون منها الاتحاد السوفيتى إلى جانب الجمهورية الروسية - المترجم .

(٥١) *Stillbirths* : أى الذين يولدون أمواتا - المترجم .

ومعدلات انتشار متلازمة داون^(*) أعلى بمقدار أربع مرات . وكان من المؤلف أن يولد أطفال ذوو ستة أصابع في اليد وستة أصابع في القدم ، وشفاها أوربية^(**) ، وأفواه قنّب^(***) وظهور مشوّمة ، ورءوس ضخمة ، وفاقدون لطرف أو أكثر . وكان الرمل ذو النشاط الذري (الإشعاعي) المستخرج من مناجم اليورانيوم ، التي وفرت المواد اللازمة لصنع أول قنبلة ذرية في الاتحاد السوفييتي ، يستخدم في بناء المنازل والمستشفيات والمدارس ودور الحضانة . وفي عام ١٩٩٧ تفاقمت تلك الشركة نتيجة لتفكك الخدمات العامة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي . ومن أمثلة هذا التفكك أن العاملين بالمستشفى المحلي لم يقبضوا أجورهم لمدة عشرة أشهر ، وأن مدير المستشفى لم يكن باستطاعته تغيير تكلفة تدفئة مباني المستشفى . (٤٩)

بل إن عدد السكان نفسه أخذ في التناقص بسرعة في روسيا ، ففي عام ١٩٨٥ كان المتوقع بالنسبة للذكور الذين في سن الخمسين أن يموتوا في وقت أسبق من الذكور الذين بلغوا السن نفسها في عام ١٩٥٠ . (٥٠) وخلال عام واحد ، هو عام ١٩٩٣ ، انخفض العمر المتوقع (متوسط العمر) للذكور من ٦٢ سنة إلى ٥٩ سنة ، وهو نفس العمر المتوقع في الهند ومصر . (٥١) وبحلول عام ١٩٩٥ كان العمر المتوقع في روسيا أدنى من مثيله في الصين . (٥٢)

(*) **Down's syndrome** : أو زملة داون ، والمقصود هنا «الطفل المنغولي» . وقد اكتشف هذه المتلازمة أو الزملة العالم لامجدون داون في عام ١٨٨٦ ، وأطلق عليها اسم «المنغولية» بسبب تشابه السمات البدنية للمريض مع السمات المنغولية ، وهو مرض نادر يحدث مرة مع كل ألف ولادة ، ومع النساء اللاتي يتزوجن بعد الثلاثين . ومن أعراضه العيون المائلة والبله والطبيعة العاطفية . وقد يصل الفرد المصاب به إلى مستوى نضج خمس سنوات ، ويشعر بالسرور بمحاكاة سلوك من حوله - المترجم

(**) **Hare - lips** : ويوصف الطفل في هذه الحالة بالأشرم أو أشرم الشفة العليا - المترجم .

(***) **Wolves' mouths** : ربما كان هذا المرض من أهم الحالات التي وصفها فرويد (١٩١٨) . والمريض هنا يعاني عددا من الأمراض النفسية ، من أهمها الهستيريا وفوبيا الذئب التي تمتد لتشمل الحوف المرضي من الحيوانات ، ولذلك يطلق على المريض اسم الإنسان الذئب - المترجم . [هذه الحاشية ، والحاشيتان اللتان قبلها ، مأخوذة من موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ، للدكتور عبد المنعم الحفني] .

(٤٩) **Russia's hidden Chernobyl** ، في جريدة جارديان ، عدد ١٥ من يولييه عام ١٩٩٧ ، الصفحة ١٠ .

(٥٠) فيشباخ وفريندلي ، المرجع السابق ، الصفحة ٤ .

(٥١) لايارد وباركر ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٠٠ .

(٥٢) المرجع نفسه ، الصفحة ١١٥ .

ومنذ عام ١٩٨٥ انخفض معدل المواليد بما يقرب من النصف . وفي الوقت الحالي يتناقص عدد سكان روسيا بحوالي مليون نسمة في كل سنة ، وذلك مع تجاوز معدل الوفيات معدل المواليد بمقدار ٦ , ١ مرة .^(٥٣) ومن المرجح أن ينخفض عدد السكان بمقدار الخمس في غضون الأعوام الثلاثين المقبلة ، أى من ١٤٧ مليوناً إلى ١٢٣ مليوناً - وذلك انهيار ديموجرافى ليس له نظير .

ومنذ قرن مضى كان العمر المتوقع للروسى الذكر البالغ ، أعلى من نظيره اليوم بمقدار ستة عشر عاماً . وبالرغم من وقوع حربين عالميتين ، وحرب أهلية ، ومجاعة ، وملايين الوفيات فى عمليات التطهير وفى الجولاج ، فإن فرصة الذكر الذى فى سن السادسة عشرة للوصول إلى سن الستين كانت من قبل أعلى بنسبة ٢ فى المائة مما هى عليه اليوم .^(٥٤)

وقد استمر العمر المتوقع للروس فى الانخفاض طوال فترة إصلاح السوق . وعلقت جريدة فى إيكونوميست على ذلك بقولها « بعد انقضاء خمس سنوات على الإصلاح الاقتصادى ، انخفض العمر المتوقع ، منذ عام ١٩٩٢ ، من ٧٤ سنة إلى ٧٢ سنة للنساء . ومن ٦٢ سنة إلى ٥٨ سنة للرجال ، وذلك يضع روسيا على قدم المساواة مع كينيا»^(٥٥) .

وكانت الخدمات العامة إحدى الكوارث الرئيسية للإصلاح الاقتصادى الروسى ، إذ كان تمويل الرعاية الصحية يبلغ ٤ , ٣ فى المائة من النفقات الحكومية فى الفترة السوفيتية ، وهو يبلغ الآن ٨ , ١ فى المائة . ومن يعجز عن دفع التكاليف لا يحصل على العلاج . ويلاحظ تروسكوت أنه « فى الوقت الذى كان متوسط الأجر الشهري هو ٧٤٠ ألف روبل (١٥٣ دولاراً) كان السعر المعلن لإجراء عملية تحويل القلب^(٥٦) فى مستشفى حكومى فى السنة نفسها يتراوح ما بين ٢٨ و ٣٥ مليون روبل ، أى ما يعادل كثيراً عن متناول الروسى المتوسط»^(٥٦) .

(٥٣) « Russian death rate stuns doctors » جريدة دى تيمس ، عدد ٣ من يونيو عام ١٩٩٧ . انظر

أيضاً ، م . إيلمان ، « The Increase in death and disease under katastroika » ، مجلة كمبردج جورنال أوف إيكونوميكس ، ١٩٩٤ ، الصفحات ٣٢٩ إلى ٥٥ : ج . ك شاپيرو ، « The Russian mortality crisis and its causes » ، فى العمل الجماعى الذى أعده أندروز آلوندى ، Russian Economic Reform at Risk ، لندن ، پترز ، ١٩٩٥ .

(٥٤) تقرير أعدته «اللجنة الرئاسية الروسية بشأن المرأة والأسرة والديموجرافيا» بتكليف من الجهاز المرجعى الذى مقره الولايات المتحدة ، نشر فى جريدة إندپنډنت ، عدد ١٥ من مايو عام ١٩٩٧ .

(٥٥) جريدة دى إيكونوميست ، عدد ١٢ من يوليو عام ١٩٩٧ ، Russia Survey ، الصفحة ٥ .

(٥٦) Heart Bypass . (٥٦) تروسكوت ، المرجع السابق ، الصفحة ١٣١ .

وترتب على ذلك ، إلى حد ما ، زيادة كبيرة فى الإصابة بالدرن الرئوى والالتهاب الكبدى والزهرى . كذلك ينتشر الإيليز^(٥٧) (متلازمة نقص المناعة المكتسب) بسرعة كبيرة نتيجة لزيادة أعداد من يتعاطون المخدرات عن طريق الحقن فى الوريد ، وإن كان من المتعذر قياس حدوث ذلك فى الوقت الحالى بسبب فشل الخدمات العامة . وزاد عدد حالات الدفتريا المسجلة من ٨٠٠ حالة فى عام ١٩٩١ ، إلى ٤٠ ألف حالة فى عام ١٩٩٤ .^(٥٧)

ويدو أن الموجز الذى قدمه سينثن كوهين للتكاليف البشرية لإصلاح السوق فى روسيا كان يتميز بالإنصاف : بالنسبة للغالية الكبيرة من الأسر ، لم تكن روسيا فى مرحلة انتقال ، بل فى حالة انهيار متصل فى كل ما هو ضرورى لوجود كريم - من الأجور الحقيقية ، والمساعدات الاجتماعية ، والرعاية الصحية ، إلى معدلات المواليد وتوقع الحياة ؛ من الإنتاج الصناعى والزراعى إلى التعليم العالى والعلوم والثقافة التقليدية؛ من الأمن فى الشوارع إلى ملاحقة الجريمة المنظمة والبيروقراطيين اللصوص ؛ ومن القوات المسلحة التى مازالت هائلة الحجم إلى صيانة المعدات والمواد النووية^(٥٨) .

وكانت الآمال التى علقها على العلاج بالصلصة أنصاره الغربيون ومؤيديه الروس مجرد أوهام . ذلك أن نظام الحرية الطبيعية الذى دعا إليه آدم سميث يفترض مسبقا وجود دولة فعالة ، بما فى ذلك سيادة القانون . فمن غير هذه الخلفية لا يمكن الاعتماد على أن مبادلات السوق ستكون لها منافع ، بل إنها تصبح بدلا من ذلك مجرد نظام آخر للاستغلال .

وفى روسيا كان العلاج بالصدمة على يد جدار تطبيقا من جانب حكومة تحولت دولتها إلى أنقاض . سيادة القانون لم يكن لها وجود ، وهى لم تكن موجودة فى روسيا منذ عام ١٩١٧ . وكان لدى جانب كبير من السكان الروس احتراس من مبادلات السوق ، ومخاوف من أن تؤدى هذه المبادلات إلى الاستغلال . وكانت هذه الأحكام المسبقة بين الأهالى تعبيراً عن توجهات روسية قديمة من التجارة عززتها تجربة الأسواق

. AIDS (٥)

(٥٧) ب . مورقات "Alarm over falling life expectancy" ، فى جريدة Transition ، برنج ، ٢٥ من أكتوبر عام ١٩٩٥ ، الصفحتان ٤٤ و ٤٥ . اتبها تروسكوت ، الرجوع السابق ، الصفحتان ١٣٢ و ١٤٥ .

(٥٨) ستيفن ف . كوهن "In Fact, Russians are deep in terrible tragedy" ، فى جريدة إنترناشونال هيرالد تريبيون ، عدد ١٣ من ديسمبر عام ١٩٩٦ ، الصفحة ٨ .

السوداء السوفيتية ، وعززتها بدرجة أكبر الرأسمالية الفوضوية التي ولدت من العلاج بالصدمة بعد سقوط الدولة السوفيتية التي أصابها الدمار .

الرأسمالية الفوضوية في روسيا ما بعد الشيوعية

في أقل من عشرة أعوام انتقلت روسيا من نظام شمولى يضطلع بمهامه إلى وضع أقرب إلى الفوضى . ولم يكن سقوط الدولة السوفيتية ، كما يبدو أن مراقبين كثيرين قد اعتقدوا ، انتصاراً للسياسة الخصخصة الغربية ، بل كان حدثاً عالمياً - تاريخياً سيقضى التخلص من عواقبه أجيالاً عديدة ، وربما مئات الأعوام .

إن نوع الرأسمالية الذي يزرغ اليوم في روسيا متأثر إلى حد بعيد بلفه السوفيتي . فالأسواق الخارجة على القانون التي ترعرعت في مختليات الدولة السوفيتية ودهاليزها تزدهر الآن بين أنقاضها .

والرأسمالية الفوضوية هي نظام اقتصادي يتميز بوجود دولة منهكة فاسدة ، وفي بعض المناطق والبيئات ليس لها وجود من الناحية الفعلية ؛ ويضعف سيادة القانون أو غيابها ، بما في ذلك عدم وجود قانون للملكية ؛ وانتشار الجريمة المنظمة في مجمل مناحي الحياة الاقتصادية . وبالرغم من أن هذه السمات موجودة بدرجة أو بأخرى في كل البلدان التي كانت شيوعية فيما سبق ، فإنه ينلر أن يوجد هذا النوع من الرأسمالية الفوضوية الذي قطع هذا الشوط الطويل من التطور في روسيا . وكما كانت الحال في روسيا ، فإن هذا النوع إنما يزدهر حيث كانت الجريمة قد تفتت في الدولة نفسها ، وحيث كانت المؤسسات المدنية التي لها استقلال ذاتي قد دمرت في العهد السوفيتي .

وهذا النظام الاقتصادي ليس مرحلة انتقالية في تطور مرماء اقتصاد سوق ذي طراز غربي . ولكن ذلك لا يعنى أنه لا يتطور . فالأرجح أن الرأسمالية الفوضوية في روسيا ما بعد الشيوعية تتطور - ربما على امتداد أكثر من جيل واحد - إلى شيء شبيه بالرأسمالية الروسية الناجحة التي قادتها الدولة ، والتي أحدثت التنمية الاقتصادية السريعة في روسيا في العقود الأخيرة للنظام القيصرى .

ومثلما كانت الحال في اليابان ، كانت رأسمالية أواخر القرن التاسع عشر في روسيا تقودها دولة ساعية إلى التنمية . وخلال نصف القرن الذي سبق الحرب العالمية الأولى كانت روسيا تحقق تنمية سريعة بمعدلات قريبة من تلك التي أمجزتها بروسيا واليابان وبنطاق التحديث الذي حققته .

وعلى خلاف الرأى السائد فإن روسيا أبعد عن أن تكون دولة راكدة تسيطر عليها استبدادية أسيوية منذ قديم الزمان . فهي قد ألغت القناتة فى عام ١٨٦١ ، أى قبل عام من قيام إبراهيم لنكولن بالغاء الرق فى الولايات المتحدة . وبمعايير القرن العشرين لم تكن روسيا القيصرية فى مراحلها الأخيرة دولة قمعية بشكل خاص . ففى عام ١٨٩٥ لم يكن يعمل فى « الأوخرانا » ، الشرطة السرية القيصرية ، غير ١٦١ موظفا يعملون كل الوقت يعاونهم فريق من رجال الشرطة يقل عدد أفرادهم عن عشرة آلاف ، على حين كان عدد العاملين فى « التشيكا » ، الشرطة السرية البولشفية ، فى عام ١٩٢١ ، أكثر من ربع مليون فرد ، وذلك دون احتساب الجيش الأحمر ، وجهاز المخابرات (NKVD) ، ورجال الميلشيا (٥٩) .

ويقول لايارد وباركر إن روسيا دخلت فى أواخر القرن الماضى « مرحلة نمو اقتصادى سريع يمكن مقارنته بالنمو الاقتصادى فى بريطانيا فى أوائل القرن التاسع عشر ، أو فى أمريكا فى سبعينات القرن الماضى ، أو فى الصين اليوم . وفى الفترة بين عامى ١٨٨٠ و١٩١٧ قامت روسيا ببناء أميال من السكة الحديدية أكثر من أى بلد آخر فى العالم فى ذلك الحين ؛ وكان إنتاجها الصناعى ينمو بمعدل ٥,٧ فى المائة سنويا خلال الفترة كلها ، بحيث زادت سرعة النمو فى الأعوام التى سبقت الحرب العالمية الأولى إلى ٨ فى المائة^(٦٠) . أى أن الفترة الأخيرة من القيصرية لم تكن فترة ركود ، وإنما فترة تحديث يتقدم بسرعة .

وبرغم ذلك فإنه لم يكن عهدا ذهبيا . فالمرحلة الأخيرة من القيصرية كان تعييبها سياسات الترويس (فرض الطابع الروسى) ، والعداء للسامية ، وبيروقراطية عقيمة

(٥٩) الأوخرانا : شرطة دفاعية تأسست فى روسيا فى عام ١٨٨١ لمكافحة الإرهاب . وكانت مسئولة عن اغتيال الدوق سرجيوس ، وبلغت أنشطتها ذروتها فى الفترة ١٩٠٦ - ١٩١٧ ؛ وبداية من عام ١٩١٧ ، بعد استيلاء البلاشفة على السلطة ، أسس لينين التشيكا التى واصلت القيام بدور « الأوخرانا » حتى عام ١٩٢٥ ، عندما استبدل بها جهاز O.G.P. U ثم فيما بعد جهاز NKVD - المترجم .

(٥٩) تناولت المرحلة الأخيرة من القيصرية بتفصيل أكبر إلى حد ما فى فصل بعنوان Totalitarianism reform and civil society " فى كتابى Post liberalism ؛ المرجع السابق ، الصفحات ١٦٤ إلى ١٦٨ . وحول مستويات القمع الأدنى كثيرا فى روسيا القيصرية منها فى الاتحاد السوفيتى ، انظر ، جون د . ضياك ، Chekisty : a History of the KGB ، لكسنجتون ، ماشوستس ، لكسنجتون بوكس ، د . س هيث ، ١٩٨٨ .

(٦٠) لايارد وباركر ، المرجع السابق ، الصفحة ٢٨ .

باهظة الأعباء . وكانت الدولة مثقلة ليس فقط بتركة القنانة ، وإنما أيضا ، وحتى بعمق أكثر ، بعدم وجود ما يشبه النبالة المستقلة التي صاحبت النظام الإقطاعي في أوروبا . فقد افتقرت روسيا إلى طبقة من هنا القبيل منذ الحكم المركزي لإيخان الرابع « الرهيب » (١٠) وبطرس الأكبر . وعلى خلاف اليابان ، فإن تراث روسيا الحديث لم يكن تراثا إقطاعيا ، بقدر ما كان استبداديا . وعلى خلاف الصين كان على التحديث في روسيا دائما أن يواجه تركة القنانة .

ومع ذلك فعند مقارنة القيصرية في مرحلتها المتأخرة بالدول النامية الأخرى ، وبما أتى بعد ذلك ، فقد كانت قصة نجاح . وليس هناك يقين بشأن ما كان يمكن أن تحققه من استقرار في التنمية لو لم تنشب الحرب العالمية الأولى . ولكن لاشك في أن التاريخ التقليدي للقيصرية في هذه المرحلة يستخف بحجم ما أنجزته من تحديث .

والنموذج المرجح للتنمية الاقتصادية في روسيا في القرن الحادي والعشرين هو الرأسمالية التي تقودها الدولة ، والمعتمدة على منشآت كبرى غالبا ما يكون طابعها احتكار القلة (١١) - الرأسمالية التي تعمل في توافق مع الرأسمالية الحدودية الجماعية في سيبيريا وغيرها من المناطق ، والتي نشأت في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر .

ولن نحدث تلك التنمية بصورة مطردة ، بل ستفرض عليها صراعات كثيرة بين المدينة والريف ، وفيما بين المناطق ، والمصالح الاقتصادية المتنازعة ، وستجرى على خلفية دولة روسية ستظل من نواح عديدة أضعف من سابقتها في روسيا القيصرية .

والرأسمالية الروسية التي تولد اليوم قد شوهتها حتما ظروف نشأتها . فاصلاحات السوق جرت في ظل خلفية لم يلحق فيها الانهيار بالاقتصاد وحده ، بل لحق بالدولة السوفيتية أيضا . ومع ذلك فإن الميراث السوفيتي كان له تأثير عميق في تشكيل المراحل المبكرة للتنمية الاقتصادية في مرحلة ما بعد العهد السوفيتي . وعندما ننظر إلى الرأسمالية الروسية التي ولدت في الدهايلز المظلمة من الدولة السوفيتية ، نرى أنها ما كان يمكن أن تولد بعيدة عن ارتباطاتها المتعددة بالجرمية .

(١٠) إيخان الرابع : (١٥٣٠ - ١٥٨٤) ، تُوِّج قيصرًا في عام ١٥٤٧ . وسع رقعة روسيا في اتجاه الشرق حتى شملت سيبيريا . سحق سلطة النبلاء في الداخل ، ودعم سلطة القياصرة المطلقة ، وأنشأ جيشا خاصا لقمع الفتن . أصيب في أخريات أيامه بخلل في توازنه العقلي ، فكانت تتشابه نوبات من الغضب المروع قتل في نوبة منها إنه الأكبر - المترجم

(١١) Oligopolistic firms

إن التكافل بين الدولة والجريمة المنظمة له تاريخ طويل في روسيا ، وكان قائما دائما في قلب المؤسسات السوفيتية . فالدولة السوفيتية لم يكن يحكمها قانون : ولم يكن لديها شيء شبيه بنظام قضائي مستقل ، وكانت المدونة القانونية تسمح للدولة عمليا بسلطة تقديرية غير محدودة . وكان من المتعذر على المواطن العادي أن يلتزم بحدود القانون - لأن القانون نفسه كان يمكن أن يعنى أى شيء تقرره السلطات . وكانت الحياة الاقتصادية تجرى في مناخ يسوده تجاهل مستمر للقواعد التنظيمية .

والفساد في الاتحاد السوفيتي لم يكن مشكلة ، وإنما كان حلاً في نظام لا يستطيع أن يعمل بدون . (١١) وكان من الحتم في نظر الأشخاص العاديين أن يكون لأي نوع من المنشآت ارتباطات بالجريمة ، وهي ارتباطات كثيرا ما كانت حقيقية . وكما ذكر ألين بيزانكون في عام ١٩٧٦ :

كان هناك إلى جانب اللاقتصاد (*) السوفييتي اقتصاد عملي (**) ينطبق عليه التعريف المعتاد للاقتصاد : إدارة رشيدة للندرة ، معبراً عنها من خلال المحاسبة . ولكن هذا الاقتصاد غير رسمي ؛ وهو موجود خارج القانون ، ولا يستطيع أن يستخدم أدوات القياس العامة . ولذا فهو سرى وغير مشروع وبدائي ، يشبه في بعض الأحيان التجارة العربية الهائلة في أيام ألف ليلة وليلة ، ويشبه في أحيان أخرى تجارة الكوميرادور (***) الصينيين ، وفي أحيان ثالثة الصفقات التي تعقدتها المافيا الأمريكية ، وأنشطة الكورزانونسترا (****) في نيويورك وشيكاغو . وهو في حد ذاته يولد جزءاً كبيراً من الثروة القومية ، ويسمح للنظام الرسمي بأن يعمل . (١٢)

وكانت الدولة السوفيتية نفسها تعمل كمنظمة للمافيا . وفي عهد بريجنيف تعززت

(١١) من أجل الاطلاع على مناقشة توضيحية للاقتصاد السوفيتي حددت عدم قابليته للإصلاح ، انظر ، يشر روتلند ، *The Myth of the Plan : Lessons of Soviet Planning Experience* ، لندن : هنتون ، ١٩٨٥ .

(*) Non - economy

(**) Real economy

(***) العملاء والوسطاء المحليون الذين كانوا يعملون لحساب الشركات الأجنبية التي تعمل في الصين - المترجم .

(****) Cosa Nostra : تعبير إيطالي معناه « قضيتنا » - المترجم .

(١٢) ألين بيزانكون ، *The Soviet Syndrome* ، نيويورك ولندن : هاركورت بريس جوفانوفيتش ، ١٩٧٨ ، الصفحتان ٣٠ و ٣١ .

العلاقات بين منظمات المافيا وكبار المسؤولين في الحزب ، وهى علاقات كانت قائمة منذ عشرات السنين . وكان الطابع الإجرامى للاقتصاد والحكومة فى روسيا قد سبق الانهيار السوفييتى بوقت طويل : ثم ازداد قوة نتيجة للإصلاحات الاقتصادية التى قام بها جورباتشوف ، والتى أدت إلى حدوث نقص فى السلع ترتبت عليه زيادة الدور الذى تقوم به المنظمات الإجرامية فى الاقتصاد غير الرسمى . ومن يتصورون أن الجريمة لم تكن موجودة فى العهد السوفييتى إنما يكشفون عن إخفاقهم فى فهم الدولة السوفييتية أو الاقتصاد الذى خلقتة . (٦٣)

وكان سقوط الاتحاد السوفييتى فى حد ذاته فرصة سانحة للجريمة على نطاق واسع : « لقد أصبح الاتحاد السوفييتى فى شهوره الثماتية عشر الأخيرة فردوسا للفجرة وهدمى الضمير . إذ أصبح كل إنتاجه وموارده ومستودعات ثروته نهبا مباحا يتقل من يد لأخرى . وحدثت إعادة توزيع أخرى هائلة للأسلاب . وكان ذلك بمثابة انتزاع للأصول من أمة بكاملها » (٦٤) .

وفى ظل النظام السوفييتى ، اندمجت روح المبادرة والتزعة الإجرامية . وعندما تحلل النظام أصبح باستطاعة العصابات الإجرامية والبيروقراطيين الحكوميين تحقيق أرباح كبيرة من إصلاحات السوق . وكان عمالاً مناص من أن تقوم المافيا بدور القابلة للأسمالية الروسية فى مرحلة ما بعد الشيوعية .

إن ماتفكك فى الفترة ١٩٨٩ - ١٩٩١ لم يكن نظاما استبدادياً أو تسلطياً من الأنواع الكلاسيكية التى تعرفها العلوم السياسية التقليدية ، وإنما كان نظاما شمولياً تكاد فيه كل الأصول أن تكون ملكاً للدولة . ولاشك فى أن تلك الأصول استخدمت لفترة طويلة لمنفعة نخبة صغيرة محظوظة - هى فئة كبار المسؤولين فى الحزب . وفى ظل الظروف الشبيهة بالفوضى التى حاولت فيها الحكومة الروسية تنفيذ إصلاحاتها ، كان باستطاعة

(٦٣) وحول اكتساب الاقتصاد السوفييتى والدولة السوفييتية للطابع الإجرامى ، انظر ، فاليرى تشاليدز ، ١٩٧٧ ؛ كونستانتين سيميز ، *Criminal Russia : Essays In Crime In the Soviet Union USSR : The Corrupt Society : The Secret World of Soviet* ، نيويورك : راندوم هاوس ، *Capitalism* ، نيويورك : سيمون أند شوستر ، ١٩٨٢ ؛ وأركادى فاكسبرج ، *The Soviet Mafia* ، لندن : فابنفلد أندنيكولسن ، ١٩٩١ .

(٦٤) دافيد بروس - جونز ، *The War that never was : The Fall of the Soviet Empire* ، ١٩٨٥ ، لندن : فيونكس ، ١٩٩٥ ، الصفحة ٣٨٢ .

هؤلاء المسئولين الكبار ، بالاتفاق مع العصابات الإجرامية فى كثير من الأحيان ، انتزاع ملكية أصول الدولة ، وجعلها ملكية شخصية لهم .

وقد كتب ستيفن هاندلمان يقول : « كانت المجمعات الأساسية لرهوس الأموال المتاحة للاستثمار المحلى بعد الانهيار السوفيتى (بخلاف القروض الأجنبية) هى خزائن الحزب الشيوعى والـ **Obshchaki** ^(٦٥) ، صناديق كنوز «عالم اللصوص» . وكانت رهوس الأموال توجه إلى المؤسسات التجارية والبنوك ومتاجر السلع الفاخرة والفنادق . وهى لم تؤد فقط إلى إحداث أول فترة رواج استهلاكي فى روسيا ، ولكنها أدت أيضا إلى اندماج البيروقراطيين ورجال العصابات فى شكل روسى فريد لرئيس العصابات - الرفيق المجرم ^(٦٥) .

وفى روسيا مابعد الشيوعية أصبحت الجريمة المنظمة موجودة فى كل مكان . فحوالى ثلاثة أرباع المؤسسات والبنوك التجارية التى تمت خصخصتها ترغم على دفع ما بين ١٠ و ٢٠ فى المائة من رقم أعمالها للمافيا . ويرغم أن جميع التقديرات التى من هذا القبيل لا بد أن تكون رجما بالغيب - لأن جانبا كبيرا من الاقتصاد الروسى هو اقتصاد إسود ^(٦٥) فإن التقديرات لدخل المافيا تضعه عند حوالى ٤٠ فى المائة من الناتج المحلى الإجمالى الروسى ، كما أن قرابة ٤٠ فى المائة من الأعمال الجديدة ربما حصلت على رهوس الأموال التى بدأت بها من مصادر تسيطر عليها المافيا . ^(٦٦) وفى النصف الأول من عام ١٩٩٥ زادت حوادث الخطف بنسبة ١٠٠ فى المائة ، وحوادث الاعتداء المسلح بنسبة ٦٠٠ فى المائة . وأصبح القتل بالتعاقد من الأمور المألوفة . ومنذ عام ١٩٩٢ تعرض خمسة وثمانون من رجال البنوك للاعتداء عليهم ، وقتل سبعة وأربعون منهم . ويعتقد أنه يوجد حوالى ١٥٠ منظمة للمافيا ، وهى تسيطر - استنادا إلى تقارير وزارة الداخلية الروسية - على ما بين ٣٥ ألف و ٤٠ ألف مؤسسة وحوالى ٤٠٠ بنك .

(٦٥) **obshchaki** : تعبير يطلق فى روسيا على الأموال التى يقوم زعماء المافيا بجمعها لمساعدة زملائهم من زعماء المافيا المودعين فى السجن - الترجمة .

(٦٥) ستيفن هاندلمان ، **Comrade Criminal** ، نيوهافن ولندن : إدارة النشر بجامعة ييل ، ١٩٩٥ ، الصفحتان ٣٣٥ و ٣٣٦ .

(٦٥) **Black Economy** : ويقصد به البضائع والخدمات التى يدفع ثمنها نقدا ، ومن ثم لا يعلن عنها ، تهريا من سداد الضرائب - الترجمة .

(٦٦) مصدر هذه التقديرات هو الجهاز القومى البريطانى لمخابرات الجريمة . وقد وردت فى تروسكوت ، المرجع السابق ، الصفحة ١٣٨ .

والمافيا الروسية ليست متجانسة عرقياً ، ولا هي تعمل في العادة متضافرة . وربما يكون جانب كبير من الانفجار الأخير لجرائم العنف انعكاساً للحروب الخفية بين فرق المافيا المتنافسة . ومع ذلك فإن غالبية منظمات المافيا تشارك في أصل مشترك ، هو الأنشطة الإجرامية في الاتحاد السوفييتي السابق . وقد اجتمع في موسكو ، في الأيام الأخيرة للدولة السوفييتية ، في أواخر ديسمبر عام ١٩٩١ ، حوالي ثلاثين من رؤساء المنظمات الإجرامية الروسية ليناقشوا كيفية حماية أنفسهم من العصابات الجديدة الوافدة من القوقاز - جورجيا وشيشينيا وأرمينيا . كما ناقشوا كيفية إفساد المسؤولين في النظام الجديد الذي رأوا ملامحه في الأفق .^(٦٧) إن بعض كبار المستفيدين من الجريمة المنظمة الروسية ليسوا من المجرمين أنفسهم ، وإنما من المسؤولين الحكوميين الذين يدفع لهم المجرمون الثمن .

وقد وصف هاندلمان ذلك قائلاً : « إن الذين يكسبون المليارات الآن هم في معظمهم من كانوا يكسبون الملايين في العصر السوفييتي - إما عن طريق ترتيب بيع البضائع الحكومية في السوق السوداء ، وإما من النظام المتشر للرشوة . والحقيقة أن الدولة القديمة قد أورتت الجريمة للدولة الجديدة »^(٦٨) .

وكان فساد مؤسسات الدولة المتداعية وخروجها على القانون ، اللذان تم توريثهما لأول حكومة بعد الفترة الشيوعية ، أحد الأسباب التي جعلت العلاج بالصدمة في روسيا غير قادر على أن يحقق ذلك القدر المحدود من الفعالية الذي استطاع تحقيقه في أماكن أخرى . وثمة سبب آخر هو الطابع العسكري للاقتصاد السوفييتي . فلم يحدث في أي بلد آخر طبق العلاج بالصدمة أن كان الإنتاج العسكري فيه محورياً إلى هذه الدرجة في الحياة الاقتصادية . وكان من الحماقة افتراض أن الصفات التي وضعها آدم سميث للحرية الاقتصادية يمكن أن تكون قابلة للتطبيق في ظروف كهذه .

وعندما تمزقت الدولة السوفييتية ، خلفت في أعقابها أكبر مجمع صناعي عسكري في العالم (MIC) . وقد بدأ تمزق الدولة على الفور ، وعجل العلاج بالصدمة بتفكك أوصالها . وثبت أن هذا المجمع العسكري الصناعي السوفييتي الذي تفككت أوصاله ،

(٦٧) هاندلمان ، المرجع السابق ، الصفحات ١٨ إلى ٢٠ .

(٦٨) المرجع نفسه ، الصفحتان ١٢٧ و ١٢٨ .

كان تربة خصبة للعصابات التي درجت على التقيب في الغابات . وسجل هاندلمان ذلك بقوله :

بعد ستة أشهر من تفكك الاتحاد السوفييتي ، هبطت الطلبات المتعلقة بالدفاع بأكثر من ٤٠ في المائة ، وقد ٣٥٠ ألف عامل وظائفهم . وبعد ذلك بسنة كانت المصانع المتوقفة عن العمل من الكثرة بحيث إن ما يقدر بمليون عامل كانوا يحصلون على أجورهم دون أن يؤديوا أى عمل وفي مدينة ييكاترينبرج ، حيث يعمل في الصناعات العسكرية ما يقرب من ربع قوة العمل فيها ، أى حوالى خمسمائة ألف شخص ، كانت العصابات المحلية تمثل جانبا من أهم الزبائن لشراء القنابل ومنصات إطلاق الصواريخ التي كانت ذات يوم تذهب إلى الدولة . كما كان أمراء الرعاع والمترهبون في السوق السوداء يوفرون القوة السياسية الفعالة والاتصالات الدولية اللازمة لتسويق المواد الأولية الإستراتيجية والأسلحة والمعادن في الخارج . (٦٩)

وكان المجمع العسكري الصناعى السوفييتى فى مقدمة ضحايا إصلاح السوق . وقد أفاد تقدير أجراه البنك الدولى فى عام ١٩٩٢ أن هذا المجمع كان يستخدم أكثر من خمسة ملايين شخص (حوالى ٧,٥ فى المائة من قوة العمل) . واستادا إلى تقدير روسى حديث كان العاملون فى المجمع العسكري الصناعى ، بالإضافة إلى أفراد عائلاتهم ، يصلون إلى أكثر من ٣٠ مليون نسمة ، أى قرابة ثمن مجموع السكان . (٧٠)

وفى ظل سياسات جيدر للعلاج بالصدمة ، تم تخفيض مشتريات السلاح بحوالى ٧٠ فى المائة . وبحلول عام ١٩٩٣ كان الناتج الكلى للصناعة العسكرية الروسية قد انخفض إلى النصف . ولم يكن ذلك ، فى معظم الأحوال ، انعكاسا للتحويل من الإنتاج العسكرى إلى الاستخدامات المدنية ، وإنما كان انخفاضا صرفا فى النشاط الاقتصادى للمجمع العسكرى الصناعى . وفى ذلك كتب أريانس يقول : « فى عام ١٩٩٢ تبين أن معدل الأجور فى المصانع التابعة للمجمع العسكرى الصناعى ، البالغ عندها ١١٠٠ مصنع ، يقل عن مثيله فى أى فرع آخر من فروع الصناعة ، وذلك بسبب الاقطاعات

(٦٩) المرجع نفسه ، الصفحتان ٢٣٣ و ٢٣٤ .

(٧٠) ياروسلاف جولوفانوف : Mech molet (السيف والمطرقة) ، فيك ، ١٩٩٣ . وقد أشار يفجينى أريانس إلى هذا المصدر فى كتابه KGB : State within a State ، لندن ونيويورك ، أ . ب تاوريس ، ١٩٩٥ ، الصفحة ٣٨٨ .

الحكومية الشديدة (٦٨ فى المائة) فى الاعتمادات الخاصة بمشتريات التكنولوجيا العسكرية والأسلحة ولم يكن هناك تمويل للتحويل إلى الصناعات المدنية ، وأغلقت تماما مصانع كثيرة تابعة للمجمع ، كما لم تكن هناك أموال لدفع الأجور والمعاشات التقاعدية (٧١) .

وحاولت الحكومة الروسية إبطاء سرعة تردى الصناعات العسكرية عن طريق تشجيع مبيعات السلاح . وترتب على ذلك أنه بحلول صيف عام ١٩٩٦ - استنادا إلى جهاز البحوث التابع للكونغرس الأمريكى - أصبحت روسيا أكبر مصدر فى العالم للأسلحة إلى العالم النامى . (٧٢) وانخفض إنفاق روسيا على أغراض الدفاع إلى ما يقرب من معدل الإنفاق فى البلدان الديمقراطية الغربية . ومع ذلك فإن دور المجمع العسكرى الصناعى فى الاقتصاد الروسى والدولة الروسية مازال ، وسوف يظل ، أكبر كثيرا .

فضلا عن ذلك فإن جانبا كبيرا مما تبقى من المجمع العسكرى الصناعى الروسى لم يعد خاضعا للسيطرة الكاملة للحكومة . فهو الآن مجمع يتكون من هياكل متعددة ذات استقلال ذاتى وشبه مخصصة . وقد عبّر شير عن ذلك بقوله : « لقد أصبحت الأذرع الرئيسية للدولة (الروسية) تعامل معاملة الكيانات شبه التجارية التى تعمل وفقا لجداول أعمال مختلطة » (٧٣) .

إن التفكك الجزئى للمجمع العسكرى الصناعى ، الذى كان هو العمود الفقرى للاتحاد السوفيتى السابق ، أدى بكثيرين من المراقبين إلى التخوف من أن تتمزق الدولة الروسية بالكامل . ويخشى آخرون من حدوث « عصر اضطرابات » آخر (١٥٩٨ - ١٦١٣) (٥) - أى عصر - ربما يكون ممتدا - من الفوضى التامة أو الحرب الأهلية . وهم يشيرون إلى الحرب الدائرة فى شيشنيا باعتبارها مؤشرا على الصعوبة التى تواجهها

(٧١) أريانس ، المرجع السابق ، الصفحتان ٣٣٥ و ٣٣٦ .

(٧٢) تروسكوت ، المرجع السابق ، الصفحة ١١٤ .

(٧٣) جيمس شير ، " Russia : geopolitics and crime " ، فى مجلة ذى وورلد تودى ، عدد فبراير ١٩٩٥ ، الصفحة ٣٦ .

(٥) انصرفت حياة أسرة روك فى روسيا بعد وفاة فيودور الأول عام (١٥٩٨) ، ابن إيشان الرابع (الرهيب) . وكان عصر بويريس جودونوف (١٦٠٥ - ١٥٩٨) والفترة التى تلت عصر اضطرابات وقتن ، وظهور مطالبين كذبة بعرض روسيا . وحاولت بولندا غزو روسيا كلها ، وانتزعت موسكو . ولكن انتخاب ميشيل رومانوف قيصر على روسيا فى عام ١٦١٣ أعاد إليها النظام - المترجم .

القوات العسكرية الروسية حتى فى قمع حركات العصيان الصغيرة ، ويتشبون بشترذم متصاعد للاتحاد الروسى .

وقد تنبأ المشتمر المضارب چيم روجرز بقوله : « إنى أنتبأ بحدوث مزيد من التفتت . وبعد حدوثه أتوقع أن أرى خمسين بلدا ، مائة بلد - لقد تحولت السلطة فى الاتحاد السوفييتى السابق إلى حكم القائد الذى لا يدين لأحد بسلطان ، الزعيم السياسى الذى يظفو دائما إلى السطح عند انهيار السلطة المركزية فعندما تصبح إمبراطورية ما غير مستقرة وخارجة على القانون ، تأتى فترة يتقاتل فيها قادة الحروب . واليوم تشمل قائمة قادة الحروب السوفييت زعماء عصابات ، والمافيا ، وزعماء دكتاتوريين ، ودعاة تحرر ، وشيوعيين . . والأرجح كثيرا أن الشعب الروسى سيرحب بأى مهيج يقدم له أكثر الوعود إسرافا » (٧٤) .

ذلك سيناريو مبالغ فيه ، ولكنه لا يخلو من بعض عناصر الحقيقة . فروسيا ، على خلاف الصين ، تواجه مشكلة هوية (٥) بشأن إقرار النظام . فالاتحاد الروسى كيان تبقى من إمبراطورية سابقة ، وليس دولة قومية حديثة . ولكن باستثناء محاولة الانفصال من جانب شيشيا ، لا توجد تحركات انفصالية ذات أهمية عسكرياً . ويتطلب الانهيار الواسع النطاق للاتحاد الروسى درجة من الروح النضالية التى لا يبدو أنها متوافرة فى الوقت الحالى لدى أى من شعوبه . وليس فى السنوات القليلة الماضية ما يوحى بوجود رغبة متفشية فى مغامرة عسكرية من هذا القبيل بين الروس وغالية الشعوب غير الروسية فى الاتحاد الروسى .

وثمة تطور أكثر ترجيحاً هو أن الخوف من حدوث « عصر اضطرابات » آخر - فترة الفوضى والحرب الأهلية التى مرت بها روسيا فى أواخر القرن السادس عشر ، والتى مازلت ذكراها حية فى الأغاني والفولكلور الروسى - سيكون بمثابة عامل حفاز على تعزيز أواصر الدولة الروسية . فالطابع الإجرامى للأسماحية الروسية الحالية سيدفع إلى المطالبة بمزيد من التوسع فى نظام السلطة الرئاسية الذى دشنته بوريس يلتسن .

(٧٤) چيم روجرز ، " No new money for an old Empire " ، فى جريدة فاينانشيال تيمس ، عدد ٥ أكتوبر ١٩٩٠ ، الصفحة ٢ .

(٥) نبة إلى توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) ، وهو فيلسوف إنجليزى ، عرف فى الميدان السياسى بكتابه « التنين الجبار أو لوثايان » ، الذى دافع فيه عن الحكم الملكى المطلق ، وفضله عن النظامين الارستقراطى والشعبى . طالب بالآ يكون سلطان الحاكم مقيداً بشئ . وفلسفة هوبز تمهيدية ترد المعلومات إلى الخبرة الحسية - المترجم .

ومن الصغب البالغة فى درجة الضعف التى تردت فيها الدولة الروسية اليوم . ومع ذلك فإن مؤسسات الدولة فى روسيا ، لاسيما تلك المعنية بالقانون والنظام ، سوف يتم اصلاحها وتجديدها قبل فوات الأوان . فالأعراف الروسية التى عمادها وجود سلطة قوية تتطلب مؤسسات فعالة للحكم . ويُعدّ برنامج يلتسن للإصلاح العسكرى ، الذى يرمى إلى الاستعاضة عن التجنيد الإجبارى فى الاتحاد السوفيتى السابق بجيش حديث من الجنود المحترفين ، علامة على أن بناء المؤسسات قد بدأ .

وليس من الضرورى أن يكون تجديد الدولة الروسية تحركا فى اتجاه دكتاتورية تسلطية . فهناك دول ديمقراطية أخرى ، مثل فرنسا فى عهد ديغول ، كانت لديها مؤسسات تسمح بوجود سلطة تنفيذية قوية . بل إن نمو مؤسسات كهذه فى روسيا قد يكون خطوة نحو إقامة دولة عصرية تستطيع أن تمارس دورا إستراتيجيا فى تطور الرأسمالية شيهاً بالدور الذى قامت به الدولة الروسية فى أواخر العهد القيصرى .

ومع ذلك فإن إعادة بناء الاتحاد الروسى كدولة - قومية عصرية تعدّ مهمة صعبة وجسيمة . فهى تتطلب تجريبا جسورا فى توزيع السلطة من المركز من خلال مؤسسات فيدرالية جنباً إلى جنب مع نمو شعور روسى بالانتماء إلى الأمة لا يكون قائما على خصوصية عرقية . وهى لن تلبى الحاجة إلى الأمن الشخصى مالم تشتمل على نظام قضائى مستقل يُعولّ عليه . ومؤسسات كهذه لن يكون تطورها سريعا فى بلد كانت أعرافه دائما إمبراطورية وتسلطية .

وإذا لم تقم دولة حديثة فعالة فى روسيا ، فلن يكون فى الوسع حماية بيتها الطبيعية من استمرار الاستغلال والتدهور - هذه المرة ليس فى خدمة الخطط الاقتصادية الشديدة الاعتداد بالنفس التى عرفت فى الفترة السوفيتية ، بل فى خدمة الربح التجارى القصير الأجل الذى يذهب جانب كبير منه إلى خزائن المافيا . ومن غير دولة كهذه لا يمكن إصلاح الخدمات العامة التى خربت ، ولن يكون لمؤسسات السوق شرعية فى نظر الجمهور .

وباستثناء البولشفية ، لم يسبق قط أن وجدت أيديولوجية سياسية بعيدة عن ملامة التحديث الروسى من الأيديولوجية التى تدعو إلى إقامة أسواق حرة من خلال حكومة الحد الأدنى . ذلك أن اقتصاد السوق الحديث سيولد فى روسيا الحالية كوليده لحكومة قوية .

وإذا اهدينا بالاتجاه الحالى لسياسات يلتسن ، واعتبرناه مرشداً إلى السياسات التى

ستتبع بعد عهده ، فإنه يمكن القول إن الدولة الروسية قد استأنفت الاضطلاع بدور إستراتيجي في تنمية الرأسمالية الروسية . ومن شأن تطور كهذا أن يعزز حقيقة أساسية - وهي أنه لا سير البلاشفة الحثيث نحو التصنيع ، ولا العلاج بالصدمة التي فرض على الاتحاد الروسى ، قد أمكنه إنجاز حدثات حقيقية .

وهناك مخاطر واضحة في أية إستراتيجية روسية لبناء الدولة . فهي يمكن أن تعزز قوة المافيا بدلا من أن تضعفها . وإذا ما اقترنت بمشاعر عرقية ضيقة ، فإنها يمكن أن تحيى ذكريات تاريخية مؤلمة لدى الشعوب غير الروسية في روسيا ، كما يمكن بسهولة أن تتحول إلى مشاعر معادية للأجانب . وإذا لم توجد سلطة قضائية مستقلة ، فإن الالتزام بإنفاذ القانون يمكن أن يصبح مجرد ممارسة أخرى في القمع . فضلا عن أن قيام دولة روسية قوية يمكن أن يولد حكما غاشما تقليديا .

ومع ذلك فليس ثمة بديل حقيقى لبناء الدولة في روسيا . والتواطؤ في الانجراف نحو الفوضى إنما يُسلم تراث الحكم القوي لتحالف ارتدادى بين الشيوعيين السابقين والفاشيين الجدد . ولن يكون هذا التحالف بين القوى الرجعية أكثر قدرة على تحقيق تحديث قابل للاستمرار من دعاة التغريب الرومانسيين الذين حاولوا تطبيق العلاج بالصدمة . وتشير سياسات يلتسن إلى أنه يدرك حاجة روسيا إلى نهج أكثر انتقائية ومتعدد المصادر إذا أريد أن يكون التحديث ملائما للدولة يقع جزء منها في أوروبا والجزء الآخر في آسيا .

روسيا الأوروبية الآسيوية

أعقب انتهاء السلطة السوفيتية في بعض البلدان عودة سريعة إلى المؤسسات والأعراف الأوروبية . ففي جمهورية التشيك ، وفي المجر ، وفي دول البلطيق ، وفي سلوفاكيا ، كان الوجود ضمن الكتلة السوفيتية يعنى الانفصال الإجبارى عن الأسلوب الأوروبى في الحياة . وكانت فترة مابعد الشيوعية بالنسبة لهذه البلدان بمثابة إعادة اكتشاف « للأوضاع الطبيعية » . وكان تعريف تلك الأوضاع يختلف من بلد لآخر - فهو أحيانا الانتماء إلى الجمهوريات الديمقراطية في فترة ما بين الحربين ، وأحيانا الوجود في ظل إمبراطورية هابسبرج - لكن أصولها الأوروبية ليست موضع شك .

وقد حدث هذا الانتقال إلى المؤسسات والقيم الغربية ، ليس لأن التغريب

والتحديث هما شيء واحد في كل مكان ، ولكن لأن أعراف هذه البلدان بوجه خاص كانت دائما هي أعراف الشعوب الأوروبية . وبالنسبة لها فإن التاريخ لم ينته بسقوط الشيوعية ، وإنما استؤنف التاريخ بعد انقطاع دام نصف قرن .

ولكن المسألة في بعض البلدان في مرحلة ما بعد الشيوعية تعد أكثر تعقيدا . فبالنسبة لبولندا كانت « أوروبا » - التي تعنى في الممارسة مؤسسات الاتحاد الأوربي - حلاً لمصاعب قديمة العهد . كما أنها تعد بحل معضلات تاريخية ناشئة عن موقع بولندا - الجغرافي والجيوسراتيجي - بين ألمانيا وروسيا . أما مسألة ما إذا كانت « أوروبا » ستكون في مستوى تلك الآمال ، فذلك مسألة أخرى . والواضح أن الدور الذي يمكن أن تقوم به أوروبا في الوقت الحالي هو أن تقدم إجابة على أسئلة ملحة تتعلق بالهوية القومية والأمن اللذين كانا في تاريخ بولندا مصدرا للمأسى .^(٧٥)

وفي بلدان أخرى أيضا تمر بفترة ما بعد الشيوعية ، فإن انتهاء العهد الشيوعي كان بمثابة فسحة أخرى في عمر الأعراف الأوروبية التي لم تكن سائدة أبدا من قبل ، وإنما كانت قد سعت طويلا لأن تكون كذلك . ففي رومانيا كان سقوط النظام الشيوعي ، الذي لم يحدث بسقوط شاوشيسكو ، بل بعد ذلك بسنوات عديدة ، في انتخابات عام ١٩٩٦ ، قد جدد الصراع بين من يرونها بلدا أوروبا متأخرا ، ومن يرون في أعرافها المسيحية الأرثوذكسية سببا لكونها لا يمكن أن تصبح في أي وقت مجرد دولة أوروبية أخرى . غير أن هذه الاختلافات الثقافية والسياسية لم تؤثر على السياسة الوطنية الرومانية التي ظلت تسعى إلى إقامة علاقة أوثق مع الاتحاد الأوروبي ومع حلف الأطلسي . وفي الصرب وحدها كانت القوى السياسية « المناهضة للغرب » مسيطرة طوال فترة ما بعد الشيوعية .

وثمة فجوة عميقة في روسيا ، بين الجيل الذي شكلته الخبرة السوفييتية والروس الجدد الذين بلغوا مرحلة النضج في سنوات الانهيار السوفييتي ، وهي فجوة تضمن بأنه لن تكون هناك عودة إلى الوراء . ولم يعد باقيا غير الحلم القديم بماض أفضل ، كما لا يوجد احتمال يذكر لحدوث تحول مناهض للغرب من النوع الذي يدعو له في

(٧٥) من أجل الاضطلاع على مناقشة ممتازة للدور السياسي للفكرة الأوروبية في بلدان ما بعد الشيوعية ، انظر ، توني جودت ، A Grand Illusion ? An Essay on Europe ، لندن ونيويورك : پنجنون بوكس ، . ١٩٩٧ .

حماسة بعض أنصار السلافية (*) المعاصرين (الذين يمكن اعتبار سولجيتسن (**)) واحداً منهم). وإذا كُتبت روسيا، كما هو مرجح، عن محاكاة البلدان الغربية، فلن يتطلب منها ذلك أن تنهج سياسات مناهضة للغرب.

ومع ذلك فإن التخلي عن العلاج بالصدمة كان تعبيراً عن تراجع حاسم لدعاة التغريب الروس. وقد بنيت الانتخابات البرلمانية والرئاسية فيما بين عامي ١٩٩٣ و١٩٩٣، أنه بينما تفضل نسبة من الروس الإصلاح الاقتصادي وفقاً لنموذج غربي، فإن هذه النسبة لاتعدو أن تكون أقلية.

وكانت الهزيمة الفاجعة التي منى بها جورباتشوف في الانتخابات الرئاسية، بحصوله على أقل من واحد في المائة من أصوات الناخبين، راجعة إلى أسباب عدة كان من أهمها رفض الناخبين للتصور الذي جسده لمستقبل روسيا، وهو تصور غربي لا إبهام

(*) Slavophilism : اتجاه سياسي محافظ في الفكر الاجتماعي الروسي كان يسمى إلى تسويغ ضرورة اتباع روسيا مسار خاص للتنمية يختلف عن مسار التنمية في أوروبا الغربية . وكان من حيث مرماء الموضوعي برنامجاً يوتوبياً وجمعياً للانتقال من النبالة الروسية إلى المسار البورجوازي للتنمية مع الحفاظ على أكبر قدر من مزاياها . وكان هذا البرنامج يتطور عندما يصبح واضحاً ضرورة التخلي عن أشكال الاستغلال القديمة ، وتكيف الطبقات الحاكمة مع الظروف الجديدة . ومايعنيه الوارد في المتن بأنصار السلافية هو مجموعة من المثقفين الروس في القرن التاسع عشر الذين كانوا يعتقدون بتفوق الثقافة الروسية على غيرها من الثقافات - المترجم .

(**) ألكسندر ايزاييفيتش سولجيتسن : (١٩١٨ - ٩) حكم عليه بالسجن ثماني سنوات بسبب نقده لستالين . بدأحياته الأدبية داخل السجن بكتابة الشعر . صدرت أول رواية له «يوم في حياة إيفان دينسوفيتش» في عام ١٩٦٢ ، حكى فيها قصة يوم في حياة أحد المودعين في معسكرات العمل . وكانت هذه الرواية بداية شهرته . وقد تلتها روايتان : «الحلقة الأولى» و «عشير السرطان» ، ونشرت كلتاهما خارج الاتحاد السوفييتي عام ١٩٦٨ . فبسبب نقده المستمر للسلطة السوفييتية كانت أعماله محظورة في الاتحاد السوفييتي منذ منتصف الستينيات ، وإن كانت تجد طريقها سرا إلى بعض القراء . حصل على جائزة نوبل في عام ١٩٧٠ ، مما يؤكد الطابع السياسي لهذه الجائزة ، ولكنه لم يسافر لاستلامها خشية عدم السماح له بالعودة . وفي عام ١٩٧٤ نشرت في باريس الأجزاء الأولى من روايته «أورخيبيل الجولاج» ، فقبض عليه وحوكم بتهمة الخيانة وتم نفيه من الاتحاد السوفييتي ، فاستقر أولاً في سويسرا ، ثم بعد ذلك في الولايات المتحدة ، وبعد تطور الأوضاع في الاتحاد السوفييتي أصبحت أعماله متاحة للقراء السوفييت في عام ١٩٨٩ . وفي عام ١٩٩١ أسقطت عنه تهمة الخيانة ، وعاد إلى بلاده . ، وبما لاشك فيه أن خيبة أمله لما رآه في بلاده بعد عودته إليها لم تكن أقل إيلاسا له من الأوضاع التي كانت سائدة في الاتحاد السوفييتي ، والتي كرس أعماله لنتقدها والتهجم عليها - المترجم .

فيه . فالأغلبية الروسية لن تؤيد فى أى مستقبل منظور التحديث الاقتصادى وفق أسس غربية مترمة . ولذلك فإن مشروع تحديث روسيا وفقا لنموذج غربى قد أزيح عن الطريق .

وقد أشار يلتسن فى برنامجها للانتخابات الرئاسية إلى « روسيا - دولة أوروبية آسيوية ستصبح بفضل مواردها وموقعها الجيوسياسى الفريد أحد أكبر مراكز التنمية الاقتصادية والتأثير السياسى » (٧٦) . وهذا البيان الرئيسى يكشف عما للنظريات الأوروبية الآسيوية من دور محورى فى التفكير الروسى فى فترة ما بعد الشيوعية .

وبالنسبة لدعاة روسيا أوروبية آسيوية فإن تاريخ روسيا وظروفها الفريدة - أوضاعها الجغرافية ، وتنوع شعوبها ، وتاريخها بحسبانها مركزا للمسيحية الأرثوذكسية ، وسجلها فى محاولات التغريب الفاشلة - تجعل من المستحيل التوصل إلى اختيار تهاى قاطع بين آسيا وأوروبا ، بين « شرق » المسيحية الأرثوذكسية « وغرب » حركة الإصلاح الدينى ، أى النهضة والتنوير .

إن الحركة الأوروبية الآسيوية ترجع إلى العشرينيات . وفى ذلك الوقت أصدر المفكرون المهاجرون الروس بيانا بعنوان : « الرحيل إلى الشرق : توجهات وإجازات : إعلان للإيمان من جانب الأوروبيين الآسيويين » (٧٧) .

وقد أوجز لا يارد وباركر وجهة نظر الأوروبيين الآسيويين بقولهما إن روسيا « حضارة جيو سياسية » قائمة بذاتها (٧٨) . كما يقول نيكترش وهيلر عن الأوروبيين الآسيويين إن روسيا بالنسبة لهم « لم تكن الغرب فقط وإنما الشرق أيضا ، لم تكن أوروبا فقط ، بل آسيا كذلك . والحقيقة أنها لم تكن أوروبا على الإطلاق ، بل يورو آسيا » (٧٩) . وكما كانت الحال فى سنوات العشرينات فإن الأوروبيين الآسيويين اليوم مازالوا متأثرين بالمفكرين الروس فى القرن التاسع عشر ، من أمثال كونستانتين ليونتييف . (٨٠)

(٧٦) بوريس يلتسن ، Programme of Action for 1996 - 2000 ، ٢٧ من مايو عام ١٩٩٦ ، الصفحة ١٠٩ ، اقتبست فى تروسكوت ، المرجع السابق ، الصفحة ٨ ، الحاشية ٩ .

(٧٧) برنس نيكولاى تروبيستكوى ، جورج فلوروفسكى وبيوتر سافستكى ، Iskhad Kvostoku (Exodus to the East) ، صوفيا ، ١٩٢١ .

(٧٨) لا يارد وباركر ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٤ .

(٧٩) نيكترش وهيلر ، المرجع السابق ، الصفحة ١٧٨ . وقد ناقشت الحركة اليورو آسيوية بايجاز فى فصل عنوانه " Totalitarianism Reform , and civil society " ، فى كتابى Post - Liberalism ، المرجع السابق ، الصفحتان ١٧٧ و ١٧٨ .

(٨٠) من أجل الاطلاع على عرض مفيد لفكر ليونتييف ، انظر ، ن بيردياييف ، Leontiev ، لندن : جوفرى بلس ، دى ستارى برس ، ١٩٤٠ .

وقد استشهد تروسكوت بعبارة لرسلان حسب اللاتوف رئيس البرلمان الروسى عندما قال فى عام ١٩٩٢ إنه « بينما فرض بطرس الأكبر عناصر من الثقافة الغربية فى روسيا فإن النسيج الروحى والثقافى للشعب الروسى ظل على حاله لم يس . ونتيجة لهذا فإن لدينا روسيا ، وهى ليست أوروبا وليست آسيا ، وإنما هى جزء خالص ومتميز تماما من العالم » . وفى تقييمه لدور التفكير اليورو آسيوى فى تشكيل السياسة الروسية يخلص تروسكوت إلى أن :

الغرب قد افترض أن روسيا عند خروجها من الفترة السوفيتية سوف تطور نظاما سياسيا واقتصاديا يقوم على الأساس الأوروبى والأمريكى . وبينما كان يمكن محاولة ذلك عند بداية عصر يلتن ، فإن الأمر لم يعد كذلك اليوم . فانتخابات الدوما فى عامى ١٩٩٣ و ١٩٩٥ ، والانتخابات الرئاسية فى عام ١٩٩٦ ، تبين بصورة قاطعة أن ذلك لن يحدث . فالنموذج الغربى للديمقراطية واقتصاد السوق رفض رفضا حاسما من جانب الشعب الروسى وكانت النتيجة نهجا جديدا فى العلاقات مع الغرب . وسوف تتبع روسيا نهجا أكثر انتقائية ، يستوعب بعض الأفكار والقيم الغربية (ومن بينها المهارات التكنولوجية والتجارية) مع تطوير نموذج روسى خاص للديمقراطية والاقتصاد الموجه نحو السوق ^(٨١) .

وتتفق السياسة اليورو آسيوية مع كثير من أوضاع روسيا فى فترة ما بعد الشيوعية - من حيث تنوعها الجغرافى والعرقى ، وبيئتها الإستراتيجية ، وأصولها الطبيعية . ويوجز لايارد وباركر التفكير الإستراتيجى الذى يملئ على روسيا اتباع سياسة يورو آسيوية :

على امتداد العقود الأربعة التى استغرقتها الحرب الباردة ، كان دعاة النهج اليورو آسيوى يقولون إن العالم كان منقسما بين غرب رأسمالى وشرق شيوعى . وعندما يختفى هذا الانقسام سيحل محله انقسام آخر بين شمال غنى وجنوب فقير . وتقف روسيا وسطا بين الجانبين . وقال هؤلاء الدعاة إن روسيا وإن تكن متمية إلى الشمال جغرافيا ، إلا أنها أشبه بجزء من الجنوب اقتصاديا . وحتى إذا مضى الإصلاح قدما ، فإن الأمر - فى زعمهم سيطلب ثلاثين سنة ، قبل أن يكون باستطاعة روسيا الانضمام إلى نادى البلدان الغنية . وحتى عندئذ ستكون مصالح روسيا مع ذلك مختلفة عن مصالح الدول الشمالية الأخرى . وروسيا تقف فى

(٨١) تروسكوت ، المرجع السابق ، الصفحات ٢ و ٥ إلى ٦ .

مواجهة الجنوب الفقير بطريقة لايشاطرها فيها أى بلد شمالي آخر . وهى لها بوجه خاص حدود طويلة مع الجنوب الفقير - منطقة القوقاز ، ودول آسيا الوسطى ، والصين . وعليها أن تولى انتباها خاصا لعلاقتها مع الدول الإسلامية ، لأن سبع دول من جيرانها دول إسلامية ، كما أن روسيا نفسها تضم ١٨ مليون مسلم . ومن واقع الحال فى عام ١٩٩٥ فإن روسيا كانت متورطة فى ثلاثة حروب تشمل ثلاث أمم غير روسية - فى طاجيكستان ، وشيشنيا ، والبوسنة ولذا فإن روسيا ليس بوسعها ، من أجل أمنها الخاص ، أن تتجاهل جيرانها فى الجنوب والجنوب الشرقى^(٨٢) .

ومن الزاوية الإستراتيجية يصعب الرد بالحجة والبينة على اتباع روسيا لسياسة يورواسيوية . فروسيا ، على خلاف كل الدول الأوروبية ، دولة من دول المحيط الهادى ؛ وعلاقتها الدفاعية والتجارية مع الصين هى من منظور طويل الأمد أكثر أهمية من علاقاتها مع أية دولة غربية .

ومع ذلك فإن قوة التفكير اليورو آسيوى فى روسيا ما بعد الشيوعية لايعكس فقط هذه الحقائق الاستراتيجية ، وإنما هو يعبر عن واقع أعمق ، وهو أن روسيا لم توفق فى أى وقت فى التوحد بشكل قاطع سواء مع أوروبا أو آسيا . والإستراتيجية اليورو آسيوية هى أبلغ تجسيد لهذا الازدواج الروسى المستمر .

موارد الرأسمالية الروسية

إن الرأسمالية النابعة من الداخل ، والتي يبدو أنها آخذة فى الظهور فى روسيا ، تواجه عقبات هائلة ، ولكنها تملك أيضا بعض ميزات قوية تعوضها عن ذلك . فالانحداد الروسى يتيج أكثر من ١٠ فى المائة من الناتج العالمى من النفط ، و ٣٠ فى المائة من ناتج الغاز فى العالم ، ومابين ١٠ و ١٥ فى المائة من ناتج العالم من خامات المعادن غير الحديدية . إن الموارد الطبيعية لروسيا ضخمة للغاية .^(٨٣)

كما أن موارد روسيا البشرية هى من بعض النواحي موارد غير عادية . فما زال

(٨٢) لايارد وباركر ، للرجع السابق ، الصفحتان ٢٨١ و ٢٨٢ .

(٨٣) (EIU) وحدة المخابرات الاقتصادية ، - The Russian Federation : Country Profile 1995 - 8 : (EIU)

، ١٩٩٧ الصفحة ١٢ .

الروس من أرقى شعوب العالم تعليماً ، مع مستويات لمعرفة القراءة والكتابة والحساب تفوق كثيراً مثيلاتها في الولايات المتحدة وفي كثير من البلدان الأوروبية . وثمة تقرير أعد في عام ١٩٩٦ يتضمن مقارنة بين الأطفال في مدينة سان بطرسبرج ومدينة سانتولندر^(*) ، يبين منها ارتفاع مستويات الحافز التعليمي في بطرسبرج ، كما يظهر أن الأطفال الروس « كانوا يتجهون إلى تصور التعليم على أنه غاية في ذاته ثم أن الإلمام بالقراءة والكتابة واكتساب الثقافة كانا تقليدياً موضع احترام وتقدير من جانب المجتمع . . . وكانت لدى الجميع رغبة في أن يكونوا متعلمين » . وعلى الرغم من الهوية التي كانت آخذة في الظهور في روسيا باعتبارها دولة يورواسيوية ، فإن مالدي الروس من إدراك وفهم لتاريخ أوروبا وقواعدها الثقافية أفضل مما لدى غالبية الشعوب التي هي «أوروبية» بصورة لاشك فيها .

وعلى تقيض الروس ، فإن الأطفال البريطانيين ينظرون إلى التعليم أساساً باعتباره وسيلة للحصول على مؤهلات وظيفية . وعلى الرغم من هذا النهج الراجماتي ، فإن اختيار هؤلاء الأطفال لمواضيع الدراسة يبدو أنه يهتدى بتجنب الصعوبة الفكرية أكثر مما يهتدى بجداولها المتصورة . (٨٤)

وكما هي الحال في اليابان وسنغافورة ، فإن التعليم المدرسي في روسيا إنما هو انعكاس لأعراف وقيم أوروبا البورجوازية في القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أن مستويات التعليم في الريف تكون في بعض الأحيان شديدة الانخفاض ، فإن روسيا مازالت بوجه عام بلداً يتم فيه تقدير التعليم كقيمة في ذاته . وذلك يعطيها ميزة على البلدان الغربية التي تحنّ احتراماً « لاقتصاد المعرفة » ، ولكن مداراسها ينبغي عليها أن تعمل في إطار ثقافة أخضعت لأوضاع بروليتارية يكون للتعليم فيها قيمة نفعية في المقام الأول .

وإذا قارنا روسيا بغالبية المجتمعات الغربية يتبين أنها بلد لم تستفد حيويته الثقافية . ولما كانت تجمع في الوقت الحالي بين تفاهات ما بين الحدائق والأعراف التي تتعش من جديد ، بين الرأسمالية الجامحة والاشمئزاز الشعبي من التجارة ، فأنها يمكن أن تبدو للعيون الغربية مفتقرة إلى الاستقرار . ولكن بالرغم من أن هذه التناقضات ربما تكون

(*) مدينة إنجليزية بمقاطعة درهام بشمال شرق إنجلترا - المترجم .

(٨٤) " Attitude is what gives Russians the edge " ، في ملحق جريدة تيمس التعليمي ، عدد أول

يناير ١٩٩٦ .

مصدرا لتزاعات سياسية فى المستقبل ، فإنها ليست مدمرة بصورة حتمية . وكما كانت الحال فى عصور ما قبل الثورة ، فإنها يمكن أن تكون مصدراً للإبداع الشقافى - والاقتصادى .

وقد تمكنت الأنسجة الضامة فى الحياة الاجتماعية فى روسيا من تجديد نفسها بدرجة تدعو إلى الدهشة . فالأسرة الممتدة التى لم يعد لها وجود فى العالم الرأسمالى الأنجلو سكونى ظلت على قيد الحياة خلال فترة الشيوعية السوفيتية فى روسيا .^(٨٥) كما أن بقاءها يفسر جزئياً مقدرة الروس على تحمل مشاق إصلاح السوق . وكما يقول لايارد وباركر : « كانت هناك مؤسستان لاغنى عنهما للبقاء : الأسرة الممتدة وقطعة الأرض الخاصة . فالأسرة الممتدة . . . عنصر قوى فى نظام الأمن الاجتماعى . ذلك أن الأبناء البالغين يقدمون العون دائماً تقريباً إلى آبائهم عند تقدمهم فى السن . كما أن الناس يقدمون العون لأبنائهم وأحفادهم عندما يواجهون متاعب »^(٨٦) . وهذا الضعف النسبى « للترعة الفردية » فى روسيا هو الذى سمح للمعونة المتبادلة فى الأسرة الممتدة أن تستمر بدرجة لاتعرفها مجتمعات غربية كثيرة ، وبخاصة المجتمعات الأنجلوسكسونية .

إن الطبقات الوسطى الروسية ، التى كانت تنمو ببطء خلال الفترة السوفيتية ، قد أصابها الضعف نتيجة للفوضى والحرمان اللذين أعقبا العلاج بالصدمة . ومع ذلك فمن المفارقات أن من بين ماخلفته الفترة السوفيتية تراث بورجوازى قوامه سعة الحيلة والقدرة على اكتساب المهارات . ويفضل هذا التراث كان فى استطاعة شباب الطبقة الوسطى التلاؤم مع الأوضاع الجديدة ، كما كان فى استطاعته فى حالات كثيرة تحقيق كسب أكبر كثيراً مما كان يحققه آباؤهم . فهؤلاء الروس احتفظوا بالقدرة على العمل ، بل فى بعض الأحيان بالقدرة على النجاح ، فى ظل ظروف تدعو إلى اليأس . وهم فى ذلك مهياؤن جيداً لمواجهة الأسواق العالمية .

ومن ثم فإنه من زاوية الموارد الطبيعية والبشرية ، مازالت روسيا من أوفر البلدان حظاً فى العالم ، ولكنها تعاني أيضاً واحدة من أسوأ الحكومات . ويعتبر تجديد مؤسسات الدولة الروسية شرطاً مسبقاً جوهرياً لتطور الرأسمالية الفوضوية الحالية فى فترة ما بعد

(٨٥) من أجل الاطلاع على دراسة لنفوة الأسرة الروسية فى الفترة السوفيتية ، انظر ، كلاوس مينيرت ،

" Soviet Man and His World ، نيويورك ، ١٩٦١ ، الفصل الذى عنوانه " Family and

. Home "

(٨٦) لايارد وباركر ، المرجع السابق ، الصفحة ١٠٦ .

الشيوعية إلى رأسمالية روسية نابعة من ظروفها المحلية ، شبيهة بتلك التي ازدهرت في ظل المرحلة الأخيرة من القيصرية . فمن غير مؤسسات دولة عصرية ، لا يمكن فصل الحبل السرى الذى يربط الرأسمالية الروسية بالاتحاد السوفيتى السابق وعصابات المافيا . وإلى أن تتوفر لروسيا دولة قوية فعالة ، لن يكون لديها اقتصاد سوق حقيقى ، بل بالأحرى سيكون لديها نوع من النقاية الإجرامية . وإلى أن تحمل روسيا مشكلتها الهوزية فإنها لن تكون دولة عصرية .

والفلسفة الغربية التي تم استيرادها خلال الفترة القصيرة التي استغرقها العلاج بالصدمة لم تكن ترمى إلى التصدى للظروف المميزة لروسيا الحالية ولاحتياجاتها الخاصة . فالاختلاف بين العقيدة الليبرالية الجديدة وبين الليتينية لم يكن حول الغايات التي وضعت السياسات من أجلها ، بل كان حول الوسائل - وحتى ذلك لم يكن بصفة دائمة . ففيما بين عامى ١٩٨٩ و ١٩٩٣ بلغت إستراتيجيتنا التحديث هاتان ، ذواتنا التوجه الغربى ، نهاية الطريق ، وتجدد البحث عن سبيل للتحديث نابع من ظروف روسيا المحلية .

إن روسيا ما بعد الشيوعية ، عندما تعود إلى طريق التنمية الذى قطعه الحرب العالمية الأولى ومرحلة الشيوعية ، وقطعه العلاج بالصدمة لفترة قصيرة ، لاتضع نفسها فى مواجهة « الغرب » . فهى تدرك حقيقة أن تحديث روسيا عن طريق مواجهة الغرب قد أخفق . وفى الوقت نفسه ليس من الضرورى أن تكون روسيا اليورو آسيوية غير الغربية ، روسيا مناهضة للغرب .

والطريقة التى تتفاعل بها روسيا مع أوروبا الغربية والولايات المتحدة تعتمد أساسا على حكومات تلك البلدان التى تمسك فى الأوضاع الحالية بزمام المبادرة فى غالبية القضايا الاقتصادية والأمنية . ولن تؤدي سياسات الانبهار بالانتصار التى تنتهجها الدول الغربية إلا إلى زيادة المصاعب التى تعترض ظهور دولة روسية عصرية . وإذا كان هناك خطر أن تتحول روسيا إلى دولة من طراز فيمار^(*) ، فإن هذا الخطر يزداد إذا اتبع الغرب سياسات تدفعها فى هذا الاتجاه .

(*) الاسم الذى أطلق على الجمهورية التى أنشئت فى ألمانيا فى عام ١٩١٩ بعد تنازل الإمبراطور ولهم الثاني ، وكان دستورهما مركزيا ديمقراطيا . تولى رئاستها فردريك إيبرت (١٩ - ١٩٢٥) ، ثم المارشال پول مندريج (٢٥ - ١٩٣٤) . انتهى وجودها عمليا فى عام ١٩٣٣ ، عندما عين أدولف هتلر مستشارا وقام بتأسيس الرايخ الثالث - المترجم .

والواقع أنه ليس هناك شيء في ظهور روسيا يورو آسيوية يهدد بالضرورة المصالح الحيوية لأية دولة غربية . وإذا حدث أن ظهرت نزاعات في الوقت الذي تقوم فيه روسيا ببناء اقتصاد سوق يكون انعكاسا لتاريخها واحتياجاتها الراهنة ، فيكون مرجع ظهورها أن الرأسمالية الروسية ليس باستطاعتها التكيف مع الإطار « البروكروستيزي »^(*) للسوق الحرة العالمية .

(*) نسبة إلى بروكروستيزي ، وهو لص إغريقي خرافي يمد أرجل ضحاياه أو يقطعها لكي يجعل طولهم منجمعا مع فرائسه ، والمعنى المقصود هنا هو الميل إلى إحداث التناسب أو التجانس بوسائل عنيفة أو اعتباطية - المترجم .

الفصل السابع

أفول الغرب وتهوض الرأسماليات الآسيوية

من الصعب جدا على أمريكا ، من الناحية الوجدانية ، أن يزيحها عن مكانتها ، ليس في العالم ، بل فقط في غربي المحيط الهادى ، شعب آسيوى ظل لوقت طويل موضع احتقار بوصفه شعباً منحطاً وضعيفاً وفاسداً وبعديم الكفاءة . فالشعور بتفوق الأمريكين الشافى سيجعل قبول هذا التعديل أمراً بالغ الصعوبة .

فالأمركيون يعتقدون أن أفكارهم عالية - تفوق الفرد . التعبير الحر بلا قيود ، ولكنها ليست كذلك - ولم تكن أبداً .

لى كوان يو (١)

إن الفصل الكامل للماركسية .. والتفكك المثير للاتحاد السوفيتى، ليسا إلا نظيرين لانهبيار الليبرالية الغربية ، وهى التيار الرئيسى للحدثة . فالليبرالية ليست هى البديل للماركسية ، وليست هى الأيديولوجيا السائدة فى نهاية التاريخ ، وإنما ستكون قطعة الدومينو التالية التى تسقط .

تاكيشى أومهارا (٢)

إن أى محاولة لفرض إرادة شخص ما ، أو قيمة ما على الآخرين ، أو لتوحيد العالم فى ظل نموذج معين «الحضارة» سوف تفشل حتماً - فليس هناك نظام اقتصادى

(١) لى كوان يو ، Interview ، فى مجلة نيويرسبيكتفز كوارترلى ، المجلد ١٣ ، العدد ١ ، شتاء عام ١٩٩٦ ، الصفحة ٤ .

(٢) تاكيشى أومهارا ، Ancient Japan shows post-modernism the way ، فى مجلة نير بروجريف كوارترلى ، العدد ٩ ، ربيع عام ١٩٩٢ ، الصفحة ١٠ .

واحد يناسب كل البلدان. وعلى كل بلد أن يسلك طريقه الخاص ، مثلما فعلت الصين .

كياوشى ، عضو المكتب السياسى

للحزب الشيوعى الصينى (٣)

فى يناير عام ١٨٥٠ أصدر پلمرستون ، وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الحين ، أوامره للأسطول البريطانى بمحاصرة ميناء پيريه والاستيلاء على السفن اليونانية . وقد فعل ذلك لإجبار الحكومة اليونانية على الاستجابة لمطالب دون پاسيفيكو ، وهو من أبناء البرتغال من جبل طارق وكان أيضا من رعايا بريطانيا . كان دون پاسيفيكو يدعى أنه مستحق لتعويض مقداره ٣٠ ألف جنيه إسترلنى عما لحق بيته وممتلكاته من أضرار أثناء أحداث الشعب التى وقعت فى أثينا فى عام ١٨٤٨ . وكان مطلب دون پاسيفيكو موضع شك ، ولكن پلمرستون تحدث فى مجلس العموم فى يونيه عام ١٨٥٠ مدافعا عن الإجراء الذى اتخذ ، واستشهد بعبارة وردت فى «المعهد الجديد» تقول «إنى من مواطنى روما» . وجاء تفسير پلمرستون لهذه العبارة نموذجا لما كان عليه السلم البريطانى (*) فى أوجهه ، إذ قال پلمرستون : «وكذلك فإن أى رعية بريطانى ، فى أى مكان يجب أن يكون واثقا من أن عين إنجلترا اليقظة وذراعها القوية سوف تحميانه من الظلم والخطأ» (٤) .

وبعد مرور قرابة قرن ونصف قرن انحرف محور العالم . ففى سنغافورة فى عام ١٩٩٤ صدر حكم على طالب أمريكى يدعى مايكل فاى بأن يضرب ست ضربات بعضا غليظة لأنه كتب عبارات ماجنة على جدران مكان عام . وبعد تحركات دبلوماسية أمريكية قوية ، كان من بينها تدخل شخصى من جانب الرئيس كلينتون ، خففت العقوبة إلى أربع ضربات ، ولكنها لم ترفع .

وكانت سنغافورة ، باستجابتها للتدخل الأمريكى على هذا النحو ، تجسد تحولا

(٣) كياوشى ، «Interview» ، فى مجلة نيو برسبكتفز كوارترلى ، المجلد ١٤ ، العدد ٣ ، صيف عام ١٩٩٧ ، الصفحتان ٩ ، ١٠ .

(*) Pax Britannica : كانت النظم والحضارات المختلفة تلجأ فى مرحلة ما من تاريخها إلى ما تدعى أنه فترة سلم ، وكان من أشهر «فترات السلم» هذه «السلم الرومانى» (Pax Romana) فى القرن الثانى ، «والسلم الكنائسى الكاثولىكى» (Pax Ecclesiae) فى القرن الثالث عشر ، «والسلم البريطانى» (Pax Britannica) فى القرن التاسع عشر - المترجم .

(٤) جابريردلى ، Lord Palmerston ، لندن : كونستابل ، ١٩٧٠ ، الصفحة ٣٨٧ .

أساسياً في توزيع القوة في العالم . ففى ذروة متصف العصر الفيكتوري «للمسلم البريطاني» كان بوسع لورد بلمرستون أن يدعى الحق في أن يتصرف من جانب واحد دفاعاً عن مصالح الرعايا البريطانيين في أى جزء من العالم - بصرف النظر عن السلطة الوطنية التي يتصادف وجودهم في أراضيها . أما في ذروة قوة أمريكا فيما بعد الحرب الباردة ، فقد كان في استطاعة دولة - مدينة آسيوية أن تتحداها .

فقد رفضت سنغافورة عالية القيم الغربية . ونبذت بإباء التدخل الأمريكي وعقائد حقوق الإنسان التي كانت الولايات المتحدة تروج لها في كل أنحاء شرقي آسيا . وأكدت قيمها الخاصة في مواجهة النموذج الليبرالي لحقوق الإنسان والثقافة الاقتصادية لفردية السوق التي كانت الولايات المتحدة تسعى إلى غرسها على نطاق العالم . وأشارت سنغافورة بذلك إلى إنجازاتها باعتبارها دولة - مدينة في عصر ما بعد الليبرالية تميز بالاستقرار والتماسك ، وعلى درجة عالية من التعليم ، وأخذت في النمو بسرعة - وذلك كدليل على أن نموذجها للتحديث والتنمية يفوق كل ما يستطيع الغرب أن يعرضه .^(٥)

لقد كان النظام الاقتصادي الدولي الليبرالي في عالم ما قبل عام ١٩١٤ يعتمد على قدرة بريطانيا البحرية واستعدادها لاستخدام أسطولها في أى مكان في العالم . ولا يوجد اليوم استعداد كهذا من جانب الولايات المتحدة . إن السبق الأمريكي في التكنولوجيا العسكرية يجعلها القوة العالمية الرئيسية ، ولكن سكانها ليسوا مستعدين لتحمل الأعباء المالية والبشرية لقيام نظام إمبريالي .

وثمة اختلاف عميق آخر بين «الحقبة الجميلة» ومرحلتنا المتأخرة الحديثة في نهاية القرن . فقبل عام ١٩١٤ كانت المطابقة بين التحديث والتغريب أمراً لا يكاد يتشكك فيه أحد . بل إن الحركات المعادية للاستعمار في القرن العشرين - في الهند والصين ومعظم مناطق العالم التي كانت خاضعة للسيطرة الاستعمارية - نادراً ما كان ياورها الشك في أن تحرير بلدانها من السلطة الغربية سيستلزم تحديث بلدانها وفقاً لنموذج غربي .

(٥) من أجل الحصول على رواية موثوق فيها للتحديث في سنغافورة ، انظر ، م . هل وليان كوين في ، *The Politics of Nation Building and Citizenship in Singapore* ، لندن ونيويورك : روتلج ، ١٩٩٥ . ومن أجل رواية نقدية للتنمية الاقتصادية في سنغافورة وغيرها من الدول الصغيرة ، انظر ، و . بللو وستيفاني روزنفلد ، *Dragons in Distress : Aisa's Miracle Economy* ، لندن : بنجوين ، ١٩٩٢ .

وفى جانب كبير من العالم النامى ، كانت الماركسية تعمل كأيديولوجية لتغريب الثورات .

وفى تركيا أقام كمال أتاتورك ، وهو واحد من أكثر دعاة التحديث السياسى موهبة فى التاريخ ، أكثر نظم هذا القرن التغريبية ثباتا على المبدأ القائل بأن التحول إلى دولة عصرية يتطلب انفصالا حازما عن التراث الثقافى الأصلى لبلده . وحتى نهاية الحرب الباردة كان التحديث والتغريب يُعدّان مترادفين فى كل مكان تقريبا . وكان الاستثناء الوحيد من ذلك هو اليابان .

التحديث من الواقع المحلى ، نموذج اليابان

عندما أرغم القبطان پيرى^(*) اليابان فى عام ١٨٥٣ على إعادة فتح أبوابها أمام التجارة لأول مرة ، منذ أن أغلقت فى وجه العالم الخارجى فى عام ١٦٤١ ، كان يفعل ما هو أكثر من إحداث اضطراب فى طريقة للحياة ظلت بلا تغيير على امتداد أكثر من مائتى عام . فقد أنهى تجربة قد تكون فريدة فى تاريخ البشرية .

وفى فترة الإيدو^(**) تخلت اليابان عن تكنولوجيا الحرب الحديثة فى صورتها المبكرة ، وارتدت من البندقية إلى السيف^(٦) . لقد فعلت الصفوة الحاكمة فى اليابان ما تُعدّه النظريات الغربية فى التقدم العلمى أمرا مستحيلا - فقد ساروا بالتطور التكنولوجى إلى الوراء .

(*) ماثيو كالبريت پيرى : ضابط بحرى أمريكى زار اليابان فى عام ١٨٥٣ ، وأرغمها على فتح أبوابها للأجانب بعد أن أغلقتها فى وجوههم منذ بداية فترة الإيدو فى عام ١٦٠٣ ، وعقد مع إمبراطورها معاهدة لحماية الملاحين الأمريكين - المترجم .

(**) الإيدو أو اليبيدو (Edo or yedo) : الاسم القديم لمدينة طوكيو . وهى فترة فى تاريخ اليابان بدأت فى عام ١٦٠٣ مع نظام باكوفو الذى أقامه طوكوجاوا . والذى كان حكما إقطاعيا يقوم على مركزية حديثة عاصمتها إيدو . وكانت فترة انغلاق وعزلة عن العالم الخارجى ، وحظرت خلالها جميع الصلات الدبلوماسية مع البلدان الأخرى ، وطوّرت اليابان خلالها ثقافتها الأصلية ، وتخلّصت من كل نفوذ للثقافة الغربية . وانتهت هذه الفترة مع عودة ميجى فى عام ١٨٦٨ التى كانت بمثابة ثورة ضد الإقطاع ، وبداية التاريخ الحديث لليابان - المترجم .

(٦) من أجل رواية متممة لهذه الفترة الفريدة ، انظر ، نوبل پيرين ، Giving up the Gun : Japan's Reversion to the Sword, 1643 - 1879 ، بوسطن : نايناريل بوكس ، ١٩٧٩ .

كما أن وصول سفن القبطان يبرى السوداء أوضح للصفوة اليابانية الذكية والبقظة أن طريقة الحياة المغلقة المسالمة التي تمتعت بها لأكثر من مائتي عام إنما هي طريقة لا مستقبل لها . وعرفت تلك الصفوة ما تدخره لها الدول الغربية بمشاهدة مصير الصين في حروب الأفيون . وقد هدد القبطان يبرى في رسالته إلى الشوجن (*) بأنه إذا لم تفتح اليابان أبوابها أمام التجارة فسوف تزورها «سفن الحرب الضخمة» ، ربما في فصل الربيع . (٧) وقد كانت سفن يبرى السوداء بمثابة النهاية لتجربة اليابان في العزلة وفي استخدام التكنولوجيا المنخفضة - وهي تجربة كانت قد أثبتت أن اقتصادا بلا نمو (**) يتفق تماما مع الرخاء والحياة المتحضرة (٨) . ووضعت اليابان في الوقت نفسه على مسار طموح للتحديث كان من نتيجته أنها دخلت القرن العشرين بأسطول دمر الأسطول الإمبراطوري الروسي في نوسيشيما في عام ١٩٠٣ .

وقد استمر وجود بيت ميتسوى (***) التجاري العظيم من عصر الإيدو المغلق عبر عصر التحديث ، عصر عودة مييجي (****) (١٨٦٨ - ١٩١٢) ، ثم احتلال الحلفاء لليابان بعد الحرب العالمية الثانية ، ليصبح إحدى المؤسسات اليابانية الكبرى في الوقت الحالي . وهذا العمر الطويل يعبر عن حقيقة جوهرية بشأن التصنيع في اليابان - ولم يقتض ، كما حدث في بعض بلدان أوروبا القارية ، انفصالا حاسماً عن النظام الاجتماعي الاقطاعي .

(*) الشوجن : أحد أفراد أسرة طوكوجاوا التي توارثت منصب الشوجن وكانت تقبض على أئنة الحكم في اليابان (١٦٠٣ - ١٨٦٧) ، وظلت السلطة الفعلية بيد الشوجن حتى ثورة ١٨٦٧ - ١٨٦٨ المعروفة بعمره مييجي - المترجم .

(٧) انظر ، آرثر والورث ، Black Ships off Japan ، نيويورك : ألفريد كروب ، ١٩٤٦ .

(**) No growth economy

(٨) بيرين ، المرجع السابق ، الصفحة ٩١ .

(***): تطورت خلال أواخر القرن التاسع عشر مجموعة مهمة وقوية من أحفاد التجار الصيارفة الذين برزوا في فترة طوكوجاوا . وقد شعرت الحكومة بعد عودة مييجي بضرورة الإسراع بالتصنيع ، فرائت الاستفادة من هذه المنشآت ذات التنظيمات والأعراف التجارية . ونتيجة لذلك تطور عدد صغير من المجمعات الصناعية التي هيمنت على الصناعات الثقيلة في اليابان ، وكان من أهمها بيت ميتسوى ويت ميتسويشي - المترجم .

(****): مييجي : مييجي تينو (١٨٦٧ - ١٩١٢) ، هو الاسم الذي اتخذته موتسوهيتو حينما اعتلى العرش (١٨٦٧) : وكان يعني حركة التنوير . وحدث في أول حكمه (١٨٦٨) الانقلاب الذي أطاح بالشوجنية كنظام للحكم وأعاد للإمبراطور سلطاته . وكان هذا الانتصار ضربة قاضية للإقطاع ، فأتمت أراضي كبار الأشراف ، وبدأت اليابان تسير نحو التصنيع واقتباس الحضارة الغربية - المترجم .

وقد تطورت الشركات اليابانية كما لو كانت فرعا طُعمت به المؤسسات الموروثة من القرون الوسطى . وكان الاقتصاد الصناعي الحديث الذي بدأت اليابان إقامته في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، تجسيدا لنظام اجتماعي لم ينكسر في أشد أجزائه حيوية . وكانت طبقة المحاربين ، الساموراي^(٨) ، هي رأس حربة التحديث في اليابان الذي كان ممكنا لأن النظام الإقطاعي الذي كان نقطة انطلاقه لم ينكسر .

والنموذج الماركسي القائل بأن روابط التكنولوجيا تعمل داخل الهياكل الاجتماعية القديمة وتمزقها هو نموذج لا ينطبق كثيرا على حالة اليابان . وكذلك لا تنطبق القصة الليبرالية القائلة بأن المجتمع يتطور عبر نمو المعرفة والتجديد في الآراء . وليس هناك تصوير للتحديث وفقا لنماذج التواريخ الغربية يعبر عن حقيقة التجربة اليابانية .^(٩)

وليس لنظريات الاقتصاد الكلاسيكي الجديد غير قيمة محدودة لإضاءة الحياة الاقتصادية في اليابان اليوم . فالشركات اليابانية تتنافس بعضها ضد بعض على الأسواق منافسة لا رحمة فيها مثلما يحدث في كل مكان آخر ؛ ولكن الرأسمالية اليابانية تختلف اختلافا عميقا عن فردية السوق الأنجلو سكونية التي أقام عليها معظم أصحاب النظريات الاجتماعية العظام نموذجهم للرأسمالية ، كما تختلف عن النموذج الذي يقدمه «توافق واشنطن» .

ومؤسسات السوق اليابانية تعتمد في معاملاتها مع موظفيها ومع بقية المجتمع على شبكات من الثقة وليس على ثقافة العقود . وهي أقل كثيرا من الشركات الأمريكية انفصالا عن هيكل المجتمعات المحيطة بها . وعلاقتها مع مؤسسات الدولة علاقات وثيقة ومستمرة . كما أن الحياة التي تنفصع عنها الرأسمالية اليابانية ليست حياة فردية ولا يوجد ما يدل على أنها ستصبح كذلك .

إن هذه الفروق العميقة والمستمرة بين رأسمالية اليابان ورأسمالية إنجلترا وأمريكا تعبر عن حقيقة جوهرية . فكل من مؤيدي الرأسمالية ومترقيها يرون أن الفردية هي إحدى قساماتها المحورية ، ولكن الارتباط بين الرأسمالية والفردية ليس أمرا محتوما ولا هو

(٨) الساموراي : أعضاء الطبقة الأرستقراطية المحاربون زمن اليابان الإقطاعية ، وقد ألغيت هذه الطبقة عند إعادة السلطة ليجي ، ومع ذلك كان لها دور في بناء اليابان الحديثة - المترجم .
(٩) من أجل حجة طموحة لما قامت به اليابان من تقييد أو تزيف للعلوم الاجتماعية الغربية ، انظر ، ديشيد وليامز ، *Japan and the Enemies of Open Political Science* ، لندن ونيويورك : روتلندج ، ١٩٩٦ .

ظاهرة عالمية ، وإنما هو حدث تاريخي عارض . وقد خلط مفكرو الرأسمالية الأوائل - آدم سميث ، آدم فيرجسون ، كارل ماركس ، كارل فيبر ، وجون ستيوارت مل - بينها وبين القوانين العامة ، لأن الشواهد التي بنوا عليها نظرياتهم كان الجانب الأكبر منها مقصورا على بضعة بلدان غربية .

ولن نستطيع أن نبدأ في فهم اليابان إلا إذا قبلنا القول بأنها في نهاية القرن التاسع عشر كانت بالفعل على طريق التحديث . كما كانت اليابان قد قطعت منذ أمد طويل شوطا كبيرا في القضاء على الأمية ، وكانت حياة المدن تتسع بسرعة . وقد استوعبت التكنولوجيات الجديدة ، وأقامت دولة مركزية . واكتسبت اليابان معالم الحضارة هذه دون تغريب هيكلها الاجتماعية أو مآثوراتها الثقافية . وكان الدافع إلى التحديث في اليابان هو العذابات النفسية التي كان يسببها لها الاتصال بقوة الغرب التي تهددها . ولكن التحديث في اليابان كان مع ذلك نابعا من الداخل .

وقول لنا فلسفات التاريخ التنويرية إن البلدان تسلك درب التحديث عن طريق تكرار المسار الذي سلكته المجتمعات الغربية . وكانت اليابان قد كشفت منذ بداية القرن العشرين عن زيف فلسفات ونظريات التحديث التي تعتمد عليها .

وصحيح أن التحديث الياباني قد تضمن استعارات انتقائية كثيرة من البلدان الغربية . فتم تغيير التقويم ، وأنشئ نظام البنوك ، وتوسع التعليم ، ووضع نظام للقانون التجاري ، وبنى جيش وأسطول حديثان . وتضمنت هذه التجديدات جميعا شيئا من المحاكاة للممارسات الغربية ، لاسيما الممارسة البروسية (في إصلاح النظام القانوني لليابان والنظام المدرسي والجيش) ، والممارسة البريطانية (في تطوير الأسطول الياباني) . وكان الضباط اليابانيون يحضرون الدروس في الأكاديميات الغربية ، كما كان المهندسون اليابانيون ينافرون إلى البلدان الغربية لدراسة تقنيات بناء السفن .

ولكن آيا من عمليات التكيف هذه لم يترتب عليه تغيير في هيكل اليابان الاجتماعية أو مآثوراتها الثقافية ؛ ولا كان شيء من ذلك مطلوبيا منها . وكان هناك دعم وتشجيع للتصنيع في اليابان بغرض الحفاظ على الاستقلال الوطني . ولكن لم يكن لدعاة التغريب في اليابان الكلمة العليا في الجدل الدائر حول معنى التحديث .

وكان صانعو السياسات في اليابان يرفضون ، ضمنيا في بادئ الأمر ، ثم صراحة في أوقات لاحقة ، الرأي القائل بأن التحديث يعنى التقارب مع المؤسسات والقيم الغربية . وكما يذكر

واسو فقد أوضحوا «رفضهم لما يسمى فرضية التقارب التي مؤداها أن هناك منطلقا عاما للتصنيع ، وأن العلاقات الاجتماعية التي وجدت في الدول الأولى التي أخذت بالتصنيع (الفردية ، وسوق العمل الحرة ، وهلم جرا) لابد أن تنشأ في كل مكان آخر»^(١٠).

ومن الطبيعي أن تكون صورة فرضية التقارب هي الأساس الذي يقوم عليه «توافق واشنطن» . ولكن في اليابان ، أكثر من أي بلد آخر ، انعكس - بشهادة التاريخ - اتجاه توافق واشنطن فيما يتعلق بالتنمية الاقتصادية .

ومنذ البداية ، كان دافع التصنيع هو وجود دولة تعمل على تحقيق التنمية . ومثلما حدث في بلدان أخرى كثيرة ، مثل روسيا القيصرية ، فإن التصنيع السريع في اليابان حدث تحت رعاية سلطة حكومية مركزية قوية تأخذ بمبدأ التدخل . وقد عبر پول كيندى عن ذلك بقوله : «إن اليابان كان يتعمق تحديثها ، لا لأن المظمين الأفراد كانوا يرضون لى ذلك ، بل لأن الدولة كانت تحتاج إليه ... فقد شجعت الدولة إنشاء شبكة للسكك الحديدية والاتصالات البرقية والخطوط الملاحية ، وعملت بالتعاون مع المظمين اليابانيين الصاعدين على تطوير الصناعة الثقيلة ، وصناعة الحديد والصلب ، وبناء السفن ، وكذلك على تحديث إنتاج المنسوجات . وكان الدعم الحكومي يستخدم لصالح المصدرين ، ولتشجيع النقل البحري ، وإقامة بناء جديد للصناعة . وخلف ذلك كله كان يكمن الالتزام السياسى الرائع بتحقيق الشعار القومى «دولة غنية ذات جيش قوى»^{(١١)(*)}.

وكانت مؤسسات الدولة هي عامل التشيط والتركيز للتنمية الاقتصادية والصناعية عند كل منعطف في التاريخ اليابانى . غير أن التميز الحاد بين الدولة والمجتمع الذى وجد في البلدان الأوروبية منذ بواكير العصر الحديث ليست له أصداء قوية في تاريخ اليابان . وأهمية الاتسجام^(**) ، باعتباره قيمة في الحياة اليابانية ، تتعارض مع العلاقات التي تقوم من أعلى إلى أسفل في ترتيب هرمى ، والتي ارتبطت لأمد طويل بمؤسسات الدولة في أوروبا . وقد عبر سايل عن ذلك بقوله : «إن الحكومة اليابانية لاقتف بمعزل عن المجتمع أو

(١٠) آن واسو ، Modern Japanese Society, 1868-1994 ، أكسفورد : إدارة النشر بجامعة أكسفورد ، ١٩٩٦ ، الصفحة ١٠٢ .

(*) Fokuku Kyohel

(١١) پول كيندى ، The Rise and Fall of the Great Powers ، لندن : فونتان ، ١٩٨٨ ، الصفحة ٢٦٦ .

(**) Wa

فوقه ، بل إنها المكان الذي تعقد فيه صفات الانسجام^(١٢) . وفي هذا تختلف اليابان اختلافاً قوياً ، ليس فقط عن البلدان الأوروبية ، وإنما أيضاً عن الصين وكوريا .

وقد كانت الدولة المركزية التي قامت في اليابان في فترة مييجي وثيقة الشبه بالدول القومية الكلاسيكية في أوروبا القرن التاسع عشر . ومازالت اليابان ، من نواح كثيرة ، هي الدولة القومية التي كانت قائمة في القرن التاسع عشر . وهي بلاشك دولة إغاثية ، وليست دولة الحد الأدنى التي يدعو لها توافق واشنطن . ولكنها ليست أيضاً دولة الرفاهة من النوع الذي أقيم في أوروبا الغربية والولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية . وكما لاحظ بيتر دروكر : «إذا نظرنا إلى اليابان من خلال عدسات النظرية السياسية التقليدية ، أى النظرية السياسية للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، نجد أنها بوضوح بلد تركز فيه الضوابط الاقتصادية والتخطيط الاقتصادي في أيدي حكومة «شديدة المركزية»^(*) . ولكنها بهذا المعنى بقدر انطباق هذا الوصف على ألمانيا أو فرنسا في عام ١٨٨٠ أو عام ١٨٩٠ ، بالمقارنة مع بريطانيا أو الولايات المتحدة»^(١٣) .

غير أن تطور اليابان في فترة ما بعد الحرب كان مختلفاً عن كل المجتمعات الغربية .

فقد تطورت الرأسمالية اليابانية من المؤسسات التقليدية للعصر الإقطاعي^(١٤) . فالصناعة كانت تقوم باستمرار بتنظيم شبكات وثيقة الترابط من المنشآت الكبيرة . وفي فترة مييجي كانت هذه المنشآت هي مجموعات الزيئاتسو^(**) القابضة القوية الخاضعة لسيطرة عائلية . ومجموعات الزيئاتسو هذه التي وجدت قبل الحرب ظلت قائمة بعد المحاولة التي تمت أثناء الاحتلال لفرض تشريعات مناهضة للاحتكار على الطراز الأمريكي ، من أجل تحويلها إلى كيجيو شوجان^(***) ، أى مجموعات تتعامل فيما بين الأسواق من

(١٢) موراي سايل ، "Japan Vitcorious" ، في مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس ، عدد ٢٨ من مارس عام ١٩٨٥ ، الصفحة ٣٥ .

(*) Statist country .

(١٣) بيتر دروكر ، Post-Capitalist Society ، أوكسفورد: باترويرث - هاينمان ، ١٩٩٣ ، الصفحة ١١٧ .
(١٤) يقول بعض الكتاب إن النظام الاقتصادي الياباني لا يمكن تصنيفه على أنه صورة مختلفة من صور الرأسمالية . وللإلمام بحجة تقول بذلك ، انظر ، إي . سكايبارا ، Beyond Capitalism : The Japanese Model of Market Economies ، المعهد الاقتصادي للاستراتيجية ، لانهام : يونيفرستي برس أوف أمريكا ، ١٩٩٣ .

(**) Zaiatsu : العائلات القليلة التي تسيطر على المالية والتجارة والصناعة في اليابان - المترجم .

(***) Kigyo Shugan .

النوع القائم اليوم . وبعد انتهاء الاحتلال أعادت المنشآت الكبيرة (ميتسوي ، ميتسوبيشي ، سوميتومو ، وغيرها) تجميع نفسها ، وإن يكن تحت سيطرة عائلية أقل من ذي قبل ، وساعدت بذلك على تشكيل شبكة مجموعات المؤسسات التي تسيطر على الاقتصاد الياباني اليوم . وقد صدق القول بأنه «لا يوجد في أي بلد آخر مثيل للزياتسو وغيرها من الشركات الفرعية التي تربط ما بين المنشآت الصناعية والتجارة والمالية في خصلة خيوط سميكة ومعقدة من العلاقات»^(١٥) . وهذه المجموعات من المؤسسات الضخمة تتعايش مع مجموعة متنوعة هائلة من المنشآت الصغيرة في اليابان ، ولكنها تحدد الإطار الذي تعمل في داخله هذه المؤسسات الأخرى .

وهذه الترابطات المتبادلة للاقتصاد الياباني التي تجعله جزءاً لا يتجزأ من حياة المجتمع ، كانت هدفاً لهجوم من جانب المفوضين الأمريكيين والمنظمات عبر الوطنية على امتداد العقود . وقد شهَّرَ بهله الترابطات على أنها حصون للحماية ، ولم يفهم دورها في تغذية التماسك الاجتماعي ، أو أن هذا الدور كان مرفوضاً .

وظيفة المتاجر الصغيرة في نواحي الشوارع في إبقاء المدن كمؤسسات اجتماعية قابلة للاستمرار هي وظيفة لا تظهر في توافق واشنطن . والقول بأن هذه المتاجر لديها إمكانية للحفاظ على التماسك الاجتماعي أفضل مما لدى السجون يعد قولاً مستهجناً - إذا كان هناك من يضعه في الحساب أصلاً . وكما قال مراقب بريطاني نافذ البصيرة :

تذكر وزارة العدل الأمريكية ، في آخر إحصاء لها ، أن مليوناً ومائة ألف مواطن أمريكي مودعون في السجون ، أي قرابة ١ من كل ٢٠٠ من مجموع السكان ، رجالاً ونساء وأطفالاً . فلماذا نتطلع إلى أمريكا للحصول على نماذج اقتصادية واجتماعية ، بدءاً من إلغاء اللوائح ، وسلطة المستثمرين المؤسسين ، إلى مخططات تنظيم العمل ، إذا كانت تتج هذا النوع من المجتمعات ؟ ... ومع ذلك فإتبات النموذج الأساسي لكل المؤسسات الاجتماعية الدولية تقريباً ... وقد دعت منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية^(*) (في تقريرها السنوي عن اليابان) إلى مزيد من التحرر من الضوابط

(١٥) ر. ا. كينغز ، م. يوكوزا ، Industrial Organisation in Japan ، واشنطن : مؤسسة بروكتر ، ١٩٧٦ ، الصفحة ٥٩ .

(*) Organisation for Economic Cooperation and Development (OECD) : منظمة أنشئت في عام ١٩٥٩ ، وكانت تضم في عضويتها عشرين دولة ، من بينها الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا . وقد حلت في عام ١٩٦٦ محل منظمة التعاون الاقتصادي الأوروبي (OEEC) . وكان هدفها الرئيسي هو زيادة دخول الدول الأعضاء بمقدار ٥٠ في المائة خلال الفترة ١٩٦٠ - ١٩٧٠ - المترجم .

... وإنهاء حماية المتاجر الصغيرة ... وتبدي المنظمة ارتياحها لكون متجرا من كل ١٥ متجرا يابانيا قد أغلق أبوابه في الأعوام الثلاثة الماضية . إن المتاجر الصغيرة تختفى بسرعة أكبر من أى وقت مضى ، وإن هناك مكاسب متواضعة في الكفاءة يتم إحرازها بتكلفة اجتماعية كبيرة . (١٦)

إن ما يتطلبه توافق واشنطن من اليابان يذهب إلى أبعد من القضاء على متاجرها الصغيرة ، فهو يشمل تخفيض معدلات الادخار ، والتخلي عن العمالة الكاملة ، والأخذ بالمذهب الفردي المعتمد على الأسواق . كما يعنى فى مجموعه مطالبة اليابان بأن تكف عن أن تكون يابانية .

والخطيئة الأساسية التي لا تفتقر لليابان في حق توافق واشنطن هي ثقافة العمالة الكاملة . فمعدل البطالة في اليابان يتراوح بين ٣ و ٤ في المائة ، مقابل متوسط يبلغ حوالي ٨ في المائة في بلدان منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية . كما أن لديها نسبة من السكان العاملين أعلى من المتوسط في هذه البلدان بالنسبة لكل فئات العمال ، بما في ذلك الشباب . وكان معدل البطالة في عام ١٩٩٣ أدنى منه في أى بلد من بلدان المنظمة ، حتى عند احتساب من يعملون بعض الوقت .

ولا يمكن بأي حال القول بأن المستخدمين اليابانيين يتمتعون بالعمالة طوال العمر ، فهي أمر غير مألوف خارج المنشآت الكبيرة . ومع ذلك فإن ٤٣ في المائة من المستخدمين في اليابان ظلوا يعملون لدى نفس صاحب العمل لمدة تزيد على عقد كامل في عام ١٩٩١ ، مقابل ٣٣,٥ في المائة في عديد من بلدان المنظمة . ومن هنا كان الأمن الوظيفي مصوناً في اليابان أكثر مما هو عليه في أى بلد آخر .

وقد حافظت اليابان على ثقافة العمالة الكاملة طوال أسوأ انكماش تعرضت له في أى وقت ، وهو الانكماش الذي حدث عند الانخفاض الشديد في النشاط الاقتصادي بعد انهيار مسمى «اقتصاد الفقاعة» (*) في عام ١٩٨٩ - وعلى الرغم من تراجع مطرد في العمالة في الصناعات التحويلية في الأعوام الثلاثين الماضية . فماذا يمكن أن تكون عليه حال مستوى العمالة في الولايات المتحدة ، إذا ما تعرضت سوق الأوراق المالية فيها ، مثلما حدث في اليابان ، لانهيار يقرب من ٧٠ في المائة ؟

(١٦) جراهام سيرجنت ، "Economically, jails Cost more than corner shops" ، في جريدة ذي نيمس ، ١١ كانون الأول ١٩٩٥ .

(*) Bubble Economy : الاسم الذي أطلق على فترة ازدهر فيها النشاط العقارى ، وارتفعت فيها أسعار العقارات بشكل مصطنع ، ثم انخفضت فجأة محدثة هزة اقتصادية - المترجم .

وقد علق مارتن وولف على ذلك عن حق بقوله : «إذا حكمنا على أى اقتصاد بقدرته على أن يوزع على نطاق واسع المكاسب التى يحققها النشاط الاقتصادى ، على حين يحمى من أهم أقل فئمة على محمل تكاليف الانكماش ، فإن اليابان كانت تدعو إلى الإعجاب فى سنوات المحنة بقدر ما كانت تدعو إليه فى سنوات المجد»^(١٧) .

وإذا كانت السمة المميزة الرئيسية للاقتصاد اليابانى قد استطاعت الاستمرار فى فترة ما بعد الحرب - وهى العقد الاجتماعى غير المكتوب الذى يضمن الأمن الوظيفى لجزء كبير من سكانها - فإن السوق الحرة العالمية تتهددها الآن . إن العقد الاجتماعى اليابانى الذى تطور بعد الحرب العالمية الثانية ، والذى كان فى جانب منه استجابة لضغوط اجتماعية ، مثل نقص المهارات ، وكان فى جانب آخر بمثابة إستراتيجية لتأمين السلم الصناعى والاجتماعى ، قد حال دون نمو طبقة بروليتارية ، كما حال فى الأعوام الأقرب دون نمو طبقة دنيا . وبالمقارنة بمعظم البلدان الغربية فإن اليابان تُعدّ مجتمعاً قائماً على المساواة ، ينتمى جميع أعضائه تقريباً إلى الطبقة الوسطى .

وإذا ما خضع صانعو السياسة فى اليابان لمطالب توافق واشنطن ، فسوف تنضم اليابان إلى كل تلك المجتمعات الغربية التى لا توجد بها حلول لمشكلات البطالة الواسعة ، والجريمة الوبائية ، وانهيار الترابط الاجتماعى .

إن العقد الاجتماعى اليابانى الذى يضمن الأمن الوظيفى قد لا يستمر طويلاً فى صورته الحالية . ذلك أن ضمان العمل طيلة الحياة فى منشأة واحدة لم يعد أمراً يوثق به . فالتنافس مع الاقتصادات الأخرى فى شرقى آسيا يجعل من المتعذر تجنب التحلل من بعض قيود سوق العمل . والسؤال الآن هو ما إذا كانت اليابان تستطيع المحافظة على ثقافة العمالة الكاملة السائدة فيها ، مع الابتعاد عن ضمان الأمن الوظيفى مدى الحياة لدى منشأة واحدة الذى طبقت فى فترة ما بعد الحرب .

واليابان مجتمع صناعى على درجة عالية من النضج . وهو فى ذلك يشبه الاقتصادات العصرية الحديثة فى أوروبا الغربية بأكثر مما يشبه الاقتصادات الحديثة التصنيع المحيطة بها فى شرقى آسيا . وقد نجحت فى غضون قرن وربع قرن فى التعجيل بالتنمية

(١٧) الأرقام مأخوذة من تقرير منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية فى يناير عام ١٩٩٧ ، كما وردت فى مارتن وولف ، "Too great a sacrifice" فى جريدة فاينانشيال تيمس ، عدد ١٤ من يناير عام ١٩٩٧ .

الصناعية التي امتدت في بريطانيا لأكثر من قرنين . وفي الفترة ما بين عامي ١٨٩٠ و١٩١٣ تضاعف سكان الحضر ، ولكن عدد العاملين في الزراعة بقى على حاله تقريبا . ففي عام ١٩١٤ كان أكثر من ثلاثة أخماس سكان اليابان يشتغلون بالزراعة أو بالخرافة (الاكتساب من الغابات) أو صيد الأسماك . (١٨)

ومع ذلك ففى خلال هذه الأعوام ، وبصورة متفردة عن كل بلدان العالم غير الغربية ، شرعت اليابان فى تنفيذ برنامج طموح للتصنيع ، وهو البرنامج الذى جعلها - على الرغم من كارثة «حرب المحيط الهادى»^(*) - الاقتصاد القائم على كثافة التكنولوجيا الذى نشهده اليوم .

وهناك عناصر كثيرة من الاقتصاد اليابانى لا يمكن تصديرها ، وهو ماتضمنه الدرجة التى تنفرد بها اليابان من حيث الاستمرار والتجانس الثقافى . ولكن وضع اليابان باعتبارها مجتمعا صناعيا على النضج ، ربما يتيح لها فرصة لكى تحقق فى نهاية العصر الحديث شيئا فريدا شبيها برفضها التكنولوجيا فى فترة الإيدو .

وقد كانت اليابان ، منذ تجاوزها السريع لاقتصاد الفقاعة ، اقتصادا بلا نمو . وفى ظل ظروف انكماش الديون وجدت نفسها فى المعضلة الكلاسيكية التى شخّصها كيتز لدى حديثه عن الحكومات التى تحاول إنعاش الطلب عن طريق خفض أسعار الفائدة ، ووصفه بأنه «عملية دفع فوق جبل مشدود» . ففى اليابان ، فى أواخر التسعينيات ، مثلما حدث فى الولايات المتحدة أثناء الكساد الكبير ، لم تؤد أسعار الفائدة التى انخفضت حتى إلى ٠.٥ فى المائة إلى تنشيط الاقتراض . ويشهد النمو الاقتصادى فى اليابان الآن فترة من الهدوء . فهل وصلت اليابان قبل غيرها إلى حالة التشبع التى تخشاها البلدان الغربية منذ أمد طويل ، ولكنها لم تصل إليها بعد ، والتى أصبح من المتعذر عليها فيها المضى فى النمو الاقتصادى بالمعدل الذى تحقق خلال معظم فترة ما بعد الحرب ؟

وقد ذكر اقتصادى يابانى قراءة بما لاحظته جون ستيوارت مل من أن «الحالة الساكنة لرأس المال والإنتاج ، لاتستتبع بالضرورة حالة ساكنة لتحسن البشرى»^(١٩) . فهل

(١٨) پول كيندى ، المرجع السابق ، الصفحة ٢٦٦ .

(*) ربما كانت الإشارة هنا إلى اشترك اليابان فى الحرب العالمية الثانية إلى جانب دولتى المحور (ألمانيا وإيطاليا) ضد دول الحلفاء - المترجم .

(١٩) س . تسورو ، Japan's Capitalism ، كمبردج ، إدارة النشر بجامعة كمبردج ، ١٩٩٣ .

تستطيع اليابان تحقيق شيء شبيه «بإقتصاد الحالة الساكنة»^(*) الذى دافع عنه جون ستيوارت مل ، والذى يستخدم فيه التقدم التكنولوجى لتحسين نوعية الحياة بدلا من مجرد التوسع فى كمية الإنتاج؟^(٢٠)

وفى الأماكن الأخرى من العالم ، كانت رؤيا إقتصاد بلا نمو مجرد وهم يستحيل تحقيقه . وربما يتبين فى مجتمع اليابان الصناعى الذى بلغ مستوى فريدا من النضج أن انهيار النمو الإقتصادى يمكن أن يكون فرصة للنظر فى مدى صواب الحد منه . ولكن ذلك يمكن أن ينطوى على تحدٍ للحتمية الأساسية لتوافق واشنطن ، التى تؤكد أن التحسين الاجتماعى لا يتحقق دون نمو إقتصادى بلا نهاية .

التحديث الذى أخفق فى الصين ، النموذج السوفيتى الذى اتبعه ماو

إن عبارة ماوتسى تونج الشهيرة القائلة بأن «الاتحاد السوفيتى اليوم هو الصين غدا»^(٢١) إنما تنلّف الدافع المحورى الذى حكم عملية التحديث الفاشلة التى فرضها نظام ماو على الصين . وعلى الرغم من المناسبات العديدة التى نشب فيها نزاع بين الدولتين ، فقد ظل الاتحاد السوفيتى المثال لمجتمع عصرى فى صين ماوتسى تونج . ولن يستطيع أحد إدراك أبعاد الكوارث التى لحقت بالصين فى عهد ماوتسى تونج دون فهم دور الماركسية كمشروع تفريى فى الصين .

فقد كان النموذج السوفيتى هو مصدر الإلهام فى نكبة «الفزة الكبرى إلى الأمام» (١٩٥٨ - ١٩٦٠) التى أشعلت فتيل مجاعة مصطنعة هلك فيها حوالى ثلاثين مليوناً من البشر . ذلك أن ماو تبع أساتذته السوفيت فى الاعتقاد بأنه إذا كان لاقتصاد الصين أن يصبح إقتصادا حديثا ، فلا بد من تصنيع قطاعه الزراعى . وكما كانت الحال فى الاتحاد

(*) *Stationary-state Economy* : حالة إقتصادية فى ظروف ساكنة أو غير متغيرة ، تميزها عن إقتصاد الحالة الدينامية (المركبة) ، التى تأخذ التغيرات فى الاعتبار . وفى الحالة الساكنة يفترض ألا تتغير العوامل الإقتصادية بصورة مستقلة ، وإنما تتغير فقط نتيجة لتغير مقترض فى أحد العوامل ، ولا سيما عندما تكون معدلات إنتاج السلع واستهلاكها ثابتة ، ولا يكون هناك ادخار صافٍ . المترجم .

(٢٠) أجريت دراسة أكثر كمالا لتصور جون ستيوارت مل لإقتصاد الحالة الساكنة ، وذلك فى كتابي ، *Beyond the New Right : Markets, Government and the Common Environment* ، لندن ونيويورك : روتلندج ، ١٩٩٣ ، الصفحات ١٤٠ إلى ١٥٤ .

(٢١) ماوتسى تونج ، وردت فى جاسبر بيكر ، *Hungry Ghosts : China's Secret Famine* ، لندن : جون موراي ، ١٩٩٦ ، الصفحة ١٧ .

السوفيتي ، لم يكن النموذج للزراعة في الصين في ظل ماو هو حيازة الفلاح الصغيرة ، وإنما المصنع الرأسمالي الذي عرفه القرن التاسع عشر .

ومرة أخرى ، اقتفى ماو النموذج السوفيتي بإتخاذ موقف أشبه بموقف پروميثيوس^(*) من البيثة - وهو موقف غير مألوف أو معروف حتى الآن في الصين . وفي عصر ماو كانت هناك استخدامات للتكنولوجيا خالية من الرحمة ، كما كان هناك إنكار مذهبي ماركسي لاحتمال تعرض الصين لمشكلة مالتسية بشأن السكان ، مما ترك الصين بموارد طبيعية مستغلة استغلالاً جائراً ، وبيثة أسوأ تدميراً حتى من بيثة الاتحاد السوفيتي .

وهذه السمات المميزة لنظام ماو لا يمكن إرجاع أي منها إلى الأعراف الصينية . فحتى وقت قريب لا يتجاوز أواخر القرن التاسع عشر كان كثيرون من الصينيين يعتقدون بأن السكك الحديدية تحدث اضطراباً في الانسجام الطبيعي للبيثة . وإذعاناً لهذه المشاعر قامت الحكومة بشراء أول خط حديدي بنى في الصين بالقرب من مدينة شنغهاي ، ثم تفكيكه^(٢٢) . كما أن السدود الضخمة ، والحملات المناهية للعقل ضد الآفات ، التي أجريت في عهد ماو ، كانت تطبيقات لجزء من مشروع التنوير الرامي إلى إخضاع الطبيعة ، وهو المشروع الذي انتقل إلى الصين من الماركسية الكلاسيكية عبر المثال السوفيتي .

ومرة أخرى ، فإن الاستبداد الماوي ليس له سابقة في تاريخ الصين . وكما يقول سيمون لايس فإن «الماوية ، كنظام استبدادي ، تكشف عن سمات غريبة على الأعراف السياسية الصينية (مهما تكن نزعات الطفغان في بعض هذه الأعراف) ، على حين تبدو من نواح أخرى مماثلة بدرجة ملحوظة لنماذج أجنبية ، مثل الستالينية والنازية»^(٢٣) . والقول بأن الاستبداد في نظام ماو كان تطوراً للطفغان الصيني التقليدي ، إنما هو قول لا يتفق مع دور الدولة تحت حكم ماو ، ذلك الدور الأكثر قهراً وعدوانية بدرجة لا تقارن . وكان لايس على حق عندما قال إن الممارسة السياسية الصينية كثيراً ما كانت ممارسة

(*) پروميثيوس : في أساطير اليونان ، العملاق الذي حمل النار إلى البشر ، فعاقبه الإله زيوس بتقييده إلى جبل ، وظل حبس قيوده إلى أن حرره منها هيراكليس - المترجم .

(٢٢) جروناتان د. اسپنس ، The Search for Modern China ، نيويورك ، نورتون ، ١٩٩٠ ، الصفحتان ٢٤٩ و ٢٥٠ .

(٢٣) سيمون لايس ، The Burning Forest : Essays on Chinese Culture and Politics ،

نيويورك: هنري هولت ، ١٩٨٣ ، الصفحة ١١٤ .

استبدادية . وقد كان القانون في الصين منذ وقت طويل على درجة عالية من التطور ؛ ولكن وجود مؤسسة للقضاء مستقلة في عملها عن السلطة التنفيذية للدولة يكاد أن يكون غير معروف . فضلا عن ذلك أنه حتى في كتابات المدرسة التشريعية كان هناك ما يشبه فلسفة سياسية للفتيان غير المحدود . ومع ذلك لم يحدث أبداً في تاريخ الصين أن قام نظام وصل في عدوانيته إلى ما وصل إليه نظام ماو . وقد وصف لايس ذلك بقوله : «في منتصف القرن السادس عشر ، كانت هيئة الموظفين الصينيين تتألف من نحو عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف موظف من بين مجموع السكان البالغ نحو مائة وخمسين مليوناً . وكانت هذه الفئة المحدودة من الكوادر مركزة بالكامل في المدن ، على حين كانت أغلبية السكان تعيش في القرى . وكان يمكن أن تقضى الأغلبية الساحقة من الصينيين حياتها بكاملها دون أن تدخل أبداً في اتصال بممثل واحد للسلطة الإمبراطورية» (٢٤) .

ولم تكن الحكومة في الصين الكلاسيكية في أي وقت على نفس الدرجة من العدوانية التي بلغتها الدول الحديثة . ولم يحدث أبداً أن اقتربت ولو عن بعد من درجة السيطرة التي حققها نظام ماو . وكما قال مينيرت فإنه «لم يحدث حتى في أيام الإمبراطور الأول في القرن الثالث قبل الميلاد ، وبالقطع ليس في أي وقت بعد ذلك ، أن عرف الشعب الصيني حكومة في قسوة واستبدادية حكومة الدولة الشيوعية» (٢٥) .

وقد بدأ تحلل جوهر الثقافة التقليدية الصينية ، والأسرة والعشيرة في الصين ، في القرن التاسع عشر . وكان انهيار أسرة كنج (*) في عام ١٩١٢ نهاية لعملية طويلة من التحلل . وكان المندارين (***) يعتقدون أنه بالوسع الأخذ بالتكنولوجيات الجديدة من الغرب مع بقاء الدولة الصينية والمجتمع بلا مساس . وعند نهاية أسرة كنج بذلت محاولة للحصول على التكنولوجيات الغربية ، وبخاصة السكك الحديدية ، وقرب نهاية القرن أعيد تنظيم الجيش . وكان هناك تفكير في إجراء إصلاحات مؤسسية شتى ، لاسيما في

(٢٤) المرجع نفسه ، الصفحتان ١٣٣ ، ١٣٤ (التشديد في الأصل) .

(٢٥) كلاوس مينيرت ، Peking and Moscow ، لندن ، وايدنفلد آند نيكولسون ، ١٩٩٣ ، الصفحتان ١٠٤ و ١٠٥ .

(*) ورد الاسم في المتن Qing ، ولكنه يرد في المراجع Ching ، وهو اسم لأسرة مانشو التي حكمت الصين حتى عام ١٩١١ ، عندما تزعم سن يات سن ثورة أطاحت بالحكم المطلق ، وأعلنت الجمهورية . بعد ذلك كوّن الجمهوريون حزبا عرف بالكومتانج ، وأكروه يوان شي كان قائد الجيش من يات سن على التزول له عن رئاسة الجمهورية في عام ١٩١٢ - المترجم .

(**) Mandarin : كبار الموظفين في الإمبراطورية الصينية القديمة - المترجم .

العلاقة بين الحكومة المركزية والحكومات المحلية ، ولكن لم يتحقق في هذا الصدد الشيء الكثير . وفي عام ١٩١٢ انهارت المؤسسات السياسية للصين في عهد كنج .

وأعلن قيام نظام جمهورى ، ولكن التحديث لم يكن قد بدأ بعد بصورة جدية . وأدت الحرب مع اليابان ، والصراع بين الوطنيين فى الكومنتانج والشيوعيين إلى مزيد من التفكك فى المجتمع الصينى التقليدى دون أن تفرس مؤسسات حديثة .

وكان نظام ماو بمثابة حد فاصل فى تاريخ الصين ، كما كان يمثل الانتصار التام لإستراتيجية للتحديث عن طريق محاكاة نموذج سوفيتى غربى . وشن هذا النظام سلسلة متعاقبة من الهجمات على ما تبقى من الحياة التقليدية فى الصين . ورغم ذلك فإن جوهر المجتمع الصينى ظل طوال الانتفاضات الضخمة التى أحدثها نظام ماو سليما بدرجة تكفى لجعل الثقافة الاقتصادية للبر الرئيسى للصين فيما بعد ماو ، تنوعا لا تخطئه العين على الرأسمالية التى مارسها الصينيون فيما وراء البحار منذ وقت طويل .

وإلى الوقت الذى أدخل فيه دنج سياونج إصلاحات السوق ، لم تكن الصين قد بدأت التحديث على أساس الأعراف الصينية . ومع ذلك فقد تايوان وفى دوائر الأعمال العائلية التى أنشئت فى كل أنحاء الشتات الصينى ، كان هناك نموذج للرأسمالية الصينية . فالصين الكلاسيكية كانت مكتفية ذاتيا ومعزولة عن بقية العالم فكريا واقتصاديا ، على مدى قرون كثيرة . ولم تكن توجد حتى فكرة الاقتصاد باعتباره مجالاً منفصلاً للحياة الاجتماعية يخضع لقوانينه الخاصة ؛ وكانت الكلمة التقليدية المعبرة عن الاقتصاد «تشنج تشى» تعنى حرفيا إدارة الفائض .^(٢٦) أما الفكرة الغربية عن التبادل السوقى على أنها ميدان منفصل عن الحياة الشخصية والعائلية فهى فكرة غريبة على الأعراف الصينية .

وعندما انهار الاكتفاء الذاتى ، كما حدث فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، كان ذلك لأن الصين أخضعت لانفتاح قسرى أمام التجارة مع الدول الغربية . وأدت المعاهدات غير المتكافئة بين الصين والحكومات الغربية إلى ما يسمى «موانئ المعاهدات»^(*) التى لم تكن تعمل فقط كقنوات للتجارة ، بل أصبحت منذ عام ١٨٩٥

(٢٦) المرجع نفسه ، الصفحة ١٣٨ .

(*) موانئ المعاهدات : نشبت حرب الأفيون فى الفترة ١٨٣٩ - ١٨٤٢ بين الصين وبريطانيا ، وذلك بسبب سعى بريطانيا إلى أن تلغى الصين القيود التى فرضتها على التجارة الخارجية . واتخذت تعلق لهذه الحرب ما قامت به الصين فى عام (١٨٣٨) من حظر استيراد الأفيون وتدمير المخزون منه فى =

فصاعدا مراكز للصناعات الأجنبية . وكما كانت الحال في اليابان ، ومن الناحية العملية في كل مكان عدا إنجلترا ، فإن التصنيع في الصين تم تحت قيادة الدولة . ولكن الدولة التي قادت خطوات الصين الأولى المتعثرة في اتجاه التصنيع كانت دولة عزلاء في مواجهة الدول الغربية .

وفي الصين ، كما في اليابان ، ولد الإذلال الذي عانته على أيدي الدول الغربية حركات فكرية تطالب بالتحديث . ولكن على خلاف اليابان كان التحديث يعني على الدوام تقريبا توجهها تغريبيا . وكان هناك اختلاف بين دعاة التحديث في الصين ، ولكنه اختلاف لا يتجاوز درجة التغريب التي يأخذون بها ، والفلسفة التي ينبغى أن تكون هاديا لهم . وكان البعض منهم يفضلون أفكار جون ستيوارت مل وجون ديوي^(*) التقدمية الليبرالية ، على حين فضل بعض آخر - في وقت لاحق - الأفكار الثورية لكارل ماركس وحواربه السوفييت . ولم يكن هناك غير صينيين قلائل يساورهم الشك في أن الأخذ بالحدثة يعني تبني القيم الغربية .

ولم يكن دعاة التحديث في الصين يجسدون مصالح أى فئة اقتصادية بعينها . وبينما كانت القوة المدافعة إلى التحديث في اليابان هي فئة الساموراي ، الطبقة للحاربة ، الذين كانوا يواجهون خطر فقد موقعهم الاجتماعى بسبب التغيرات التي تحدث في الاقتصاد ، فإنه لم تكن توجد فئة كهذه في الصين تدفعها إلى التحديث .

وكان هناك اختلاف آخر بين الصين واليابان . فالصين لم تكن أبدا على امتداد آلاف السنين بلدا إقطاعيا . وقد أوجز مينيرت هذه النقطة الحاسمة في أفكاره بقوله : «لم تكن توجد في الصين من الناحية الفعلية قنانة بين الفلاحين على امتداد أكثر من ألفى سنة . . وحتى في ثلاثينيات القرن الحالى ، عندما تدهور الوضع تدهورا حادا بالمقارنة بالأزمة السابقة ، كانت

* كانتون - الذى كان يملكه البريطانيون - وأرغمت الصين على إبرام معاهدتي نانكين وبوج في عامي 1842 و 1843 اللتين فتحت بمقتضاهما موانئ كانتون وشنغهاي وأموي وفونشا وتنجو في وجه التجارة البريطانية ، كما تنازلت الصين عن هونغ كونج لبريطانيا . وتبعته هاتين المعاهدتين معاهدات واتفاقيات أخرى مع الولايات المتحدة وفرنسا والنرويج والسويد وألمانيا وروسيا واليابان وغيرها تضمنت تنازل لها عن موانئ أخرى . وقد عرفت هذه الموانئ جميعا بموانئ المعاهدات - الترجمة .

(*) جون ديوي : (1859 - 1952) ، فيلسوف ومررب أمريكي . نشرت مؤلفاته في نيويورك في الفترة 1910 - 1940 ، ومن أهمها «الديمقراطية والتربية» ، و«التجديد في الفلسفة» ، و«البحث عن اليقين» ، وغيرها . وترجم أكثرها إلى العربية . دافع عن الاشتراكية الديمقراطية وتأثر بأراء وليام جيمس ومذهب دارون الطبعي - الترجمة .

طبقة الفلاحين في الصين ، طبقاً للبحث الذي يعول عليه والذي أجراه ج . ك . بك ، تألف من ٥٤ في المائة من أصحاب الأرض ، و ١٧ في المائة فقط من المزارعين المستأجرين ، أما بقية هذه الطبقة ، أي ٢٩ في المائة ، فكانت من الفلاحين الذين يزرعون أرضاً يمتلكونها إلى جانب أرض مستأجرة^(٢٧) .

وكان عدم وجود نظام إقطاعي في الصين ، إلى جانب حقيقة أن نظام ماوقد أخفق في تدمير الأعراف الفلاحية ، أحد الأسباب الجوهرية في النجاح الكبير الذي حققته الإصلاحات الاقتصادية التي طبقها دنج سياوبينج ، في حين أخفقت الإصلاحات التي طبقها جورباتشوف . ولم يكن ذلك خطأ جورباتشوف ، وإنما كان ميراثاً تاريخياً وقبأمله عاجزاً .

وقد كان هناك تجاهل للفروق الأساسية بين الصين التقليدية والنظام الإقطاعي في أوروبا وروسيا واليابان من جانب المثقفين الثوريين الصينيين عندما أخذوا منذ عام ١٩٢٠ فصاعداً يتشربون النظريات الماركسية في موسكو . وكما قال بيكر في دراسته القيمة عن منابع أضخم مجاعة حدثت في الصين : «إن منابع المجاعة الضخمة في عصر ماؤها جذور في تاريخ روسيا بقدر مالها في تاريخ الصين»^(٢٨) . وقد أوضح بيكر هذه النقطة الحاسمة بقوله :

إن النظريات التي تعلمها الشيوعيون الصينيون في موسكو ، وعلى أيدي مستشارين من أمثال بورودين وأوتربراون ، كانت تقوم على تحليل للنظام الإقطاعي الذي وجد في أوروبا وروسيا في القرن الماضي . وعندما كان قادة المستقبل في الصين ، من أمثال بنج وليو تشاوتشي ، يدرسون في «جامعة كادحي الشرق» ، كانت الكتب التي يدرسونها تتحدث عن تحرير الأفتان ، والإطاحة بالارستقراطية مالكة الأرض ، وتفتيت الملكيات الشاسعة في ألمانيا وفرنسا وروسيا ، في حين كانت الصين مختلفة تماماً ، على نحو ما أوضحه المبشرون الجيزويت في القرن الثامن عشر ، وباحثون من أمثال ر . هـ . تاوئي كتبوا في عشرينيات القرن الحالي . ولم تكن هناك أرستقراطية مالكة للأرض ، ولا عشيرة مهيمنة من اليونكرز أو أصحاب

(٢٧) المرجع نفسه ، الصفحة ٨٧ . البحث الذي أشار إليه مينيرت هو كتاب جون لوسنج باك ، Chinese Farm Economy ، نانكينج ، ١٩٣٧ ، (وقد ورد في حاشية في كتاب مينيرت ، الصفحة ٤٩٣) . هنا وقد حصلت زوجة باك ، بيرل س . باك ، على جائزة نوبل للأدب لروايتها The Good Earth . [توجد ترجمة عربية جيدة لرواية بيرل باك تحت عنوان الأرض الطيبة - المترجم] .

(٢٨) جاسبر بيكر ، Hungary Ghosts : China's Secret Famine ، لندن : جون موراي ، ١٩٩٦ ، الصفحة ٣٧ .

الأرض الرئيسيين الذين عرفوا في المزارع البريطانية . كما لم يكن هناك قانون إقطاعي للأرض ، ولا مزارع واسعة تُقْلَع بالسخرة . وعلى خلاف الأحوال في أوروبا ، لم تكن هناك أراض مشاع ولا مرع أو غابات في أيدي السلطات العامة . وقد بينت الإحصاءات التي أعدها وزارة الزراعة في عام ١٩١٨ أن نسبة الفلاحين من أصحاب الحيازات في الصين بين مجموع المزارعين كانت أعلى منها في ألمانيا أو اليابان أو الولايات المتحدة .^(٢٩)

كما أن النظريات الماركسية التي تبنتها الصفوة المثقفة الصينية لم تكن تنطبق كثيرا على الظروف الصينية أو تاريخ الصين . ومع ذلك كانت هي أساس نموذج التحديث الذي فرضه ماوتسى تونغ على الصين . وكان تطبيق التحديث الغربي على الطراز السوفيتي في «القفزة الكبرى إلى الأمام» هو الذي أحدث أسوأ مجاعة في تاريخ الصين الطويل .

وفي وجه معارضة من جانب البعض داخل الحزب الشيوعي الصيني ، الذين وصفوا تلك الإجراءات بأنها «اشتراكية زراعية زائفة وخطرة وبيوتوية» ، أنشأ ماو مزارع جماعية محاكاة لتلك التي أنشأها ستالين : «لأن خروشوف ، الذي كان في ذلك الوقت مسئولاً عن الزراعة ، كان يتخذ خطط ستالين لإنشاء مزارع جماعية أكبر - مزارع عملاقة في ضخامة المراكز الإدارية التي كانت تنظم حول مدن زراعية»^(٣٠) .

وكانت النتيجة كارثة . ففي الصين في عام ١٩٥٧ ، وقبل «القفزة الكبرى إلى الأمام» ، كان العمر الوسيط للوفاة^(*) هو ١٧,٦ عام ، ولكنه في عام ١٩٦٣ انخفض إلى ٩,٧ عام . وكان نصف من يموتون في الصين في عام ١٩٦٣ يقل عمرهم عن عشرة أعوام .^(٣١)

وقد فشلت عملية التحديث التي قام بها ماو لأسباب متعددة ، ولكن السبب الجوهري بينها هو أن المشروع السوفيتي الذي سعى هذا التحديث إلى محاكاته لم يكن يتفق مع احتياجات اقتصاد حديث . وكان الاقتصاد الذي ورثه الشيوعيون عن نظام

(٢٩) المرجع نفسه ، الصفحتان ٢٨ ، ٢٩ .

(٣٠) المرجع نفسه ، الصفحتان ٤٨ .

(*) Median age of death : العمر الوسيط للوفاة بالنسبة لفوج من المواليد هو العمر الذي يبلغه نصف عددهم فقط ويتوفى النصف الباقي قبل بلوغه ، أو هو العمر الذي للمولود نصيب من نصيبين في بلوغه . [نقلا عن المعجم الديموجرافي المتعدد اللغات - المجلد العربي ، المدخل ٤٣٤ ، الصفحة ٦٦] - المترجم .

(٣١) سبنس ، المرجع السابق ، الصفحة ٥٨٣ .

الكومنتايج الوطنى يحتوى على مشروعات كبيرة كثيرة مملوكة للدولة . ولم تبدأ محاولة تطبيق النظام الجماعى على هذه المشروعات إلا فى منتصف العقد السادس . ولم يكن هناك مبرر اقتصادى لتطبيق هذا النظام ، وإنما تم تطبيقه لأن الاقتصاد السوفيتى ، الذى كان النموذج للاقتصاد العصرى لدى ماوتسى تونج ، كان يقوم بتطبيقه .

ولم تكن «القفزة الكبرى إلى الأمام» مجرد محاولة لتنصع الزراعة الصينية وإضفاء الطابع الجماعى على الصناعة وفقا لنموذج سوفيتى ، بل كانت أيضا هجوما منظما على الممارسات والمعتقدات الصينية التقليدية . وقد كانت المعتقدات التقليدية للفلاحين تحت الحصار منذ انتصار الشيوعيين فى عام ١٩٤٩ ، ولكن «القفزة الكبرى إلى الأمام» ، ثم «الثورة الثقافية» ، هما اللتان كادت أن تقضيا عليها بصورة نهائية . «لقد تم تدمير كل ما يتصل بالمعتقدات التقليدية أثناء القفزة الكبرى إلى الأمام» .^(٣٢)

وقد استؤنف الهجوم على الصين التقليدية فى «الثورة الثقافية البروليتارية العظمى» فى الفترة ١٩٦٦ - ١٩٧٦ . وفى واحد من أكبر التشنجات فى التاريخ وُجّه الهجوم إلى «الاشياء الأربعة القديمة» - الأعراف القديمة ، العادات القديمة ، التفكير القديم ، الثقافة القديمة - كما تتجسد فى الكتب والنقود والوثائق وكنوز الفن العريقة . وكتب لايس يقول «إن الثورة الثقافية كانت حربا أهلية منعت من الوصول إلى مداها . وتفيد تقديرات الصينيين أنفسهم الآن أن ما يقرب من مائة مليون شخص قد أصيبوا مباشرة بدرجة أو بأخرى من العنف الذى صاحب الثورة الثقافية - سواء كمشاركين أو كضحايا»^(٣٣) .

ونتيجة «للثورة الثقافية» ارتد كل من اقتصاد الصين وتعليمها إلى الوراء لمدة جيل كامل ؛ واقتلع جانب كبير من الثقافة التقليدية التى كانت قد تمكنت بطريقة ما من الاستمرار بعد «القفزة الكبرى إلى الأمام» . كما تركت الثورة الثقافية ندوبا نفسية واجتماعية غائرة ؛ وأضعفت روابط التضامن الاجتماعى فى الصين حتى إلى مدى أكبر مما حدث فى روسيا فى الفترة الستالينية . وأصبحت المؤسسات الاجتماعية بدمار شديد من جراء الثورة الثقافية ، وربما لم ينج من آثارها غير مؤسسة الأسرة .

وكان تدمير الأعراف الصينية فى القفزة الكبرى إلى الأمام والثورة الثقافية يمضى مرادفا لتدهور البيئة الطبيعية . وفى إطار برنامج ماوى تميز بالظنطة والغرور وضع للقضاء

(٣٢) المرجع نفسه ، الصفحة ٤٨ .

(٣٣) لايس ، المرجع نفسه ، الصفحة ١٦٧ .

وكان تدمير الأعراف الصينية فى القفزة الكبرى إلى الأمام والثورة الثقافية يضى مرادفا لتدهور البيئة الطبيعية . وفى إطار برنامج ماوى تميز بالظنطة والغرور وضع للقضاء على كل الأفات الزراعية ، أعلنت حرب على عصفير الصين . واستؤصلت العصفير ، ونتج عن ذلك وباء من الحشرات التى كانت العصفير تحد من تكاثرها ، وبالتالي زادت الأضرار التى تلحق بالمحاصيل .

كما أن «الحرب على الطبيعة» التى خاضها الاتحاد السوفيتى تمت محاكاتها فى الصين بسياسات أخرى أشد تدميرا . فأنشئت السدود المائية فى كل أرجاء الصين ، وسرعان ما انهار معظمها ، ولكن بعضها ظل قائما خلال السبعينيات . وعندما تحطمت السدود فى مقاطعة هينان حدث أسوأ انفجار للسدود فى التاريخ ، وقتل مايقرب من ربع مليون إنسان . (٣٤)

وكان ما تركه ماو وخلفاؤه هو مستوى من تدهور البيئة أشد خطورة فى نتائجه مما حدث فى روسيا ، لأنه جاء فى وقت تواجه فيه الصين مشكلة اكتظاظ سكانى . وقد ورد وصف موقئ لحجم الأضرار التى ألحقها نظام ماو بالبيئة ، وذلك فى الدراسة التى أجراها فاكلاف سميل بعنوان «الأرض السيئة : تدهور البيئة فى الصين» . (٣٥)

ومشكلة الصين المالتية تعترف بها الحكومة فى سياسة الطفل الواحد التى تتبناها ، والتى تمثل أكثر المواقف ابتعادا عن الماوية . ولكن حتى مع وضع هذا البرنامج موضع التنفيذ ، فإن سكان الصين سيواصلون النمو بحوالى الربع - قرابة ٣٠٠ مليون نسمة - على امتداد الأعوام العشرين المقبلة . ويرجع جانب من هذه الزيادة إلى النمو السكانى خلال الفترة الماوية عندما كانت الأسرة الكبيرة تلقى التشجيع من الدولة .

وباستثناء بنجلاديش ومصر ، فإن حصة الفرد من الأرض الزراعية فى الصين أقل منها فى أى بلد آخر . كما أن حوالى عشر أراضى الصين ، حيث يعيش قرابة ثلثى السكان ويتم إنتاج زهاء ثلاثة أرباع ناتجها بأكمله ، يقع أدنى من مستوى فيضان الأنهار الرئيسية . ويؤثر النمو السكانى تأثيرا مباشرا على استخدام الأراضى النادرة الصالحة للزراعة -

(٣٤) بيكر ، المرجع نفسه ، الصفحة ٧٧ .

(٣٥) فاكلاف سميل ، *The Bad Earth : Environmental Degradation in China* ، لندن ، زد پرس ، ١٩٨٢ . انظر أيضا ، فاكلاف سميل ، *China's Environmental Crisis : An Inquiry Into the Limits of National Development* ، أرمونك ونيو انجلند ولندن : م . ل . شارب ، ١٩٩٢ .

بحيث تصبح أكثر ندرة . وكما لاحظ فاكلاف سميل فإنه «خلال السنوات الأربعين الماضية فقدت الصين حوالى ثلث أراضيها المحصولية بسبب نحت التربة والتصحر ومشروعات الطاقة (محطات توليد الكهرباء من المصادر المائية ، واستخراج الفحم) ، وبسبب بناء المصانع وتشبيد المساكن . . . وحتى إذا أمكن تعويض تلك الخسائر باستصلاح أراض جديدة (تلك الفرص تزداد ندرة) ، فإن النمو السكاني وحدة كفيل بتقليل حصة الفرد من الأرض الزراعية المتاحة بأكثر من عشرة فى المائة عن مثلتها فى التسعينيات وبحوالى ١٥ فى المائة بحلول عام ٢٠٢٥»^(٣٦) .

وفى العقود الأولى من القرن القادم يرجح أن تكون الصين أكبر مساهم منفرد فى احتراق الكوكب^(*) . وبحلول عام ٢٠١٠ يمكن أن تصبح الصين أكبر منتج للغاز الذى يحدث ظاهرة الاحتباس الحرارى^(**) . فضلا عن آثار هذه الظاهرة على بقية العالم ، فإنها يمكن أن تزيد من مخاطر تعرض الصين لكل من حالات الجفاف والفيضانات .^(٣٧)

والآثار الاقتصادية لهذه القيود البيئية تدعو إلى التفكير والتدبر : «ذلك أن حجم سكان الصين وما يحدثه من ضغوط على البيئة يحولان دون أى تصور ساذج لأن تعتمد الصين فى أى وقت إلى محاكاة اليابان ، أو تكرار ما تحقق من إنجازات فى الدول الأخرى الأصغر فى المنطقة التى أطلق عليها إسم «التمور» . فالصينيون لا يستطيعون فى أى وقت أن يستوردوا ٩٠ فى المائة من احتياجاتهم من الوقود الأحفورى (fossil fuels) مثلما تفعل اليابان ، أو ٧٥ فى المائة من احتياجاتهم من الغذاء»^(٣٨) . وسوف تكون هذه القيود عائقا شديدا فى ظل أى سياسات . فهى قيود قاسية منذ اليوم ، وذلك فى جانب منه بسبب الرفض الماركسى الماوى لاحتمال أن تواجه الصين فى أى وقت مشكلة مالتية .

لقد كانت تركة ماو لخلفائه هى تدمير البيئة ، وتناقص قدرة البلد على إطعام سكانه ، ومجتمع مضطرب . وكما قال رودريك ماكفاركوهار ببلاغة عن ماو : «إنه سعى إلى

(٣٦) فاكلاف سميل ، "A land stretching to support its people" ، فى جريدة إنترناشونال هيرالد تريبيون ، عدد ٣٠ من مايو عام ١٩٩٤ ، الصفحة ٨ .
 (*) Global warming ، أى ارتفاع درجة حرارة الكوكب - المترجم .
 (**) Greenhouse effect ، أو ظاهرة الصوبات - المترجم .
 (٣٧) فاكلاف سميل ، China's Environmental Crisis ، المرجع السابق ، الصفحات ١٢٩ إلى ١٣٧ .
 (٣٨) سميل ، "A land stretching to support its people" ، المرجع السابق .

إقامة المدينة الفاضلة ، ولكن الصين كادت أن تترد إلى حالة الطبعية الغفل^(٣٩) . وإلى أن جاءت إصلاحات دنغ سيانج لم يكن التحديث القابل للاستمرار على أساس الرأسمالية الأهلية الصينية قد بدأ بعد .

الرأسمالية الصينية

كما فى الثقافات الاقتصادية الأخرى تأتى الرأسمالية الصينية راسخة فى شبكات المجتمع الأوسع وقيمه . كما أن بعض الميزات البارزة للرأسمالية فى البر الرئيسى للصين إنما تتبع من تاريخه السياسى القريب ، ولكن الميزات البارزة المحورية والمستمرة لهذه الرأسمالية هى تلك التى تكشف عنها دوائر الأعمال الصينية فى كل مكان . وهى تعكس الوضع المحورى للأسرة الصينية فى خلق علاقات الثقة . وقد كانت رأسمالية الصين فيما وراء البحار أحد المحركات الأساسية لنجاح إصلاح السوق فى الصين . وهى خير مرشد إلى الرأسمالية الأهلية التى أخذت فى الظهور فى البر الرئيسى للصين .

وقد حدد ريدينج فى كتابه المهم روح الرأسمالية الصينية^(٤٠) الخصائص الرئيسية للثقافة الاقتصادية الصينية ، وفيما يلى هذه الخصائص كما أوجزها ريدينج ووايتلى :

- ١ - التكوينات الصغيرة والهياكل التنظيمية البسيطة نسبيا ؛
- ٢ - التركيز عادة على ناتج واحد أو سوق واحدة ، والنمو عن طريق التنوع المبنى على اغتنام الفرص ؛
- ٣ - مركزية صنع القرار مع الاعتماد الشديد على مسئول تنفيذى واحد مسيطر ؛
- ٤ - التداخل الوثيق بين الملكية والسيطرة والأسرة ؛
- ٥ - مناخ تنظيمى أبوى ؛
- ٦ - الارتباط بالبيئة من خلال شبكات شخصية ؛
- ٧ - الحساسية الشديدة عادة تجاه مسائل التكلفة والكفاءة المالية ؛

(٣٩) رودريك ماتفاركوهار ، "Demolition man" ، فى مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس ، عدد ٢٧ مارس ١٩٩٧ ، الصفحة ١٤ .

(٤٠) س.ج. ريدينج ، The Spirit of Chinese Capitalism ، برلين : دى جرويتز ، ١٩٩٠ .

٨ - الارتباط بوجه عام بروابط قوية ، ولكن غير رسمية ، مع المنظمات العاملة فى نفس المجال ، ولكنها مستقلة من الناحية القانونية ، والتي تتعامل فى مهام رئيسية مثل توريد الأجزاء أو التسويق ؛

٩ - الضعف النسبى فى خلق اعتراف السوق على نطاق واسع بالأسماء التجارية ؛

١٠ - درجة عالية من القدرة الإستراتيجية على التكيف . (٤١)

ويوجد الآن حوالى ٤٠ مليون صينى فيما وراء البحار فى هونغ كونج وسنغافورة وتايوان وإندونيسيا وماليزيا والفلبين . ويتراوح ناتجهم الجماعى بين مائة وخمسين ملياراً ومائتى مليار دولار .

وفى هذه البلدان ، مثلما هو فى الشتات الصينى فى كل مكان ، تكون دوائر الأعمال الصينية عادة صغيرة الحجم ، كما تكون علاقاتها الداخلية والخارجية معتمدة على العائلة وعلى الصلات الشخصية . وهى تعتمد ، فى الحصول على الإمدادات والدعم ، على «الاتصالات» والالتزامات المتبادلة وعلاقات التفاوض على المدى الطويل . وحتى عندما يتسع حجم الأعمال الصينية ، فإنها تظل منشآت عائلية ، ويتخذ أهم قراراتها رئيس العائلة ، وهو الأب . وفى كل من تايوان والبر الرئيسى للصين تكون المنشآت الكبيرة مملوكة كلها تقريباً للدولة . وعندما تكون المنشآت المملوكة للأسرة كبيرة الحجم يكون ذلك غالباً مرتبطاً بتمتعها بحماية سياسية ، أو لأنها تخصصت فى صناعات بعينها ، مثل النقل البحرى أو العقارات .

وبرغم أن الرأسمالية الصينية موجودة فى مختلف أرجاء العالم ، فإنها تبلغ ذروة تطورها فى هونغ كونج وتايوان . ولهذا الأخيرة أهمية خاصة لكونها تستطيع الادعاء بأنها نفذت تحديثاً محلياً لاقتصادها . وهو التحديث الذى لم يبدأ إلا مؤخراً فى البر الرئيسى للصين .

وفى الخمسينيات والستينيات نفذت تايوان إصلاحاً زراعياً عميق الأثر ، أعيد بمقتضاه توزيع الأرض الزراعية من أجل خلق اقتصاد ريفى يعتمد على المزارع الصغيرة . كما طبقت بدءاً من الخمسينيات برنامجاً للخصخصة أعمق أثراً ، أسفر عن تخفيض نسبة

(٤١) س . جورودون ويدنج ، ريتشارد د . وايتلى ، *Beyond Bureaucracy : analysis of resource coordination and control* ، فى العمل الجماعى الذى أعده س . ر . كليج ، س . ج . ويدنج ، *Capitalism in Contracting Cultures* ، برلين : دى جرويتز ، ١٩٩٠ ، الصفحة ٨٦ .

المؤسسات الصناعية المملوكة للدولة من ٥٧ في المائة إلى أقل من ٢٠ المائة . ويتألف اقتصاد تايوان من منشآت عائلية صغيرة ليس فيها مايشبه المؤسسات العملاقة الموجودة في كوريا أو اليابان . وكان متوسط معدل النمو في اقتصاد تايوان خلال العقود الأربعة الماضية حوالي ٩ في المائة .

وكان من نتائج تحديث اقتصاد تايوان أنها أصبحت ، من زاوية توزيع الدخل ، أكثر البلدان الرأسمالية مساواة في التوزيع .^(٤٢) وهذه الإنجازات تضى مصداقية على ما يدعيه ديك ويلسون من أن «تايوان قد أوضحت الطريق ، بمنحها الصين نموذجاً صينيا للحدثة»^(٤٣) .

لا تتفق دوائر الأعمال العائلية - التي تعد جوهر الرأسمالية الصينية - مع النظريات الغربية للمنشأة . وكما قال ريدنج ووايتلي فإن «التصورات الأنجلو سكونية للمنشأة التي تقوم على روابط قانونية باعتبارها الوحدة الأساسية في النشاط الاقتصادي ، ليست كافية لتفسير تصرفات وهياكل «الشايبول»^(*) ودوائر الأعمال العائلية الصينية التي لكل منها ارتباطات معقدة خارج المنشأة ، تؤثر في صنع القرار»^(٤٤) . كما أن لا هيكل دوائر الأعمال الصينية ، ولا أسلوب عملها ، يضاها نموذج العقلانية الاقتصادية الذي تفترض النظريات الغربية صلاحيتها لكل العالم .

وعلى غرار الثقافة الاقتصادية اليابانية ، وإن يكن بطريقة شديدة الاختلاف ، تتحدى دوائر الأعمال الصينية العرض النمطي لنمو الرأسمالية الذي قدمه فير و غيره من علماء الاجتماع الغربيين . ذلك أن الرأسمالية ، وفقاً للعرض الغربي التقليدي ، إنما تتطور عن طريق إزاحة العلاقات العائلية والشخصية عن مكان الصدارة في الحياة الاقتصادية ، كما أنها تجعل من الاقتصاد مجالاً منفصلاً ومستقلاً ، تحكمه حسابات لاشخصية للربح والخسارة ، ولا تربط أواصره علاقات الثقة ، بل الالتزامات التعاقدية القانونية . ووفقاً لهذا الوصف التقليدي فإن الرأسمالية تتطور بانتزاع نفسها من مجتمعها الأم .

(٤٢) يوشان وو ، "Marketization of politics, the Taiwan experience" ، في جريدة آسيان سيرفاي ، عدد ٤ أبريل ١٩٨٩ ، الصفحة ١٩٨٩ . وعجارة وو هذه أوردها ديك ويلسون في كتابه

China, The Big Tiger ، لندن ، ليتل براون ، ١٩٩٦ ، الصفحة ٣٦٥ .

(٤٣) المرجع نفسه ، الصفحة ٣٧٩ .

(*) Chaebol : الاسم الذي تعرف به كبرى المؤسسات الصناعية في كوريا الجنوبية - المترجم .

(٤٤) ريدنج ووايتلي ، المرجع السابق ، الصفحة ٧٩ .

وهذه الوصف ينطبق إلى حد كبير على تطور الرأسمالية في إنجلترا وغيرها من البلدان الأنجلو سكسونية ، حيث يوجد تاريخ طويل للمذهب الفردي . وحتى في تلك البلدان فإن دور الدولة يستبعد في تشكيل البيئة - أى إطار القوانين وحيازات الملكية - التى تعمل فيها الأسواق المنتزعة من الواقع الاجتماعى . غير أن هذا الوصف لا ينطبق إلا قليلا على الرأسمالية الصينية التى يتوقف نجاحها بدرجة جوهرية على ما يمكنها أن تعول عليه من موارد الثقة داخل الأسر .

والنزعة العائلية لثقافة دوائر الأعمال الصينية هى انعكاس لثقافة المجتمع الصينى التى يندر فيها أن تمتد الثقة فيما يتعلق بالمسائل ذات الشأن إلى أبعد من الأقارب . وفى هذه السمة المميزة الجوهريّة ، تختلف الثقافة الاقتصادية الصينية اختلافا جذريا وعميقا عن الرأسمالية اليابانية مثلما تختلف عن السوق الحرة الأمريكية . أما علاقات الثقة والالتزام التى تمتد إلى ما هو أبعد من الأسرة ، والتى كانت سائدة فى اليابان الإقطاعية والحديثة وفى المجتمعات الفردية فى العالم الأنجلو سكسونى ، فكانت دائما ضعيفة فى الصين أو لا وجود لها . كذلك لا يوجد نظير فى دوائر الأعمال الصينية للشركات عبر الوطنية الضخمة التى تميز الرأسمالية اليابانية ، مع ما تتمتع به من قوة الانتعاشات وثقافات دوائر الأعمال ، وانفتاح أمام التوجيه الحكومى ، وإن تكن تكشف عن درجة عالية من الاستقلال فى إستراتيجياتها .^(٤٥)

وبالمثل تختلف الرأسمالية الصينية عن الرأسمالية فى كوريا التى تسيطر على الاقتصاد فيها المؤسسات العملاقة المعروفة باسم «شايول» . فشركات «شايول» العشر الكبرى تنتج أكثر من نصف صادرات كوريا ، وأكبر شركاتها الثلاثين مسنولة عن ثلاثة أرباع ناتج البلد.^(٤٦) ومؤسسات «شايول» الكورية هى مؤسسات أبوية ، مع بقاء العائلات المؤسسة لها فى مواقع صنع القرار . ولكنها منشآت يمتد فيها التعاون ، الذى كثيرا ما

(٤٥) من أجل الإلمام بمحاولة للمقارنة بين المؤسسات الصينية واليابانية باعتبارها نوعين مثاليين ، انظر ،

سيمون تام ، *Centrifugal versus centripetal growth processes : contrasting ideal types for conceptualizing the developmental patterns of Chinese and Japanese firms* ، وردت فى كليبج وريدنج ، المرجع السابق ، الصفحات ١٥٣ إلى ١٨٤ .

(٤٦) هـ . كو ، *The interplay of state, social class, and world system in east Asian development : the cases of South Korea and Taiwan* ، وردت فى العمل الجماعى الذى أعده

ف.س. ديو ، *The Political Economy of the New Asian Industrialism* ، نيويورك : إدارة النشر بجامعة كورنيل ، ١٩٨٧ ، الصفحات ٤١ إلى ٦١ .

يهدف إلى تحقيق احتكار مؤسسة واحدة أو عدد قليل من المؤسسات للأسواق (*) ، إلى مايتجاوز العائلات .

وبرغم أن ذلك بدأ بتغيير ، فإن مؤسسات «شايبول» لها ارتباطات وثيقة بالحكومة التي كثيرا ما تضع استراتيجيات شاملة . ويتغلغل في هذه المجمعات العملاقة أسلوب أبوى للإدارة تجرى فيه عمليات المكافأة والتعويض على أسس شخصية . ذلك أنه فيما عدا المرتب الأساسي لاتعتمد المكافآت على نوع العمل المؤدى ، بل على طبيعة التقدير الذي يبدىه شخص مسؤول لذلك العمل . وهناك تنافسات عشائرية وإقليمية بين تلك المؤسسات ، وليست هناك ممارسة للتوظيف مدى الحياة ، كما لا يوجد وعد بذلك ، في غالبية المنشآت الكورية . (٤٧)

والسمات المميزة التي تجمع بين الرأسمالية الصينية والرأسمالية الإيطالية ، حيث توجد مؤسسات قوية ذات أساس عائلي ، أكثر من تلك التي تجمع بينها وبين الثقافة الاقتصادية في كوريا ، أو السوق الحرة الأمريكية ، أو الرأسمالية اليابانية .

ولأسباب مرتبطة بتاريخ الصين في القرن العشرين ، فإن رأسمالية البر الرئيسي الصيني تختلف بدرجة ما عن الرأسمالية الموجودة في الشتات الصيني . فالاقتصاد في البر الرئيسي ليس اقتصاداً ذا طبيعة رأسمالية كاملة . ومن التفسيرات التي تقدم لمعدلات النمو العالية فيه أن قوة المساومة لدى عماله أقل ، وبالتالي تكون أجورهم أقل من أجور العمال في الاقتصادات الرأسمالية التي تمر بمرحلة تطور مماثلة . وبرغم صعوبة الحصول على قياسات دقيقة ، فإن التفاوت الاقتصادي في الصين في عهد دنج ، يكاد من المؤكد أن يكون أكبر بكثير منه في اقتصاد تايوان ، وهو اقتصاد ذو طبيعة رأسمالية لا لبس فيها .

وعلى قدر ما تتقارب الثقافة الاقتصادية للبر الرئيسي للصين مع مثيلتها لدى الصينيين فيما وراء البحار ، فإنها ستكون في المستقبل رأسمالية صينية ذات طابع تقليدي أكثر من الرأسمالية الموجودة اليوم . وكما قال ديك ويلسون فإن «أي زيارة لأى جزء من الصين هذه الأيام ستكشف عن وجود مصانع أو منشآت أخرى يمولها بالكامل أو جزئياً

• Monopolistic or oligopolistic domination (*)

(٤٧) ن . وولسى بيجارت ، Institutionalized partimonialism in Korean Business ، في العمل الجماعي الذي أعدهم . أورور ، ن . وولسى بيجارت ، ج . ج . هاميلتون ، The Eco-nomic Organization of East Asian Capitalism ، لندن ودلهي : ساج ، ١٩٩٥ ، الصفحات ٢١٥ إلى ٢٣٦ .

الصينيون الموجودون فيما وراء البحار ، الذين يقوم ممثلوهم ، عن غير قصد ، بإعادة إدخال القيم الثقافية التقليدية التي حاربها ماو بعنف وكادت تختفى تحت الأرض^(٤٨) . ونظرا لأن الصينيين فيما وراء البحار كان لهم مثل هذا الدور الحاسم في تمويل القطاع الخاص الأخذ في الاتساع ، فإن إصلاح دمج في اتجاه السوق ، أدى بدرجة ما إلى إعادة الأعراف الصينية إلى أجزاء من الحياة الاجتماعية الصينية التي خربتها عملية التحديث غير الناجحة التي قام لها ماو .

وإذا ازداد التقارب بين الثقافة الاقتصادية للبر الرئيسي للصين وبين ثقافة الصينيين فيما وراء البحار ، فإن الصين ستصبح اقتصادا رأسماليا كاملا وفقا لنموذج ينمو في الداخل ، وذلك أمر سوف يتطلب عدة أجيال من التنمية الاقتصادية التي لا تعترض مسارها انتفاضة سياسية ، أو كارثة بيئية ، أو حرب .^(٤٩)

ويتجه التفاؤل الذي تبديه دوائر الأعمال في الغرب بشأن مسارات الصين إلى تحميل هذه الحقائق أكثر مما تحتتمل ، لاسيما الفترات المتعددة من تحلل الدولة التي تكررت طوال تاريخ الصين . وينظر أولئك الذين يتوقعون قيام سوق واسعة في الصين إلى تدهورها البشئ على أنه ظاهرة غير ملائمة ، وليس على أنه خطر ربما يشئ عن مزيد من التحديث الكلية .

ولكن بارتون بيجز ، رئيس مؤسسة مورجان ستانلي لإدارة الأصول في نيويورك ، وصف التلوث البيئي بأنه الثمن الذي يبدي الصينيون استعدادا لدفعه مقابل التنمية الاقتصادية .^(٥٠) وربما يكون بيجز محقا في تقديره لاستعداد كثيرين من الصينيين لتحمل التلوث ، ولكن من الأمور ذات الدلالة أن القيادة الصينية الحالية لا تشاطره عدم مبالاة بمدى ارتفاع ذلك الثمن ، أو تجاهله لأن يكون من المستطاع تخفيضه بسهولة بوسيلة تقنية .

(٤٨) ويلسون ، المرجع السابق ، الصفحة ٣٩٤ .

(٤٩) إن خطر الحرب في آسيا هو خطر حقيقي . وفيما يتعلق بذلك ، انظر ، كنت إي . كالدز ، *Asia's Deadly Triangle : How Arms, Energy and Growth Threaten to Destabilize Asia - Pacific* .

١٠ ، لندن : نيكولاس بريالي ، ١٩٩٧ .

(٥٠) للإلمام بأراء بيجز ، انظر ، أندرو سيروير ، "The End of the world is nigh - or is it ?" ، في مجلة فورشن ، عدد ٢ مايو ١٩٩٤ . وقد عبر بيجز عن آرائه في إطار مناقشة حول كتاب روبرت كابلان ، *The End of the Earth : A Journey at the Dawn of the 21st Century* ، نيويورك : راندوم هاوس ، ١٩٩٦ . وقد استشهد كابلان بما جاء في الصفحتين ٢٩٧ ، و ٣٠٠ من كتاب بيجز .

وعلى خلاف بيجز فإن قادة الصين على بيّنة من أن بلدهم قد لا يقدروا أبداً دولة عظمى اقتصادياً .

وحتى إذا أمكن التغلب على مشاكل الصين البيئية ، ونجح برنامج التحديث الاقتصادى الذى بدأه دنج سياو بينج ، فإن الصين لن تصبح مجتمعا متقدما حتى وقت ما فى النصف الثانى من القرن المقبل .

التحديث الاقتصادى فى الصين ، عام ١٩٧٩ وما بعده

نتيجة لفشل التحديث الذى حاوله ماو ، أصبح التحديث فى الصين فى وقت لاحق أكثر صعوبة . وقد كان جانب من إصلاحات السوق فى عصر دنج سياو بينج (١٩٩٦ - ١٩٩٧)^(٥١) ردّ فعل لما أحدثته القفزة الكبرى إلى الأمام والثورة الثقافية من تدمير ، ولكنها لم تكن لتستطيع أن تزيل قدراً كبيراً من الضرر الذى ألحقته تجربة ماو البيوتوية بالنسيج الاجتماعى والبيئة الطبيعية فى الصين .

ومناخ إصلاحات دنج الاقتصادية ليست واضحة . فقد بدأت فى يولييه عام ١٩٧٩ بإنشاء أربع مناطق اقتصادية خاصة - زوهاى ، شينزين ، شانتو ، وزيامن . وقد وقع الاختيار على هذه المناطق بسبب قربها وسهولة وصولها إلى رأس المال الأجنبى . وكانت اثنتان منها ، شانتو وزيامن ، من موانئ المعاهدات خلال العصر الاستعمارى الذى كانت بريطانيا تهيمن عليه . ويبدو أن اثنين من المسؤولين الحزبيين من جواندو دنج هما اللذان اقترحا على دنج فكرة المناطق الاقتصادية الخاصة ، ولكن من المرجح أن يكون دنج قد قام بنفسه بالتنظيم العملى لهذا الاقتراح .

وفى عصر ما بعد ماو ، كانت سياسة الصين هى تحديث الاقتصاد مع الاحتفاظ بالسيطرة السياسية القوية على الموقف برمه . وقد قام دنج بإعادة تشكيل النموذج

(٥١) من أجل الإطلاع على أفضل دراسة عن دنج ، انظر ، رتشارد إيفانز ، *Deng Xiaoping and the Making of Modern China* ، لندن : پنجون بوكس ، ١٩٩٧ . ومن أجل الحصول على تقييم مفيد لتأثير دنج ، انظر ، د. س. جودمان وچيرالد سيجال ، *China Without Deng* ، سيدنى ونيويورك : إصدارات توم ثومبسون ، ١٩٩٧ . انظر أيضا ، العمل الجماعى الذى أعده د. شامبوخ ، *Deng Xiaoping : Portrait of a Chinese Statesman* ، أكسفورد : إدارة النشر بجامعة أكسفورد ، ١٩٩٥ ؛ وكذلك دنج ماوماو ، *Deng Xiaoping : My Father* ، نيويورك : بيزيك بوكس ، ١٩٩٥ .

السوفييتي الذي أخذ به ماو ، وقام في ظل سياسة الانفتاح بتعبئة رءوس الأموال الأجنبية والتكنولوجيا الخارجية في خدمة التحديث الاقتصادي ، فخفف بذلك من قبضة المركز على المناطق مع مقاومة أي اتجاهات للانفصال .^(٥٢) ولم يحاول أن يمك بكل خيوط النشاط الاقتصادي ، ولكنه اكتفى بإزالة ما يواجهه من عقبات . وظل الإطار الذي حدث في داخله ذلك التراخي في السيطرة ، هو الإطار الذي قامت في ظله الدولة اللبينية التي أنشأها ماو .

ومن الزاوية الاقتصادية حققت تلك السياسة نجاحا كبيرا ، وإن لم يكن مستويا ، حيث كانت معدلات النمو الاقتصادي في المقاطعات الساحلية تتجاوز ١٠ في المائة سنويا .

وبما لاشك فيه أن تجاهل الصين للأمثلة والنصائح السوفييتية والغربية كان عاملاً جوهرياً في هذا النجاح . وهكذا لم يكن هناك أي علاج بالصلدمات في الصين . فإصلاح السوق كان تدريجياً وجزئياً ، هراجماتيا وليس ملهعيا . وإذا كان قادة الإصلاح قد تعلموا شيئا من البلدان الأخرى ، فقد تعلموا من سنغافورة وتايوان ، ودرجة أقل ، وإن كانت ملموسة ، من كوريا واليابان . ولم يُستخدم أي مجتمع غربي كنموذج لهذا الإصلاح .

وكان الإصلاح الاقتصادي في الصين محاولة لإقامة اقتصاد سوق له فعاليته ، وليس إنشاء سوق حرة . كما اعتمد الإصلاح على تعزيز نقاط القوة في الصين . فعلى خلاف روسيا ليست الصين مثقلة بتركة من النظام الإقطاعي ، ولم تسفر عمليات التحول إلى الجماعية عن تدمير الأعراف الفلاحية . وقد استمرت إصلاحات دنج هاتين الميزتين .

ويبدو أن زيانج زيمين ، خليفة دنج ، عاقد العزم على المضي فيما بدأه دنج من هدم للاقتصاد المخطط . وفي أغسطس عام ١٩٩٧ أعلنت جريدة الشعب اليومية «إننا لا نستطيع الاكتفاء بمجرد إضافة اقتصاد السوق وإقامته على قاعدة النظام القديم . فنحن بحاجة إلى تطوير شامل للنظام القديم»^(٥٣) . وعلى غرار دنج فإن زيانج زيمين يرى تحطيم مؤسسات الاقتصاد المخطط مع الاحتفاظ بالدولة اللبينية التي أنشأت تلك المؤسسات .

(٥٢) من أجل إطلالة على العلاقات المركزية - اللهلية في العصرين الماوي وما بعد الماوي ، انظر ، م . بواسوت ، ج . تشايلد ، -Efficiency, Ideology and tradition in the choice of transac-
tions and governance structures : the case of China as a modernizing society" ، في كليلج وريدنج ، الصفحات ٢٨١ إلى ٣١٤ .
(٥٣) "Thoughts of Jiang spell end to state planning" ، في جريدة ذي تيمس ، عدد ٨ من أغسطس عام ١٩٩٧ ، الصفحة ١٢ .

فما الذى يضمن الشرعية السياسية لنظام شوّهت منذ وقت طويل أيديولوجيته الرسمية ، ألا وهى الماركسية - اللينينية ؟ وثمة معضلة خطيرة تواجه الصفوة السياسية فى الصين ناشئة عن التناقض بين الأيديولوجية الماركسية المتدثرة المتجسدة فى الحزب الشيوعى ، والدعوة إلى تأكيد القيم الصينية والكونفوشية التى يلجأ إليها النظام بصورة متزايدة فى محاولة إقرار شرعيته . وكيف يمكن تعبئة القيم الصينية التقليدية لخدمة التحديث على يد حكومة هى الوريث المباشر لنظام ماوى حاول التحديث عن طريق شن الحرب على الصين القديمة ؟

من الناحية الأيديولوجية يوجد لدى الصين اليوم نظام أجوف . وقد لا تكون هذه نقطة ضعف خطيرة مادامت مستويات المعيشة تواصل الارتفاع ، ولكن انتقال النظام إلى أيديولوجية متماسكة يمكن أن يصبح مصدرا لعدم الاستقرار عندما يتفاعل التباطؤ الاقتصادى مع التفاوتات بين المناطق والأزمة البيئية .

إن دعاء التحديث فى الصين اليوم يتصدون لبلد تدهورت بيته لدرجة لارجمة فيها ، ولديه مشكلة سكان مالتسبية مروعة . كما أنهم لدى محاولتهم التحديث على أساس الرأسمالية المحلية فى بلدهم ، يجب أن يواجهوا حقيقة مفادها أن أكثر النتائج استمرارا لعملية التحديث الشاملة التى قام بها ماو ، هى اقتلاعه جذور قدر كبير من الثقافة التقليدية الصينية .

وتاريخ الصين القريب فى النمو السريع يفسره جزئيا المستوى المنخفض للغاية الذى بدأ منه ^(٥٤) . وليس من اليسير تقدير نجاحها المحلى الإجمالى فى الوقت الحالى ، إذ أنه من الصعب التيقن من الحقائق ، بل إن هناك خلافا حول الأساس الذى يتم الحساب وفقاً له . ولكن إذا كان المقياس المستخدم فى الحساب هو نظام الحسابات القومية المعيارى للأمم المتحدة ، وليس تعادل القوة الشرائية ، فإن اقتصاد الصين (مع استبعاد هونغ كونج) يكون أكبر قليلا من اقتصاد إسبانيا ، وأقل قليلا من اقتصاد إيطاليا . وبالمقارنة فإن الناتج المحلى الإجمالى لهونغ كونج يبلغ ربع مثيله للبر الرئيسى للصين . وأحد أسباب هذا التباين هو ضخامة عدد سكان الصين ، وسبب آخر هو انخفاض مستوى الأجور . إن الصين بلد يسير سريعا على طريق النمو ، ولكنها ليست اقتصادا رأسماليا ناضجا .

(٥٤) فيما يتعلق بهذه النقطة ، انظر ، إيان ليل ، **Picking Winners : The East Asian Experience** ، لندن : مؤسسة الأسواق الاجتماعية ، ١٩٩٦ ، الفصل الخامس .

وأيا كان الناتج المحلي الإجمالى الجارى فإن النظام الحالى يعتمد فى استقراره على استمرار النمو الاقتصادى السريع . وحتى إذا لم يتعثر النمو ، فإن منافعه ستتوزع بطريقة بعيدة جداً عن الاستواء ، مع بقاء أجزاء كبيرة من الصين مكبلة بقيود الفقر . وفى عام ١٩٩٢ ، وفقاً لبيانات البنك الدولى ، كان دخل الفرد فى شنغهاى وجواندونغ أكثر من ٨٠٠ دولار ، على حين كان فى منطقة جويزو الداخلية حوالى ٢٢٦ دولاراً . وكان دخل الفرد فى السواحل الجنوبية والشرقية يبلغ فى المتوسط حوالى ضعف مثيله فى مناطق جنوب الصين ووسطها التى تضم أعداداً من السكان أكبر كثيراً .^(٥٥)

والأرجح أن تزداد أوجه التفاوت هذه . وربما يبلغ عدد العمال المهاجرين ١٠ فى المائة من سكان الصين - أى حوالى ١٢٠ مليون نسمة .^(٥٦) وتتوقع وزارة القوى العاملة فى الصين أن يصل عدد العاطلين عن العمل فى عام ٢٠٠٠ إلى ٢٦٧ مليون نسمة - أى خمس عدد السكان .^(٥٧) وقد أجرى هذا التنبؤ قبل أن يُعلن فى عام ١٩٩٧ عن اتخاذ قرار بخصخصة معظم المؤسسات المملوكة للدولة .^(٥٨) وربما تكون الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية التى تواجه إصلاح السوق كافية لإثارة الشكوك حول وحدة أراضي الدولة الصينية .

وقد كان من الآثار الجانبية للتحرير الاقتصادى فى الصين أن أصبحت مؤسسات الدولة أضعف مما كانت عليه . فالفساد منتشر كالوباء . وطبقت المعاملة التجارية ، سواء بصورة رسمية أو غير رسمية ، على كل مؤسسة فى الصين ، بما فى ذلك «جيش التحرير الشعبى» . وسلسلة السيطرة لم تنكسر فى الصين مثلما انكسرت فى روسيا ، ولكنها أصبحت أضعف نتيجة للاعتقاد السائد فى كل مكان وزمان ، والذى له أساس متين فى الممارسة ، بأن كل شئ تقريباً له ثمنه .

والنمو الاقتصادى غير مسترٍ للدرجة يتعذر معها الاعتماد عليه باعتباره المصدر

(٥٥) مارتين وولف ، "A country divided by growth" ، فى جريدة فاينانشيال تيمس ، عدد ٢٠ من فبراير عام ١٩٩٦ .

(٥٦) ماكفاركوهار ، المرجع السابق ، الصفحة ١٦ .

(٥٧) وليم نفا ، "In China, the interregnum won't necessarily be peaceful" ، فى جريدة إنترناشونال هيرالد تريبيون ، عدد ٢٥ من فبراير عام ١٩٩٧ .

(٥٨) انظر ، تريزا پول ، "China ready for world's ultimate privatisation" ، فى جريدة إنديبننت ، عدد ١٢ من سبتمبر عام ١٩٩٧ ، الصفحة ١١ .

الوحيد للولاء للنظام . فبينما يحدث انتعاش اقتصادى فى بعض أجزاء الصين ، تتعرض أجزاء أخرى للإفلاس . ففى شنغهاى حقق الاقتصاد فى عام ١٩٩٦ معدل نمو قدره ١٤ فى المائة ، ولكن مصانع النسيج فيها ، وغيرها من المؤسسات المملوكة للدولة ، غرقت بدرجة أعظم فى بحر الديون .^(٥٩) والأسوأ من ذلك أن قرابة ثلاثة أرباع مدخرات الشعب الصينى موظفة فى مؤسسات مملوكة للدولة تحقق خسائر من خلال الاستثمارات التى تقوم بها البنوك التابعة للدولة . وقد علق ماكفار كهار على ذلك بقوله إن «تلك كارثة مالية وسياسية فى طور التكوين»^(٦٠) .

ومع ذلك فبالمقارنة بروسيا ، لا تواجه الصين إلا تحديات خطيرة قليلة لوحدة أراضيها . فالحركات الداعية إلى الاستقلال أو الحكم الذاتى فى التبت أو سينكيانج سحقت بلا رحمة ، حتى أن القمع فى التبت كان أشجع مما حدث فى أى مكان بالعالم خلال هذا القرن . كما أن أكثر من ٩٠ فى المائة من مواطنى الصين هم من الصينيين الهان^(*) . ولا يتعمى إلى الأقليات القومية فى الصين إلا خمسة فى المائة من مجموع سكانها . ولذلك فإن الصين تعتبر من الناحية العرقية شديدة القرب من أن تكون بلدا متجانسا . وفى تاريخها فترات متكررة من تفكك الدولة ، ولكنها لا تواجه اليوم مشكلة هوية .

والنظام الحالى فى الصين هو بلاشك نظام انتقالى ، ولكنه بدلا من أن يسير نحو «الأسماوية الديمقراطية» ، فإنه يتطور من المؤسسات الغربية السوفيتية التى كانت قائمة فى الماضى إلى دولة عصرية أكثر ملاءمة للأعراف والاحتياجات والظروف الصينية .

والديمقراطية الليبرالية ليست مدرجة على جدول الأعمال التاريخى للصين . ومن المشكوك فيه كثيراً أن تتمكن سياسة الطفل الواحد ، التى كثيرا ما يتم الالتفاف حولها فى الوقت الحاضر ، من الاستمرار إلى أن يتم التحول إلى الديمقراطية الليبرالية . ومع ذلك فإنه ، كما يعتقد حكام الصين الحاليون بحق ، لا غنى عن سياسة فعالة بشأن السكان إذا أريد ألا تنفضى ندرة الموارد إلى كارثة إيكولوجية وأزمة سياسية .

(٥٩) "Socialism leaves its post in Shanghai" ، فى جريدة جارديان ، عدد ١١ مارس ١٩٩٧ ، الصفحة ١١ .

(٦٠) ماكفار كهار ، المرجع السابق ، الصفحة ١٦ .

(*) الهان : نسبة إلى أسرة هان التى حكمت الصين فى الفترة من ٢٠٢ ق . م إلى ٢٢٠ ، مع فترة انقطاع قصيرة . وقد شهدت الصين فى عهدنا نهضة ثقافية كبيرة - المترجم .

إن الذكريات الشعبية عن انهيار الدولة وعجزها عن حماية أراضيها بين الحريين العالميتين هي من القوة بحيث تدفع غالبية الصينيين إلى النظر بفرع إلى أي محاولة للتحرر السياسي يبدو أنها تنطوي على المخاطرة بحدوث فوضى قريبة من تلك التي وقعت في روسيا ما بعد العصر السوفييتي . وليس هناك من ينظر إلى تفكك الدولة إلا على أنه شر مستطير . كما أن بحوزة النظام الحالي مصدرا قويا للشرعية الشعبية ينبع من أنه تمكن حتى الآن من درء تلك الكارثة .

وربما يكون الانتقال التدريجي من دولة هشة شبه شمولية إلى دولة استبدادية سيناريو حميدا بالنسبة للصين . ولكن ذلك لايعنى بالضرورة إقامة نظام دكتاتوري . والشرطان السياسيان الرئيسيان للأمن الشخصي والنمو الاقتصادي المتواصل هما سيادة القانون بلا فساد ، والمؤسسات التي تجعل الحكومة خاضعة للمساءلة . وفيما يتعلق بخضوع الحكومة للمساءلة ، فقد كانت هناك بداية لهذا الاتجاه عندما طبق نظام الحكم المحلي . ففي عام ١٩٨٧ صدر قانون يسمح للمقرى باختيار محافظيها ومجالسها المحلية . ويوجد الآن أكثر من أربعة ملايين مسئول قروي يتم اختيارهم بالانتخاب ، وليس عن طريق تعيين الحزب لهم .^(٦١) وخضوع الحكومة للمساءلة لايعنى بالضرورة استيراد الديمقراطية الغربية المتعددة الأحزاب ، حتى على الرغم من أن الصين ستواجه صعوبة أكبر في تلبية شرط السيادة المستقلة للقانون . ولكن من غير هذا الشرط لايمكن ضمان استقرار سياسي أو تنمية اقتصادية مطردة .

ونظرا لأن ظروف الصين تختلف كثيرا عن ظروف أي بلد آخر ، فلايوجد نموذج يحتذى التطور السياسي أو التنمية الاقتصادية في الصين . وهي يمكن أن تستخلص دروسا كثيرة من تجربة تايوان في الرأسمالية الأهلية ، ولكن سنغافورة قد تكون أقرب نموذج يلي ذلك يمكن محاكاته . فهذه الدولة - المدينة التي تخطت مرحلة الليبرالية ، تتمتع بميزات كثيرة تفتقر إليها الصين . والفروق بين البلدين من حيث الحجم والتاريخ والتركيب العرقي واضحة بذاتها . ومع ذلك فإن الرأسمالية الموجهة في سنغافورة تحت حكم القانون هي النموذج الذي يمكن أن تتعلم منه الصين أكثر من غيره .

ولا يكون ممكنا بصورة كاملة تحقيق صورة طبق الأصل من إنجازات سنغافورة في الصين . ولكن إذا تخلى النظام الحاكم في الصين بالتدريج عن بقايا الميراث اللينيني

(٦١) جيم رومر ، *Aala Rising* ، لندن : نيكولاس بريالي ، ١٩٩٦ ، الصفحة ١٦٢ .

الشمولى ليصبح دولة عصرية تسلطية جديدة، فإنه يمكن أن تكون له شرعية سياسية قادرة على الاستمرار. ولن يكون احتذاء الصين لنموذج سنغافورة هو ثانى أفضل الحلول بعد الديمقراطية، بل سيكون مثالا لتحديث نابع من الظروف المحلية يقف على قدم المساواة مع اليابان.

هل آسيا عصرية والغرب متخلف ؟

ليست هناك رأسمالية «آسيوية» عامة، أكثر مما هناك شئ يسمى رأسمالية «غربية». فكل صورة من صور الرأسمالية تجسد الثقافة الخاصة التي نظل جزءاً لا يتجزأ منها. وذلك يصدق على السوق الحرة التي تعبر عن القيم الأمريكية المحلية القائمة على الفردية. وفي آسيا، كما في بقية العالم، يكون لكل نوع من الرأسمالية ميزاته وأعبأه.

والرأسماليات المتعددة الأشكال في آسيا لن تتقارب: فالثقافة الكامنة وراء كل منها ستبقى مختلفة عن الأخرى اختلافا عميقا؛ كما أنها لن تستوعب ممارسات الأسواق الغربية، ولن تتقارب في تطورها السياسي.

والاعضاد بأن الرخاء يجبر في أعقابه الديمقراطية الليبرالية هو مسألة إيمان فحسب، وليس نتيجة بحث علمي. كما أنه كثيرا ما يكون مجرد تنوع ليبرالى جليد على العقيدة الماركسية القائلة بأن تطور الرأسمالية يولد طبقة وسطى متنامية. ذلك أن الخبرة الحديثة في كثير من الدول تؤيد رأياً ماركسياً مختلفا: هو أن الرأسمالية المنفلتة، رأسمالية القطع والحرق، إنما تؤدي إلى إفقار الطبقات الوسطى وانكماشها.

وحتى إذا كان صحيحا أن التنمية الاقتصادية تخلق في أى مكان طبقة وسطى متنامية، فإنها لهذا السبب لا تشجع بالضرورة على نشر الديمقراطية الليبرالية في آسيا. فأبناء الطبقة الوسطى في البلدان الآسيوية، شأن كل الناس الآخرين، لهم احتياجات عديدة، فضلا عن الاحتياجات التي يتطلب إشباعها وجود المؤسسات الديمقراطية. وهم يحتاجون إلى التحكم في المخاطر الاقتصادية، حتى يكون لهم ولعائلاتهم بعض السيطرة على وسائل عيشهم؛ كما يحتاجون إلى الأمن من الجريمة والفساد، وإلى خدمات عامة جيدة، ومؤسسات مشتركة تعطيهم شعورا بالانتماء للمجتمع وبالمشاركة فيه.

وستكون النظم الحاكمة التي تلبى هذه الاحتياجات نظاماً شرعية، سواء أكانت ديمقراطية أم لم تكن، في حين أن النظم التي لاتلبىها تكون نظاما ضعيفة وغير مستقرة مهما تكن ديمقراطية.

ولن تتضاءل بمرور الوقت الفروق العميقة بين الرأسماليات الآسيوية والرأسماليات الموجودة في البلدان الغربية . فهذه الفروق تعتبر انعكاساً لا لمجرد الاختلاف في تركيب الأسرة ، بل أيضاً في الحياة الدينية للثقافات التي تضرب فيها الرأسماليات المتنوعة بجذورها . وقد كان ماكس فيبر ، أعظم المفكرين الاجتماعيين للرأسمالية ، على حق عندما ربط تطور الرأسمالية في أوروبا الشمالية الغربية بالبروتستانتية (**).

ويخطئ المفكرون الاجتماعيون والاقتصاديون الغربيون في افتراضهم أن الرأسمالية في كل مكان ستكون شبيهة بالثقافة الاقتصادية الشديدة الفردية الموجودة في إنجلترا واسكتلندا وأجزاء من ألمانيا وهولندا . فهي لم تكن كذلك في فرنسا أو إيطاليا . وفي وقتنا الحالي فإن الرأسمالية في بلدان ما بعد الشيوعية ، التي تقوم أعرافها الدينية على الأرثوذكسية ، لن تكون شبيهة بالرأسمالية في أي بلد غربي ، سواء أكان بروتستانتيا أو كاثوليكية : ذلك أنه لا مؤسسات المجتمع المدني العلماني ، ولا الدولة المحدودة في أمثال تلك البلدان الغربية ، قد تطورت في أي ثقافة أرثوذكسية ، أما الرأسمالية الروسية ، شأن الرأسمالية في كل مكان في العالم الأرثوذكسي ، فتكون فريدة في بابها .

وينطبق الشيء نفسه على الرأسماليات في آسيا . فالرأسمالية الهندية لن تتقارب أبداً مع رأسمالية البلدان ذات الميراث الديني الأساسي المتمثل في الكونفوشية أو البوذية أو الإسلام . وقد يكون نظام الطوائف في الهند هو أكثر الأنظمة الاجتماعية استقراراً في العالم ، حيث استمر قائماً على الرغم من التحديات التي واجهها من البوذية والإسلام والعلمانية الغالبة (**). ومن المؤكد أنه سيؤثر تأثيراً عميقاً على نمو رأسمالية هندية تابعة من ظروفها المحلية .

والرأسماليات الجديدة في آسيا الشرقية لا تحتمل العبء الغربي للنزاع المذهبي حول ميزات النظم الاقتصادية المتنافسة . ويرجع ذلك في جانب منه إلى أن غالبية الأعراف

(*) توصل ماكس فيبر في كتابه «الحلق البروتستانتي وروح الرأسمالية» إلى صياغة فرضية تتعلق بالصلة القوية بين الطبيعة الزاهدة التي دعا إليها كلقن ، وبين انتشار النظم والمؤسسات الرأسمالية ونموها . كما رأى في هذا الكتاب أن الأخلاق البروتستانتية الداعية إلى التقشف والجد في العمل كأنه عبادة هي جوهر الرأسمالية - المترجم .

(**) الجمعية الغالية : جمعية اشتراكية تأسست في إنجلترا في عام ١٨٨٤ ، تدعو إلى التدرج في نشر الاشتراكية بوسائل سلمية بعيدة عن العنف والصراع الطبقي . كان من أعضائها الأوائل جورج برناردشو وهربرت جورج ويلز - المترجم .

الدينية لشرقي آسيا لا تدعى الانفراد بالحقيقة . وهذا التحرر من الدعاوى الطائفية للانفراد بالحقيقة يتفق مع النهج البراجماتي للسياسات الاقتصادية . (٦٢)

وفي الثقافات الآسيوية ، ينظر إلى مؤسسات السوق بطريقة عملية ، باعتبارها وسيلة لخلق الثروة وتحقيق الترابط الاجتماعي ، وليس بطريقة لاهوتية ، باعتبارها غاية في ذاتها . ومن الجوانب الجذابة في «القيم الآسيوية» أنها عندما تأخذ بنظره عملية خالصة إلى الحياة الاقتصادية ، تتجنب الهوس الغربي الذي يجعل من السياسة الاقتصادية ساحة للنزاعات العقائدية . وهذا التحرر «الآسيوي» من اللاهوت الاقتصادي يسمح بالحكم على مؤسسات السوق ، وإصلاحها ، بالرجوع إلى تأثيرها على قيم المجتمع واستقراره . (٦٣)

ويقدر ما تكون الرأسماليات الآسيوية تحت قيادة حكومات غايتها الحفاظ على تماسك المجتمعات التي تخدمها ، فلا مفر من أن تتعارض مع سياسات «دعه يعمل» على نطاق العالم . وفي هذا السياق فإن سياسة «دعه يعمل» في الغرب هي التي تجسد التأخر .

وليس معنى هذا القول بأن البلدان الآسيوية تستطيع أن تكون بنمى عن الاضطرابات الاقتصادية أو المخاطر الإيكولوجية أو المتاعب الثقافية للأسواق العالمية . كما أن أزمات العملة ، وحرائق الغابات التي أحدثت تلوثاً هائلاً في البيئة في أواخر عام ١٩٩٧ ، قد أوضحت مدى تعرضها للمصاعب . وبصورة أكثر عمقاً من ذلك ، فإن الاتجاه بكل القوة نحو التحديث الاقتصادي في البلدان الآسيوية كان يعنى قبول القيم الغربية في سياق جوهرى واحد ، ربما يكون قاتلاً ، ألا وهو علاقتها بالعالم الطبيعي . كما فى كل أنحاء العالم ، يسيطر الفهم الغربي الحديث للككرة الأرضية باعتبارها مورداً قابلاً للاستفاد . بل ربما تكون الحدود الإيكولوجية للنمو الاقتصادي قد تم تجاوزها بالفعل فى آسيا .

لقد دخلنا عصرًا للأفول الغربي . وهو ليس عصرًا سيشهد ازدهاراً لكل البلدان

(٦٢) من أجل الوقوف على دفاع عن القيم الآسيوية من وجهة نظر إسلامية ، انظر ، أنور إبراهيم ، A "Global Convivencia vs. the clash of civilizations" ، فى مجلة نيويوركستكتفز كوارترلى ، للمجلد ١٤ ، العدد ٣ ، صيف عام ١٩٩٧ ، الصفحات ٣١ إلى ٤٣ .

(٦٣) من أجل الاطلاع على بيان آسيوى بالرأى القائل بأن الاقتصادات تخدم ثقافاتنا الأم ، انظر ، محاضر محمد وشتارو إيسيهارا ، The Voice of Asia ، طوكيو ، كودانشا إنترناشونال ، ١٩٩٥ .

الآسيوية وانحداراً لكل البلدان الغربية . إنه عصر ينتهي فيه الارتباط بين «الغرب»
والحدائق . بل إن فكرة «الغرب» نفسها ستكون قد باتت عتيقة - فالاستقطابات القديمة
للشرق والغرب لا تمثل تنوع الثقافات والنظم في العالم اليوم .

إن تصور وجود «آسيا» متجانسة هو وهم لا يختلف عن تصور وجود «حضارة
غربية» . فالنمو الصارم لسوق عالمية لا يؤدي إلى وجود حضارة عالمية ، بل إنه يجعل
التغلغل المتبادل بين الثقافات شرطاً عالمياً لا رجعة فيه .

نهاية شعارات «دعه يعمل»

الوضع الراهن أشبه بما كان عليه الوضع في نهاية القرن الماضي . لقد كان عصرا ذهبيا للرأسمالية ، يتميز بمبدأ «دعه يعمل» ، وتلك هي الحال في الوقت الحاضر . والفترة السابقة كانت أكثر استقرارا على نحو ما ؛ إذ كانت توجد بها دولة إمبريالية ، إنجلترا ، على استعداد لأن ترسل بالسفن الحربية إلى أماكن بعيدة ، لأنها بوصفها المستفيد الرئيسي من النظام كان لها مصلحة مكتسبة في الحفاظ عليه . أما اليوم فإن الولايات المتحدة لا ترغب في أن تكون رجل الشرطة للعالم . والفترة السابقة كانت لديها قاعدة الذهب ، أما اليوم فإن العملات الرئيسية تعوم وتتصادم إحداها مع الأخرى وكأنها ألواح قارية^(*) . ومع ذلك فإن نظام السوق الحرة الذي كان سائدا منذ مائة عام قد دمّره الحرب العالمية الأولى . فبرز أصحاب الأيديولوجيات الشمولية إلى المقدمة . ومع نهاية الحرب العالمية الثانية لم يكن هناك تنقل لرهءوس الأموال بين البلدان . فدأى أى مدى يكون الأكثر ترجيحاً انهيار النظام الحالى ما لم نتعلم من الخبرة الماضية ؟

(١) جورج سوروس

ليس بوسعنا أن نعود بالتاريخ إلى السوراء . ومع ذلك فأنى لا أريد التخلي عن الاعتقاد بأنه ليس من الأحلام اليوتوبية وجود عالم يكون بمثابة رداء سالم بدرجة معقولة

(*) Continental plates : يقصد بالألواح القارية كتل القارات التي تشبه الألواح في حركتها بعيداً بعضها عن بعض وكأنها كتل الثلوج العائمة فوق الماء ، وبالتالي حين تتباعد بعضها عن بعض تظهر المسطحات المائية ممثلة في المحيطات - المترجم .

(١) جورج سوروس ، "The capitalist threat" ، في مجلة ذى أتلانتيك مثلى ، عدد سبتمبر عام ١٩٩٦ .

يجمع بين السوان متعددة ، ويطور كل جزء منه هويته الثقافية المميزة ، ويكون مستعدا لتحمل الآخرين .

أشعيا برلين (*) (٢)

هناك اقتصاد عالمي حقًا يخلقه الانتشار العالمي للتكنولوجيات الجديدة ، وليس انتشار الأسواق الحرة . فكل اقتصاد أخذ في التحول نتيجة لمحاكاة التكنولوجيات واستيعابها وتطويعها . وليس في استطاعة أي بلد أن ينعزل عن هذه الموجة من التدمير الإبداعي . والنتيجة ليس سوقا حرة عالمية ، بل فوضى دول ذات سيادة ، ورأسماليات متنافسة ، ومناطق لا تخضع لدولة معينة .

إن اقتصادات التحكم والسيطرة في الكتل الاشتراكية السابقة لم تستطع أن تعزل نفسها عما تحفل به الرأسمالية من براعة تكنولوجية . وقد لاحظ كارل ماركس أنه بالقياس إلى الرأسمالية ، «فإن جميع أساليب الإنتاج السابقة كانت في جوهرها أساليب محافظة»^(٣) . وقد ثبت أن ذلك يصدق بصورة حاسمة على الاقتصادات المخططة في القرن العشرين . وباستثناء مجالات محدودة ، مثل صناعة السلاح وسفن الفضاء (وهي فرع من برنامج الصواريخ) ، فإن هذه الاقتصادات لم يكن باستطاعتها أن تضارع القدرة الإبداعية للرأسمالية ، كما كانت تفتقر إلى قدرة الرأسمالية على تطوير نفسها تطويراً ثورياً ، بحيث تغير نفس أساس إنتاجيتها . كما أنها لم تتمكن من تصفية الصناعات الثقيلة القديمة ، مثل الفحم والصلب ، وكانت بطيئة في الدخول إلى مجال تكنولوجيات المعلومات الجديدة . ونتيجة لذلك ، فإنه لا يوجد الآن بديل عن الرأسمالية سوى صورها المتنوعة التي تتطور بصورة مستمرة .

واقتصادات السوق الحرة ، وفقاً لتعريف ضيق – وقد رأينا مدى محلبيتها وخصوصيتها – ليست معرضة لذلك بأقل من تعرض أي صورة أخرى من الرأسمالية . يقول

(*) السير أشعيا برلين : (١٩٠٩ – ١٩٩٧) . من علماء السياسة الإنجليز . كان أستاذاً للنظرية الاجتماعية والسياسية بجامعة أكسفورد ، ثم رئيساً لكلية ولفسون . له كتابات كثيرة من أهمها : كارل ماركس (١٩٣٩) ؛ مقالات في الحرية (١٩٦٩) ؛ المفكرون الروس (١٩٧٨) ؛ ضد النصار (١٩٧٩) . كما شارك في إعداد كتب أخرى . حصل على درجات علمية وشرفية كثيرة من جامعات ومعاهد مختلفة – المترجم .

(٢) ناتان جاردلنز ، "The Concepts of Nationalism : An Interview wrth Isaiah Berlin" ، في مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس ، عدد ٢١ من نوفمبر عام ١٩٩١ ، الصفحة ٢١ .

(٣) كارل ماركس ، Capital ، للجلد الأول ، موسكو ، ١٩٦١ ، الصفحة ٤٨٦ ؛ وردت في ج . هـ . كوهن ، Karl Marx's Theory of History ، أكسفورد : كلارندن پرس ، ١٩٧٨ ، الصفحة ١٦٩ .

جوزيف شوميتز ، الذى رأى هذا الجانب من الرأسمالية بوضوح لم يسبقه إليه أحد : «إن فتح أسواق جديدة ، خارجية أو داخلية ، والتطور التنظيمى من الورشة الحرفية والمصنع الصغير إلى مؤسسات من قبيل مؤسسة الصلب الأمريكية»^(٤) ، إنما يصوران نفس عملية التبدل الخلفى الصناعى - إن جاز لى استخدام هذا التعبير البيولوجى - الذى يؤدي بلا توقف إلى إضفاء طابع ثورى على الهيكل الاقتصادى من الداخل ، ويعمل بلا توقف على تدمير الهيكل القديم ، ويخلق بلا توقف هيكلاً جديداً . وعملية التدمير الإبداعى هذه هى الحقيقة الجوهرية بشأن الرأسمالية»^(٤) .

إن نمو اقتصاد عالمى لا يدرتن حضارة عالمية ، وهو ما كان كل من آدم سميث وكارل ماركس يعتقدان بحتمية حدوثه . ولكنه بدلاً من ذلك يسمح بنمو أنواع محلية من الرأسمالية ، بعيدة عن النموذج المثالى للسوق الحرة ، ويختلف كل منها عن الآخر . كما أنه يخلق نظاماً تحقق الحداثة عن طريق تجديد أعرافها الثقافية الخاصة ، وليس عن طريق محاكاة البلدان الغربية . وهناك أشكال عديدة للحداثة ، مثلما توجد طرق عديدة لعدم الأخذ بالحداثة .

إن قيام اقتصاد عالمى متنوع إنما يميز أقوى الجدائل فى الفكر الاقتصادى الحديث . وقد كان كارل ماركس وچون ستوارت مل يعتقدان أن المجتمعات الحديثة فى كل أرجاء العالم ستصبح صوراً مكررة من المجتمعات الغربية ، وأن الغرب سيصبح بالضرورة نموذجاً ، وأن الثقافات التى تحاكيه ستكون ثقافات تنوير عالمية ، وأن الحياة الاقتصادية ستفصل عن علاقات القرابة والعلاقات الشخصية ، وأن الرأسمالية فى كل مكان ستعزز النزعة الفردية والحساب العقلانى ، وأن الاشتراكية إذا استقرت فستطور الاقتصاد الرشيد الذى مهدت الرأسمالية أمامه الطريق . كما أن الحداثة ونشوء حضارة عالمية واحدة هما أمر واحد .

وقد أثبت التاريخ زيف هذا اليقين التنويرى .

فالمجتمعات الحديثة تأتي فى صور متعددة . وعلى غرار اليابان فى القرن التاسع عشر، فإن الصين وروسيا وسنغافورة وتايوان وماليزيا، تتطور الآن كببلدان حديثة عن طريق الاقتراض

U.S Steel (٥)

(٤) جوزيف شوميتز ، Capitalism, Socialism and Democracy ، لندن : أتونين نيورفستى بوكس ، ١٩٩٦ ، الصفحة ٨٣ .

الاتقانى من المجتمعات الغربية ، على حين ترفض النماذج الغربية . والصور المحلية من الرأسمالية الناشئة فى الصين وبقية أنحاء آسيا لا يمكن احتواؤها داخل إطار تم تصميمه من أجل تكرار نموذج السوق الحرة الأمريكية . ذلك أن حكومات هذه البلدان لن تقبل سياسات يترتب عليها اقتلاع اقتصاداتها من ثقافتها الأم وجعلها غير قابلة للسيطرة .

إن نمو اقتصاد عالمى يمكن أن يكون تقدما هائلا للبشرية ، كما يمكن أن يكون بداية لعالم متعدد المراكز تستطيع فيه النظم والثقافات المختلفة أن تتفاعل وأن تتعاون دون سيطرة أو حروب . لكن ذلك ليس هو العالم الذى ينشأ حولنا فى المحاولة العقيمة المبذولة لبناء سوق حرة عالمية .

وفى عالم لا تخضع فيه قوى السوق لأى قيود أو ضوابط شاملة ، فإن السلم يظل دوما مرضا للخطر . كما أن رأسمالية القطع والحرق، الرأسمالية المفتتة ، تعمل على تدهور البيئة ، وتشمل فئيل النزاعات حول الموارد الطبيعية . والنتيجة العملية للسياسات الداعية إلى أن يكون تدخل الحكومات فى الاقتصاد فى أضيق الحدود هى أن الدول ذات السيادة مجده نفسها ، فى مناطق من العالم تتزايد اتساعاً ، جبهة منافسة لا على الأسواق فقط ، وإنما على البقاء أيضا . فالأسواق العالمية ، على النحو الذى تنظّم به الآن ، لا تسمح لشعوب العالم بأن تتمايش بطريقة منجمة ، وإنما هى تدفعها دفعا إلى التنافس على الموارد دون أن ترسى أى أساليب لحفظها .

هل يمكن إصلاح ودعه يعمل، على النطاق العالمى ؟

تعمل الأسواق الحرة فى الوقت الحالى على تمزيق المجتمعات وإضعاف الدول . فالبلدان التى لديها حكومات عالية الكفاية ، أو ثقافات تتسم بالمرونة ، يكون لديها هامش من الحرية تستطيع فى داخله العمل للحفاظ على الترابط الاجتماعى . أما حيث تفتقد هذه الموارد ، فقد انهارت الدولة ، أو فقدت ما تتمتع به من كفاءة ، كما دُمّرت المجتمعات على يد قوى السوق الخارجة عن سيطرتها .

ويؤكد التاريخ أن الأسواق الحرة ليست ذاتية الانضباط . فهى فى صميمها مؤسسات فى مهب الريح وعرضة لفترات من الرخاء والأزمات التى أساسها المضاربة . وطوال الفترة التى كان فيها لأفكار كينز تأثير سائد ، كان من المسلم به أن الأسواق الحرة هى مؤسسات شديدة البعد عن الكمال . فهى لكى تعمل بصورة جيدة لا تكون بحاجة فقط إلى الضبط والتنظيم ، بل أيضا إلى الإدارة الفعالة . وخلال فترة ما بعد الحرب أمكن الحفاظ على استقرار الأسواق العالمية نتيجة لتدخل الحكومات الوطنية ، ولنظام قائم على التعاون الدولى .

ولم يحدث إلا أخيراً أن أعيد إحياء فكرة من الأفكار السابقة على كيتز لتصبح قاعدة أساسية : وهى الاعتقاد بأنه إذا توافرت للعبة قواعد واضحة وجيدة التنظيم ، فإن الأسواق الحرة يمكن أن تكون تجسيدا للتوقعات الرشيدة التى يشكلها المشاركون بشأن المستقبل .

والواقع أنه لما كانت الأسواق نفسها تشكل بتوقعات البشر ، فإن سلوكها لا يمكن إخضاعه للتنبؤات العقلانية ، وإن القوى التى تحرك الأسواق لا تكون عمليات آلية من السبب والنتيجة . فهى ما وصفه جورج سوروس بأنه «تفاعلات انعكاسية»^(٥) . ولأن الأسواق تتألف من تفاعلات شديدة التفجر فيما بين المعتقدات ، فإنها لا يمكن أن تكون ذاتية التنظيم .

ووفقاً لنظرية اقتصادية قياسية ، فإننا نستطيع أن نفهم الاقتصاد بنفس الطريقة التى نفهم بها عمل الآلة . ولكن المجتمعات البشرية تتقلب وتتغير بلا توقف - فالمؤسسات الاجتماعية تتألف من معتقدات البشر : وقطعة ورق لا تعدّ نقوداً إلا إذا عدّنا أنها نقود ، وإلا كانت مجرد شئ يثير حب الاستطلاع . والنظريات التى تشكل الأسواق على طراز الآلات إنما تغفل أهم حقيقة بشأنها وهى أنها أوهام من تصورات البشر وتوقعاتهم .

وبالنسبة للأسواق المالية بوجه خاص ، فإن توقعاتنا بشأن المستقبل إنما ترتد إثر اصطدام أحدها بالآخر . فالأسواق المالية لا تتجه إلى الاتزان ، والشطط هو وضعها الطبيعي . ذلك أن هذا التقلب السريع فى جوهر المؤسسات المالية المتحررة من الضوابط يحدث اضطراباً شديداً فى الاقتصاد العالمى الذى يجرى ترتيبه كنظام للأسواق الحرة .

وأولئك الذين يعتقدون أن الأسواق الحرة تتيح لنا تشكيل توقعات عقلانية بشأن المستقبل إنما يعدّون الرخاء الاقتصادى الأمريكى الطويل ، من بداية العقد التاسع حتى الوقت الحالى ، دليلاً على أن الدورة الاقتصادية هى إحدى المخلفات الهمجية للتاريخ .

(٥) حديث سوروس عن العمليات الانعكاسية فى الأسواق يمكن أن يوجد فى كتابه ، *The Alchemy of Finance: Reading the Mind of the Market* ، نيويورك : سيمون وشوستر ، ١٩٨٧ ، الجزء الأول ، وكذلك فى كتابه *Underwriting Democracy* ، نيويورك : دى فرى برس ، ١٩٩١ ؛ الجزء الثالث . وثمة حديث مواز إلى حد ما يقدمه واحد من المفكرين الاقتصاديين العظام المنسقين فى هذا القرن ، ج . ل . س . شاكل ، فى كتابه *Epistemics and Econometrics: A Critique of Economic Doctrines* ، كامبردج : إدارة النشر بجامعة كامبردج ، ١٩٧٢ .

وهم على ثقة من أن الاقتصادات التي أخضعت نفسها لمتطلبات «توافق واشنطن» لا ينبغي لها أن تخشى الانهيارات المفاجئة وحالات الكساد الطويلة التي هزت جوانبها في الماضي .

وقد حظى الوهم بأن الدورة الاقتصادية هي الآن ظاهرة من ظواهر الماضي بتصديق ألان جرينسبان ، رئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي بالولايات المتحدة . فحتى عام ١٩٨٩ كان جرينسبان يعتقد أن الأسواق الحرة تضرب بجذورها في الطبيعة البشرية ، وأن الاستبداد وحده هو الذي يمنع بقية البشرية من الأخذ بها . ومما هو جدير بالثناء على جرينسبان أنه كان هو الذي اعترف ، في محاضرة له ألقاها في مركز وودرو ولسون في يونيو عام ١٩٩٧ ، بأنه بعد عام ١٩٨٩ اكتشف أن «جانبا كبيرا مما كنا نعتبره من المسلمات في نظامنا للسوق الحرة لم يكن جزءاً من الطبيعة على الإطلاق ، وإنما هو جزء من الثقافة . وتفكيك وظيفة التخطيط المركزي لا يؤدي بصورة آلية ، كما كان البعض يعتقدون ، إلى إقامة (رأسمالية السوق)»^(٦) .

لقد اعترف جرينسبان بأهمية القواعد الثقافية في دعم الأسواق . ولكن ما الجائحة التي يجب أن تنزل بالسوق حتى يقتع جرينسبان بأن «عصرنا جديداً» من النمو المستقر إنما هو مجرد أسطورة أخرى ؟

إن مبدأ «دعه يعمل» على النطاق العالمي يمكن أن ينهار في أزمة تتعذر إدارتها في أسواق الأوراق المالية والمؤسسات المالية العالمية . ذلك أن الاقتصاد التصوري الضخم للمشتقات المالية^(*) ، الذي يصعب التعرف عليه ، هو الذي يزيد من مخاطر تعرض النظام للانهيار .

فإلى أي مدى يمكن للمجتمع الأمريكي الممزق أن يتحمل انهيارا في سوق الأوراق المالية شبيها بالانهيار الذي وقع في اليابان في أوائل التسعينيات ؟ إن انهيارا بهذا الحجم اليوم يمكن أن يشعل فتيل انتفاضات اقتصادية واجتماعية واسعة النطاق في الولايات المتحدة . وأيا كانت النتائج التي ستترب على حدث كهذا ، فإننا على يقين من أننا لن

(٦) هذه الفقرة مقتبسة من جرينسبان وردت في وليم فاف ، *Genufflecting at the altar of market* ،

economics ، في جريدة إنترناشونال هيرالد تريبيون ، عدد ١٤ تموز ١٩٩٧ ، الصفحة ٨ .

(*) *Financial derivatives* : أية أشكال للضمان ، مثل عقود الخيار ، تشتق من السندات والأسهم العادية ؛ وهي تسمى أيضا «أدوات مشتقة» *Derivative Instruments* يمكن بيعها أو شراؤها في سوق الأوراق المالية أو العمليات الأجلة - المترجم .

نسمع المزيد عن يوتوبيا حكومة الحد الأدنى . إن النظام الدولي للأسواق الحرة لا يستطيع أن يظل على قيد الحياة في مواجهة انتفاضة اقتصادية في مركزه .

والواقع أن الفكرة القائلة بأن اقتصاد السوق الحرة نظام يحقق استقراره بنفسه هي فكرة عفا عليها الزمن - بقية غريبة من عقلانية التنوير . وسوف يقذف بها جانبا عندما تنبه السوق مستمرى اليوم إلى أن أولئك الذين يتصورون بأن لديهم إعفاءً من التاريخ إنما هم مدانون بتكراره .

ومع ذلك فإن وقوع جائحة في السوق ليس هو السيناريو الأرجح لإنهاء العصر الحالي لمبدأ «دعه يعمل» . ولكن الأمر الأكثر ترجيحاً أن يتخذ ذلك صورة تحدى الدول الناشئة حديثاً للهيمنة الأمريكية في الاقتصاد العالمي .

وعلى غرار النظام الاقتصادي الليبرالي الدولي الذى كان قائماً قبل عام ١٩١٤ ، فإن السوق الحرة العالمية لا تعمل إلا إذا كانت مؤسساتها تلقى دعماً من سلطة عالمية ذات نفوذ فعال . والولايات المتحدة تفتقر اليوم إلى العزيمة ، وربما إلى القدرة ، على تحمل أعباء دولة إمبريالية مثيلة لما كان لدى بريطانيا خلال «الحقبة الجميلة» .

إن أمريكا أواخر القرن العشرين هي ، بدرجة أكبر من غالبية الديمقراطيات الأخرى ، مجتمع ما بعد المرحلة العسكرية . ومع ذلك فهي الدولة الوحيدة التى تستطيع يدها أن تمتد إلى أى جزء من أجزاء العالم . ذلك أن استثماراتها الثقيلة المستمرة فى أحدث المعارف التكنولوجية يعطيها تفوقاً عسكرياً على أى دولة أخرى لا يمكن تحديه .

وعلى الرغم من ذلك فإن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تتحمل التزاماً عسكرياً يرجح أن يكون طويل الأجل ، أو يقتضى خسائر جسيمة فى الأرواح . وحينما يمنحها سبقها التكنولوجى ميزة إستراتيجية ، كما كانت الحال فى حرب الخليج ، فإنها تشن حرباً كبرى . أما إذا كان الوضع شبيهاً بما كان فى الصومال ، حيث تستدعى الحاجة استعداداً لأداء بعض وظائف الحكومة ، وتحمل أعبائها ، بما فى ذلك استمرار الخسائر فى الأرواح لمدة طويلة ، فقد أثبتت الهيمنة الأمريكية أنها مجرد وهم .

ومع الانتشار المطرد للتكنولوجيات الجديدة ، فإن مصادر القوة فى أواخر الفترة الحديثة أخذت تسرب من أيدي البلدان الغربية . كما أن البلدان التى كانت فى مرحلة ما قبل الصناعة تصبح ، مع تطور أنواعها الخاصة من الرأسمالية ، أقل استعداداً للخضوع لتوافق واشنطن .

وإذا لمجحت الصين في تحديث اقتصادها فسوف تتخذ موقفاً متشدداً إزاء المنظمات عبر الوطنية التي تحاول أن تفرض عليها برنامجاً للتجارة الحرة الأمريكية . وسيكون الوضع مماثلاً أيضاً في روسيا . إن قوى الاقتصاد العالمي الآخذ في التوسع سوف تنهار من خلال مؤسسات السوق الحرة العالمية .

إن سياسة «دعه يعمل» على النطاق العالمي هي لحظة في تاريخ الاقتصاد العالمي الناشئ ، وليست نقطة نهايته . فلما أن النظام الحالي سيتطور إلى شيء كان باستطاعة مهندسيه بالكاد أن يتصوروه ، أو أنهم بالتأكيد لا يعترفون بتصوره ، وإما أن مؤسساته ستصبح هامشية وعديمة التأثير .

وإذا لم تشرع المؤسسات عبر الوطنية في إظهار التنوع لعالم ذي أقطاب أكثر تعدداً ، فإن هذه المؤسسات التي تجسد مبدأ «دعه يعمل» على النطاق العالمي ستنفقد ما تبقى لها من نفوذ وسلطة . ولن تلبث أن تصبح مسلوقة القوة ومنقطع الصلة بما حولها ، مثلما كانت حال عصبة الأمم في فترة ما بين الحربين العالميتين .

وكذلك ، أيضاً ، إذا لم يتم إصلاح قواعد السوق الحرة العالمية لتتمشى مع احتياجات القوى الاقتصادية الناشئة ، فستصبح عرضة للاستهزاء . وذلك يحدث الآن بالفعل ، حيث تهتك الصين حقوق النشر والتأليف ، وتجاهل كثيراً من حقوق الملكية الفكرية . والاقتصاد العالمي الذي لا تحترم فيه حقوق الملكية التي تعترف بها المنظمات عبر الوطنية ليس سوقاً حرة ، وإنما فوضى .

إن موارد أمريكا باعتبارها القوة العالمية الوحيدة الباقية لن تتمكنها من تحقيق أهدافها الرامية إلى فرض الأسواق الحرة على نطاق العالم ، ولكنها تكفي لأن تسمح لها بالاعتراض على أي إصلاح لسياسة «دعه يعمل» على النطاق العالمي .

وثمة حاجة إلى نظام لحكم العالم تدار فيه الأسواق العالمية بطريقة تعزز ترابط المجتمعات ووحدة أراضي الدول . ووجود إطار للتنظيم العالمي - العملات، تقلات رءوس الأموال ، التجارة ، وصيانة البيئة - هو وحده الذي يمكن أن يتيح تسخير القدرة الإبداعية للاقتصاد العالمي لخدمة احتياجات البشر .

والسياسات المحددة التي ينبغي أن تنفذها تلك المؤسسات تعد من حيث أغراض البحث العلمي أقل أهمية من الإقرار بالحاجة إلى نظام عالمي جديد . وقد يكون فرض ضريبة عالية على المضاربة في العملة ، على نحو ما اقترحه العالم الاقتصادي جيمس

تويين(*) (٧) ، مثالا لذلك النوع من التنظيم الذي يمكن أن يجعل الأسواق العالمية أكثر استقرارا وإنتاجية .

وليس من المتيقن ما إذا كانت هذه السياسات ستنتج أم لا ، ولكن مما لا شك فيه أن تنظيم الاقتصاد العالمي كسوق حرة عالمية واحدة إنما يزيد من عدم الاستقرار . فهو يلزم العمال بتحمل تكاليف التكنولوجيا الجديدة والتجارة الحرة التي لا فيد عليها . كما لا يشمل أي وسيلة يمكن بها كبح الأنشطة التي تعرض للخطر التوازن الإيكولوجي العالمي . وإذا كان الاحترار العالمي خطرا حقيقيا - كما يبدو واضحا - فإن السوق الحرة العالمية لاتشمل أي مؤسسات لمعالجته . إن تنظيم الاقتصاد العالمي كسوق حرة عالمية هو في الواقع مخاطرة بمستقبل هذا الكوكب ، على اقتراض أن هذه المخاطر الهائلة ستتبدد لكونها نتيجة غير مقصودة لسعي غير محكوم لتحقيق الأرباح . ومن الصعب تصور رهان أكثر استهانة بالمستقبل .

ومع ذلك فإن إحلال نظام موجه للاقتصاد العالمي محل نظام «دعه يعمل» هو مشروع لا يكاد في الوقت الحالي يقل خيالاً عن سوق حرة كونية . فنظام كهذا لا يمكن إقامته إلا بعمل متضافر تقوم به كبرى الدول الاقتصادية ، كما أن تضارب المصالح يجعل التعاون لأى غرض أكثر طموحا من إدارة الأزمات أمرا يكاد يبلغ في صعوبته حد المستحيل . إذ لا يوجد التوافق اللازم بشأن الوسائل والغايات في السياسات المتعلقة بالتحكم في الزيادة السكانية وحفظ البيئة .

وثمة شرط جوهري لإصلاح الاقتصاد الدولي هو أن يلقى دعما ومساندة من جانب الدولة الواحدة الأكثر أهمية في العالم كله . فمن غير تفويض أمريكي فعال ومستمر لا يمكن أن توجد مؤسسات قادرة على تنظيم العالم وإدارته . ولكن مادامت الولايات المتحدة ملتزمة بإقامة سوق حرة عالمية . فإنها ستقف ضد أى إصلاح من هذا القبيل . ومادامت السياسة الأمريكية تقوم على أيديولوجية «دعه يعمل» التي تنفخ روحا في توافق واشنطن ، فلا يوجد أى احتمال لإصلاح الاقتصاد العالمي .

(*) James Tobin : (١٩١٨ -) . اشتغل بالتدريس في جامعتي هارفارد وويل . شارك في تحرير مجلتي إيكونوميتريا والدراسات الاقتصادية . حصل على جائزة نوبل في عام ١٩٨١ . وعلى المستوى الدولي ربما كانت ضريبة تويين هي أفضل أداة لكبح التدفقات الاقتصادية القصيرة الأجل ، ومعالجة قضايا كثيرة متعلقة بتقلبات التدفقات المالية العالمية وعدم استقرارها - المترجم .

(٧) جيمس تويين ، "A proposal for international monetary reform" ، في مجلة إيسترن إيكونوميك جورنال ، يولييه - أكتوبر عام ١٩٧٨ ، الصفحات ١٥٣ إلى ١٥٩ .

أهى نهائية ، توافق وشنطن ، ؟

إن نموذج حكومة الحد الأدنى ، وهو النموذج الذى يقوم عليه «توافق واشنطن» ، هو أفضل الأحوال ينطوى على مفارقة تاريخية . فهو يتمى إلى عصر كانت فيه الدول الشمولية هى التهديد الرئيسى للحرية والرخاء . أما اليوم فإن انهيار الدول أو ضعفها هو الخطر الرئيسى الذى يهدد الرفاهة البشرية والاجتماعية .

والإصلاح يبدأ بإعادة تأهيل الدولة الحديثة . وفى القرن القادم ستكون حالة بلد مثل الصومال أشد خطرا على الرفاهة البشرية من أنشطة الدول الشاردة الخارجة على النظام . وعلى غرار الصومال فإن دولا كثيرة فى العالم تفتقر إلى حكومة فعالة . ففى ليبيريا وألبانيا وطاقكستان وباكستان وكولومبيا وسببيرا وشيشنيا لا يأتى التهديد للسلم والتقدم الاجتماعى من دولة استبدادية أو توسعية ، بل يأتى من عدم وجود حكومة فعالة من أى نوع كان .

وفى كثير من أنحاء العالم لم ترسخ الدولة الحديثة بعد ، أو أنها انهارت . وفى البلدان التى من هذا القبيل تفتقد الشروط الأشد جوهرية للسلم والتقدم الاجتماعى ، وللمعايير الإنسانية للعمل ، ولحفظ البيئة .

وعلى نطاق الجزء الأكبر من العالم المعاصر لا يمكن القول بأن الدولة الحديثة أصبحت مؤسسة مسلما بها جدلا . وبالنسبة لغالبية البشرية فإن انعدام الأمن الذى تحدث عنه هوبز - أى خطر الموت العنيف - هو واقع يومى . ومع ذلك فإن آيا من مبادئ الرفاهة البشرية لا يمكن ضمانه إلا بعد أن تحل تلك المشكلة الهوبزية .

ومن غير أن تكون هناك دولة حديثة تتحكم فى أدوات الحرب لا يمكن أن يوجد سلم . وتعد حروب ما بعد كلاوزفيتز عقبة فى سبيل الوجود المتحضر أشد خطورة من الحروب فيما بين الدول ذات السيادة ، وذلك لأنها لاتشمل أى مؤسسة قادرة على إنهاء النزاع . فمع ذبول الحرب الكلاوزفيتزية لم تعد هناك وسيلة لفرض السلم .

وتمس الحاجة الآن إلى مؤسسات حكومية فعالة لرصد تأثير البشر على البيئة الطبيعية ، وللحد من قيام مصالح غير خاضعة للمساءلة باستغلال الموارد الطبيعية . وفى روسيا ، فإن الطبيعة التى أفسدتها ذات يوم دولة شمولية تواصل إفسادها اليوم رأسمالية لصووية . وإلى أن تحل المشكلة الهوبزية فى روسيا فيستمر تدمير بيئتها الطبيعية .

إن توافق واشنطن يفترض أن المشكلة الهوبزية المتعلقة بالمحافظة على الأمن والنظام

قد حلت . ولذلك فإنه لا يكتفى بالاستخفاف بحالة أغلبية البشر ، التي تعيش في ظل دول ضعيفة أو منهارة ، ولكنه يتجاهل الطرق الكثيرة التي تشكل بها الأسواق العالمية المتحررة من الضوابط تهديدا للترابط في المجتمع وللاستقرار في الحكم .

وهناك دول قليلة - سنغافورة ، ماليزيا ، اليابان ، أيرلندا ، بريطانيا ، السويد ، والنرويج - لديها القدرة على صيانة الترابط الاجتماعي ، على حين تستجيب للمنافسة العالمية . ولكن غالبية الدول إما ضعيفة للغاية وإما فاسدة أو عديمة الكفاءة . كما أن غالبية الدول الموجودة الآن بالفعل لا تستطيع أن تطمع في التوفيق بين أساسيات الأسواق العالمية ومتطلبات الترابط الاجتماعي وحفظ البيئة .

وهل يمكن عمليا أن يؤدي إصلاح السوق العالمية إلى تعزيز تطور دول فعالة؟ ثمة علامات على أن الحاجة إلى إعادة تأهيل الدولة أخذت تحظى بالقبول حتى في بعض المنظمات عبر الوطنية التي تعتبر من مهندسي السوق الحرة العالمية . وقد تخلى البنك الدولي ، الرأس المدبرة لتوافق واشنطن ، عن مباركة لحكومة الحد الأدنى ، واعترف بأنه لا يمكن أن تتحقق تنمية اقتصادية مستدامة إلا في وجود دولة حديثة فعالة .

فتقرير البنك الدولي عن التنمية في العالم في عام ١٩٩٧ ، والذي جعل عنوانه «الدولة في عالم متغير» (*) ، يبدأ بالقول : «ولاشك في أن التنمية التي تسيطر عليها الدولة قد فشلت . ولكن فشلت أيضا التنمية التي تتم بغير تدخل الدولة ... وقد أثبت التاريخ مرارا وتكرارا أن الحكومة الجيدة ليست من قبيل الشرف ، بل هي ضرورة حيوية ، لأنه بدون دولة فعالة يتعذر تحقيق التنمية المستدامة ، سواء في جانبها الاقتصادي أو الاجتماعي» (٨)(**). ثم يمضى التقرير فيشئ على ما ذكره توماس هوبز ، في كتابه «التنين الجبار أو لويثان» الذي صدر في عام ١٩٥١ ، من أن الحياة بدون دولة فعالة للحافظ على الأمن ستكون حياة «موحشة ، بائسة ، بغیضة ، بهيمية ، وقصيرة» (٩)(***).

• The State In a Changing World (•)

• أكسفورد : إدارة النشر بجامعة أكسفورد ، ١٩٩٧ ، الصفحة ١١ . ومن أجل الاطلاع على نقد حاد لسياسات التنمية التي ينتهجها البنك الدولي ، انظر ، كاثرين كوفيلد ، **Masters of Illusion : The World Bank and the Poverty of Nations** ، لندن : مكميلان ، ١٩٩٦ .

(••) هذه الفقرة منقولة حرفيا من الطبعة العربية لتقرير البنك الدولي ، الصفحة ٢٢ - المترجم .

(٩) **World Bank** ، المرجع السابق ، الصفحة ١٩ .

(•••) هذه الفقرة منقولة حرفيا أيضا من الطبعة العربية لتقرير البنك الدولي ، الصفحة ١ - المترجم .

وتخلى البنك الدولي عن عقيدته الجامدة بشأن حكومة الحد الأدنى هو موقف جدير بالترحيب ، ولكن ذلك يقصر كثيرا عما يلزم من توجه جديد للفكر . والحكومات التي لا تحل المشكلة الهوبزية تفتقر إلى الشرعية في كل مكان . ولكن الأمن من الاضطراب المدني والعنف الإجرامي ليس هو كل ما تطلبه الشعوب من حكوماتها . فهي تطلب الأمن من العوز والبطالة والتهميش . وما لم تمتد وظائف الحماية التي تمارسها الدول إلى السيطرة على تلك المخاطر ، فلن يرى مواطنوها شرعية لحكوماتهم .

ويلج البنك الدولي في ترديد الحكمة التقليدية التي تأكدت في العقد الماضي ، وذلك عندما يصف «المجموعة الكاملة من المرافق والخدمات العامة الأساسية» بأنها تتألف من «ركيزة من سيادة القانون ، واقتصاد كلي مستقر ، وأساسيات الصحة العامة ، والتعليم الأساسي الشامل ، وبنية أساسية كافية للنقل ، وحد أدنى من الأمن»^(١٠) .

وفي هذا العرض فإن الوظائف الحقيقية للدولة إنما تستمد من النظرية الاقتصادية للمرافق العامة . ولاريب في أن هناك بعض وظائف الدولة التي يمكن فهمها من هذا المنظور . كما أن بعض الشروط الأساسية لاقتصاد السوق الحديث هي شروط عامة تنطبق على الجميع . فكل الاقتصادات الحديثة يجب أن تتضمن إنفاذ القانون بطريقة متزهة عن الفساد ، وحقوقا للملكية محددة جيداً ، وسياسات لحفظ البيئة ، حتى تتمكن من خدمة الاحتياجات البشرية .

ولكن ما يفترقه عرض البنك الدولي هو الاعتراف بالدور الاقتصادي للدولة في صيانة وتعزيز الترابط في المجتمع . كما أن ما تمليه هذه المسؤولية من سياسات لا يمكن أن يستتج من الحقائق العامة المفترضة للنظرية الاقتصادية . فهذه السياسات تختلف تبعاً للأعراف الثقافية للشعوب المختلفة وأنواع الرأسمالية التي تمارسها .

ويظل البنك الدولي وفيّاً لتوافق واشنطن عندما يعامل الفروق بين ثقافات الرأسمالية ونظمها وأنواعها على أنها فروق ذات أهمية هامشية في تحديد الدور الاقتصادي للدولة . والواقع أن هذه الفروق حاسمة . والبنك لم يقبل - أو لعله لم يدرك بصورة كاملة - التنوع الذي تسم به الرأسمالية المعاصرة .

ولتأمل مثالين . أولهما اعتماد الرأسمالية اليابانية في شرعيتها السياسية على تجديد العقد الاجتماعي الذي يكفل ثقافة العمالة الكاملة لديها . ومع ذلك فإن ممارسات العمالة

(١٠) المرجع نفسه ، الصفحة ٥٩ .

في اليابان تتعرض لحصار من المنظمات عبر الوطنية باعتبارها سياسات الحماية المسترة .
ثانيها أن المعضلة الاقتصادية في ألمانيا لها سمات مميزة مماثلة . كما أن المستويات المرتفعة
للحماية الاجتماعية تعتبر جزءاً لا يتجزأ من الرأسمالية التوافقية في ألمانيا فيما بعد
الحرب . ولاستطيع الدولة الألمانية التخلي عن دورها باعتبارها الضامن الأخير للعمالة
الكاملة ، ولا هي تستطيع أن تطمع في أن يكون سبيلها الأساسي في تحقيق هذا الهدف هو
انتهاج مرونة في العمالة على الطراز الأمريكي . ومع ذلك فإن المعتقدات الاقتصادية
الدولية مازالت تطالب ألمانيا بتطبيق أساليب التعيين والفصل المطبقة في السوق الحرة
الأنجلو سكونية .

وهذه الدروس لم يستوعبها بعد لا البنك الدولي ولا غيره من المنظمات عبر الوطنية
المنهكة في محاولة إقامة سوق حرة عالية . كما أن التنظيم العالمي لن يكون مستداماً إلا
بقدر ما يقبل تنوعاً من النظم والثقافات والاقتصادات باعتباره شرطاً دائماً .

إن التنظيم المطلوب في اقتصاد عالمي حقاً يجب أن يشجع على وجود طريقة للعيش
بين أنواع الرأسمالية التي ستكون مختلفة دائماً . ولتأمل التجارة . إن القواعد الموضوعة
لتنظيم التجارة ، والتي تعامل ممارسات الرأسمالية الأمريكية على أنها معايير عالمية ، هي
معايير لا تحترم ذلك التنوع . فالقواعد التنظيمية التي تحظر على الحكومات أن تعمل على
حماية ترابط مجتمعاتها ، والأنواع الخاصة من الرأسمالية التي تطورت لديها ، لانتهج
إطاراً للتجارة الحرة ؛ وإنما هي تحمي نوعاً واحداً من الرأسمالية في المنافسة الدائرة بينه
وبين الأنواع الأخرى . وثمة حاجة إلى إطار تستطيع فيه الحكومات أن تحمي ما هو متميز
وعالي القيمة في ثقافتها الاقتصادية .

وذلك لايعنى ضمناً آياً من السياسات المرتبطة بمذهب الحماية . إذ إن هذا المذهب ،
هو على غرار الاشتراكية الديمقراطية ، ينتمى إلى عالم لا يمكن إحيائه . فالدول ذات السيادة
سوف تستمر في بسط حمايتها على الصناعات التي ترى أن لها أهمية إستراتيجية . ولكن
السياسات الكلاسيكية للحماية التجارية ، كما هي مطبقة عبر اقتصادات بكاملها ، هي
سياسات غير عملية ، أو لعلها سياسات ضارة . وعندما يكون في وسع الشركات تجزئة
عملياتها ، ونقلها عملياً إلى أى مكان في العالم ، يكون من المستطاع التعاقد على
الخدمات مع دول نائية عن طريق استخدام تكنولوجيات المعلومات ، والانجبار في الأصول
المالية عبر القضاء الكوني ، وبذلك تصبح السياسة الحماية غاية لا جدوى من ورائها .

ولكن التنظيمات التي تصف بالحمايية أي سياسات تسعى إلى الحفاظ على الثقافات أو أشكال الحياة المتميزة ، لاثتجع على قيام الانسجام بين الاقتصادات العالمية ، بل هي تجعل التعاون فيما بينها على المدى الطويل أمراً مستحيلاً . وما لم يتم إصلاح هذه التنظيمات فإن القوى الاقتصادية الجديدة فى العالم سوف تسقطها من حسابها .

وعندما تسعى المنظمات الرأسمالية الأمريكية عبر الوطنية إلى إرغام كل اقتصاد على الدخول فى قميص ضيق محكم مخيط من الممارسات الفريدة للرأسمالية الأمريكية ، فإنها تجبر البلدان على اتباع سياسات اقتصادية لانتلاءم مع تاريخها واحتياجاتها . ولكن السلطات عبر الوطنية ليست أجهزة لها حرية التصرف ، وإنما هى تعمل فى ظل الدول ذات السيادة التى تستخدم أغراضها وفلسفتها . كما أن جميع الوكالات عبر الوطنية تنفذ اليوم تنويعات من الفلسفة الولسونية(*) الجديدة التى تعتبر الآن النوع السائد فى السياسة الخارجية الأمريكية . وهذا النهج إزاء العلاقات الدولية إنما يقوم ويسقط على افتراض أن بلدان العالم سوف تقبل ، إن أجلا أو عاجلا ، «الرأسمالية الديمقراطية» .

والولايات المتحدة منهكة فى إحداث تحول ثورى فى الاقتصاد العالمى . سياساتها المتعلقة بالتجارة والمنافسة تقضى بالموت على كل حضارة اقتصادية أخرى . فإذا كانت متاجر النواصى فى اليابان ، والأسواق الأوروبية المضمونة للموز(**) ، تعد قيوداً على المنافسة بالصورة المفهومة فى مصطلحات السوق الحرة الأمريكية ، فلا بد من حظرها مهما تكن منافعتها فى الترابط الاجتماعى .

إن صانعى السياسات العامة ومشكلى الرأى العام فى الولايات المتحدة لم يتأملوا كيف تنظر بقية العالم إلى الحالة الأمريكية ، ولم يسألوا أنفسهم لماذا تنظر الشعوب إلى الحالة الأمريكية بالريبة أو الرعب فى كل أنحاء أوروبا وآسيا ، ولماذا ترفض هذه الشعوب دعواها الكونية باستتكار أو ازدراء .

إن التصميم على إخضاع كل الاقتصادات الأخرى للسوق الحرة الأمريكية وإلحاقها

(*) الإشارة هنا إلى توماس وودرو ولسن ، الرئيس السابع والعشرين للولايات المتحدة - المترجم .
(**) كانت دول الاتحاد الأوروبى تستورد معظم احتياجاتها الضخمة من الموز من دول أمريكا اللاتينية (دول الموز) حيث توجد مزارع الموز الهائلة المملوكة للشركات الأمريكية ، ولكنها تحولت إلى استيراد معظم احتياجاتها من هذه الفاكهة من دول الكاريبى ، فأثار ذلك حفيظة الولايات المتحدة وغضبها ، وردت بقرض عقوبات تجارية على دول الاتحاد ، فتقدمت هذه الأخيرة بشكاوى إلى منظمة التجارة الدولية مطالبة برفع تلك العقوبات - المترجم .

بها لا يمكن أن ينجح ، وهو يؤدي إلى تفاقم تعارض المصالح بين القوى الاقتصادية في العالم ، كما يعد بداية لمحاولات ترمي إلى الإفلات من سيطرة المنظمات عبر الوطنية التي تقودها الولايات المتحدة ، مثل الاقتراح (الذي نوقش في أواخر عام ١٩٩٧ في عدة بلدان آسيوية) بأن يُستكمل صندوق النقد الدولي ، أو يُستعاض عنه ، بصندوق آسيوي مستقل . وقد تكون النتيجة الأكثر دوماً للسياسة الأمريكية هي أن تفرض بعض البلدان والمناطق ارتباطها بالمؤسسات عبر الوطنية التي تجسد السوق الحرة العالمية .

وبمحاولة فرض حضارة اقتصادية واحدة على البشرية قاطبة ، فإن التأييد الأمريكي لتوافق واشنطن يخاطر بتحويل ما بين الدول من فروق قابلة للمعالجة إلى نزاعات عميقة الحل .

وتوافق واشنطن لن يدوم إلى الأبد . فلاربع أنه سيهتز نتيجة للصدمات الاقتصادية والتحول الجيوسياسية . إنه مرحلة في سعى الولايات المتحدة للمعثر على هوية لفترة ما بعد الحرب الباردة ، وهي فترة ليست أكثر استقراراً أو دوماً من أي جانب آخر من الآراء أو السياسات الأمريكية . وكما يوحي المثال الذي قدمه الرأي المتغير للبنك الدولي ، فإن سلامة ذلك الموقف هي بالفعل موضع تساؤل .

ولكن يبدو أن المشروع الأساسي لغرس الأسواق الحرة في كل أنحاء العالم سوف يستمر بالنسبة للمستقبل المنظور . فهل ينبغي أن يعاني العالم أزمة كبرى - اقتصادية ، أو بيئية ، أو عسكرية - قبل أن تطرح الولايات المتحدة جانباً فلسفة «دعه يعمل» التي تعتقها ، وتستخدم قوتها التي لا نظير لها للمساعدة على توفير ظروف ملائمة لنجاح التنظيم العالمي ؟

« ما بعد » دعه يعمل »

إن الفترة التي أعقبت نهاية الحرب الباردة مباشرة فتحتها أعراض هذيان «نظام عالمي جديد» . وقد مرت الآن تلك الفترة . وليس باستطاعة أحد أن يصف الساحة الدولية في القرن المقبل إلا بصورة غير واضحة ، وإن كان في الوسع منذ الآن رؤية المصادر الأساسية للنزاع ، وهي الانقسامات الكلاسيكية القائمة على أساس العرق أو الأرض ، والتي يزيدتها تفاقمًا ازدياد الندرة في الموارد الطبيعية الحيوية وميراث مرعب من أسلحة الدمار الشامل .

إن خطر العودة إلى «اللعبة الكبرى» في أواسط آسيا وشرقها ، حيث تتنافس دول العالم من أجل السيطرة على النفط ، إنما هو نذير بما يمكن أن يكون مدمراً لنا . ذلك أنه إذا وصل استهلاك الصين من الطاقة إلى مستوى استهلاكها في بلدان أمريكا اللاتينية عند نهاية القرن ، فإن مجموع استهلاكها من النفط يمكن أن يتجاوز استهلاك كل البلدان الأوروبية الأعضاء في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية مجتمعة . وحتى إذا وصلت الصين إلى مستويات استهلاك الطاقة في كوريا الجنوبية ، فإن مجموع استهلاكها سيكون قرابة مثلى استهلاك الولايات المتحدة اليوم . وفي عام ١٩٩٥ أكدت الصين سيادتها على المياه الغنية بالنفط القريبة من الفلبين . كما أن الصين وتايوان واليابان وماليزيا وبروناي وقيتام لها جميعاً ادعاءات إقليمية متعارضة في بحار جنوبى الصين وشرقها . وجميعها تقريباً لها تأثير حاسم على موارد النفط وغيرها من الموارد الطبيعية الشحيحة . ولا غرابة في أن شرقى آسيا يعد الآن الموقع لسباق تسلح إقليمي .^(١١)

ولم يترتب على انتهاء الحرب الباردة اختفاء التهديد للمسلم . كل ما حدث هو أن طبيعة الحرب قد تغيرت . وكان من نتائج الاقتصاد العالمى أن أصبح العالم مغموراً بالأسلحة . كما أن المجمع العسكرى - الصناعى السوفيتى السابق قد تحول إلى بازار للأسلحة . وحتى خطر تفجير الأسلحة النووية لم يتضاءل ، بل ربما يكون قد ازداد . إذ إن انتشار القوة النووية بغير ضوابط جعل من الأيسر على الدول الصغيرة والمنظمات السياسية حيازة تلك الأسلحة واستخدامها .^(١٢)

وقد زاد خطر الإرهاب النووى نتيجة للاتساع الشديد للمجال الدولى للمجرىمة المنظمة . وتتفاقم هذه النتائج غير المتوقعة لاقتصاد عالمى مفتوح بسبب إضعاف الدولة الذى عززه توافق واشنطن بصورة فعالة .

إن الحركة العالمية التاريخية التى نسميها العولمة لديها زخم لا يحيد عن مساره . فنحن لسنا المسيطرين على التكنولوجيات التى تحرك الاقتصاد العالمى : بل إنها هى التى تكيّفنا

(١١) انظر ، كنت إى . كالدور ، *Asia Deadly Triangle : How Arms, Energy and Growth Threat- on to Destabilize Asia - Pacific* ، لندن : نيكولاس بريالى ، ١٩٩٧ ، الصفحات ٥٠ و ١٢٢ . ١٢٠ .

(١٢) فيما يتعلق بالخطر النووى الجديد ، انظر ، فريد تشارلس أيكيل ، *The second coming of the nuclear age* ، فى مجلة فوربين أفيرز ، العدد ١ ، يناير - فبراير ١٩٩٦ - الصفحات ١١٩ إلى ١٢٨ .

بطرق كثيرة لم نشرع في فهمها . والمؤسسات التي تستطيع أن ترصد آثارها الجانبية الخطيرة أو تصدى لها ليس لها وجود . ومن المشكوك فيه ما إذا كان باستطاعة أى مجتمع حديث فرض قيود على التطور التكنولوجى إذ ما ترتبت عليه نتائج ضارة بالاحتياجات البشرية الحيوية . ذلك أن تلك المجتمعات شديدة البعد عن اليقين فيما يتعلق بقيمها ، وشديدة الالتصاق بفهم الأرض على أنها مورد ينبغي استهلاكه لصالح حاجات بشرية غير محدودة ، بحيث يستحيل عليها الاضطلاع بتلك المهمة البطولية .

إن محطى الآلات (اللوديين) (*) والأصوليين الذين يسعون إلى أن يعيدوا إلى الوراثة تيار الاختراع والمعرفة العلمية ، إنما يكشفون عن إحدى الخصال الرئيسية للعالم الحديث الذى يزعمون أنهم يرفضونه - ألا وهى الاعتقاد بأن علل البشرية يمكن أن تعالج بعمل من أعمال الإدارة .

إن طرفان الاختراعات الذى يحرك الاقتصاد العالمى لا يمكن التحكم فيه بحيث لا نحصل إلا على منافع . ذلك أن شروء التكنولوجيا الجديدة كثيرا ما يتعذر انفصالها عما تتيح من خيارات . ولكن بإمكاننا أن نأمل فى أن ترجح إحدى الكفتين الأخرى على نحو يجعل آثار التكنولوجيا أقل إضرارا برفاهة البشر .

ويشكل العلم والتكنولوجيا ميراثا مشتركا . وإذا تصورنا أنه يمكن استخدامهما (على حد تعبير أشعيا برلين) من أجل صنع «رداء سلمى متعدد الألوان» ، أى عالم تعددى تستطيع فيه الثقافات المختلفة أن تعيش معا ، فإن ذلك ليس مثالا يستحيل تحقيقه ، إنما هو تعبير عن أمل يشاطره مفكرو التنوير مع كل الأديان والفلسفات ، قديمها وحديثها ، التى تعترف بمبدأ التسامح . كما أن احتمال وجود سوق حرة عالمية واحدة ذاتية التنظيم جعل من هذه الرؤية لأسلوب المعيشة وهما وخيالاً .

وبناء عليه فإننا لسنا على أعتاب عصر الوفرة الذى يتوقعه المتعاملون مع السوق الحرة ، وإنما نحن على أعتاب عهد تاريخى تحمل فيه السوق القوضوية والموارد الطبيعية المتناقصة على الزج بالدول ذات السيادة فى تناقضات تزداد خطورة يوما بعد يوم .

(*) Luddites : الاسم الذى أطلق على العمال الذين قاموا خلال عام ١٨١١ بتحطيم الآلات الجديدة اعتقادا منهم أنها ستؤدى إلى انخفاض الطلب على الأيدي العاملة . والكلمة مأخوذة من نيدلود (Ned Ludd) ، وهو اسم صبي مختل العقل قام فى نوبة غضب بتحطيم آلة فى ليستر شاير قبل ذلك بضع سنوات - المترجم .

والدرس واضح . فالرأسمالية العالمية ، على النحو الذى تنظم به اليوم ، ليست مهياةً على الإطلاق لمواجهة مخاطر النزاع الجيوسياسى التى تعم عالما تتفاقم فيه أزمة الموارد . ومع ذلك لا يظهر على أى من جداول الأعمال التاريخية أو السياسية موضوع إعداد إطار تنظيمى للتعايش والتعاون بين اقتصادات العالم المتوقعة .

وقد تفاعلت المنافسة على السوق العالمية والمبتكرات التكنولوجية ، وهو تفاعل كانت نتيجته اقتصادا عالميا تعمه الفوضى . واقتصاد كهذا محتوم عليه أن يكون مسرحاً لتزاعات جيوسياسية عظمى . ويعتبر توماس هوبز وتوماس مالتس دليلين أكثر كفاءة من آدم سميث أو فردريك فون هايك لفهم العالم الذى خلقه شعار «دعه يعمل» على نطاق العالم، العالم الذى تهدده الحروب والندرة بدرجة لا تقل عما يحويه من توافقات التنافس الخيرة .

وينبغى أن يكون ما نرجحه هو أن إصلاح نظام «دعه يعمل» لن يتحقق . وبدلا من ذلك فإنه سيتمزق وتفتت ، لأن تفاقم ندرة الموارد واحتدام النزاعات بين المصالح يجعلان التعاون الدولى يتزايد صعوبة باطراد . وما يدخر للبشرية هو ازدياد الفوضى الدولية عمقا .

ترى هل ستمكثنا موارد العقلانية الحاسمة التى ورثناها من التنوير من التعامل مع الاضطرابات التى خلقها أحدث مشروعاتها أو جعلها تتفاقم ؟ أو أن الفوضى التى تحيط بنا هى قدر تاريخى علينا أن نناضل ضده ، ولكننا نعجز عن التغلب عليه؟ ولاشك أنه سيكون من أشد سخریات القدر إظلاما أن ينتهى مشروع التنوير لحضارة عالمية إلى فوضى تنصارع فى خضمها دول ذات سيادة وشعوب لاجنسية لها من أجل ضرورات الحياة .

إن انتشار التكنولوجيات الجديدة فى كل أنحاء العالم لايساعد على تعزيز الحرية البشرية ، بل أدى بدلا من ذلك إلى تحرير قوى السوق من السيطرة الاجتماعية والسياسية . ونحن إذ نسمح بيهل الحرية للأسواق العالمية ، إنما نكفل أن يكون ما سنذكره من عصر العولمة هو انعطاف آخر فى تاريخ العبودية .

إن الرأسمالية العالمية ، فى تركيبها الحالى ، تحمل فى طياتها بذور عدم استقرارها . فالسوق الحرة العالمية ليس باستطاعتها تنظيم نفسها بنفسها بأكثر مما كان فى استطاعة الأسواق الوطنية فى الماضى . ذلك أنه ماكاد عقد واحد من الزمان ينقضى عليها حتى باتت تمحى بالفعل اختلالات خطيرة . وما لم تتم إعادة إصلاح جذرى للاقتصاد العالمى ، فإنه سيكون مهدداً بالتمزق عندما تتكرر - بشكل مضجع وموجب للسخرية فى أن واحد - الحروب التجارية ، والتخفيضات التنافسية للعملاء ، والانهيآت الاقتصادية ، والانقراضات السياسية ، التى شهدتها ثلاثينات هذا القرن .

وترى أحزاب التيار الرئيسى فى جميع البلدان أنه ليس هناك بديل عن الأسواق الحرة ذات النطاق العالمى . وهذا الكتاب يعارض تلك الفلسفة الاقتصادية . وعندما صدر كتاب الفجر الكاذب فى بريطانيا فى ربيع عام ١٩٩٨ تعرض للهجوم من جميع اتجاهات الطيف السياسى . ووصف ما ادعاه الكتاب من أن الرأسمالية العالمية ، فى صورتها الراهنة ، إنما تحوى بذوراً عميقة لعدم الاستقرار ، بأنه شديد التشاؤم ، دك من غموضه . ولكن بعد أقل من عام واحد برُتت بدرجة كبيرة ساحة ذلك الادعاء .

وقد كان الاستقبال الذى لقيه الفجر الكاذب تأكيداً لإحدى أفكاره الأساسية ، وهى أن رأى العام المعاصر أصبح - سواء فى السياسات أو وسائل الإعلام أو دوائر الأعمال - منفصلاً عن الواقع البشرى المتصل ، بحيث لم يعد قادراً على التمييز بين ما هو يوتوبيا وما هو واقع . وهو لذلك ليس مهياً لعودة التاريخ على النحو الذى تشهده الآن ، بنزاعاته المألوفة الصعبة المراس ، وخياراته المأسوية ، وأوهامه المهذمة الأركان .

(*) صدرت الطبعة الأولى لكتاب الفجر الكاذب فى ربيع عام ١٩٩٨ ، ثم صدرت له طبعة ثانية فى عام ١٩٩٩ أضاف إليها المؤلف هذا الملحق - المترجم .

وفى غضون الفترة القصيرة التى انقضت منذ صدور الطبعة الأولى للكتاب أيدت الأحداث ما ورد فيه من تحليلات . بل إن الرأى الرسمى أخذت تساوره الشكوك فى أن المشكلات الاقتصادية فى آسيا ليست صعبا محلية فى بلدان نائية . وسرعان ما سيرغم هذا الرأى على مواجهة الحقيقة ، وهى أن ما كان يعدّه أزمة للرأسمالية الآسيوية إنما هو فى الواقع أزمة للرأسمالية العالمية تتطور بسرعة . ولم يعد هناك مجال للشك فى أننا نقرب من انتفاضة هائلة فى النظام الاقتصادى الدولى . وإنه لرهان كاسب أن نقول إنه سيكون من الصعب أن نجد ، فى غضون بضع سنوات من الآن ، شخصا واحدا يسلم بأنه آيد فى أى وقت النظام العالمى الذى مازال الرأى المستقر الآن يؤكد أنه نظام متزه عن الخطأ .

ويقول الفجر الكاذب إن السوق الحرة العالمية ليست قانونا حديديا للتطور التاريخى ، وإنما هى مشروع سياسى . كما أن العيوب العميقة فى هذا المشروع أحدثت بالفعل معاناة هائلة بغير موجب . ومع ذلك فإن الاقتصاد العالمى المقام وفق نموذج الأسواق الحرة الأنجلو سكسونية هو الهدف المعلن لصندوق النقد الدولى والمنظمات عبر الوطنية المماثلة . والأسواق العالمية هى قاطرات التدمير الإبداعى . وعلى غرار الأسواق فى الماضى ، فإن هذه الأسواق الحرة لاتمضى فى طريقها فى موجات سلسلة ومطرده ، وإنما هى تتقدم من خلال دورات من الازدهار والنكوص ، وهوس المضاربة ، والأزمات المالية . والرأسمالية العالمية ، على غرار الرأسمالية فى الماضى ، تحقق إنتاجيتها المتزايدة اليوم عن طريق تدمير الصناعات العتيقة ، والمهن وطرق الحياة القديمة ، وإن يكن ذلك يتم على نطاق العالم بأسره .

وقد فهم جوزيف شومبيتر الرأسمالية أفضل مما فهمها أى اقتصادى آخر فى القرن العشرين . وكان يرى أنها لاتسمى إلى الحفاظ على تماسك المجتمع ، وأنها إذا تركت وشأنها يمكن أن تدمر الحضارة الليبرالية . وذلك هو ما دفعه إلى قبول القول بأن الرأسمالية لابد أن تتأسس ، وبأن هناك حاجة إلى التدخل الحكومى للتوفيق بين دينامية الرأسمالية والاستقرار الاجتماعى . ويصدق القول نفسه على الأسواق العالمية اليوم .

إن المؤمنين الحاليين بمبدأ «دعه يعمل» على النطاق العالمى إنما يرجعون صدى شومبيتر دون أن يفهموا آراه . فهم يعتقدون أن الأسواق الحرة بتشجيعها للرخاء تعمل على تعزيز القيم الليبرالية ، ولم يلاحظوا أن وجود سوق حرة عالمية يؤدى إلى توليد أنواع جديدة من القومية والأصولية ، حتى عندما تخلق نُخبا جديدة . والرأسمالية العالمية إذ تدمر أسس

المجتمعات البورجوازية، وتفرض عدم استقرار واسع النطاق على البلدان النامية، فهي تعرض الحضارة الليبرالية للخطر، وتزيد من صعوبة قيام تعايش سلمي بين الحضارات المختلفة .

لقد أصبح مبدأ «دعه يعمل» على النطاق العالمي تهديداً للسلم بين الدول . فالنظام الاقتصادي الدولي لا يحوى أي مؤسسات فعالة لصيانة ثروة البيئة الطبيعية . وأخطار ذلك تتمثل في أن الدول ذات السيادة سينزج بها في صراع من أجل السيطرة على ما يوجد في الكرة الأرضية من الموارد الطبيعية المتناقصة . وفي القرن المقبل ، ستحل حروب مالتسية مبعثها الندرة محل التنافسات الأيديولوجية بين الدول .

والأزمة الآسيوية علامة على أن الأسواق الحرة العالمية قد أصبحت خارج نطاق السيطرة . فالفقاعة المتفجرة ذات الأبعاد التاريخية في الولايات المتحدة ؛ والانكماش الراسخ في اليابان والذي أخذ يظهر في الصين ؛ والكساد في إندونيسيا وكثير من البلدان الآسيوية الأصغر حجماً ؛ والأزمة المالية والاقتصادية في روسيا والتغير المحتمل للنظام فيها - هذه كلها ليست تطورات من شأنها تعزيز الاستقرار . وهي تكشف عن الاضطراب في الاقتصاد العالمي برمته .

وسوف أوضح في هذا الملحق كيف أن التطورات الأخيرة تؤيد الحجج الواردة في الفجر الكاذب وتساندها . وبعد ذلك سأعرض بعض السيناريوهات بالنسبة للمستقبل ، وأفكر فيما يمكن عمله .

فهل تنبئ الأزمة الراهنة في آسيا بنهاية النماذج الآسيوية للرأسمالية ، على نحو ما سارعت الحكمة التقليدية للبلدان الغربية إلى استنتاجه ؟ وهل باستطاعة اليابان الحفاظ على ثقافتها الاقتصادية المميزة ؟ وهل باستطاعة الاتحاد الأوروبي ، الذي تزوّد حديثاً بعملة موحدة ، أن يعزل نفسه عن صدمات الأسواق العالمية ؟ وهل باستطاعة الرأسمالية الألمانية أن تجدد نفسها ؟ وماذا سيكون عليه التزام الولايات المتحدة بالأسواق الحرة عندما يتفجر اقتصاد الفقاعة (*) لديها ؟

هذه بعض الأسئلة التي طرحتها الأحداث التي وقعت منذ أن صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، والتي أرمى هنا إلى محاولة الإجابة عنها . وقد يكون من المفيد ، قبل ذلك ، أن نعود إلى الحججة المحورية للكتاب ، والتي تتألف من ثمانى نقاط رئيسية مترابطة .

(*) Bubble economy : اقتصاد تجري فيه مضاربات مفرطة في أسعار الأسهم بحيث تندفع إلى مستويات تتجاوز قيمتها كثيراً، ثم لاتبث الفقاعة أن تنفجر - المترجم .

الحجة المحورية فى «الفجر الكاذب»

إن السوق الحرة ليست - كما تفترض الفلسفة الاقتصادية اليوم - حالة طبيعية تحدث عندما يزال التدخل السياسى فى مبادلات السوق . ذلك أن السوق الحرة فى أى منظور تاريخى طويل المدى وواسع الأفق ، انحراف قصير الأجل نادراً ما يتحقق . والقاعدة المألوفة هى الأسواق المنظمة ، والتي تنشأ تلقائياً فى حياة كل مجتمع . أما السوق الحرة فهى بيان تقيمه سلطة الدولة . والفكرة القائلة بأن السوق الحرة وحكومة الحد الأدنى تمضيان معاً ، والتي كانت جزءاً مما فى جعبة اليمين الجديد ، إنما هى فكرة تقلب الحقائق . ولما كان الاتجاه الطبيعى للمجتمع هو تقييد الأسواق ، فإن السوق الحرة لا يمكن أن تكون إلا وليدة لسلطة دولة مركزية . فالأسواق الحرة هى من خلق الحكومات القوية ، ولاتستطيع أن توجد بدونها . تلك هى الحجة الأولى فى «الفجر الكاذب» .

وذلك واضح تماماً فى التاريخ القصير لمذهب «دعه يعمل» فى القرن التاسع عشر . وقد تمت هندسة السوق الحرة فى إنجلترا فى منتصف العصر الفيكتوري فى ظل ظروف ملائمة بشكل استثنائى . فقد كانت لدى إنجلترا ، على خلاف البلدان الأوروبية الأخرى ، أعراف فى النزعة الفردية استمرت طويلاً . وعلى امتداد قرون عديدة كان المزارعون الذين يملكون الأرض التى يفلحونها هم أساس اقتصادها . ولم تظهر الرأسمالية الزراعية التى تملك مزارع شاسعة إلا عندما استخدم البرلمان سلطته لتعديل حقوق الملكية القديمة أو إلغاؤها ، وخلق حقوق ملكية جديدة - من خلال قوانين التسيج التى تمت بمقتضاها خصخصة جانب كبير من الأراضى المشاع .

وقد جاء مذهب «دعه يعمل» إلى إنجلترا نتيجة لالتقاء ظروف تاريخية موالية وسلطة مطلقة لبرلمان لم يكن معظم الشعب الإنجليزي مثلاً فيه . وبحلول منتصف القرن التاسع عشر ، ومن خلال قوانين التسيج وقوانين الفقراء وإلغاء قانون الغلال ، أصبحت الأراضى والأيدى العاملة والخيز سلماً شأن أى سلع أخرى : وأصبحت السوق الحرة هى المؤسسة المحورية فى الاقتصاد .

لكن السوق الحرة لم تنم فى إنجلترا لأكثر من جيل واحد (بل إن بعض المؤرخين يبالغون فى القول بأنه لم تكن هناك فى أى وقت فترة طبق فيها مذهب «دعه يعمل») . فمئذ سبعينيات القرن الماضى فصاعداً كانت تصدر بالتدرج تشريعات تستبعد السوق الحرة من الوجود . ومع نشوب الحرب العالمية الأولى كانت الأسواق قد أعيد تنظيمها بدرجة كبيرة لصالح الصحة العامة والكفاءة

الاقتصادية ، وأصبح للحكومة دور فعال في توفير مجموعة من الخدمات الحيوية ، لاسيما المدارس . وظل لدى بريطانيا نوع من الرأسمالية ذو طبيعة رأسمالية واضحة ، واستمرت التجارة الحرة إلى أن وقعت كارثة «الكساد الكبير» ، ولكن أعيد تأكيد السيطرة السياسية على الاقتصاد . وظل المجتمع ينظر إلى السوق الحرة على أنها تتجاوز عقائدي ، أو مجرد ظاهرة غير مسيرة للزمن - إلى أن أعادها «اليمن الجديد» إلى الحياة في ثمانينيات القرن الحالي .

وقد تمكن «اليمن الجديد» ، في البلدان التي وصل فيها إلى السلطة ، من تغيير الحياة السياسية والاقتصادية تغييرا لارجعة فيه - لكنه فشل في تحقيق الهيمنة التي كان يطمح فيها . ففي بريطانيا والولايات المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا ، إلى جانب بعض البلدان الأخرى ، مثل المكسيك وشبلي وجمهورية التشيك ، تمكنت الحكومات المتأثرة بشدة بفكرة السوق الحرة من تفكيك جانب كبير من تراثها الإدماجي أو الجماعي . ولكن في كل الحالات فإن التحالفات التي جعلت من الممكن سياسياً تطبيق سياسات السوق الحرة قد قوضها ماترتب على تلك السياسات نفسها من نتائج متوسطة الأجل .

فالتصفية السريعة للإسكان الاجتماعي (الشعبي) - وهي إحدى سياسات تاتشر الرئسية - كانت نجاحا مادامت أسعار المساكن أخذت في الارتفاع . ولكن عندما انخفضت هذه الأسعار فجأة وبعنف ، وقع الملايين في فخ العدالة السلبية ، وأصبحت هذه التصفية خسارة سياسية . ولم تحقق أي منفعة سياسية من خصخصة الأصول العامة وتحرير الأسواق إلا عندما كان انتعاش الاقتصاد يخفي أثرهما الأعمق ، وهو تفاقم انعدام الأمن الاقتصادي . وعندما أصبح ذلك الأثر ملموساً نتيجة للتكوص الاقتصادي ، بدأت حكومات اليمن الجديد تعيش على وقت مستعار (*) ترقباً للتطورات المقبلة .

وقد تبين في غالبية البلدان أن الاستفادة سياسياً من الإصلاح الاقتصادي الليبرالي الجديد هو اليسار المعتدل . فما حدث في أواخر القرن التاسع عشر تكرر في أواخر القرن العشرين ، إذ إن ماترتب على الأسواق الحرة من آثار مدمرة اجتماعياً جعلها غير قادرة على الاستمرار من الناحية السياسية .

وهذا ينقلنا إلى الجدل الثانية في الفجر الكاذب ، وهي أن الديمقراطية والسوق الحرة

(*) Borrowed time : إرجاء لا يمول عليه ، ويتعذر التحكم فيه عادة ، لحدث من اللحتم وقوعه -

الترجم .

أمران متنافسان وليسا متلازمين . «الرأسمالية الديمقراطية» - الصيحة البلهاء التي أطلقها المحافظون الجدد في كل مكان لتوحيد الصفوف - تصفح عن (أو تخفى) علاقة شديدة التعقيد . ذلك أن العنصر البيهيمي الملازم للأسواق الحرة ليس الحكومات الديمقراطية المستقرة ، إنما هو السياسات المتقلبة لانعدام الأمن الاقتصادي .

ففي الحاضر والماضى ، في كل مجتمع من الناحية الفعلية ، كانت السوق تكبح حتى لا تكون أضرارها شديدة القسوة على حاجات البشر الحيوية إلى الاستقرار والأمن . وفي المراحل المتأخرة من السياقات الحديثة كانت الحكومة الديمقراطية تعمل عادة على تخفيف آثار الأسواق الحرة . وقد تزامن زوال السوق الحرة في أنقى صورها في منتصف العصر الفيكتوري مع توسيع قاعدة الاقتراع العام . ومثلما تراجع مذهب «دعه يعمل» في إنجلترا مع تقدم الديمقراطية ، فإن تجاوزات الثمانينيات قد خففتها الحكومات المتعاقبة في معظم البلدان - تحت ضغوط المنافسة الديمقراطية . ومع ذلك فإن السوق الحرة على المستوى العالمي ظلت متحررة من القيود .

وثمة مشروع تاريخي للتوفيق بين اقتصاد السوق والحكم الديمقراطي تعرض فيما يبدو لتراجع نهائي . فالاشتراكية الديمقراطية الأوروبية مازالت قائمة بحسابها عددا من النظم ذات الوجود الفعلى . ولكن الحكومات الاشتراكية الديمقراطية تفتقر إلى السيطرة على الحياة الاقتصادية ، وهى السيطرة التي كانت قادرة على ممارستها خلال فترة مجاحها فيما بعد الحرب . كما أن الأسواق العالمية للأوراق المالية لن تسمح للنظم الاشتراكية الديمقراطية بالحصول على قروض كبيرة ، إذ إن السياسات الكيترية تكون عديمة الفعالية إذا ما طبقت في اقتصادات مفتوحة يكون باستطاعة رهوس الأموال فيها أن تخرج وقتما تشاء . ذلك أن قدرة الإنتاج على التنقل على نطاق العالم تسمح للمؤسسات بأن تتوطن حيث تكون الأعباء التنظيمية والضريبة أقل وطأة .

والحكومات الاشتراكية الديمقراطية لم تعد لديها الموارد اللازمة لتحقيق أهدافها بوسائل اشتراكية ديمقراطية . ونتيجة لذلك أصبحت البطالة الواسعة النطاق مشكلة بغير حل ظاهر في غالبية بلدان أوروبا القارية . وفي حالات قليلة ، توافرت ظروف خاصة مثل المكاسب المفاجئة غير المتوقعة من النفط في الترويج - أعطت النظم الاشتراكية الديمقراطية فرصة أخرى للعيش . ولكن من الزاوية العامة فإن التناقض بين الاشتراكية الديمقراطية والأسواق الحرة العالمية يبدو عنيدا لا يقبل الحل .

واليوم توجد مؤسسات قليلة فعالة للإدارة الاقتصادية العالمية ، ولكن لاتوجد مؤسسات ديمقراطية ولو من بعيد . ومازال من الآمال البعيدة إقامة علاقة متوازنة وذات طابع إنساني بين الحكومات واقتصاد السوق .

ثالثا ، أن الاشتراكية كنظام اقتصادى قد انتهت بغير رجعة (*) . فمن الناحيتين الإنسانية والاقتصادية كانت تركة التخطيط المركزى الاشتراكى تركة مدمرة . إن الاتحاد السوفيتى لم يكن نظاما حقق تقدما سريعا بتكلفة بشرية مرتفعة بدرجة يؤسف لها ، بل كان دولة شمولية قتلت الملايين أو دمرت حياتهم ، وخربت البيئة الطبيعية . وفيما عدا القطاع العسكرى الهائل وبعض مجالات الصحة العامة ، لم يحقق الاتحاد السوفيتى غير القليل من المنجزات الاقتصادية أو الاجتماعية الحقيقية . وفى الصين ، فى عهد ماوتسى تونج ، ربما كانت الخسائر فى الأرواح الناتجة عن المجاعات التى تسببت فيها ، والأهوال ، والبيئة المدمرة ، أكبر حتى مما حدث فى الاتحاد السوفيتى .

ومهما يكن ماأتى به القرن المقبل ، فإن انهيار الاشتراكية يبدو لارجعة فيه . وبالنسبة للمستقبل بوسعنا أن نرى أنه لن يكون فى العالم نظامان اقتصاديان ، بل أنواع مختلفة من الرأسمالية فحسب .

رابعا ، على الرغم من أن انهيار الاشتراكية من الداخل قد قوبل بالترحاب فى البلدان الغربية ، لاسيما فى الولايات المتحدة ، باعتباره انتصارا للرأسمالية السوق الحرة ، فإنه لم يعقبه فى معظم البلدان التى كانت شيوعية فيما سبق الأخذ بأى نظام اقتصادى غربى .

ففى كل من روسيا والصين ترتب على اختفاء الشيوعية إحياء أنماط محلية من الرأسمالية ، شوهها فى كلتا الحالتين ما ورثناه من الشيوعية . فالاقتصاد الروسى يسيطر عليه نوع من التكتل الإجرامى . والأصول القريية لهذا النظام الاقتصادى ذى الطبيعة الخاصة نابعة من الاقتصاد غير المشروع فى الاتحاد السوفيتى ، ولكن تجمعه بعض نقاط التشابه مع الرأسمالية المختلطة فى المؤسسات الكبيرة التى تسيطر عليها الدولة ، ومع روح المبادرة الجامحة التى ازدهرت فى العقود الأخيرة للقيصرية . وللرأسمالية فى الصين

(*) وهكذا يتعمد المؤلف فى الهجوم على الاشتراكية ويصل به الأمر حتى إلى مصادرة حق البشر فى الحلم بنظام يقوم على العدالة الاجتماعية وانتفاء للظالم . وقد تناسى المؤلف أن الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية هى التى تحمك الآن فى أكبر أربع دول أوروبية (فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا) وفى بعض الدول الأوروبية الأخرى - المترجم .

سمات مشتركة كثيرة مع الرأسمالية التي يمارسها الصينيون الذين يعيشون في الشتات في كل أرجاء العالم ، ولاسيما مع ما لعلاقات القرابة في دوائر الأعمال من دور حاسم ، ولكنها يدورها موبوءة بالفساد وبانتشار الطابع التجاري في المؤسسات - بما في ذلك المؤسسة العسكرية الموروثة من العهد الشيوعي . ومفاد الرأي التقليدي أن انهيار الشيوعية كان انتصارا «للغرب» ، ويرغم أن الاشتراكية الماركسية كانت أيديولوجية غريبة خالصة . وبنظرة تاريخية طويلة المدى ، فإن انقراض عقد الاشتراكية الماركسية في روسيا والصين يمثل هزيمة لجميع نماذج التحديث الغربية . وكان فشل التخطيط المركزي في الاتحاد السوفيتي ، وتفكيكه في الصين ، علامة على نهاية تجربة التحديث الذي يفرض عنوة ، والذي كان نموذجاً للحدثة هو المصنع الرأسمالي في القرن التاسع عشر .

وفي الجدلية الخالصة يرى الفجر الكاذب أن هناك أشياء كثيرة مشتركة بين الماركسية اللينينية والمنطق الاقتصادي للسوق الحرة على الرغم من أنهما يهدان نظامين اقتصاديين مختلفين . فكلاهما يتخذ موقفاً بروميثوسياً^(*) من الطبيعة ، ولا يبدى تعاطفاً يذكر مع ما يترتب على التقدم الاقتصادي من خسائر بشرية . وكلاهما شكل من أشكال مشروع التوير الرامي إلى الاستعاضة عن التنوع التاريخي للثقافات البشرية بحضارة عالمية واحدة . والسوق الحرة العالمية هي ذلك المشروع التويري في أحدث صورته - وربما آخرها .

إن مناقشات كثيرة من تلك الجارية اليوم تخلط بين العولمة ، وهي عملية تاريخية كانت جارية منذ عدة قرون ، والمشروع السياسي العابر الذي يرمي إلى إقامة سوق حرة على النطاق العالمي . وإذا فهمت العولمة على وجهها الصحيح ، فإنها تشير إلى الترابط المتزايد بين الحياة الاقتصادية والثقافية في أجزاء متباعدة من العالم . وهو اتجاه يمكن أن يرجع إلى امتداد قوة أوروبا إلى أجزاء أخرى العالم في السياسات الإمبريالية ابتداء من القرن السادس عشر فصاعداً .

والمحرك الرئيسي لهذه العملية اليوم هو الانتشار السريع للتكنولوجيات الجديدة للمعلومات التي تلغي المسافات . ويتصور المفكرون التقليديون أن العولمة تتجه إلى خلق حضارة عالمية عن طريق انتشار الممارسات والقيم الغربية ، ولاسيما الأنجلو سكسونية ، على نطاق العالم .

(*) بروميثوس : جبار أو مارد إغريقي قديم سرق النار من جبل أولمبس ليعطيها للبشر ، فوعقب بأن قيده سلسلة إلى صخرة أنقذه منها هركيوليس - المترجم .

والحقيقة أن تطور الاقتصاد العالمي كان في أغلب الأحيان في الاتجاه الآخر . فعولة اليوم تختلف عن الاقتصاد الدولي المفتوح الذى أقيم فى ظل الإمبريالية الأوروبية خلال العقود الأربعة أو الخمسة التى سبقت الحرب العالمية الأولى . وليست هناك فى السوق العالمية اليوم دولة غربية لديها ما كان لدى بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية من تفوق فى ذلك الوقت . بل إنه فى المدى الأطول يعمل انتشار التكنولوجيات الجديدة فى كل أنحاء العالم على تآكل القوة الغربية والقيم الغربية . وما انتشار تكنولوجيات الأسلحة النووية بحيث أصبحت فى متناول نظم مناهضة للغرب إلا عَرَضاً من أعراض اتجاه أوسع نطاقاً .

والأسواق التى شملتها العولمة لاتؤدى إلى امتداد السوق الحرة الأنجلو أمريكية إلى جميع أرجاء العالم ، وإنما هى تلقى فى التيه بجميع أنماط الرأسمالية - ومن بينها مختلف أنواع السوق الحرة . والأسواق العالمية الفوضوية تدمر الرأسماليات القديمة وتفرخ رأسمالية جديدة ، على حين تخضعها جميعاً لحالة متواصلة من عدم الاستقرار .

وفكرة التنوير المتعلقة بحضارة عالمية لم تبلغ من القوة فى أى مكان ما بلغته فى الولايات المتحدة ، حيث توحدت مع القبول العام بالقيم والمؤسسات الغربية - أى القيم والمؤسسات الأمريكية^(١) . والفكرة القائلة بأن الولايات المتحدة هى نموذج للعالم كانت سمة مميزة للحضارة الأمريكية . وخلال الثمانينيات كان باستطاعة اليمين انتقاء فكرة الرسالة القومية هذه ووضعها فى خدمة أيديولوجية السوق الحرة . واليوم لم يعد ممكناً التمييز فى الخطاب العام الأمريكى بين امتداد قوة الشركات الأمريكية إلى مختلف أرجاء العالم وفكرة قيام حضارة عالمية .

ومع ذلك فإن ما تدعيه الولايات المتحدة من أنها نموذج للعالم بأسره ليس مقبولاً لدى أى بلد آخر . فتكاليف النجاح الاقتصادى الأمريكى تشمل مستويات متعددة من الانقسام الاجتماعى - من الجريمة ، والإيداع فى السجون ، والتراعات العرقية والعنصرية ، وانهيار الأسرة والمجتمعات المحلية - وهى تكاليف لن تتحملها أى ثقافة أوروبية أو آسيوية .

والفكرة القائلة بأن الولايات المتحدة تقود كتلة تزداد اتساعاً من الأمم الغربية هى فكرة

(١) ليس كل مفكرى التنوير قد فهموا الحضارة العالمية على أنها مركزة على أوروبا . ومن أجل الاطلاع على مناقشة لهذه النقطة فيما يتعلق بمفكر التنوير النموذجى ، انظر كتابي ، *Voltaire and Enlightenment* ، لندن ، أوريون ، ١٩٩٨ .

نكاد أن تكون منافية تماماً للحقيقة . ففي الظروف الراهنة ، كَفَّ تعبير «الغرب» عن أن يكون له معنى محدد- إلا في داخل الولايات المتحدة ، إذ يعنى مقاومة ارتدادية لواقع التعددية الثقافية ، وهو الواقع غير القابل للتغيير .

والولايات المتحدة تزداد اختلافا عن المجتمعات «الغربية» الأخرى في كثير من سياساتها المحلية والخارجية ، إذ إنها بطرف انقساماتها وحدة التزامها بالأسواق الحرة تبدو مجتمعاً متفرداً . وعلى الرغم من أن أوروبا والولايات المتحدة مازالتا تجمع بينهما مصالح حيوية مشتركة ، فإنهما تتباعدان باستمرار في الثقافة والقيم . وفي نظرة إلى الماضي نجد أن فترة التعاون الوثيق التي امتدت من الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة مباشرة قد تبدو انحرفاً في علاقات الولايات المتحدة مع بريطانيا .

فالإطار التاريخي الأطول الذى تنظر فيه الحضارة الأمريكية إلى نفسها باعتبارها نسيجاً وحدها ، وأنه لا يجمعها مع العالم القديم سمات مشتركة كثيرة ، هو إطار عاد ليصبح هو النعمة السائدة . وفي مفارقة غريبة فإن الإيمان المتزايد من جانب المحافظين الجدد بأن الولايات المتحدة تمثل نموذجاً عالمياً يبدو وكأنه يعجل بالعملية التى تحمل الولايات المتحدة على الكف عن أن تكون بلداً أوروبياً «غربياً» .

والجدلية السادسة فى القجر الكاذب هى انصهار الطابع الاستثنائى للولايات المتحدة مع أيديولوجية السوق الحرة . فالسوق الحرة العالمية إنما هى مشروع أمريكى . وقد عاد هذا المشروع بالفائدة على الشركات الأمريكية فى بعض المجالات ، وذلك مع وصول الأسواق الحرة إلى اقتصادات كانت محمية حتى الآن . ولكن هذا لايعنى أن مذهب «دعه يعمل» على النطاق العالمى هو مجرد إضفاء عقلانية على مصالح الشركات الأمريكية .

إن السوق الحرة العالمية ليس فيها فائز فى المدى الطويل . وهى لم تعد تعمل لصالح الاقتصاد الأمريكى بأكثر مما تعمل لصالح أى اقتصاد آخر . والحقيقة أنه فى حالة حدوث اضطراب كبير فى الأسواق العالمية لن يكون الاقتصاد الأمريكى أقل عرضة لآثاره من الاقتصادات الأخرى .

ومذهب «دعه يعمل» على النطاق العالمى ليس مؤامرة حاكتها الشركات الأمريكية ، وإنما هو مأساة - واحدة من المأسى العديدة التى وقعت فى القرن العشرين - ارتطمت فيها أيديولوجية متفطرة باحتياجات بشرية دائمة أخفقت فى فهمها .

ومن بين الاحتياجات البشرية التى تتغافل عنها الأسواق الحرة الاحتياجات إلى

الأمن وإلى الهوية الاجتماعية ، وهى احتياجات جرت العادة على أن تلبها الهياكل المهنية للمجتمعات البورجوازية . وقد نشأ تناقض بين الشروط المسبقة لقيام حضارة بورجوازية سليمة ومتطلبات الرأسمالية العالية . وتلك هى الجدلية السابعة : الانعدام الزمن للأمن فى المرحلة المتأخرة من الرأسمالية الحديثة ، لاسيما فى أكثر صور السوق الحرة خشبا وقسوة ، الذى يدمر بعض المؤسسات والقيم المحورية للحياة البورجوازية .

وربما يكون أكثر ما يسترعى الانتباه بين هذه المؤسسات الاجتماعية هو مؤسسة الحياة الوظيفية أو العملية . ففى المجتمعات البورجوازية التقليدية لا يكون باستطاعة أغلب أفراد الطبقة الوسطى أن يتوقعوا بدرجة معقولة أن يمضوا حياتهم العملية فى مهنة واحدة . فالقليلون هم الذين يمكن أن يراودهم أمل كهذا . والأثر الأعمق لانعدام الأمن الاقتصادى ليس مضاعفة عدد الوظائف التى يشغلها كل منا فى فترة حياته العملية ، وإنما هو يجعل من نفس فكرة الحياة العملية فكرة غير واردة .

وفى حياة أغلبية العاملين ، فإن السجل الوظيفى العتيق ، الذى يكون للأقدمية المطلقة فيه أثرها فى الدورة العادية للحياة ، أصبح مجرد ذكرى . ونتيجة لذلك قلت كثيرا أهمية المقارنة المعتادة بين حياة الطبقة الوسطى وحياة الطبقة العاملة . فالانحياز إلى اتخاذ الطابع البورجوازى يتعكس الآن ، والشعب العامل يعاد إليه الطابع البروليتارى .

وبرغم أن نزح الطابع البورجوازى ربما يكون قد قطع أبعد أسواطه فى الولايات المتحدة ، فإن انعدام الأمن الاقتصادى أخذ فى الازدياد فى كل اقتصادات العالم تقريبا . وهذا فى جانب منه أثر ثانوى من آثار الأسواق الحرة العالمية ذات السلوكيات الشبيهة بقانون جريشام (القائل بأن النقود الرديئة تطرد النقود الجيدة من التعامل) ، وذلك بجعل الأنواع المسئولة اجتماعيا من الرأسمالية أقل قدرة على الاستمرار المطرد . فإمكانية تنقل رهوس الأموال والإنتاج على نطاق العالم إنما تطلق العنان «لسباق نحو القاع» ترغم فيه الاقتصادات الرأسمالية الأكثر إنسانية على إلغاء الضوابط وتخفيض الضرائب واعتمادات الرعاية الاجتماعية . وفى هذه المنافسة الجديدة أخذت كل أنواع الرأسمالية التى كانت تتنافس خلال فترة ما بعد الحرب تتحول وتغير بصورة مفاجئة وصارخة .

وتتناول الجدلية الثامنة فى الفجر الكاذب مسألة ماذا يمكن عمله ؟ فالولايات المتحدة لا تملك القوة المهيمنة اللازمة لجعل السوق الحرة العالمية حقيقة واقعة ، ولو لفترة قصيرة . ولكن لديها على وجه اليقين القدرة على الاعتراض على إصلاح الاقتصاد العالمى .

ومادامت الولايات المتحدة لاتزال مشدودة بإحكام إلى «توافق واشنطن» بشأن مبدأ «دعه يعمل» على النطاق العالمى ، فلا يمكن أن يكون هناك إصلاح للأسواق العالمية . كما أن اقتراحات ، من قبيل «ضريبة توين» - وهى ضريبة عالمية تفرض على عمليات المضاربة فى العملة ، وحملت اسم الاقتصادى الأمريكى الذى اقترحها - سوف تصبح حبرا على ورق .

وما لم يطبق الإصلاح فإن الاقتصاد العالمى سبتفت عندما يصبح من المتعذر احتمال ما يصيبه من خلل . ونتيجة للحروب التجارية سيصبح التعاون الدولى أكثر صعوبة ، وسيتمزق الاقتصاد العالمى إلى كتكتلات تنخر فى داخل كل منها صراعات من أجل الهيمنة الإقليمية .

إن «اللعبة الكبرى» التى كانت دول العالم تتصارع فيها طيلة قرن من الزمان من أجل السيطرة على النفط فى آسيا الوسطى ، ربما تتكرر فى القرن القادم . وعندما تكون الدول أطراف تنافس من أجل السيطرة على الموارد الطبيعية الشحيحة ، فإن تجنب النزاعات العسكرية سيكون أكثر صعوبة . وسوف تسعى النظم التسلطية الضعيفة إلى دعم موقفا بمغامرات عسكرية . وربما يصبح سلوبودان ميلوسوفيتش ، قائد الشيوعية الجديدة فيما تبقى من يوغوسلافيا ، قابلا لمطيا للديماجوجيين المتسلطين فى كثير من البلدان الأخرى .

وعندما ينهار مبدأ «دعه يعمل» على النطاق العالمى سيكون تفاقم الفوضى الدولية هو التوقع البشرى المرجح .

الكساد فى آسيا واقتصاد الفقاعة فى أمريكا ، أهمابداية النهاية لمبدأ ، دعه يعمل ، على النطاق العالمى ؟

كان التصور فى البلدان الغربية للأزمة الآسيوية أنها دليل على أن السوق الحرة هى النوع الوحيد من الرأسمالية الذى يمكن أن يظل على قيد الحياة فى اقتصاد عالمى . وقليلون هم الذين ينكرون أن الرأسماليات الآسيوية ربما تكون قد حققت مآثر غير عادية فى مراحل مبكرة من التطور الاقتصادى ، ولكن الجميع يتفقون تقريبا الآن على أن تلك الرأسماليات قد فات أوانها . والإجماع فى الغرب هو على أن مشكلات آسيا تعد دليلاً على أنه لا يوجد الآن بديل للرأسمالية الأنجلو أمريكية فى أى مكان من العالم .

والأمر المؤكد أنه منذ بضع سنوات فقط كان الكثيرون من هؤلاء المعلقين أنفسهم

شيدون بالرأسمالية الآسيوية بحسبانها نموذجاً يحسن بالبلدان الغربية أن تقتدى به . ولكنهم نسوا الآن تلك الفترة من الآراء الغربية . وسوف يكون انتصار السوق الحرة أمراً هائلاً ، وسرعان ما يتم نسيانه .

إننا على أعتاب إحدى لحظات الانقطاع التاريخي التي يجري فيها التخلي فجأة عن النماذج السائدة في السياسة والنظرية . وقد كان انتصار الأفكار الكينزية بعد الحرب العالمية الثانية لحظة من تلك اللحظات . ويبدو أن الكساد الآسيوي سيكون تأثيره على إيديولوجية السوق الحرة مماثلاً لتأثير «الكساد الكبير» والحرب العالمية الثانية على المعتقدات المالية والاقتصادية التي كانت سائدة في الثلاثينيات .

ولم يحدث عند أي منعطف في تاريخ الأزمة الآسيوية أن أدرك مدى خطورتها أحد من المراقبين أو صانعي السياسات الغربيين . والمرة تلو الأخرى أثبتت الأحداث خطأ المنظمات عبر الوطنية التي وضعت نفسها في خدمة المشروع الداعي إلى وجود سوق عالمية واحدة . لقد تمسكت هذه المنظمات في البداية بأن مشكلات شرقي آسيا كانت تكمن أساساً في مؤسساتها المالية ، وبأنه لن تكون لها عواقب اقتصادية خطيرة . وعندما لم يعد ممكناً التمسك بذلك التفسير ، زعموا أن آسيا كانت تعاني انكماشاً تفاقمه مشكلات هيكلية .

وذلك الرأي المنقح بدوره يقصر كثيراً عن تفسير حجم الأزمة . فبحلول النصف الثاني من عام ١٩٩٨ كانت البنوك الغربية تتنبأ بأن الناتج المحلي الإجمالي سينخفض خلال العام بحوالي ٢٠ في المائة في إندونيسيا ، وأكثر من ١١ في المائة في تايلاند ، وقرابة ٥ ، ٧ في المائة في كوريا الجنوبية .^(٢) وأفادت التقديرات بأن البطالة في إندونيسيا تتجاوز ٢٠ مليوناً ، وبأنه من المتوقع أن يكون نصف السكان على الأقل في حالة فقر بحلول نهاية العام .

وانخفاض النشاط الاقتصادي يمثل هذه الأحجام لايعنى عادة اقتراب الانكماش ، ولكن المألوف أكثر أن يكون مؤشراً على بداية الكساد .

وقد بدأ المختصون في تصور نطاق الركود الذي تتجمع نوره في آسيا ، ولكنهم مازالوا بعيدين عن فهم أسباب هذا الركود وآثاره بالنسبة للاقتصاد العالمي .

(٢) هذه الأرقام أوردها لارى إيليويت نقلاً عن «تقديرات دوسنر كلاينورت بنسون» ، وذلك في مقال له عنوانه "Fairytale turns to horror story" ، في جريدة جاردريان ، عدد الاثنين ، ٢٠ من يولييه عام ١٩٩٨ ، الصفحة ١٩ .

ويعد ركود الاقتصاد الآسيوى أول برهان تاريخى على أن تنفل رهوس الأموال على نطاق العالم بغير ضوابط، يمكن أن تكون له هواقب أشبه بالكارثة بالنسبة للاستقرار الاقتصادى . فرأس المال الطليق رحل بين عشية وضحاها عن الأسواق الآسيوية ، ولكن سوف ننتمر عقوداً أو أجيالاً آثار رحيله عن هذه الأسواق على الاقتصادات النوعية التى أصابها منها أسوأ الأضرار . كذلك ستدوم طويلا الندوب الاجتماعية والسياسية التى خلفتها الأزمات الاقتصادية الناتجة عن تحركات رأس المال القائمة على المضاربة .

إن تحركات العملات الآسيوية فى أواخر التسعينيات لن تُسجل فى التاريخ باعتبارها تقلبات مالية عابرة سرعان ماتم استيعاب آثارها ، بل سيعترف بها بأنها عناصر فاعلة مبكرة فى إحداث أزمة عالمية . ومن الأدلة على الأمية التاريخية للأفكار الغربية أنها تتوقع ضرورة حدوث تشجات واضطرابات فى شرقى آسيا على درجة من العنف لم تعرف منذ الثلاثينيات ، دون أن تعقبها تغييرات فى الحكومات ونظم الحكم شبيهة بتلك التى مرت بها أوروبا خلال سنوات ما بين الحربين . والنتيجة المرجحة للأزمة الاقتصادية فى آسيا هى فترة طويلة من عدم الاستقرار السياسى فى المنطقة . ومع تزايد سرعة الركود الاقتصادى فى آسيا ، وعودة الحياة إلى حركات القومية المعادية للغرب ، والتغيرات المفاجئة فى نظم الحكم ، واشتعال النزاعات العرقية القديمة من جديد ، وتجدد المحاولات لإقامة دكتاتوريات تسلطية ، سيحدث تحول شامل فى المشهد السياسى الآسيوى . وفى هذه التطورات جميعا لن يكون للأفكار الغربية عن الأسواق الحرة دور كبير ، إن كان لها دور أصلا .

إن الأزمة الآسيوية لا تبين أن الرأسمالية الأملجو أمريكية هى الآن النظام الاقتصادى القوى الوحيد - ولو لمجرد الاضطرابات التى تشهدها كل النماذج الأخرى . وهنا تفسير لا يقبله عقل ما لم يكن مصابا بالجهل بالتاريخ وباستمرار التعصب العنصرى الغربى . وما تبينه هذه الأزمة أن الرأسماليات القائمة جميعا هى فى حالة تقلب وتغير مستمرين .

واقتصادات آسيا هى على غرار كل الاقتصادات الأخرى اليوم : فهى فى تحول مفاجئ وسريع ، وليس فى وسع أحد أن يتنبأ بمواقب ذلك على التماسك الاجتماعى والاستقرار السياسى . واقتصادات الأسواق الحرة ليست بمعزل عن هذه التحولات أكثر من أى اقتصادات أخرى . والأزمة الآسيوية أبعد من أن تكون علامة على الانتصار العالمى للسوق والحرة ، وإنما هى مقدمة لفترة من الاضطراب الشامل للرأسمالية العالمية .

وذلك تطور ليس الرأي الحالي مهياً لمواجهته، لاسيما في الولايات المتحدة . فالنصيرات الأمريكية للآزمة الآسيوية تجسد بعض التناقضات المستلثة للنظر . وقد كان هناك ترحيب في الولايات المتحدة بالمصاعب الاقتصادية في شرقى آسيا باعتبار أنها دليل على أن الرأسمالية الآسيوية تمر بأزمة نهاية المطاف . ولو كان الأمر كذلك لكان تحولاً عالمياً ذا حجم هائل - وسيتم طويلاً . والاقتصادات الآسيوية تواجه مشكلات ضخمة ، تبدو أحياناً بغير حل ، ولكنها ليست في مرحلة انحذار تنتهى بقبولها للأسواق الحرة . فالرأسماليات الآسيوية تعبر عن أنماط من الحياة العائلية ، والهياكل الاجتماعية ، والتاريخ السياسية والدينية ، للبلدان الآسيوية . وهى ليست منظمات يمكن أن تتحول وفقاً لإرادة المؤسسات الضابطة عبر الوطنية ، وإنما هى إلى حد كبير مؤسسات اجتماعية وثقافية تعمل من وراء ستار وذات ممارسات بطنى عليها التاريخ المحلى والمعرفة التقليدية .

إن من عمت أبصارهم عن التاريخ ، الذين يشكلون سياسات صندوق النقد الدولى ، هم وحدهم الذين يتصورون أن البلدان الآسيوية ستتخلى عن ذلك التراث . وإذا ما اهتمدنا بالتاريخ فإننا يمكن أن نكون على يقين من أن الرأسماليات الآسيوية سوف تخرج من الأزمة الراهنة وقد تغيرت بصورة يتعذر التنبؤ بها ، ولكنها لن تعيد تشكيل أوضاعها وفقاً لى نموذج غربى . وحتى إذا ما تقاربت الرأسماليات الآسيوية مع رأسماليات «الغرب» ، فسيكون ذلك من خلال عملية مؤلمة من التغيير الثقافى والسياسى تمتد عبر عدة أجيال .

وإلى وقت قريب كان الرأى الأمريكى على ثقة من أن الأمور تسير على عهدها طيلة هذا التحول الصاخب الطويل الأجل . وكان يتوقع أن يكون تأثير الانهيار الاقتصادى الآسيوى على الولايات المتحدة طفيفاً ، أو حتى إيجابياً . وفى الوقت نفسه كان صانعو السياسة الأمريكىون يدركون أنه فى ظل أسواق معولة ، لابد أن يكون للتغيرات الكبيرة فى أى مكان تأثير على الحياة الاقتصادية فى كل مكان ، بل كانوا فى الحقيقة يتمسكون بذلك .

وكانت هذه السيناريوهات السيئة التوقع تجسيدا لنظرة غير مستقرة إلى العالم . فالولايات المتحدة كانت تعتقد أنها قاطرة العولة ، وفى الوقت نفسه كانت تتخيل أنها بشكل ما بنأى عن الاضطرابات الناجمة عن العولة . كما عجزت عن إدراك أنه عندما تصبح الرأسمالية عالمية ، فإن ما يلازمها من عدم استقرار من المحتم أن يصبح بدوره عالمياً .

إن الأنبياء الأمريكيين ، المبشرين «بالتنمؤذج الجديد» ، عندما نظروا إلى الماضي ، أدركوا أن الرأسمالية هي بالضرورة هدامة وبناءة في آن واحد . فهي قد حققت إنتاجيتها التي لا نظير لها عن طريق تدمير صناعات قائمة ، وإسقاط أشكال مستقرة من الحياة الاجتماعية . وعندما نظروا إلى الحاضر والمستقبل حرصوا على تجاهل هذه الحقائق غير المريحة لهم . وكانوا يتوقعون أن تتحقق الإنتاجية غير العادية للرأسمالية - أو على الأقل يعدون بأن تتحقق - بدون أي من الآلام والفوضى التي صاحبها دائما .

وهذا التناظر المعروف بين ما كان الرأي الأمريكي يتوقعه ، وما يسجله التاريخ ، أدى إلى شعور غير واقعي بالثقة يمكن أن يدمره أي مظهر من مظاهر الضعف الاقتصادي الأمريكي .

ولم يكن ما شهدته سوق الأوراق المالية الأمريكية من ازدهار ناتجا فقط ، أو حتى أساسا ، عن إعادة الهيكلة الاقتصادية . ولاشك في أن الفتوحات الأمريكية في مجال تكنولوجيا المعلومات قد أتاحت للاقتصاد ميزة تنافسية كبيرة . كما أن التصغير الشديد لحجم المنشآت ، وتكرار هيكله الشركات ، في أوائل التسعينيات ، قد زودا دوائر الأعمال الأمريكية بميزات ملموسة في التكاليف . وإلى هذا المدى كان الازدهار الأمريكي يعكس مكاسب حقيقية في الكفاءة الاقتصادية .

وقد كان للتقديرات الشديدة الارتفاع لقيم الأوراق المالية في وول ستريت عاملا مساندا آخر ، إذ كانت انعكاسا لثقة الأمريكيين في أن بلدهم حقق نصرا جيواستراتيجيا تاريخيا . كما أن أمريكيين كثيرين رأوا في انهيار الشيوعية ، والضعف الاقتصادي البادي في أوروبا ، والتحلل الاقتصادي في آسيا - وهي التحولات السريعة التي جرت في غضون أقل من عقد واحد - تأكيدا نهائيا «للعقيدة الأمريكية» .

وبحلول أواخر التسعينيات كان الرأي في الولايات المتحدة على ثقة من أن القيم الأمريكية تنتشر عبر العالم بسرعة - وبصورة لا انعكاس لها . كما أن الفكرة الوهمية القائلة بأن الدورات الاقتصادية أصبحت من أمور الماضي باتت معتقدا تقليديا . أما احتمال «عودة التاريخ» التي كان المراقبون الأوروبيون والآسيويون يعتبرونها أمرا مؤكدا ، فإن الأمريكيين إما لم يدخلوها في اهتماماتهم ، وإما أنهم أسقطوها من اعتبارهم . وأصبح الازدهار الأمريكي الطويل الأجل فقاعة محفوفة بالآخطار زادها تضخما شعور ضحل وعابر بالثفوق الوطني .

وتلك الفقاعة كان يمكن أن تنقب في أى وقت . وكانت تعتمد جزئياً على افتراضات بشأن الهيمنة العسكرية الأمريكية دحضتها بالفعل أحداث آسيا . كما أن سباق التسلح النووي الدائر في شبه القارة الهندية يشكل في حد ذاته تهديداً مباشراً للأمن الأمريكي ؛ ولكن التنافس النووي بين الهند وباكستان قوّض الجهود الدولية التي تجرى بقيادة الولايات المتحدة لكبح جماح الانتشار النووي ، وبالتالي أصبح العالم أكثر عرضة للأخطار .

ولا يمكن أن يكون هناك شك في أن الولايات المتحدة قد استخدمت كل ما هو متاح من وسائل التأثير لتفادي اشتعال سباق تسلح نووي في جنوبي آسيا . كذلك لا يوجد شك كبير في أنها قد أصيبت بالإخفاق . فهي في سعيها لوقف انتشار الأسلحة النووية أرغمت على أن تواجه حقيقة غير مستساغة : وهي أن العولمة ليست دعماً لقوة أمريكا ، بل هي أقرب إلى النيل منها . إن الولايات المتحدة مازالت الدولة العسكرية الأولى في العالم ، ولكن ليست لديها سيطرة تذكر على التكنولوجيات التي تعتمد عليها الآن الكفاءة العسكرية .

كما أن القوة الاقتصادية الأمريكية محدودة بالمثل . فلو أن الصين قامت بتخفيض عملتها تخفيضاً تنافسياً ، لكانت تلك الخطوة كارثة على شرقي آسيا ، ونكسة كبرى للولايات المتحدة ؛ إذ من شأنها تعميق الانكماش في المنطقة ، وإثارة رد فعل حمائي في الكونغرس الأمريكي . ومن المؤكد أن ذلك سيكون له وقع الصدمة على «وول ستريت» . وهناك اهتمام أمريكي طاغ بتجنب تطور من هذا القبيل . ولكن ليس لدى الولايات المتحدة الشيء الكثير الذي تستطيع أن تفعله لتفاديه .

وتلقى الصين في بعض الأحيان ثناءً من الحكومات الغربية باعتبارها ملاذاً للاستقرار في الأزمة الآسيوية . ويقدر ما كان ذلك صحيحاً ، فقد كان لأن الصين ظلت إلى حد ما خارج السوق الحرة العالمية . إذ احتفظت الصين بقدر كبير من السيطرة على اقتصادها . كما أن الحكومات الغربية التي تنسى على الصين أغفلت أن استقرارها النسبي إنما هو نتاج ثانوي لماتكنه للأراء والمشورات الغربية من ازدهار ثابت متين الأساس .

كما أن سياسات الصين الاقتصادية تحدد في الأساس بالعوامل السياسية الداخلية . وليس هناك إغراء تستطيع الحكومة الأمريكية تقديمه لحكام الصين ، ويكون أقوى أثراً من الخطر الذي يتعرضون له نتيجة لتصاعد البطالة . فالصين تمر اليوم بأكبر وأسرع تحرك في التاريخ من الريف إلى المدينة . والعاطلون يتجاوزون بالفعل مائة مليون فرد - وذلك رقم

يجب بغير شك أن يعاد النظر فيه بالزيادة بسبب التوسع في سياسة السماح للعديد من المؤسسات المملوكة للدولة بإعلان الإفلاس . وتقوم الإستراتيجية التي تتبعها حكومة الصين على إعادة استخدام بعض هؤلاء العمال في صناعات التصدير . وثمة علامات منذرة بسوء على أن الانكماش قد أمسك بخناق بعض قطاعات الاقتصاد الصيني . وفي هذه الظروف تكون الحيلولة دون حدوث ارتفاع آخر في البطالة ضرورة حتمية طاغية من أجل البقاء السياسي .

والرأى العام الغربي على ثقة من أن النظام الحالي في الصين سينجو من الانكماش الاقتصادي في آسيا دون مصاعب جدية . ولكن من المشكوك فيه أن يشاطر حكام الصين هذا الرأي . فقد شهدوا في روسيا تحلل نظام شمولى كان يبدو شديد الرسوخ ، كما راقبوا في إندونيسيا نظاما استبداديا قوى الحصون يطاح به في غضون بضعة شهور بسبب الأزمة الاقتصادية . ولا يمكن أن تكون لديهم أوهام تذكر بأن الشيء نفسه لن يحدث في الصين .

وحكام الصين لديهم إدراك قوى للتاريخ ، على خلاف غالبية الحكومات الغربية . ولا بد أنهم يعرفون أنهم إذا اجتازوا الكساد الذى أطبق على جيرانهم ، فسيكون ذلك أعظم المآثر السيامية التي سجلها فن إدارة شؤون الحكم في التاريخ . وسوف يستخدمون كل وسيلة ممكنة لبقاء في السلطة . ويعد التنافس على تخفيض العملة إحدى الإستراتيجيات البائسة العديدة التي ستلجأ إليها الحكومة عندما تزداد الأوضاع الاقتصادية سوءاً ، ويتصاعد القلق الاجتماعى والسياسى . ومن المنطقى أن تتوقع أحداثاً أخرى شبيهة بما حدث في ميدان السلام السماوى (تيان أن مين) .

والتخفيض الحلزونى (*) فى قيمة العملات فى شرقى آسيا هو مجرد حدث واحد من عدة أحداث يمكن أن تشعل فتيل أزمة متظمة فى الاقتصاد العالمى . كما أن انهيار الروبل الروسى فى أعقاب تخفيض قيمته فى أغسطس عام ١٩٩٨ يمكن أن يكن له الأثر نفسه . والأرجح أن تكون نتيجة انهيار ثان فى الاقتصاد الروسى تغيراً آخر فى النظام ،

(*) Spiral Devaluation : أو ما يسمى أيضا الحلزون التضخمى (Inflationary Spiral) ، وهو تعبير يستخدم لوصف تضخم مستمر يسبب فيه ارتفاع فى أسعار العملات مطالب بزيادة الأجور ترتب على الاستجابة لها زيادات فى تكاليف الإنتاج ، ومن ثم زيادات أخرى فى الأسعار من خلال زيادات فى الأجور تدفع إلى مزيد من ارتفاع الأسعار ، وهكذا دواليك ، بحيث تتعذر السيطرة على الوضع برتمته المترجم .

وليس مجرد تغيير فى الحكومة . وتغير كهذا فى النظام سيكون تأثيره عميقاً على «الغرب» الذى نظر إلى التحرك نحو الديمقراطية فى روسيا على أنه عملية لارجعة فيها . إن الحكومات الغربية ، غير المهياة لعودة الاستبداد الروسى إلى الحياة ، وهو ترجيح وارد الآن ، من المحتمل أن تنظر إلى تطوّر من هذا القبيل على أنه خطر على النظام الدولى . وبالمثل فإن أى نظام روسى جديد ، سيكون من الأرجح أن يستغل المحاولات المتخطة من جانب الحكومات الغربية والمنظمات عبر الوطنية لإقامة الرأسمالية فى روسيا من أجل إشعال المشاعر المعادية للغرب . ومن بين العواقب التى لا تحصى لحدوث تغيير فى النظام فى روسيا اليقين من أن التعاون الاقتصادى الدولى سيكون أصعب حتى عما كان فى الماضى .

إن الانهيار الاقتصادى ، وحدث تغيير فى النظام فى روسيا ، والمزيد من الانكماش وضعف النظام المالى فى اليابان مما يجعل من الضرورى إعادة تحويل الحيازات اليابانية من السندات الحكومية الأمريكية إلى اليابان ؛ وحدث أزمة مالية فى البرازيل والأرجنتين ؛ وانهيار للبورصة فى وول ستريت - أحد هذه الأحداث أو كلها معاً ، فضلاً عن أحداث أخرى يصعب التنبؤ بها ، يمكن فى الظروف الراهنة أن تكون بمثابة الفتيل الذى يشعل اضطراباً اقتصادياً عالمياً . وإذ وقع أى من هذه الأحداث ، فتكون فى مقدمة عواقبه زيادة سريعة فى المشاعر الحمائية فى الولايات المتحدة ، بدءاً من الكونغرس .

والأمريكيون العاديون ليسوا مهيين لتحمل نكسة اقتصادية تستمر وقتاً طويلاً . كما أن تفكيك الرعاية الاجتماعية الفيدرالية يجعل من المتعذر تحمل البطالة المتصاعدة . وإذا فقد أكثر من مائة مليون من المشاركين فى صناديق الاستثمار المشتركة نسبة كبيرة من أصولهم فى طوفان يجتاح السوق ، فسيكون من الصعب مقاومة التأيد الشعبى للتوجه نحو الحمائية .

ومن الأمور المألوفة فى التاريخ الاقتصادى أن البلدان التى لا توجد بها نظم للرعاية الاجتماعية هى التى يرجح أكثر من غيرها أن تلتجأ إلى الحمائية عندما يتجه الاقتصاد الدولى إلى التراجع . وهذا نمط تاريخى سيتكرر بالتأكيد إذا ازداد الركود الأسوى عمقا .

وفى الوقت الحالى تمضى أحداث المديونية الشخصية والإنفلاس فى الولايات المتحدة عند مستويات تاريخية . وبالنسبة لكثيرين من الأمريكيين أصبح الاستهلاك الحالى متوقفاً ليس فقط على بقاء أسواق الأوراق المالية مرتفعة ، بل على استمرارها فى الارتفاع .

وعندما تنخفض هذه الأسواق، فإنهم سيُشعرون بأنهم أشد فقراً بكثير، وسيكونون كذلك. وسيكون من الضروري أن يضاف إلى السيكلوجية الدائمة للمضاربة على نطاق واسع عنصر حاسم، وهو الشعور بالانتصار الجيوسياسي. وفي مثل هذا المناخ المحوم يكون الهبوط السلس قريبا من المستحيل. فالغرور القومي لايجرى تصحيحه بنسبة عشرين في المائة.

وإذا حدث هبوط في سوق الأوراق المالية في الولايات المتحدة على نطاق يمانل ماحدث في اليابان في أواخر الثمانينات - حيث انخفضت السوق بأكثر من الثلثين - فإن قطاعات من الطبقة الوسطى الأمريكية ستتعرض للمفقر. أضف إلى ذلك أن الاختفاء المفاجئ لكميات كبيرة من الثروة التي ولدتها سوق الأوراق المالية يمكن أن يكشف بأوضح صورة عما تعرض له الطبقة الوسطى من انعدام الأمن. وسيكون تأثير الانهيار المالي على من هم فقراء بالفعل أشد وقعا. وليس من الخيال عودة ظهور فئات شبيهة بالأمريكيين الفقراء الذين يهيمون على وجوههم ويدبرون قوتهم يوما بيوم، والذين صورهم جون شتاينبك في رواياته في الثلاثينات.

ولايمكن لأحد أن يعرف الآثار السياسية التي يمكن أن تترتب على حدوث نكسة كبيرة في الاقتصاد الأمريكي. ولكننا نعرف أن الالتزام الأمريكي بالأسواق الحرة لن يدوم طويلا. فهو لا يعدو أن يكون شلواذا في التاريخ الأطول للولايات المتحدة، الذي كانت الحماية خلاله تعود المرة بعد الأخرى.

وقد يكون من الخطأ تفسير التوافق السياسي ذي الطابع المحافظ الجديد، الذي نشأ في العقدين الأخيرة، على أنه تعبير عن معتقدات مستقرة لدى الجمهور الأمريكي. فالصعود السريع للترزعة الجمهورية اليمينية الراديكالية، بل وسقوطها الأسرع في أوائل التسعينات^(*)، يبين مدى تقلب الناخبين الأمريكيين، وكذلك مدى نضجهم.

وإذا حدثت نكسة اقتصادية، حادة أو عميقة أو طويلة الأمد، فستؤدي إلى تحطيم قبضة دعاة السوق الحرة على الحياة السياسية الأمريكية. وإذا حدث أن حلت محلهم بصورة مفاجئة النزعة القومية الاقتصادية الأمريكية، فإن ذلك يمكن أن يكون تحولا

(*) الإشارة هناك إلى تولي الحزب الجمهوري مقاليد السلطة لثلاث فترات رئاسية متتالية، الفترتان الأولى والثانية في عهد رونالد ريجان (١٩٨٠-١٩٨٨)، والفترة الثالثة في عهد جورج بوش (١٩٨٨-١٩٩٢)، وانتهاء هذه الفترات بسقوط بوش المدوي في انتخابات عام ١٩٩٢، وانتقال مقاليد السلطة إلى الحزب الديمقراطي برئاسة بيل كلينتون - المترجم.

للأحداث مشيراً للسخرية ، بالنظر إلى ما كان صناعو السياسة الأمريكية يبدونه في السنوات الأخيرة من تقان مسيحي في الأسواق الحرة العالمية .^(٣)

وليس بين أغراضى أن أقدم وصفة للكيفية التى ينبغى بها إصلاح الاقتصاد الأمريكى . وحتى لو كنت مؤهلاً لأن أفعل ذلك ، فإن تلك مهمة تقع على عاتق الأمريكين . والحجة التى يقوم عليها الفجر الكاذب هى أنه لا يوجد غمط واحد من الرأسمالية موضع ترحيب على نطاق العالم ؛ وإنما ينبغى أن تكون لكل ثقافة الحرة فى تطوير نوع خاص بها ، وفى أن تسمى إلى العيش بطريقة تتوافق مع الأنواع التى طورتها الثقافات الأخرى .

وسيكون من الخطأ أن تحاول الولايات المتحدة محاكاة الممارسات الفريدة للرأسمالية الأوروبية أو الآسيوية - بقدر ما هو من الخطأ أن تحاول فرض ممارساتها على الرأسمالية فى أى مكان . فالإصلاح الاقتصادى يجب أن يهتدى بالقيم الثقافية التابعة من كل بلد . وفى حالة الولايات المتحدة فإن هذه القيم لها فى الوقت الحالى طابع أكثر فردية من طابع القيم فى المجتمعات الأوروبية والآسيوية . وليس بين مضامين حجتي أنه يتعين على الأمريكين السعى إلى استيراد ممارسات اقتصادية قُدر لها أن تنجح فى ثقافات مختلفة اختلافاً جذرياً .

وقد لا تكون المهمة الملحة فى الولايات المتحدة هى ابتكار بدائل للأسواق الحرة ، بل جعلها أكثر مؤالفة للحاجات البشرية الحيوية . (من المقارقات أنه من المرجح أن يكون من البنود المدرجة على أى جدول أعمال للإصلاح فى الولايات المتحدة امتداد السوق الحرة إلى مجال محظور فيها حالياً - ألا وهو اقتصاد المخدرات السرى الضخم) . ومن المؤكد أن حدوث ركود حاد فى السوق سيؤدى إلى طفرة فى المشاعر القومية الاقتصادية فى الولايات المتحدة تجعل الإصلاح الاقتصادى من النوع الهادئ والمحدود المطلوب أمراً متعذراً .

وفى أواخر عام ١٩٩٧ ، قبل صدور الطبعة الأولى من الفجر الكاذب ، كتبت أقول إنه «عندما يتباهى المتعاملون مع السوق الحرة الغربية بالمصاعب الاقتصادية التى تواجهها البلدان الآسيوية ، فإنهم يكشفون - وليس لأول مرة - عن قصر نظر وغطرسة قومية .

(٣) للإلمام بتحليل مضمون لسياسات انعدام الأمن فى الولايات المتحدة ، انظر ريتشارد . لوجويرث ، Gfo - bal Squeeze : The Coming Crisis for First World Nations ، شيكاغو ، كونتمبورارى بوكس ، ١٩٩٨ ، الفصل الرابع .

ولاريب فى أن بعض الاقتصادات الآسيوية تحتاج إلى إصلاحات بعيدة الأثر . ولكن الأزمة المالية فى آسيا لانتبه باحتمال انتشار الأسواق الحرة على نطاق العالم . وبدلا من ذلك فهى قد تكون مقدمة لأزمة انكماشية عالمية ، تتراجع فى غضون الولايات المتحدة نفسها عن نظام التجارة الحرة والأسواق المتحررة من الضوابط الذى تسعى حاليا إلى فرضه فى آسيا وفى كل أنحاء العالم^(٤) . وذلك تكهن لا أرى سببا يدعونى إلى العدول عنه .

هل تستطيع اليابان الحفاظ على ثقافتها الاقتصادية المتميزة ؟

اليابان هى الدولة الاقتصادية العظمى الوحيدة فى آسيا ، وسوف تحتفظ بهذا الوضع فى المستقبل المنظور . وهى باعتبارها أول بلد آسيوى يفتح ميدان الصناعة ، وأكبر دائن فى العالم ، تتمتع بميزات لا يتمتع بها أى اقتصاد آسيوى آخر . كما أنها بمستوياتها التعليمية العالية ، واحتياطياتها الهائلة من رأس المال ، مهياة لاتصاا القرن المقبل المعتمد على المعرفة ربما بدرجة أفضل من اقتصاد أى بلد غربى . ومع ذلك فهى تواجه أزمة مالية واقتصادية أصبح معها نفس وجود ثقافة اقتصادية يابانية متميزة فى مهب الريح .

ومن غير إيجاد حل لمشكلة اليابان الاقتصادية فلن يكون هناك مفر من أن تزداد الأزمة الآسيوية سوءاً . وفى تلك الحالة ، فإن الاقتصاد العالمى يواجه خطر السير على درب اليابان نحو الانكماش والركود . وتواجه اليابان فى الوقت الحالى انخفاضا فى أسعار الأصول وتقلصا فى النشاط على النطاق الذى واجهته الولايات المتحدة والبلدان الأخرى فى الثلاثينيات . وما لم يتم التخلص من الانكماش فى اليابان فستكون الاحتمالات ضئيلة فى أن تنجو منه بقية آسيا وبلدان العالم جميعا .

والصفات الغربية التى تقدم لحل مشكلات اليابان الاقتصادية تمثل خليطا متنافراً . فاليوم ، مثلما كانت الحال فى الماضى ، تمسك المنظمات عبر الوطنية بأن تميد اليابان هيكله مؤسساتها المالية والاقتصادية وفقا للنماذج الغربية - وبعبارة أكثر دقة وفقا للنماذج الأمريكية - أى أن الحل لمشكلة اليابان الاقتصادية هو أمركتها بالجملة . وبالنسبة لها فإن اليابان لن تتغلب على مشكلاتها الاقتصادية إلا شريطة الكف عن أن تكون يابانية . وهى فى بعض الأحيان تقول ذلك صراحة . وكما قال كاتب فى مجلة أمريكية تنطق باسم

(٤) "Forget Tigers, Keep an eye on China" ، فى جريدة جارديان ، ١٧ من ديسمبر عام ١٩٩٧ ،

المحافظين الجدد ، فإن «على أمريكا أن تدفع صندوق النقد الدولي لأن يكرر المهمة التي قام بها القبطان پيرى»^(٥) .

وسياسة كهذه ترمى إلى فرض التفرغ ، لن تقتصر نتائجها على إطفاء جذوة ثقافة فريدة ولا تغنى عنها ثقافة أخرى ، بل ستؤدى إلى تدمير التماسك الاجتماعى الذى صعب الإنجاز الاقتصادى غير العادى فى اليابان على امتداد نصف القرن الماضى - دون أن توفر حلاً للمشكلة الاقتصادية التى تواجهها اليابان حالياً .

فالحكومات الغربية تطالب اليابان - وحدها ، فيما يبدو ، دون سائر الاقتصادات الصناعية المتقدمة - بأن تتبع سياسات كينزية . والتوافق الغربى هو أنه يجب على اليابان أن : تخفض الضرائب ، وتوسع فى الأشغال العامة ، وتعمل بمعجز كبير فى الميزانية . وفى الوقت نفسه تطالب المنظمات الغربية عبر الوطنية اليابان بأن تقوم بتفكيك سوق الأيدى العاملة التى كانت تضمن عمالة كاملة على امتداد السنوات الخمسين الماضية . وإذا ما استجابت اليابان لهذه المطالب ، فلن تكون النتيجة غير استيرادها لما تواجهه المجتمعات الغربية من معضلات لا حل لها ، دون حل لأي مشكلة من المشكلات التى تواجهها .

كما أن السياسات الكينزية من الأنواع التى تضغط البلدان الغربية حالياً على اليابان لتطبيقها ، لن تكون فعالة فى منع حدوث مزيد من الانكماش . ففى المقام الأول لا تأخذ هذه السياسات فى اعتبارها الميل الثقافى لدى اليابانيين لزيادة مدخراتهم فى أوقات عدم اليقين . وفى الظروف الحالية فإن الأموال التى تنحرر نتيجة لمزيد من الاقتطاعات الضريبية لن توجه للاستهلاك ، بل ستضاف ببساطة إلى المدخرات الحالية . وقد أدى انتشار عدم اليقين بشأن الاقتصاد إلى تضخم المدخرات فى اليابان بما يفوق كثيراً مستوياتها المعتادة . وحتى إذا كان يعتقد أن تخفيضات الضرائب ستكون دائمة ، فلن يكون لها من أثر غير معدل أعلى للدخار .

وإذا ما استثمر الدخل الناتج عن تخفيضات الضرائب فى اليابان استثماراً منتجاً ، فالأرجح أن يكون ذلك فى الخارج . كذلك فإن التمويل بالمعجز لن يكون له الأثر المطلوب على الاقتصاد . وعندما تكون رهوس الأموال قادرة على التنقل فى كل أرجاء العالم ، فلن يكون هناك ما يضمن أن يكون لمزيد من الاقتراض العام أثر على تعزيز النشاط الاقتصادى

(٥) سباستيان مالين ، "An Asia's Mirror : From Commodore Perry to the IMF" ، فى مجلة ذى ناشونال انترست ، العدد ٥٢ ، صيف عام ١٩٩٨ ، الصفحة ٢١ .

المحلى . فكثير يعترف بأن سياسات التمويل بالعجز لا تكون فعالة إلا إذا طبقت فى اقتصادات مغلقة . أما عندما تكون تقلبات رأس المال حرة ، فإن فعالية سياسات كهذه تكون محدودة . ونتيجة لذلك ، فإن اليابان تجد نفسها فى فح السيلة الذى لا تستطيع السياسات الكينزية تخليصها منه . ويبدو أن الحكومات الغربية لم تلاحظ أن حرية تنقل رؤوس الأموال والتحرر من الضوابط ، وهما الأمران اللذان كانت تضغط فى إصرار منذ عشرات السنين من أجل فرضهما على اليابان ، إنما يلغيان تأثير السياسات الكينزية التى تسعى الآن إلى إجبار اليابان على تنفيذها .

وإذا ما وافقت اليابان على المطالب الغربية بأن تكون سوق الأيدى العاملة متحررة من الضوابط ، فإن الأمور ستزداد سوءاً . وإذا ما طبقت سياسة تحرير سوق الأيدى العاملة من الضوابط بصورة مطردة فى اليابان وفقاً لأمى نموذج غريى - لاسيما نموذج الولايات المتحدة - فستؤدى تلك السياسة إلى زيادة البطالة إلى مثلى مستواها الحالى ، وربما إلى ثلاثة أمثاله . وذلك بطبيعة الحال هو الأثر الذى يُقصد أن تفعله . ولكن ستكون نتيجتها تقوية إحساس العاملين بعدم الأمان ، وتعزيز ميل اليابانيين إلى الادخار . وهى بهذه الطريقة تجهبز المرتضى من التخفيضات الضريبية ، وهو تنشيط الإنفاق .

وربما تكون الطريقة الوحيدة التى تستطيع بها الحكومة اليابانية تنشيط الإنفاق ، هى هندسة تضخم يجعل الادخار عملاً غير مربح . ولكن استجابة المدخرين للتضخم فى البلدان الأخرى كانت مزيداً من الادخار - حتى عندما يفقدون بعض المال . وليس من الواضح لماذا ينبغى أن يكون سلوك المدخرين اليابانيين على هذا القدر من الاختلاف . وعلى أى حال فإن النتيجة المحتومة لسياسة كهذه ستكون انهياراً للين . ونظراً لأن إجراء من هذا القبيل سيثير استجابةً مماثلة من جانب البلدان الآسيوية الأخرى ، وبخاصة الصين ، فإن خشية الحكومات الغربية من هذه النتيجة هى من الناحية الفعلية أكثر من خشيتها من أى نتيجة أخرى .

ولم يدرك صانعو السياسة الغربيون أن المرونة التى يسعون إلى فرضها على سوق الأيدى العاملة فى اليابان ، إنما تتعارض مع السياسات الكينزية التى يسعون إلى إرغام حكومتها على تنفيذها . كما يبدو أنهم لم يعوا أن السياسات التى يرجح أن تكون أشد فعالية فى تنشيط الطلب فى اليابان ستحقق ذلك على حساب إشعال فتيل تخفيض تنافس أسعار العملات فى آسيا ، وبالتالي تشجيع الاتجاهات الحمائية فى الولايات المتحدة وأوروبا .

إن الزيادة في البطالة التي ترمى سياسة تحرير سوق الأيدي العاملة من الضوابط إلى إحداثها، يمكن حتى أن تكون آثارها الاجتماعية في اليابان أشد تميزاً منها في البلدان الغربية . فهي تحدث في بلد لم تقم فيه دولة رفاهة . وتبين خبرة البلدان الغربية أن ذلك لا يمكن أن يحدث بين عشية وضحاها .

وإذا استوردت اليابان المستويات الغربية للبطالة الواسعة النطاق ، فستكون مرغمة في نهاية المطاف على إقامة دولة رفاهة ذات طراز غربي . ومع ذلك فإن الحكومات الغربية تجري عملية تقليص لدولة الرفاهة على أساس أن هذه الدولة خلقت طبقة دنيا مناهضة للمجتمع القائم . وهكذا مرة أخرى نجد اليابان مطالبة باستيراد مشكلات لم يتمكن أي مجتمع غربي من حلها .

وسواء أقامت اليابان ، أو لم تُقم ، دولة رفاهة على الطراز الغربي ، فلن يشترتب على تصاعد البطالة غير زيادة كبيرة في التفاوت الاقتصادي . وعن طريق إصرار المنظمات عبر الوطنية على أن تتخلى اليابان عن سياسة العمالة الكاملة ، فإنها تطالبها بأن تتخلى عن نوع الرأسمالية المتسم بقدر أكبر من المساواة ، وهو النوع الذي حافظ حتى الآن على السلم الاجتماعي في البلد .

والرأسمالية اليابانية ، على خلاف الأنواع الأخرى التي تهمين عليها مصالح حملة الأسهم ، إنما تستمد مشروعيتها الاجتماعية والسياسية من فرص العمل التي تولدها . كما أن بعض السياسات التي نفذتها الحكومة اليابانية تحت الضغط المتواصل من جانب المنظمات المتعددة الجنسية ذات التوجه الغربي كان يمكن أن تجعل هذا النمط الرأسمالي الياباني المتميز غير قادر على الاستمرار .

وقد كانت «الفرقة الكبرى»^(*) التي حدثت في اليابان في عام ١٩٩٨ ، والتي تم فيها تحرير مؤسساتها المالية من الضوابط ، خطوة مهلكة لها . فالتحرر من الضوابط المالية لا يتماشى مع الحفاظ على الرأسمالية اليابانية المعتمدة على العمالة . وعندما تجرى البنوك الأجنبية تقييماً لأداء الشركات اليابانية ، فإنها ستستخدم معايير مستمدة من القيمة المتحققة لحملة الأسهم ، وليس من الهموم اليابانية فيما يتعلق بالإبقاء على فرص العمل . وفي المشروعات المشتركة التي تضم منشآت يابانية وغربية ، سيكون هناك ضغط ذو اتجاه واحد

(*) "Big Bang" ، هنا التعبير مأخوذ من نظرية في علم الفلك (Big Bang Theory) تقول إن الكون نشأ منذ بلايين السنين في انفجار هائل من نقطة واحدة وبطاقة جبارة غير محدودة - المترجم .

لتطبيق المعايير الأنجلو أمريكية للنجاح والإنتاجية . وبمرور الوقت إذا مضى التحرر من الضوابط المالية وفقاً لخطة ، فإن الشبكات المترابطة من البنوك والشركات التي تملك بالعمالة الكاملة في اليابان سوف تنفك .

وينبغي أن يكون الأثر الطويل الأمد لهذه الضغوط هو استيراد اليابان لبطالة من النوع الغربي . وسيكون معنى تطور كهذا نهاية العقد الاجتماعي غير المكتوب الذي كان باستطاعته احتواء النزاعات الاجتماعية والصناعية منذ الخمسينيات . وما لم يتم تجديد ذلك العقد في صورة جديدة وقابلة للاستمرار ، فإن التماسك الفريد الذي يتميز به المجتمع الياباني سيأخذ في التمزق . ويمكن عندئذ أن تتبع اليابان نفس الخطى التي انتهت بالبلدان الآسيوية الأخرى إلى عدم الاستقرار السياسي . وعند تلك النقطة ، مهما بدت بعيدة في الوقت الحالي ، لا يمكن أن يستبعد حدوث تحول جذري مفاجئ نحو التمسك بالمصالح الوطنية .

وأى حل للمشكلة الاقتصادية في اليابان يجب أن يكون إصلاحاً بالثقافة الاقتصادية النابعة من ظروفها ، وليس محاولة لتفكيكها . والحلل المحقق في الوصفات الغربية للاقتصاد الياباني هو افتراضها أن اليابان بلد غربي ، أو أنها ستصبح كذلك إن أجلا أو عاجلاً . وليس في تاريخ اليابان ما يؤيد هذا التوقع . وقد شهد تاريخ اليابان حالات عديدة للتغيرات المفاجئة في السياسة القومية ، ولكن لم يكن أي منها ينطوي على التخلي عن ثقافتها النابعة من داخلها . فتحدث اليابان خلال فترة ميجي كان راجعاً في الأساس إلى أنه نابع من داخلها . وبالمثل فإن التحديث الاقتصادي لن ينجح في اليابان اليوم إلا بقدر ما يكون بعيداً عن سياسة للتغريب تفرض عليه من الخارج .

وأى إصلاح للاقتصاد يخاطر بالتضحية بالترابط الاجتماعي لن يكون مقبولاً لدى الناخبين اليابانيين باعتباره إصلاحاً مشروعاً ، فهل يمكن جعل سوق الأيدي العاملة في اليابان أكثر مرونة دون إحداث زيادة كبيرة في انعدام أمن الوظائف ؟ هل ينبغي لليابان أن تسعى إلى محاكاة المجتمعات الصناعية المتقدمة الأخرى في العمل على بدء النمو الاقتصادي من جديد ؟ أم أنه ينبغي أن يعاد تعريف النمو الاقتصادي ليصبح معناه النمو في نوعية السلع والخدمات وطريقة الحياة ؟ هذه بعض الأسئلة التي ستثار ويجب عنها في اليابان على امتداد السنوات القادمة ، ولكنها لا تحوى حلولاً للأزمة الراهنة .

ولم يعد بعيداً ، أو افتراضاً نظرياً ، احتمال أن يؤدي تعمق الانكماش في اليابان إلى

إشعال فتيل ركود على نطاق العالم . فهذا الركود خطر حقيقي وقريب ، ويمكن الخطر في الوضع الراهن أن الحكومات الغربية تحت اليابان على اتباع سياسات لن تنقذها من الانكماش ، بل ستؤدي إلى تمزيق العقد الاجتماعي الذي حافظ على التماسك الاجتماعي والاستقرار السياسي منذ الحرب العالمية الثانية .

إن الضغط الغربي على اليابان لتحرير أسواقها من الضوابط لم يترك أمام حكومتها سوى خيارات قليلة ، ليس بينها خيار يخلو من مخاطر جسيمة على الاقتصاد العالمي .

هل ثمة مستقبل لاقتصادات السوق الاجتماعية الأوروبية ؟

كاد حدوث أزمة منتظمة في المؤسسات المالية العالمية أن يحول دون بدء العمل بعملة «اليورو» . ولكن إذا ماتم اجتياز تلك الأزمة ، فإن العملة الموحدة ستعطي الاتحاد الأوروبي حضوراً في الأسواق العالمية لم يتح له قط من قبل . وقد كانت المناقشات تدور حتى الآن حول العقبات الداخلية التي تحول دون نجاحها ، وليس حول تأثيرها على الاقتصاد العالمي .^(٦) ومع ذلك فإن هذا التأثير من المحتمل أن يكون عميقاً .

ولكن العملة الموحدة لا تجعل في استطاعة الاتحاد الأوروبي أن يعزل نفسه عن الأسواق العالمية ، ولكنها تخلق قوة اقتصادية قادرة على التفاوض على قدم المساواة مع الولايات المتحدة . وإذا انضم إلى منطقة «اليورو» كل الأعضاء الحاليين في الاتحاد الأوروبي ، فستصبح هذه المنطقة أكبر اقتصاد في العالم ، وسيشكل «اليورو» تحدياً للدولار الأمريكي بوصفه العملة المسيطرة في العالم . وإذا استقر «اليورو» كعملة لها مصداقية ، فإن انهيار الدولار يصبح أكثر احتمالاً . وإذا مضى «اليورو» في طريقه ، فإن ذلك يعجل بالوقت الذي لاتعود فيه الولايات المتحدة قادرة على الازدهار باعتبارها أكبر مدين في العالم . وبمرور الوقت ، وربما يكون ذلك قريباً جداً ، سيحدث دون هوادة تحول في توازن القوة الاقتصادية في العالم .

والحقيقة أنه لم تتوافر حتى الآن الشروط الداخلية لنجاح العملة الجديدة . ففي ظل نظام موحد لسعر الفائدة ستضعف بعض البلدان والمناطق ، وتزدهر أخرى . والشروط اللازمة لذلك غير موجودة في الاتحاد الأوروبي ، وهي الشروط التي مكنت الولايات

(٦) من أجل الاطلاع على مناقشة توضيحية ، انظر ، س . فريدبرجست ، **Weak Dollar, Strong**

Euro? The International Impact of EMU ، مركز الإصلاح الأوروبي ، لندن ، ١٩٩٨ .

المتحدة من التكيف مع هذه الفروق . فأوروبا تفتقر في الوقت الحالى إلى إمكانية تنقل الأيدي العاملة على نطاق القارة . كما أنه ليست لديها آليات مالية تحول دون نفثى مجموعات كبيرة من العاطلين في المناطق المحرومة في أوروبا .

وبمجرد أن يبدأ العمل «بال يورو» ستكون المؤسسات الأوروبية مرغمة على تصحيح هذه العيوب ، كما ستكون مضطرة إلى وضع سياسات تسمح للاقتصاد بالاستجابة بمرونة أكثر لضرورات وقيود نظام نقدى موحد . ولكن سيكون عليها أن تدرك أن أوروبا ليست الولايات المتحدة ، ولن تكون كذلك فى أي وقت . وإمكانية تنقل الأيدي العاملة الأمريكية مستحيلة ، ويمكن القول أيضا إنه أمر غير مرغوب فيه ، فى قارة استقرت أوضاعها منذ وقت طويل ، ومؤلفة من مجتمعات تاريخية متنوعة . بل إنى لا أجازف بالقول إنه لن تقوم دولة أوروبية لها السلطات نفسها التى تتمتع الحكومة بها الفيدرالية فى الولايات المتحدة . وسوف تستمر المؤسسات الأوروبية فى التطور ، ولكنها ستظل مؤسسات هجين . وستظل أوروبا محكومة بتوازن قوة متغير يتأرجح بين الحكومات الوطنية والمنظمات غير الوطنية .

وستظل الرأسماليات الأوروبية مختلفة اختلافاً عميقاً عن الأسواق الحرة الأمريكية . وليس هناك بلد أوروبى - حتى ولا المملكة المتحدة - على استعداد لتحمل مستويات التسيب الاجتماعى الذى تفرزه السوق الحرة فى الولايات المتحدة . ومثلما كانت الحال فى الماضى فإنه سيظل ممكنا التسلل عبر الحدود بين الدولة والمجتمع المدنى والانتقال من أحد الجانبين إلى الآخر . ذلك أن الذكريات والارتباطات التاريخية بالأماكن ستسد الطريق أمام الحراك الواسع النطاق وفق النموذج الأمريكى . ولهذا الأسباب جميعاً لن تحل السوق الحرة محل الأسواق الاجتماعية فى بلدان أوروبا القارية .

ومع ذلك فإن الأسواق الاجتماعية لا يمكن أن تظل قائمة فى أشكالها الحالية . فبداية تزيد البطالة بمعدلات لا يمكن أن تستمر بلا نهاية (تتجاوز البطالة ١١ فى المائة فى الاتحاد الأوروبى ككل) . ونظراً لأن السكان فى مجموعهم يتقدمون فى العمر^(*) ، فإن الآثار المالية لبطالة على هذا النطاق تفوق كل احتمال . غير أن المشاكل المالية لبطالة واسعة النطاق ليست أسوأ مالها من مخاطر .

(*) Ageing or Aging : عندما تزيد نسبة الكهول فى المجتمع ، فإن ذلك يشير إلى أن مجموع السكان يسير نحو التعمير (أو التهريم) أو التقدم فى العمر - المترجم .

وقد أدت البطالة الواسعة النطاق إلى تفاقم الاستبعاد الاجتماعي والشعور بالغربة السياسية على نطاق أوروبا . وتضم غالبية بلدان أوروبا القارية أحزابا لليمين المتطرف قوية النفوذ . ففي فرنسا والنمسا تملئ أحزاب اليمين المتطرف قواعد الممارسة السياسية على الأحزاب المعتدلة ، وذلك جزئياً على أساس التأييد الذي تلقاه من الفئات المستبعدة اجتماعياً . وفي السنوات المبكرة للعملة الموحدة سيكون الخطر الذي يواجه المؤسسات الأوروبية هو أنها سترتبط في أذهان المواطنين بالبطالة الواسعة النطاق . فالناخبون الذين ينظرون إلى المؤسسات الأوروبية بهذه الطريقة يسهل على الأحزاب اليمينية استغلالهم . وليس من المتوقع ، في غضون بضع السنوات القادمة ، أن يدخل اليمين المتطرف في الحكومات الوطنية في أي بلد من بلدان الاتحاد الأوروبي ، ولكنه يستطيع أن يؤثر بعمق في البيئة التي تضطلع فيها الإدارات المتتمة للوسط بتشكيل السياسات .

وفي أوروبا الأوسع ، التي يشكل الاتحاد الأوروبي جزءاً منها ، تستطيع أحزاب اليمين المتطرف أن تمارس قدراً أكبر من القوة . وحشما تكون الدول ضعيفة ، فعندئذ يكون من السهل بلقنتها . والدول التي تضم أقليات لها وزنها يمكن أن تكون ضحايا للمشاعر القومية العرقية . وتعتبر الأحداث التي وقعت في أجزاء من أوروبا ما بعد الشيوعية تذكراً قوياً بأن أوروبا مازالت عرضة للقلقة والاضطراب .^(٧)

وفي السوق الحرة العالمية فإن الفئات الاجتماعية التي استبعدت من المشاركة الاقتصادية تعود لتخيم على الحياة السياسية باعتبارها مؤيدة للحركات المتطرفة . وقد قدم زوجمونت بومان وصفاً جيداً لهذا التطور بقوله «إن جزءاً لا يتجزأ من عملية العولمة هو حدوث ظواهر مكانية متزايدة من العزل والفصل والاستبعاد . فالاتجاهات القبلية الجديدة والأصولية ، التي تعكس وتجدد خيرة الأهالي فيما يتعلق بالطرف الذي يستقبل العولمة ، هي نتاج شرعي للعولمة بقدر شرعية عملية «التهجين» التي كثر الحديث عنها في ثقافة القمة - أي ثقافة القمة المعولمة»^(٨) .

ويعتقد الاشتراكيون الديمقراطيون أن الأسواق الاجتماعية في أوروبا يمكن تجديدها

(٧) حول هذا الموضوع ، انظر ، م . هنتسر ، "Nationalism Unleashed : Le Pen Moves East" ،

ترانساكشن ، المجلد الخامس ، العدد ٧ ، يولييه عام ١٩٩٨ ، الصفحات ١٨ إلى ٢٨ .

(٨) زوجمونت بومان ، Globalization : The Human Consequences ، كمبريدج : بوليتي برس ،

١٩٩٨ ، الصفحة ٣ .

فى إطار «دعه يعمل» على النطاق العالمى .^(٩) ولكن إمكانية تنقل رؤوس الأموال على نطاق العالم إنما تقضى على فعالية السياسات الكيترية التى اعتمدت عليها النظم الاشتراكية الديمقراطية فى الماضى لتحقيق العمالة الكاملة .^(١٠) ومن شأن التجارة الحرة العالمية أن تزيد من صعوبة تأييد التكاليف التنظيمية والضريبية الناجمة عن قيام رأسمالية مسؤولة اجتماعيا . ومادامت هذه الأحوال سائدة ، فإن الأسواق الاجتماعية فى أوروبا ستظل واقعة تحت ضغط متواصل من جانب قوى السوق العالمية ، وسيكون الاستبعاد الاجتماعى والشعور بالغرابة السياسية خطرين دائمين .

وذلك لايغنى القول أن نموذج «الراين» للرأسمالية مصيره إلى الاختفاء . على النقيض من ذلك فإن الرأسمالية الألمانية خرجت من أهوال توحيد شطريها باعتبارها القوة الاقتصادية السائدة فى أوروبا . والسؤال بالنسبة لنموذج الراين هو ما إذا كان قادرا على الاستمرار فى إخضاع مصالح حملة الأسهم (أصحاب المصالح المالية) لمصالح أصحاب المصالح غير المالية . ومادامت قواعد «دعه يعمل» على النطاق العالمى سارية دون اعتراض ، فإن الإجابة لا بد أن تكون أنها لا تستطيع .

وستمارس الأسواق العالمية ضغطاً نزولياً متصلباً على أسعار أسهم الشركات التى تحاول أن تفعل ذلك . وحتى فى أوروبا التى توحيدها عملة موحدة ، فإن السوق الاجتماعية الألمانية لا تستطيع أن تظل على ماهى عليه اليوم . ولن يحدث فى ألمانيا ، ولا فى أى بلد من بلدان أوروبا القارية ، تقارب بين الأسواق الاجتماعية والأسواق الحرة الأجلوسكسونية . ومع ذلك فبعد جيل واحد من الآن من الأرجح أن تصبح الأسواق الاجتماعية الأوروبية مختلفة عما هى الآن بحيث يتعذر التعرف عليها .

وليس باستطاعة العملة الموحدة أن تعزل أوروبا عن الضغوط التنافسية المتزايدة الحدة ، الناشئة عن عمليات العملة السارية منذ مئات السنين . فبعد مرور وقت طويل منذ

(٩) من أجل الإلمام ببيان جيد لهذا الرأى الاشتراكى الديمقراطى ، انظر ، فرانك فاند بروه ، **Globaliza-**

tion, Inequality and Social Democracy ، لندن : معهد بحوث السياسات العامة ، ١٩٩٨ .

(١٠) من أجل اهتمام أكثر توسعا بالاشتراكية الديمقراطية ، انظر ، البحث الذى أعدته تحت عنوان **After**

Social Democracy ، لندن : ديموس ، ١٩٩٦ ؛ والذى أعيد نشره كفصل فى كتاب **Endgames**

questions in late modern political thought ، كمبريدج : بوليتى برس ، ١٩٩٧ ، الفصل

الثانى .

أصبح مبدأ «دعه يعمل» على النطاق العالمى من أمور الماضى ، ستظل أوروبا بحاجة إلى أن تجد مكانها فى عالم غير التصنيع تغييراً لارجعة فيه .

كذلك ليس باستطاعة العملة الموحدة أن تحمى أوروبا من الغبار المتساقط من الانهيار الاقتصادى فى البلدان المجاورة . وإذا سقطت روسيا فى براثن الفوضى بعد انهيار الروبل ، فقد لا يكون الأثر الاقتصادى المباشر لهذا الانهيار على الاتحاد الأوروبى مما يتعذر معالجته . أما الأثر الاجتماعى والسياسى فقد يكون كبيراً . فكيف ستتمكن بلدان مثل بولندا من التغلب على مخاطر التحركات السكانية الكبيرة عبر حدودها الشرقية ؟ وماذا سيكون تأثير مثل هذا التدفق السكاني الكبير على إستراتيجية الاتحاد الأوروبى للتوسع فى اتجاه الشرق ؟

إن العملة الموحدة لن تكون ذات عون كبير لأوروبا فى معالجة مشكلات من هذا القبيل ؛ ولكنها تعطى الاتحاد الأوروبى ميزة قوية فى الاستجابة للأزمة الأكبر ، أزمة «دعه يعمل» على النطاق العالمى . فإذا ما بدأت السوق العالمية فى الضحك تحت الضغوط التى لم يعد فى وسعها أن تحتويها ، فستكون أوروبا أكبر كتلة اقتصادية . وسيتمكن حجمها وثروتها من أن تصف من أجل إجراء إصلاحات تحد من إمكانية تنقل رؤوس الأموال . وإذا نجحت فى تخطى اضطرابات السنوات المقبلة ، فإن الوضع المحورى «الليبرو» سيعزز صوت أوروبا فى الحث على تنظيم تجارة المضاربة فى العملات . وحتى فى حالة حدوث ركود عالمى شبيه بالركود الذى حدث فى الثلاثينات ، فإن تأثر أوروبا به سيكون أقل من تأثير الولايات المتحدة أو بلدان آسيا .

ولم يحدث من قبل أن كان للسوق الحرة فى أوروبا الوضع المهيمن الذى كان لها فى بعض الأحيان فى البلدان المتحدثة بالإنجليزية . وليس من غير المتصور أن يكون باستطاعة الاتحاد الأوروبى الاضطلاع بالدور القيادى فى بناء إطار جديد للاقتصاد الأوروبى فى أعقاب انهيار مبدأ «دعه يعمل» على النطاق العالمى .

هل هناك ما يمكن عمله ؟

ومع ذلك لا يوجد حتى الآن توافق فى رأى على أن الاقتصاد العالمى يمر بأزمة . فالمنظمات عبر الوطنية وأحزاب التيارات السياسية الرئيسية ترى أن الركود الآسيوى يمكن احتواؤه . كذلك لم يكن هناك فهم لضرورة إحداث إصلاح جذرى للاقتصاد العالمى . وهذا الإخفاق المتواصل فى الفهم هو مدعاة تشاؤم بشأن المستقبل .

وكان مرجع عدم فهم الأزمة الآسيوية أنه وفقاً لوجهة النظر السائدة في العالم ما كان لهذه الأزمة أن تحدث . فمن وجهة النظر العالمية هذه ، تعتبر التدفقات الحرة لرؤوس الأموال حافزاً على الوصول إلى الحد الأقصى للكفاءة الاقتصادية . وهي تفعل ذلك ، حتى وإن أدى - كما حدث في إندونيسيا - إلى تدمير اقتصاد بكامله . ففي إطار الرأي السائد عن العالم في الوقت الراهن أصبحت الكفاءة الاقتصادية منبثقة الصلة برفاهة البشر .

ويطلب الأمر تحولاً جذرياً في الفلسفة الاقتصادية . ذلك أن حرية الأسواق ليست غاية في ذاتها ، وإنما هي وسائل ، أدوات استتبها البشر من أجل مقاصد إنسانية .^(١١) إن الأسواق تصنع لخدمة الإنسان ، والإنسان لم يوجد لخدمة السوق . وفي السوق العالمية الحرة تم تحرير أدوات الحياة الاقتصادية بصورة خطيرة من الضوابط الاجتماعية والسيطرة السياسية .

وثمة علامات على أنه في داخل المنظمات عبر الوطنية ، أصبحت أصولية السوق الحرة موضع شك وتساؤل . وتعرض للانتقاد في بعض الأحيان العقيدة الجامدة القائلة بأنه يجب أن يكون باستطاعة رؤوس الأموال التنقل بلا قيود ، والتمتع بالوصايا الأخرى المسائلة الواردة في «توافق واشنطن» . ومع ذلك فإن السوق الحرة التي تجلو سكونية مازالت هي النموذج للإصلاح الاقتصادي في كل مكان . ولم يوجد حتى الآن اعتراض جدي على الفكرة القائلة بأن الاقتصاد العالمي يجب تنظيمه كسوق عالمية واحدة .

ولا يمكن العثور في أي نظرية اقتصادية على التفسير النهائي لقوة السوق الحرة . وهي تكمن في النزعة اليوتورية التي لا تفتأ تتردد في الحضارة الغربية . فقيام سوق حرة على نطاق العالم إنما يجسد المثل الأعلى «للتنوير» الغربي بشأن وجود حضارة عالمية . وهذا يفسر ما تلقاه من قبول لاسيما في الولايات المتحدة ، كما يجعلها شديدة الخطر في الوقت الحالي .

إن العولمة - أي انتشار التكنولوجيات الجديدة التي تغلغ المسافات على نطاق العالم - لا تجعل من القيم الغربية فيما عدا عالية ، وإنما هي تصنع عالماً تعددياً لارجعة فيه . كما أن الترابط المتزايد بين اقتصادات العالم لا يعني نمو حضارة اقتصادية موحدة ، ولكنه يعني ضرورة إيجاد وسيلة للتعايش بين ثقافات اقتصادية ستظل دائماً مختلفة .

(١١) من أجل الاضطلاع على بحث للسوق الحرة ذي طابع فلسفي مفيد ، انظر ، جون أونيل ، "The Market : Ethics, Knowledge and Politics" ، لندن ونيويورك : روتلج ، ١٩٩٨ .

وينبغي أن تكون مهمة المنظمات عبر الوطنية هي وضع إطار لنظام تستطيع في داخله أن تزدهر شتى اقتصادات السوق . أما في الوقت الحالى فإنها تفعل نقيض ذلك . فهي تسعى إلى أن تفرض إعادة تشكيل ثورية على الثقافات الاقتصادية المختلفة فى العالم .

والتاريخ لا يحمل الأمل فى أن مبدأ «دعه يعمل» على نطاق العالم يمكن إصلاحه بسهولة . وقد تطلب الأمر وقوع كارثة «الكساد الكبير» وخبرة الحرب العالمية الثانية لزعزعة قبضة نسخة سابقة من معتقدات السوق الحرة على الحكومات الغربية . وليس بوسعنا أن نتوقع وجود بدائل عملية لمبدأ «دعه يعمل» على النطاق العالمى حتى تحدث أزمة اقتصادية أعمق تأثيراً مما مررنا به حتى الآن . والأرجح أن الركود الآسيوى سيشتت إلى أجزاء كثيرة قبل أن يتم التخلي فى النهاية عن الفلسفة الاقتصادية التى تدعم السوق الحرة العالمية. (١٢)

وما لم يحدث تحول أساسى فى سياسات الولايات المتحدة ، فإن كل الاقتراحات بشأن إصلاح الأسواق العالمية ستولد ميتة . فالولايات المتحدة تجمع فى الوقت الحالى بين إصرار مطلق على سيادتها الوطنية الخاصة ، على إدعاء عالمى بولاية على نطاق العالم . ونهج من هذا القبيل لا يتناسب فى شىء مع العالم التعددى الذى خلقته العولمة .

والنتيجة العلمية للسياسة الأمريكية لا يمكن أن تكون شيئاً غير أن تنصرف الدول الأخرى منفردة إذا ما بات من الصعب تحمل عدم استقرار الأسواق العالمية . وعند تلك النقطة فإن الصرح الهش لمبدأ «دعه يعمل» على النطاق العالمى سيدأ فى التفتت .

إن السوق الحرة العالمية هي مشروع كان مكتوباً عليه القشل ؛ وهى فى هذا ، مثلما هي فى أمور أخرى كثيرة ، شبيهة بتجربة القرن العشرين الأخرى فى الهندسة الاجتماعية البيوتوية ، أى الاشتراكية الماركسية . فقد كانت كلتاها مقتنعة بأن التقدم البشرى يجب أن يكون هدفه إقامة حضارة موحدة ، كما كانت كلتاها تنكر أن الاقتصاد الحديث يمكن أن يأتى فى أشكال متعددة . وكانت كلتاها على استعداد لأن تقتضى من البشرية ثمناً غالياً من المعاناة من أجل فرض رؤيتها المنفردة على العالم . وقد ارتطمت كلتاها بالاحتياجات البشرية الحيوية .

ونحن إذا اتخلنا من التاريخ هادياً لنا ، فلا بد أن نتوقع أن تصبح السوق الحرة العالمية عما قريب متمية إلى ماضٍ لاعودة له . أما مبدأ «دعه يعمل» على النطاق العالمى فسيُتلع فى عمق ذاكرة التاريخ شأن غيره من يوتوبيات القرن العشرين .

(١٢) من أجل الاطلاع على نقد حاد لفلسفات التقدم الاقتصادى فيما يتعلق بالسوق الحرة ، انظر ، ريتشارد برونك ، *Progress and the Invisibile Hand* ، لندن : ليتل براون وشركاها ، ١٩٩٨ .

الفهرس

مقدمة:

- الفصل الأول: من التحول الكبير إلى السوق الحرة العالمية ٧
- الفصل الثاني: هدمة الأسواق الحرة ٣٥
- الفصل الثالث: ما لا تعنيه العولة ٨١
- الفصل الرابع: كيف توازر الأسواق الحرة العالمية أسوأ أنواع الرأسمالية: أ قانون جريشام جديد؟ ١٠٩
- الفصل الخامس: الولايات المتحدة ويوتوبيا الرأسمالية العالمية ١٣٩
- الفصل السادس: الرأسمالية الفوضوية فى روسيا ما بعد الشيوعية ١٨٥
- الفصل السابع: أفول الغرب ونهوض الرأسماليات الآسيوية ٢٣٣
- الفصل الثامن: نهاية شعارات «دعه يعمل» ٢٧٣
- ملحق: ٢٩١

الفجر الكاذب أوهام الرأسمالية العالمية

رقم الإيداع ٩٩/١٥٨٧٢

الترقيم الدولي 9 - 0590 - 09 - 977

منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com



FALSE DAWN

The Delusions of Global Capitalism

John Gray

مكتبة
الشروق

لا يُفصّل «الضجر الكاذب» أملاً ولا يقترح إصلاحاً
فورياً ، ولكنه يتوقع مستقبلاً حالك الظلام !
إنه كتاب واقعي يقرأ الحقائق بصدق ، يوقظ العقول
والضمائر.

السوق الحرة على النمط الأنجلو أمريكي . والتي
يؤيدها أكثر قادة الغرب ، ويروج لها الإعلام الأمريكي .
تحكم حياتنا اليومية ، ويجادل أستاذ العلوم السياسية
في جامعة أكسفورد البروفيسور جراي أن محاولة فرض
تلك السوق الحرة على العالم ، سيخلق كارثة إنسانية
مشيئة لتلك التي خلقها النظام الشيوعي .